أحمد عبدالمجيد الغزالى

(الأعمـال الكاملـة)

الجـزء الثانى: النثر

جمع وتحقيق ودراسة

د. السيد محمد الديب

الطبعة الأولى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٤

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : أحمد عبدالمجيد الغزالى
(الأعمال الكاملة)
الجزء الثانى: النثر
جمع وتحقيق ودراسة : د. السيد محمد الديب

الإخراج الفنى : عمر حماد
تصميم الغلاف : مى مجدى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
email:info@gebo.gov.eg

الغزالى، أحمد عبد المجيد.
أحمد عبد المجيد الغزالى: (الأعمال الكاملة)/
جمع وتحقيق ودراسة: السيد محمد الديب. -
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.
مج ٢؛ ٢٤ سم.
المحتويات: النثر
تدمك ٧ ٧٨٩ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الأدب العرب - مجموعات.
٢ - النثر العربى.
٣ - الغزالى، أحمد عبد المجيد - المؤلفات الكاملة.
أ - الديب، السيد محمد (جامع ومحقق ودارس)
ب - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٤٤١٦/ ٢٠١٤
I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 789 - 7
ديوى ٨١٠,٨

الإهـــداء

إلى روح عمى/ على أحمد الديب (١٩٠٠م - ١٩٧٢م) رحمـه الله.

ذلك الناظر القدير للمدرسة الابتدائية في غزالة، الذي أحبني بمساواة أبنائه، وأخذ بيدي إلى أول الطريق في مسيرة العلم والحياة.

د. السيد محمد الديب

المقدمة

كم هي عزيزةٌ عليّ هذه الأوراق، التي يلتئم منها القسم النثري من إبداع الشاعر والكاتب «أحمد عبدالمجيد الغزالي» - رحمه الله - تلك التي بقيت معي أكثر من ثلاثين عامًا، حيث كنت أضيف إليها ما يصل إلى يدي بعد البحث والتحري في الصحف والمجلات، أثناء المدة الزمنية التي توهج فيها إبداع الغزالي شعرًا ونثرًا.

ولم أكن آمن عليها وهي في بيتي، أو عند مَنْ تولى كِتابَتها، خشية أن يضيع شيء منها، من يوم أن تسلمتها من زوجته وشقيقها[1]، إلى أن شرعتُ في جمع شملها، وإتمام إعدادها للطباعة والنشر.

وأشدُ ما كنت أخشاه أن تنتهي حياتي دون استكمال الجمع والإعداد والطبع لهذا الإبداع المتميز في كتاب أو أكثر، خاصة في السنوات الأخيرة، التي أُصِبت فيها بمرض عضال زادت وطأته عليّ، وأحسست بأني قريب جدًا من الرحيل إلى الآخرة، ولذلك احتسبت عملي هذا قربانًا إلى الله سبحانه وتعالى، وأمانة يجب الوفاء بها، وشهادة أُقدِّمها لرواد الأدب الحديث وعشاقه، الذين لا يرضيهم أبدًا أن يختفي تراث أديب في حجم «الغزالي» ملأ الساحة العربية بسائر الفنون الأدبية والنقدية والثقافية، المطبوعة والمسموعة، خلال مرحلة التنقلات الكبيرة في حياة مصرنا الحبيبة.

---

(١) هو الدكتور / محمد عبدالحميد عطية، وذلك في عام ١٩٧٦م.

ولقد وَصَلَتْ إليّ أوراق هذا الجزء إما مكتوبة بخط اليد، أو بالآلة الكاتبة، أو منشورة في الصحف والمجلات، وبعدما قمنا بتجميع ما توفر لديّ ثُمَّ شرعتُ في استنهاض الهمم، وطلب المعونة من الآخرين، للإحساس باحتمال غياب بعض هذا النتاج عني، فقد كانت أسرته في البداية على غير دراية بما يتخذ بشأن هذا الإبداع – أدبًا ونقدًا، وطالت مدة المخاضات، التي تسبق الولادة لمطبوع كبير يشمل تحقيق نتاج هذا الرجل، ولكن فجر ذلك اليوم لم يعلن عن وصوله بأية طريقة من الطرق، فعندما مات كان الأبناءُ صغارًا، والزوجةُ مهمومةً بتربيتهم وتعليمهم قبل أي شيء آخر.

ولقد شُغلتُ كثيرًا بما يمكن أن يكون قد ضاع، أو فُقد من كتابات هذا الأديب الكبير – إبداعًا ودراسة ونقدًا، فكتبتُ كلمة في مجلة «اتحاد الكُتَّاب»[1] بخصوص عزمي على الجمع والدراسة والنقد لإبداع الغزالي وطبعه، راغبًا في أن يصلَ إليّ بعضُ ما يمكن أن يكون قد غاب عني بسبب طول العهد بهذا الأديب المتوثب الناهض، الذي وَدَّع حياته في زمن شبابه، وتوهّجت معارفُه وفنونه الأدبية والإعلامية، ولكن توقعي لم يكن في موضعه، فمرت شهور، ولم يخاطبني أحد في هذا الأمر، مما يؤكد عدة أمور ليست مريحة على أية حال... وأخشى أن أفاجأ بعد نشر هذا الكتاب بنقد من هنا أو هناك، يعلن عن خلو هذا الكتاب أو السابق له من قصيدة أو مقالة منشورة في صحيفة أو مجلة، وهذا ما يمكن أن يَحْدُث، ولن أندم كثيرًا لذلك مادمت قد بذلت أقصي جهد في هذا الموضوع، وإذا ما وصلت إلى شيء يمكن أن يُشكّل أهمية في استكمال النتاج الأدبي، فسوف أضمُّه إلى طبعات جديدة لهذا الكتاب أو ذاك، أو ينهض به مَنْ يأتي بعدي؛ مكملًا ما نقص لديّ، وغاب عنى من الكتابات الأدبية – إبداعًا ونقدًا ؛ لقناعتي أن اللاحق يتمم السابق، وتتواصل المعارف والاستدراكات بين الباحثين عن الحقائق.

وأذكر في هذا الصدد أن أحمد بن خِلّكان، قد وضع كتابًا أسماه «وَفَيَات الأعْيان»، ثم جاء بعده ابن شاكر الكُتُبِي، فقدم للأدب والنقد والتاريخ

---

(١) العدد ١١٤ في فبراير ٢٠٠٨م، ص ١٤.

كتابًا يستدرك به ما غاب عن ابن خلكان، وجعله بعنوان « فَوات الوَفَيات»، ووضع الصَّفَدى كتابًا شاملًا لهؤلاء الأعلام وغيرهم بعنوان « الوافي بالوفَيات"[1].

ولقد وجدت قبل الشروع في إخراج هذا الكتاب مقالات مكتوبة بالآلة الكاتبة طُمست فيها الحروف، وصارت قراءة المكتوب أو المخطوط للرغبة في الوصول إلى الهدف المنشود أمرًا صعبًا، وتغيرت ألوان الأوراق والأحبار مع الزمن الطويل، الفاصل بين وقت التأليف وزمن الإعداد للطبع، لكنني لم أتخلَّ عن الصبر والتأني، حتى وصلتُ بالأوراق إلى الصورة التي يستقيم معها المعنى.

لقد بدأ صاحبنا شاعرًا رومانسيًا يعشق الطبيعة، ويَهيم في حب الوطن، ويُغني للحياة، وينتقل من القرية إلى المدينة، ومن القاهرة إلى بعض البلدان العربية، ثم كان الاتجاه إلى الواقعية، واستجابته لنداء الثورة المصرية عام ١٩٥٢م، وشرع في التعبير عن الآلام والآمال بالمقالة الصحفية التي عالج من خلالها هموم البيئة العربية.

ويبدو أن الحياة الجديدة التي فرضتها المستجدات والتحولات في المعارف والنظريات، قد أبعدته عن بداياته الرومانسية، وأشغلته بالقضايا العامة في الثقافة والتربية والقومية العربية، وسائر الهموم الاجتماعية للإنسان في البيئة المصرية بخاصة.

وعندما تأكدت أن ما بين يديّ مِن كتابات نثرية يمثل نتاج الغزالي تمثيلًا كاملًا وتامًا لهذه الألوان من الكتابة، شرعت في تقسيمه وتصنيفه، ولم يكن ذلك سهلًا، إذ أن بعض الموضوعات مُسْتلٌ من الآخر بذات العنوان، أو تَمَّ التوسع في الموضوع الواحد، بعد أن تم إعداده موجزًا، واستقر الأمر على أن يكون التصنيف والتنسيق خاضعًا للشكل والمضمون معًا، أما الإضافات التوضيحية من حيث رءوس الموضوعات، وتقديم عنوان على آخر، أو سحب جزء من دراسة موضوع، ونقلها إلى آخر، فكان ذلك محيّرًا ومقلقًا، واستقرت قناعتي بأن كلَّ هذا لابد أن يكون تاليًا لقراءة الموضوع، وتحديد هويته، ثم أطَلْنا الوقوف عند بعض الموضوعات، التي

(١) توفي أحمد بن خلكان في السادس من رجب سنة ٦٨١هـ، وتوفي محمد بن شاكر الكُتُبِي في سنة ٧٦٤هـ، والصفدي هو خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي، الذي توفي عام ٧٦٤هـ.

كتبها في حالة، ربما لم تكن طبيعيةً من حيث عمله وأسرته وصحته، وسائر أحواله، وظهرت بعض الدراسات التي أعدَّها للإذاعة مثلًا، وقد أصْبحَتْ في حاجة ملحة إلى تحديد المعاني الوافية لكثير من الأعلام والبلدان، والاصطلاحات، والقضايا التي تحتاج إلى مزيد من البيان والتفسير.

لقد بدأ الغزالي مع الشعر، الذي أجاد فيه، والتزم بقواعده الثابتة، أو المتجددة، وانتقل من طالب ينشد القريض في المعهد الديني بالزقازيق، وفي دار العلوم بالقاهرة إلى متوثِّب ومنطلقٍ إلى الإمام بقوة العاطفة، وعمق الحياة، وصدق التجربة - شعرًا ونثرًا - لسائر الأوساط الأدبية في عصره، وكانت حياتُه مليئةً بالتحولات، خاصة في النثر، وذلك راجع فيما نعتقد إلى إيمانه بالثورة، وحتمية التعريف بها، والدعوة إلى نشر مبادئها، فاتجه إلى الصحافة والإذاعة، وهما الوسيلتان الإعلاميتان اللتان يستطيع بهما أن يصل إلى عدد أكبر من أبناء الوطن، وانتشرت أعماله الإبداعية في بعض البلدان العربية، وبخاصة المملكة العربية السعودية، والكويت، والعراق، وسورية، وليبيا.

لقد كان الغزالي صاحبَ مواقف واتجاهات، وآمال وطموحات، واتسعت نشاطاته، وتنوعت قدراته، وصارت الحياة أمامه رحبة فسيحة لا حدود لها، حيث تجلى فيها إبداعه الفنّي، وغمس ريشته في حب دينه ووطنه، وَعبَّر عن ماضي أمته وحاضرها بإيمان وصدق وإخلاص.

ورأينا أن يكون المسرح النثري بداية لهذا الجزء؛ ليتواصل الإبداع شعرًا ونثرًا، من خلال صوغ الحكايات الكثيرة، والقصص الأدبية والتاريخية من القديم والحديث على السواء.

ولا نعتقد أن هذه التمثيليات قد قُدّمت على مسرح، وإنما أعدت للتمثيل بالإذاعة، متخذةً من البطولات العربية إطارًا عامًا لهذه الحلقات الدرامية، التي جاءت متتالية؛ اعتمادًا على المنهج التاريخي في وقائع هذه البطولات[1]، إذ لم يكن لديّ تواريخ مثبتة لكتابة هذا اللون من الإبداع.

---

(١) باستثناء التمثيلية الأخيرة، فقد جعلتها العاشرة في الترتيب ؛ لأن العنوان المتخذ لها كان من اختياري، إذ أن بداية النص لم تكن واضحة، وسوف أذكر بيان ذلك في موضعه بهذا الكتاب.

وكان أولها عن المثني بن حارثة، وثانيها عن عبدالملك بن مروان إلى تمام العشرة، كما هو مثبت في بداية هذا القسم من الكتابات.

وقد رأيت أن تكون بداية الدراسات الأدبية والنقدية للغزالي تالية للإبداع النثري، فهي تعبرُ عن بعض الجوانب من صميم النقد المنهجي، الذي يعرض لقديم الشعر وحديثه، وتجسد ذلك في الأحاديث الستة عشر، التي اتخذ الغزالي عنوانًا إذاعيًا لها هو «صلة الشعر بالحياة»، فضاعَفْتُ جهدي في توجيه هذا النتاج، الذي تحولت أوراقه من البياض إلى الاصفرار بتأثير الزمان والمكان، وحرصت على التحري والتوثيق، والخوف من الأخطاء، التي ربما يكون الكاتب الأول لهذه الدراسات على الآلة الكاتبة قد وقع فيها دون علم الغزالي بها، وليس بقاؤها من غير تصحيح يجعلنا نستسلم لكل نص بلا تحقيق وتدقيق ومراجعة، حتى لو قرئت في الإذاعة، ومرت على المستمع، الذي ربما يكون على غير دراية تامة بتفصيلاتها، أو ليس لديه من الوسيلة ما يتخذها سبيلًا إلى التصويب، لكنها لا تَفُوتُ على القارئ الذي يتيسر له من الوقت ما يستطيع معه، أن يراجع النص أكثر من مرة لهذه الحلقات التي كتبها الغزالي بدون هوامش، يشرح فيها كلمة غامضة، أو مناسبة معينة، أو مصدرًا، أو مرجعًا يستعين به القارئ بعد تحويل النص من الحديث الإذاعي إلى التأليف المدون في جريدة أو مجلة أو كتاب، وكانت بعض هذه الدراسات مستهدفة في توجيهها إلى أكثر من جهة إعلامية، لذا كان لابد من التدخل بالفصل والتوجيه لأفكار الموضوع وجزئياته.

وقد أعدَّ صاحبنا هذه الأحاديث إلى المستمعين بلا عنوان، متخذًا من الترقيم سبيلًا للحصر والبيان، فأورد الكثير من الأشعار للعديد من الشعراء بلا تقيّدٍ بالموضوع، ويبدو أن هذا التوجه كان منهاجًا له من خلال أحاديثه الإذاعية التي يبدؤها بقوله «أيها السادة»، ويكرر ذلك بين بعض الفقرات، ثم ينهي الحديث بالسلام على المستمعين، والوعد على اللقاء بحديث آخر، ومشيرًا في الوقت نفسه إلى موضوع الحديث التالي؛ ليكون تمهيدًا مناسبًا لمستمعي هذا اللون من الموضوعات النقدية.

وقد أورد في هذا القسم كثيرًا من أشعار الحياة دون أن ينسب بعض الأشعار إلى أصحابها، فتكلَّفْتُ عنتًا ومشقة في إرجاع كل قول إلى صاحبه، ولكن الملاحظة

التي تعجبت لها هي إغفاله الحديث عن البيئة الأندلسية بما فيها من زَخَمٍ أدبي ونقدي متميز، وربما لم يسعفه الوقت للتعبير عن ذلك.

وَبقيتْ حلقة أخيرة غيرُ واضحة الهوية فهي من ناحية الموضوع عن البطولات العربية، وعنوانها « على رُبَى مَيْسَلُون»، ومن ناحية صياغتها فليست إلا حلقة من حلقات الأدب والنقد، وليست عملًا دراميًا للمسرح أو للإذاعة، وفي المحور الثالث مجموعة من الأدباء والنقاد، وهم أحد عشر نجمًا من نجوم الأدب والفن في العصر الحديث، ورأيت أن يكون الدكتور «طه حسين» في البداية، بينما جاء الشاعر «عبدالعزيز السعدني» في نهاية الحديث بهذا القسم من الكتاب، فهو شاعر من الزقازيق وقريب في الزمان والمكان من أديبنا الغزالي، وانتقلتُ إلى الحديث عن الشاعر محمود حسن إسماعيل من دراسة نقدية لديوانه (نار وأصفاد) ثم جاء الحديث عن كتاب (ذكرى دسوقي أباظة) للغزالي، وانتهي المبحث في هذا القسم عن بطل سورية الكبير يوسف العظمة.

وجاء المحور الرابع بعنوان « الندوات في الأدب والنقد »، وهي نموذج إيجابي مفعل لتوجهات الغزالي مع الثورة المصرية إلى القومية العربية، والوطن العربي الكبير، فكانت الندوتان الأولى والثانية من خلال مصر، والثالثة عن أدب المغرب العربي، والرابعة عن الطبيعة والربيع في الشعر السورى، بينما كانت الخامسة مع محمد رضا الشبيبي زعيم المعارضة في العراق.

ونصل إلى المحور الخامس الذي تحولنا معه من خلال الجهد الإعلامي إلى رصد شامل لهذا اللون من النشاط ؛ لأن النتاج في هذا القسم كان عن النثر، الذي غلبت عليه النزعة الإعلامية (الإذاعة والصحافة)؛ ذلك لأن التلفاز المصري لم يبث إرساله إلا في عام ١٩٦٠م، وقد أسهم الغزالى بإبداعه في الإذاعات المصرية والعربية، فهذه الصفة تغلب على نشاطاته في الكتابة سواء أكانت إبداعًا أم دراسة أم نقدًا، تلك الدراسات التي كانت تكتب لِمَنْفَذ أو جهة ثم يُعاد التصرف فيها، وتُوجَّه إلى جهة أخرى زيادة أو نقصًا، وهذا شأنه في عدد من دراساته للإعلام الإذاعي والصحافي، فكان التدخل ضروريًا في بعض الأعمال، حيث كنت أرى فيها كلامًا مكررًا أو محذوفًا من كتابات أخرى، وهنا وجب التصرف في هذه الدراسات مع الحفاظ على الملامح الخاصة بالغزالي من خلال مواصفات كتاباته شكلًا ومضمونًا، وجاء ذلك في بعض دراساته عن الشعر العربي القديم والحديث،

ورأيت ضرورة الاعتماد على الموضوع في وجهه الأكمل والأتم، مستبعدًا المجتزءات سواء أكانت قبلًا أم بعدًا.

وجعلت الحديث عن فن المقال في آخر المباحث بهذا الكتاب، ذلك لأنها موضوعات ذات مواصفات متعددة، وكانت السمة الغالبة عليها أنها أعدت للصحافة، وبخاصة جريدة «المساء» القاهرية، وأنّ الكثير منها من نتاج السنوات الأخيرة في حياة الغزالي باستثناء مقالين نُشرا في بداية حياته الأدبية بمجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات.

وكان فن المقال عنده متحققًا في مجموعة من دراساته عن عباس محمود العقاد، وبعض الأعلام المقربين من هذا العملاق الكبير، أو الذين اتصلوا به وشاركوا في ندواته بمنزله في شارع سليم الأول بالقاهرة، إذ كان اقتناع الغزالي بالعقاد لا حدود له، وعلى عكس ما كان الأمر في العلاقة بالدكتور طه حسين، حيث تجلّت تلك العلاقة في صورة مساجلات بين الاثنين دون أن تنقص مكانة هذا الأديب الكبير عند الغزالي.

والأمر فيما يتصل بالمقال الذي اختتمنا به هذا الجزء من كتابي الغزالي كان متعدد التوجهات، لكننا استطعنا أن نرسو بمقالاته عند ثلاثة شواطئ هى المقال الأدبي، والمقال الاجتماعي، والمقال السياسي، مع أنها كلها ذات صياغة أدبية متقاربة إلا في مقالات بسيطة جاءت صياغتها في مستوى الموضوع، أو قريبة منه على أفضل الاحتمالات.

ولقد كانت مقالات الغزالي ودراساته هي آخر منفذ استطاع أن يُعبِّر به عن حبه لأدبه ومجتمعه، وارتباطه بالسياسة، التي اقترب منها كثيرًا خلال عمله في آخر عمره مديرًا لمكتب نائب رئيس الجمهورية في عامه الأخير قبل الوفاة في يناير ١٩٦٢م، عليه سحائب الرحمة والرضوان بقدر حبه لدينه ووطنه وعروبته.

الدكتور

السيد محمد الديب

السبت ٢٢ من ذى الحجة ١٤٢٩هـ

٢٠ من ديسمبر ٢٠٠٨م

sayed.addeeb@hotmail.com

أولاً : الإبداع النثري

(١) المثني بن حارثة.

(٢) عبدالملك بن مروان.

(٣) بطولة ووفاء.

(٤) الإمام محمد عبده.

(٥) حسن طوبار.

(٦) على عبداللطيف.

(٧) وحدتنا العربية.

(٨) نار الهشيم.

(٩) العودة.

(١٠) في قصر فرعون.

(كتب الغزالي الكلمة التالية في بداية حديثه عن هذه البطولات العربية الخالدة)(١)

أيها الشباب

من الحقائق التاريخية، التي لم يختلف عليها الرأي، أن البطولات الخالدة التي حققتها هذه الأمة العربية، عبر عصورها الزاهية، وأجيالها الصاعدة، كانت من صنع شبابها الأبطال في شتى مجالات الكفاح، والفداء، والاستشهاد، كانوا المشاعل الوضيئة، التي بددت أضواؤها الظلمات الجاثمة فوق الطريق.

وكانوا المعالم البارزة في ميادين الفتح، والبأس، والاستبسال، وكانوا المعاول الكاسرة التي مزّقت أثقل القيود، وحطمت أقسى الأغلال، حتى انطلقت الأمة العربية في طريقها الطويل، تتوثب من نصر إلى نصر، في قوة، ومنعة، وتصميم...

ونحن حين نرفع أبصارنا، ونتطلع إلى تلك القمم الرفيعة، فوق مشارف التاريخ، ونرنو إلى هذه الأقدار العالية، التي كَتَبتْ أول السطور الباقية على الزمن، نجد أنها تبدأ من أروع بداية، وأعظم استهلال، إنها تمتد من القولة الكريمة، للنبي الكريم.. (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه).

ثم تتوالى الأيام، وتتتابع العصور، والتاريخ خلالها يسجل الأمجاد والبطولات،

(١) جاء حديث الغزالي عن البطولات العربية – من خلال ما أثبتناه هنا – متعددًا ومختلفًا بين سائر الموضوعات، فبعضها اندرج تحت العنوان بصورة مباشرة، مثل: المثني بن حارثة، و«بطولة ووفاء» وأخرى بعنوان «بطل من الشعب»، وجاءت حلقة بعنوان شامل هو «في سبيل المجد»، وعنوان فرعي هو « من حقائق التاريخ»، وقدم حلقتين عن (شهرزاد الجديدة)، وجميع الحلقات على اختلاف موضوعاتها تندرج تحت عنوان عام هو « بطولات عربية»، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أم غير مباشرة.

لشباب العروبة والإسلام، الذين كان لهم في رسول الله أسوة حسنة.. وفي طليعتهم حمزة عم النبي ﷺ فتى قريش وفارسها، الذي أبلى أحسن البلاء، في غزوة بدر، ثم استُشهد في غزوة أحد، وقد وقف الرسول، وحمزة مُضرَّج بدمائه يخاطبه ويقول «لن أصاب بمثلك أبدًا، ما وقفتُ موقفًا قط أغيظ إلىّ من هذا»...

ومن شباب الطليعة العربية أيضًا، علىٌّ بن أبي طالب، صاحب لواء المسلمين في «أحد» فبعد استشهاد مصعب بن عمير، قاتل المسلمون مع على، حتى أتم الله لهم نصره، وصدق وعده، وكان علىّ صاحب الراية في غزوة بني قريظة، فحين امتنع هؤلاء عن النزول على الحكم الذي أراده سعد بن معاذ.. صاح « على».. والله لأذوقن ما ذاق حمزة، أو لأقتحمن حصنهم فقالوا «يا محمد» ننزل على حكم سعد بن معاذ».

ثم خالد بن الوليد، الذي قهر الروم، حين اشتبكوا مع يزيد بن أبي سفيان، قائد حامية دمشق، وسرعانَ ما التحم بهم خالد، حتى فرّق شملَهم، وشتَّت جموعَهم، وخلُصت دمشق للمسلمين بعد حصار الروم لها سبعين يومًا، ثم فتحت حِمّص، وبعدها ذهب خالد إلى قِنّسْرين[1] ولما تحصن أهلها قال لهم خالد: «لو كنتم في السحاب لَحَمَلنا الله إليكم، أو لأنزلكم إلينا».

ثم يأتي «المُثنى بن حارثة» البطل الشاب صاحب « خالدًا» الذي ربطت الشبيبة والبطولة بينهما، بأوثق رباط، والذي نضّر مع صاحبه خالد أنصع صفحات التضحية، والإيثار في فتوحات الإسلام والعروبة.

أيها الشباب

إن لنا مع هؤلاء القادة من شباب العرب الأبطال وقفات قادمة نستعرض فيها بعضًا من أمجادهم، التي تشكل القدوة والمثل لمَنْ جاء بعدهم.

(١) مدينة قريبة من حمص بالشام، فُتحت على يد أبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) في السنة السابعة عشرة من الهجرة، وكان على مقدمة الجيش خالد بن الوليد، حيث تصدى له أهلُها، ثم لجأوا إلى حصنهم، وطلبوا الصلح فصالحهم، انظر: معجم البلدان لياقوت الحموى، ج٤، ص٤٠٣، طبع دار صادر، بيروت.

بطـولات عربيـة[1]

١- المُثَنَّى بـن حارثـة الشيباني[2]

أول بطل عربي غزا بلاد الفرس

«قاتلْتُ العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العرب في الإسلام أشد عليّ من ألف من العجم»

طلحة : ما الذي يُبكي أمَّ مَعْبَد الخزاعية؟

(في دهشة)

زياد : سَلْها إنها خارجةٌ من بيت أبي بكر، ربما كانت لها حاجةٌ وأغلظ لها ابن الخطاب في القول.

طلحـــة : يا أمَّ معبد.. يا أمَّ معبد

أم مَعْبَد: رحمك الله أبا بكر. كُنْتَ والله للإسلام حصنًا، لم تضعف بصيرتكم، ولم تَجْبُن نفسُك، كنتَ كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف.

(وهي تختنق بعبراتها)

زيـــاد : ويحكِ يا أمِ معبد. ماذا تقولين؟

(١) وصل إلينا هذا الموضوع من تراث الغزالي مكتوبًا على الآلة الكاتبة.

(٢) المثنى بن حارثة الشيباني، أسلم في السنة التاسعة من الهجرة مع وفد قومه إلى النبي ﷺ، وقد قضى معظم حياته في قتال الفرس، وجُرح في أحد اللقاءات معهم، ثم مات سنة أربع عشرة من الهجرة، قبل معركة القادسية... انظر : أسْد الغابة لابن الأثير، ج٥، ص ٥٩، طبع دار الشعب، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ج ٦، ص١٩٧، طبع دار الغد العربي بالقاهرة.

أم معـــبد: أقول بعض ما قاله على بن أبي طالب هنا منذ قليل.

طلحـــة : منذ قليل.. ألَحِقَ برسول الله خليفةُ رسول الله؟

(في استغراب)

أم معبد : أجلْ إنّ المدينة تهتز بالبكاء والعويل الآن.. وكيف لم تعرِفا النبأ؟

زياد : لقد هبطنا المدينة من هذا الوادي القريب، الصاعد إلى بيت الصدِّيق.

أم معـــبد : ولم يحمل كل منكما درعه ورمحه ؟

طلحة : إننا رسولا المُثَنَّي بن حارثة الشيباني. جئنا نطلب من أبي بكر المزيدَ من العون، بعد أن اشتدّ القتالُ بيننا وبين الفرس.

أم معبد : اسكتْ. اسكتْ.. هذا هو عثمانُ بن عفان، وعلى بن أبي طالب، وعبدالرحمن بن عوف يخرجون الآن، وقد علت وجوههم الكآبة. ويكاد الحزن يعتصرهم اعتصارًا ، فاتركا أمركما للغد القريب.

[[[موسيقـــي]]]

زيـــاد : يا طلحة أسمعت ما يجري على ألسنة أهل المدينة ؟

طلحة : سمعتُ أن أبا بكر استدعي عمر قبيل وفاته. وقال له: «لا تُشْغِلْك وفاتي عن ندب الناس مع المُثَنَّي؛ ليحاربوا معه».

زياد : وسيبادر عمر فيحُثُّ القوم، ويدفعهم إلى قتال الفرسِ تحت راية المُثَنَّي ؛ حتى ترتفع ألوية العرب عالية في الخافِقَيْن، ونصبح سادة أعزاء في العالمين.

طلحة: إن عمر بعد أن فرغ من أمر وفاة أبي بكر خطب في الناس يستثيرهم ويحمسهم لقتال أعدائهم، طول الأيام الثلاثة التي غادرتَ فيها يا زياد المدينة.

زيـــاد : وهل استجاب الناس؟

طلحة: استجابت قلة قليلة ؛ خوفًا من بطش الفرس، وقوتهم، وكثرة عددهم، وتفوقهم في قهر الشعوب والأمم.

زيـــاد : إذن نعودُ من فورِنا للقتال، يا طلحة.

طلحة : لا تعجل، فقد سمعت أهل المدينة يتحدثون عن فارس ضَخْم مُلَثَّم، دخل المدينة في كوكبة من فرسانه حينما جَنَّ الليلُ.

زيـــاد : من يكون الفارس ؟

طلحـــة : من أوصاف الناس له عرفت أنه المُثَنَّي.

زياد : المُثَنَّي. وكيف؟. أيترك المُثَنَّي جيوشنَا تواجه جيوشَ الفرس التي تفوقها عُدّة وعددًا.

طلحة : اطمئن يا زياد. فالمُثَنَّي لن يغادر أرض المعركة إلا إذا كانت وقفًا على سنابك خيله، وقبرًا لجماجم أعداء العرب.

زياد : وقد سمعتُ أيضًا أنه جاء ليخطب في الناس ؛ لينفروا معه إلى قتال الأعداء.

[[[موسـيقي]]]

(وهنا يدخل صوت)

المُثَنَّي : أيها الناس، لا تَرْهبوا أعداءكم، فقد قهرناهم، ونِلْنا منهم وأن هذه أيام لها ما بعدها.

أصوات مختلطة.. نحن معك. هيا إلى قتال الأعداء ؛

ولينصرَنَّ الله منْ ينصُرُه

[[[موسيقى تصويرية توحي بزحف هذه الجموع نحو معركة الجسر، التي كان يقودها أبو عبيدة بن مسعود ضد الفرس]]]

(معركة الجِسْر دائرة، وقد مات فيها قائدها أبو عبيدة بن مسعود. وكاد الفُرْس يبيدون فيها قوة المسلمين، لولا شجاعة المُثَنَّي واستبساله، حين وقف، واللواء في يده يُصلح الجسر ليعبرَه المقاتلون إلى الضفة الأخرى؛ حتى لا يُلقى المسلمون بأنفسهم إلى النهر؛ خوفًا من قوة هجمات الفرس عليهم. وقد غَرَّهم النصر فعاجلوا المقاتلين العرب في موقعة «البُوَيْب»[1]، ولكن المُثَنَّي القائد العربي المظفر، العليم بملاحم القتال، ومواقف الحروب نظَّم جيشَه، وأعده، وعبأه، وأثار حفيظته وعناده وتصميمه على النصر المبين)

تُسْمع من بعيد ضجة وصخب، وأصوات الخيول العربية منبعثة في قوة واسترسال وجَلَبة.: ثم يتضح هذا الصوت

عمرو : يا أسامة، إن البلاء ليشتد، وإن معركة الجسر التي انتهت هذه النهاية المريرة التي أطمعت الفرس، ستليها معارك.

أسامة : أجل ستليها معارك، ولكن سيكون النصر فيها حليفنا إن شاء الله. اسمع. اسمع. إنهم جموع المقاتلين العرب يتقدمهم المُثَنَّي بن حارثة.

(تعلو الضجة ويقترب الركب.. وتظهر صلصلة السيوف والرماح)

عمرو : اقترِبْ يا أسامة تسأل هذا المقاتل العربي الذي يسبح في درعه ورماحه.

أسامة : إلى أين يتجه هؤلاء المقاتلون البواسل يا أخانا؟

صوت : إلى نهر «البُوَيْب» فقد تجمع الفرس هناك لقتالنا. وظنوا أن قوتهم وعدتهم وعددهم كل هذه مانعتهم منا. ولكن هيهات!

---

(١) موضع بالكوفة أو قريب منها، وكانت عنده موقعة أيام الفتوح بين المسلمين والفرس في أيام أبي بكر الصديق، ويطلق على مواقع أخرى، انظر معجم البلدان لياقوت الحموى، ج١، ص٥١٢.

(موسيقي تُوحي بنشوب القتال ووقوع المعركة)

أصوات المقاتلين العرب تزمجر، وتزأر، وتتبين فيها هذه النداءات. الله أكبر. الله أكبر. النصر للعرب، والموت للأعداء.

ـــــ : انظر يا أخي، لقد اندفع المُثَنَّي نحو مهران قائد الفرس كالسهم، واندفع من حوله جيشهُ كجحافل الظلام. لقد أغرقوا الفرس في غُبار خيولهم المنعقد فوق رءوسهم التي تتطاير في جو المعركة.

ـــــ : لقد قُتل مهران، وتبدد شمل العدو، وارتفعت راية العرب. وأحْرَزَتْ جيوشُنا النصر المؤزَّر. تحت لواء المُثَنَّي القائد العربي البطل.

ـــــ : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] صدق الله العظيم

(١) البقرة : ٢٤٩.

٢- عبدالملك بن مراون[1]

[[تسمع ضجة الشعب في دمشق حول قصر عبدالملك.. عشرات الألوف يهتفون لعبدالملك بن مروان.. عبدالملك مع هشام في حجرة تُشرف على الميدان المحيط بالقصر.. ولكنهما لا يَطُلَّان على الناس.. بل يتحدثان وهما يسمعان الضجة التي تتسرب إليهما..]]

عبدالملك: [مخاطبًا هشام خلال الهُتَافات..] هشام..!!

هشام: لبيك.. أميرَ المؤمنين..؟!

عبدالملك: سامع..؟!

هشام: أجلْ.. أجلْ..!!

عبدالملك: هُتَافهمْ للنصر شيءٌ رائعُ...

هيا.. إلى الشرفة... صوت الشعب... رعد قاصف كأنهم

موج على موج.. عتيّ.. زاحف

[[يخرجان إلى الشرفة... حيث يرتفع الضجيج، ويعلو الهُتَاف عند رؤية الجماهير لعبدالملك.. وكلما لَوَّح لهم بيده علا هُتَافهم له..]]

---

(١) ترك الغزالي هذا الموضوع مكتوبًا بخط يده بدون تاريخ، والنص يصور ليلة من ليالي المَلك « عبدالملك ابن مروان» مع أخيه هشام، والشاعر «كُثيِّر»، وبعض أفراد الشعب، وقد تميز عن سابقه بأنه يجمع بين الشعر والنثر، إذ جاءت فيه كثير من المواقف مصاغة بالميزان الشعري، فضلًا عن الأناشيد التي نُظِمت حسب البحور المعروفة، وما عدا ذلك فجاء نثرًا أدبيًا (حِواريًا) حسب متطلبات السَرد القصصي، وهذا النص أقرب إلى ما تجلى في القرون الأخيرة فيما يسمى فن (الأوبرا)، الذي يضاف فيه إلى جانب النص - الرقص والموسيقي، والتمثيل، وفق متطلبات الدراما (تراجيديا أو كوميديا)، هذان الفَنّان (مثني فَنّ) اللذان ظهرا عند الإغريق القدماء، وربما كان ظهورهما أيضًا عند قدماء المصريين.

عبدالملك : [يخطب...] يا أهل الشام....

[تخفُّ الضجة ويسكت الناس..]

يا أهل الشام... والله ما هو إلا نصرٌ انتزعته أسيافكَمْ، وأقامت صَرْحَه إرادتُكم.. إن الروم يتربصون بنا الدوائر، ونحن لهم بالمرصاد.. لقد مَنَّ الله علينا باتحادنا، ولمّ الشمل في بلادنا.. فوجدنا للنصر أهلًا، حين وجدنا يدًا واحدة وقلبًا واحدًا وأملًا واحدًا.

يا أهلَ الشام.. لقد ظَنّ العدو.. أنه عائدٍ إلينا... ولكن هَيْهات... فالفتنة التي ألهب أوارَها، وأثار دخانَها يضيء عليها في مهدها عزمُكم الصاعد وكفاحُكم الخالد...

يا أهل الشام... إنه يوم له ما بعده... وسيعلم الخائنون، ومن فارقوا الجماعة وتنكبوا التوحيد... أي منقلب ينقلبون.. واستغفر الله لي ولكم.

[يعلو الضجيج والهتاف.... ويغني الشعب نشيد النصر]

عبدالملك: لقد رأيتك... يا هشام...!!

هشام: ما رأيت مثل ذا..!!

إن الألـوفَ لا تَـرَى فيـهـا لخَـطْـو مَـنْـفَـذا
مـجـدُك أنـتَ يـا أمـيـ ـرَ المؤمنين كُـلُّ ذا!(١)

عبدالملك: بـل كـل ذا.. مـجـد لمن خـاضـوا المعارك بالسيوف
مـن أجـل عـزتـهـم مَضَوْا للهول... وهـو بهم عَصُوف(٢)
شَـقُّـوا طـريق النصـر في يـوم لظلمته مخُـوف
وبـنـوْا بـه للعُرْب مجدا حـول الـدنـيـا تـطـوف
إن أنسى لا أنسى.. وَهَمُ في البِيد قد نصبوا الخيام(٣)
شَبُّوا اللظي وتجمعوا مـن حولـه تحـت الظـلام(٤)
وسـمـعـتُـهُـمْ يـتـرنـمـون ويـزأرون ومن زئير أسد
لَحْـنُ الـقـتـال كـأنـه مـن عُنْفه صرخاتُ رَعْـد

(١) من مجزوء الرجز.

(٢) ريح عصوف : شديدة.

(٣) البيد : الصحراء.

(٤) اللظي : النار.

[يبتعد صوت عبدالملك قليلًا.. قليلًا.. ويُسمع صوت الجنود. وهم يغنون لحن القتال..]

هشـــام: إنه لحنٌ.. قوى.. يا أميرَ المؤمنين.. جارف... يدعو الملايين إلى النصر المبين

عبدالملك: لما سمعتُ يا هشامُ صوتَهم أيقنتُ أنّـي يا هـشـامُ منتصرْ
كأنهم قد جمَّعُوا في صوتهم نــداءَ شعبي للكفاح والظَفَرْ
وقد رأيت فوقَهم أعلامَهم من كل أرض لدمشقَ تنحدرْ
جمَّعت منهم يا هشامُ قوةً في وَحْدة تبقَى على مرِّ العُصُرْ
تجابه الـرومَ ومـن وراءَها وتـأخـذُ العـاري أخـذَ المقتدر..

هشـــام: الفضل في الوحدة.. كل الفضل لـكَ.. ولم يـزل أهـلاً له عبدالملكْ

عبدالملك: بل فضل أهل الشام يا هشامُ فـإنــهـم طـلـيـعـة.. كـــرامُ
هيا بنـا.. نقابل الوفـودا والـشـعـراء حـبّـروا القصيدا

[موسيقي قصيرة فاصلة....]

كُثَـيِّر: سلامٌ أمير المؤمنين..

عبدالملك: كثيرٌ.. لقد غِبْتَ عنا ظالمًا يا كُثيرّ
تعال هنا.. كم ذا نحب كُثَيـرا ولكـنه عـنَ أرضـنا اليـوم أزْوَرُ[1]

كثـير: خطـوب الليالـي يا أمـيري منعْنَني وشوقي إلى لقياك نـار تسعَّرُ

عبدالملك: هذا هو ابنٍ السمحِ..!!

كثـير: أهلا.. مالك.. شيخَ الغناءْ

مالــك: أهلاٍ كثيرّ.. مرحِبًا... بخُطَاك.. في يوم اللقاءْ

كثـير: مالكُ أحدثَ لَحنا يـا أميـرَ المؤمنينا
مُرْه يُسمِعْك غنـاءٍ يُطْرب القلبَ الحزينا

عبدالملك: غنّنا لحنك يا مالكُ.. إنا سامعونا...

مالــك: إنني غنّيت لحنينٍ على النصر الأخير

عبدالملك: نسمع اللحنين فالـ وقت لنا اليومَ نصيرُ

[يبدأ مالك بن السمح في الغناء بلحنه الجديد...]

---

(١) أزوَر : أمْيل.

عبدالملك : هذا هو الأول لَحْنَيْكا ولن تراني مُثْقِلًا عليكا
هات ليَّ الآخر...!

مالــك : إن يسَمْح لنا... أميرنا..!!

عـبدالملك: أسْمَحُ.. ماذا تطلب..؟!

مــالك: إن الجواري قد حَفِظْنَ لحنه فلننتقلْ فإن ذاك أطربُ..!!

عـبدالملك: كما تشاء...

[مناديًا]

يا غلام.. !!

الغــلام: سامعٌ يا سيدي...

عـبدالملك: أين الجواري الكنّس[1].

الغــلام : في رَدْهَةِ القصر[2]...!!

عـبدالملك: إذن.. فلننتقل لهــ ـنّ إن قربَهن مؤنسُ..!!

[موسيقي فاصلة...]

[يسمع الجواري يغنين اللحن الثاني لمالك بن السمح، وهو عن انتصار القومية العربية، وتدور معانيه حوله...]

الغــلام: [يَدخل على عبدالملك..] يا سيدي الأمير...

عبدالملك: يا غلام.. ماذا يريد الساعةَ الأقوامُ؟

الغــلام: رسالة يحملها رسولُهـم

عبدالملك: ممن؟ من الروم ترى ؟

(١) الكُنّس : الغانيات، وأصل معناها: الكواكب السيارة، أو هى النجوم لها.
(٢) الردَّهة : مدخل البيت الذي تفتح عليه حجراته وطرقاته (محدثة).

الغـــلام: أجل أجلْ

عبدالملك: **اقذف بها في وجهه.. وقل له بأن ردي في غدي.. سوف يصلْ**[1]

سـطـورُهُ كـتـائـبٌ زاحـــفــةٌ على قُرَاهـم بالسيوفِ والأَسَـلْ[2]

وليعلم الرومُ بأن العُرْب لـم تخلق لغير النصر والمجد الأجَلِّ

[يُسمع صوت الشعب.... وهو مندفع يغني بنشيد الانتصار، الذي غناه أولاً...

ثم موسيقي الختام...]

---

(١) الأبيات من الرجز التام.

(٢) الأسَل : الرماح، والنبل والشوك الطويل، وكل ما رُقّق وحُدّ من الحديد، من سيف أو سكين أو سنان.

(٣) بطولة... و.... وفاء[1]

صوت «مزمار» ينبعث من سفح وادٍ من وديان حي بني بكر... يتوقف الصوت على أثر سماع وقع حوافر جَوَادين، ينحدران من أعلى الوادي... ثم تخف سرعتهما، حينما يقربان من البدويين الجالسين في السفح، قريبًا من الحي يسمران في ليلة قمراء[2]

صوت أحدهما: تعال بنا بعيدًا عن الطريق؛ حتى يمر الفارسان.

صوت الثانـي: أتعرفهما..؟

ـــــ : أعرف منهما ذلك الشاب الذي يتقدم صاحبه بجواده.. إنه فخر شباب البادية « الحارث بن سعد.. فارس الشهباء».

ـــــ : هذا الفتي اليافع.. فارس.. إنه يزال في أول عمره، وصدر شبابه.

ـــــ : وأي فارس !! كم دوّخ الحارث الصناديد[3] ؛ وقذف بالمقاتلين منْ فوق خيولهم !!.

ـــــ : وَمَنْ الفارس الثاني الذي معه.. أتعرفه ؟!

ـــــ : انتظرْ قليلا.. فهما يتجهان نحونا.

يقترب الجوادان؛ حتى يصبح الفارسان وجهًا لوجه أمام هذين البدويين

نفـس صاحب: إنه الفارس الرهيب، ذائع الصيت، عمرو بن معد يكرب.

[الصوت المتقدم هامسًا]

---

(١) تـرك «الـغـزالـي» هـذا المـوضـوع مـن أدبـه، مـكـتـوبًـا بـخـطـه، وبـدون تـاريـخ، وتحـت عنوان «بطولات عربية».

(٢) أي شديدة الضوء.

(٣) الصناديد : الأبطال.

موسـيقى

يتقدم الفارسان

الحـــارث: طبتما مساء.. أيها الأخوان

ـــــ : طبت مساء يا فارس الشهباء !

ـــــ : حفظ الله الفارس.. ما الذي جعلك تطوي هذه الصحراء المترامية في جُنَح الليل.

ـــــ : جئتُ لبني عميَ في أمرٍ ستعرفانه.. وأريد ألا يعرفه أحد فلا تتحركا من هذا المكان حتى أعود.. وسينتظرني معكما الفارس المغوار عمرو بن معد يكرب : فإن تحرك أحدكما فسيلتقط رأسه بسنّ رمحه.

ـــــ : لك السمع والطاعة.

أحد الرجلين : أيها الشيخ الجليل ما الذي جمعك بفتي البادية، وفارسها، وفارق السن كبير بينكما.

ـــــ : لقد خضتُ المعارك، وهزمتُ أقوى الأبطال ؛ وأفزعتُ الفرسان البواسل في ميادين الحرب والقتال؛ حتى نازلني هذا الفارس الشاب، فغلبني المرة بعد المرة، فامتلأ قلبي ؛ حبًا له وإعجابًا به ؛ وعرضتُ عليه أن أكون صاحبه في كل زياراته أو غاراته، فَقَبِل.

ـــــ : أو هو الليلة زائر أم مُغير ؟

ـــــ : لقد حدثني ونحن نشقَ ليل هذه الصحراء إلى حَيّكم أن عمه عَدَل عن أن يزوجه ابنته، وكان قد قبل، وترامت إلى سمعه أنباء تقول إن عمه سيزوج ابنته لشاب غريب عن القبيلة، فثارت في عروقه دماءُ القربى والرَّحِم، وبخاصة فإن البادية تتحدث عن حبه لابنة عمه، وعن أفراحها حين تُزَفُّ له فصمم على أن تكون له، وأن يكون لها، ولو دفع حياته ثمنًا.

صـــــوت : إنني مشفق عليه، لقد ترك جوادَه ودرعَه؛ وليس معه سوى رمحه، كيف سينجو من عمه، وأولاد عمه وهم فرسان أشداء؟

[موسيقي توحي بوصول الحارث إلى المخيم الذي تقيم فيه ابنة عمه]

الـــحـــارث: أخرجي إليَّ... أخرجي... أنا الحارث.

هامسًا

ابنة عمه تخرج ماذا تريد، وكيف تجرؤ على اقتحام الحي وأنت أعزل وعمك وإخوتي يتربصون بك..؟ وسأزف لغيرك بعد غد.

الـــحارث : أين مرابط الإبل؟

ابنــة عمـه : وراءِ هذا المخيم.

الـــحارث : تعالَي معي... وستكونين منى كأمي حتى تُزفيّ إليّ في حضور عمى وأبنائه، إذا كان في عمري بقية بعد الليلة.

ابنــة عمـه: فك هذه الناقة من عقالها، إنها أقواهن.

الـــحارث: اركبى.

[[[موســـيقي]]]

الـــحارث : سنمر في طريقنا على سفح من سفوح الوادي، فهناك عمرو ابن معد يكرب صاحبي ينتظرني، ومعه بدويان كانا يسمران، وقد تركته معهما.. إنهم هؤلاء الذين يوقدون أمامهم هذه النار المضيئة.

[[[موســـيقي]]]]

الـــحارث : الحارث : أيها الأخوان.. خذا هذه الناقة ؛ وأوثقا عقالها بين نياق عمى وائل.. وهيا بنا يا عمرو... وطابت ليلتكما.

صـــوت: وطابت ليلتك أيها الفارس المظفَّر.. وصحبتكم السلامة.

أحد الرجلين: ماذا نصنع يا ضَمُرة.

ـــــ : لابد أن ننهي الأمر إلى وائل فهو سيد قومه.. ولابد من أن يعرف ما حدث من ابن أخيه.. قم بنا نركب الناقة وننصرف إلى وائل.

[[[موســـيقي]]]]

ـــــ : يا وائل.. يا أبناء وائل.

ـــــ: من المنادي؟! ماذا دَهَاك ؟ من أنت ؟

ـــــ : أنا ضَمُرة. لقد فرَّ الحارث بن سعد، ومعه ابنتكم، وانطلق بها.

وائـــــل : يا للعار... هيا يا ولدىّ إلى خيولنا وإلى الرماح.

[تُسمع حركة ركوبهم وانطلاقهم بالخيل]

عمـــــرو : يا حارث أتسمع هذه الضجة القادمة؟ كوكبة من الفرسان متجهون نحونا

وائــــــــل : قف يا حارث.

ينادي بصوت غاضب

الحــــارث : وقفتُ يا عماه... ماذا تريد..؟
وائـــــل : انزل ابنتي ودعْها.. وانصرف لشأنك.
الحــــارث : لِمَ هذه القسوة يا عماه، أتزوج ابنتك بغريب، وتَحرِم ابن عمها منها؟!.. وأنا الكفء شبابًا وشجاعة ونباهة في ميادين الفروسية، والحرب.
وائـــــل : أمِنَ الفروسية والشجاعة أن تخطف ابنتي وتهرب ؟
الحــــارث : كلَا يا عمي أنا لم أخطف ولم أهرب، أنا أردت أن أحُول بينها وبين من هو أقل منها حسبًا ونسبًا.. وإنها عليّ كظهر أمي، وستظل حتى تحضر إلينا، أو نحضر نحن إليك بعد أن تَعِدَنا بإجابتي إلى حاجة قلبي، وغاية روحي.
وائـــــل : اسكت فلن يُجدي كلامك فتيلا.. وانزل لمبارزة أحد ولديّ هذين.. وهما في مثل قوتك وشبابك.
الـــحارث : يا عمي لا تقدم ولديك ضحية بريئة.
ها أنذا قد نزلت، وسأصدَعُ بأمرك.

[[يظهر صوت المبارزة بالسلاح]]

ثم يلي هذا صراخ عنيف نتيجة مصرعه على يد الحارث.

الحارث : ثم ماذا يا عماه ؟
وائل : انتظر وبارز أخاه.
الحارث : يا عمى الرشدَ ولا تُلْحِق ابنك الثاني بالأول.. فسيلقي مصرعه.
وائل : لا تُطل الكلام.. اخرج إليه يا بني.

[[يسمع صوت المبارزة.. ثم صرخة قوية لإصابة الابن الثاني بمقتل من رمح الحارث]]

الحارث : ثم ماذا يا عماه
وائل : أنت تعلم من أنا، فابقَ على نفسك وانصرف لشأنك، ولن أزوجك منها.
الحارث : لن أتركها حتى تمزقنى إرْبًا.. إرْبًا
وائل : إذن فتعال...

[[يسمع صوت المبارزة، وتطول قليلًا، ثم تُسمع صرختان متواليتان للفارسين تتخللهما هذه المحاورة القصيرة]]

الحارث : آه قتلتني يا عماه، وأخشى أن أكون قد أصبتك في مقتل.

وائل : آه.. لقد قتلتني يا ابن أخي.

[[[موســـــيقي]]]]

الابنة : يا عمرو.. انطلق إلى الحي، ونادِ في القوم ليحضروا ويحملوا جثث أبي وإخوتي وابن عمي.

عمرو : دعينا من أمرهم الآن، وتعاليْ ننصرف إلى دارنا فأنت لى.

الابنة : إن كنت تريدني فناولني سيفًا ورمحًا وبارزني فإن غلبتني فأنا لك.. وإن غلبتك فلست لي بكفء.

عمرو: أيبارز عمرو بن معد يكرب فتاة ؟!!

الابنة : دع سيفك لي.. ارفع يديك عن السيف.

عمرو : خذيه.. خذيه

الابنة : وهذا هو السيف.. وسأغمدُه هكذا في صدري.

عمرو: ويحك يا فتاه.. لماذا تقتلين نفسك ؟! لماذا؟

الفتاة : أبَعْدَ ابن عمي الفارس البطل، أعيش مع صديق يخون؟! سألحَقُ بمن أُحِبُّ من أبي وإخوتي وحبيبي الذين قتلوا في ميدان الشرف والحب، وسأكافئه على بطولته بوفائي له حية وميتة..

[[[موســـــيقي]]]]

(٤) الإمام محمد عبده[1]

رائد.. ومصلح

[[تُسمع دقات على باب منزل الإمام.. ثم يخرج الخادم]]

الشيخ محمد رشيد رضا: مَنْ مع الإمام؟
الخادم: ليس معه أحد.
الشيخ رشيد: إذن أرجو أن تستأذنه لأهنئه بعودته إلى الوطن.
الخادم: لا أستطيع؛ لأنه آوى إلى الفراش؛ ليستريح.
الشيخ رشيد: كل ما أريده منك أن تقول للإمام: إن محمد رشيد رضا بالباب.
الخادم: سمعًا وطاعة.. تفضل وانتظر قليلًا في غرفة الاستقبال هذه
[[ثم ينصرف الخادم في خطوات سريعة]]
[[[موسيقي قصيرة]]]
الخادم: الإمام يرحب بك.. فتفضل معي إلى غرفة نومه.
(يسيران خطوات قلائل) ثم يُفتح باب الغرفة ويدخل الشيخ رضا
الشيخ رضا: سلام الله وتحيته على سيّدي الإمام.
الإمام محمد عبده (في هدوء وأناة): وعلى الشيخ رضا السلام.. أهلًا وسهلًا ومرحبًا.
الشيخ رضا: حمدًا لله على سلامة إمام المسلمين.
الإمام: يا شيخ رضا لقد كتب الله لنا العودة.. وها نحن أولاء نجتمع ثانية..

وقد يجمعُ اللهُ الشتيتينِ بعدما ... يظنان كلَّ الظن أن لا تلاقيا[2]

---

(١) ترك «الغزالي» هذا الموضوع على صورته التي كُتب بها، وكان بالآلة الكاتبة.

(٢) البيت من شعر قيس بن الملوح (مجنون ليلي) الديوان، ص٢٢٥، طبع دار صادر بيروت عام ١٩٩٤، شرح عدنان زكي.

الشيخ رضا : سيدي الإمـام الجليل خَيـرُ العارفين بما يلاقيه المصلحون الأبطال من عَنَت ونُكْران في سبيل سيادة شعوبهم، وإصلاح شئون أممهم، ونصرة المُثُل العليا، والمبادئ القويمة.

الإمام (في أناة وفـي صـوت متهدج جليل): يا شيخ رضا : لقد نشأتُ كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم، من الطبقة الوسطى من سكان مصر، ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون، فعثرتُ على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت إليه.

الشيخ رضا : إن الله وحده هو المسئول يا سيدى الإمام عن إثابة من يتصدوُن لقيادة الشعوب في طريق التحرير، والإصلاح، والكرامة.

الإمـــام: يا شيخ رضا.. لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين

الشيخ رضا : نعرفهما إجمالًا يا سيدي الإمـام، فهل أطمع في شيء من التفصيل؟

الإمام : لك ما تريد يا شيخ رضا :

أول هذين الأمرين العظيمين كان.. تحرير الفكر من قيود التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولي. أما الأمر الثاني فهو: إصلاح أساليب اللغة العربية فهي الإطار الذي تتمثل فيه الصورة الصحيحة لقوميتنا العربية.

الشيخ رضا : لكن أعتقد يا سيدي الإمـام أن هناك أمـرًا آخر لا يقل عن هذين الأمرين خطورة وأثرًا.

الإمام : لا بأس من أن أفضي إليك به، فقد كنت من دعاة هذا الأمر، وكان الناس جميعًا في شُغْلٍ شاغلٍ عنه، وكان هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية. وكان يتلخص يا شيخ رضا في التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

الشيخ رضا : وأذكر أن ذلك قد كان يا سيدي الإمـام في ظروف كريهة بالنسبة للشعب.

الإمام : حين جهرنا بهذا القول « كان الاستبداد في عُنْفُوانه والظلم قابض على صَوْلجانه، ويد الظالم من حديد، والناس عبيد له أيُّ عبيد».

[[موسيقي تصويرية تترجم عن معاني الاستبداد والرق والعبودية، مختلطة بلحن قوى كصدى لهذه المعاني]]

الـــخادم : يا سيدي، زائر بالباب يريد لقاء الإمام.

الإمـــام : ما اسمه ؟

الـــخادم : يقول إن اسمه سعد زغلول.

الإمـــام : أدخله فورًا، سيكون لسعد شأن عظيم في وطنه.

سعد زغلول : السلام على أستاذي ورحمة الله.

الإمـــام : عليك سلام الله يا سعد ؛ أشكر لك رقة رسائلك لي، وأنا في الشام، وفي أوربا، وما كنت تضمّنهُ إياها من البيان الرائع والأفكار الطيبة، التي تستهدف فيها خير هذا الوطن وسعادته، حين ينجاب عنه ليل الاستعباد والمذلة من حكامه أذناب المستعمرين ومطاياهم..

سعد زغلول : إن البلاد كلها لتحمدُ الله على سلامة عودة أستاذنا الإمام.. وكم كنا مشفقين عليكم طوال أيام النفي، وكان الجميع في ألم مقيم.. وأنتم تتنقلون بين بلاد المستعمرين، الذين كانوا قد أصدروا أمر نفيكم، ونفذها الجائر الظالم الخديو توفيق.

الشيخ رضا: أمسك يا سعدُ عن هذا الكلام، فنحن لا نريد أن تخلق متاعب أخرى لمولانا الإمام.

الإمام : دعه يا شيخ رضا : لقد كنتُ أقولُ ما هو أشد من كلام سعد زغلول، وأنا في باريس، أو في لندن.

سعد : فعلا لقد ترامي إلينا نبأ مواجهتكم للفرنسيين بصراحة لم يعهدوها في أبناء الأمم الواقعة تحت سيطرتهم، أو سيطرة الإنجليز.

الإمام : لقد كنت أقول للفرنسيين في مجتمعاتهم، ومنتدياتهم، وعلى صفحات مجلة «العروة الوثقي» إننا سنرمى الاحتلال الأجنبي عن كواهل العالم الإسلامي، وذلك بإشعال ثورة شعوبية عليهم، وبث روح العزة القومية، وتوثيق الصلات بين الشعوب الإسلامية كلها.

سعد زغلول: وكيف كانوا يقابلون هذه الجرأة النادرة منكم، وأنتم في بلادهم؟

الإمام : لا نزاع في أنهم كانوا يراقبونني، أنا وأستاذي جمال الدين الأفغاني، وكانوا يتربصون بنا الدوائر.. ولا ننسى يا سعد أنهم كانوا يضيقون بنا، حين كنا نُلَوِّحُ لهم بأن شعوبنا ستطرد حكامها. الذين يكممون أفواه الشعوب؛ استجابة لسادتهم من الاستعماريين.

سعد : وكيف كان هذا ؟

الإمام : كنت أقول لهم إننا سنتخلص، إن عاجلًا أو آجلًا من حكامنا الظالمين، الذين ينفذون لكم مآربكم، وسوف نؤسس حياتنا السياسية والاجتماعية والدينية على أسس أصول الإسلام الأولى، من إعداد السلاح ومقابلة القوة بالقوة.

[[[موسيقي قوية فاصلة]]]

الخادم : زائر آخر بالباب يريد لقاء سيدي.

الإمام : ما اسمه؟

الخادم : يقول: إن إسمه على مبارك.

الإمام : أهلا وسهلا.. ادخله يا بني.

(يدخل على مبارك).

على مبارك: عودًا حميدًا، وشكرًا لله على سلامة وصولكم.

الإمام : سلمت يا على، إنني أحمل إليك تحية من عاصمة الإنجليز، من مجاهد عربي من شمال أفريقيا واسمه « على الأشقر».

على مبارك : وكيف طابت له الإقامة في لندن، والإنجليز يتربصون به الدوائر؟

الإمام : إن المستعمرين دائمًا رَعَاديد جبناء؛ لأنهم مغتصبون دُخلاء، فلمَ لا يتمتعون ببرود عجيب، وعلى الأخص هؤلاء الإنجليز؟ لقد قلت ذات مرة لمندوب صحيفة إنجليزية كبرى، حين جاء يسألني عن رأيي في الخديو توفيق « إن توفيق أساء إلينا أكبر إساءة؛ لأنه مهد لدخولكم بلادنا، ورجل مثل توفيق انضم إلى أعدائنا أيام الحرب، لا يمكن أن نشعر نحوه بأي احترام.

على مبارك: إن لمولانا الإمـام عبارة دقيقة عميقة، صور بها توفيق أبلغ تصوير، لا أذكر نصها جيدًا.

الإمام : لعلك تقصد قولى لبعض مُكَاتبي صحف إنجلترا « إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية».

سعد زغلول : والآن وقد عاد مولانا الإمام بسلامة الله إلى أرض الوطن، فإن الناس يريدون في لهفة أن يعرفوا رأى الإمام البطل في هذا الليل الدامس الذي نضرب فيه على غير هدى.

الإمام : لقد تغيرت الأرض غير الأرض والسماوات يا سعد، إن كل شـىء أصبح فـي يد الإنجليز. وهـاهـم أولاء النظَّار فـي كل وزارة، والمسئولون عن الحكم أصبحوا كقطع شطرنج يلعب بها الإنجليزي، وكما تَرَون يا سعد، فالخديو توفيق يوجه الإنجليز حيث يريدون، ولا يملك إلا الاستجابة لإشارتهم.

[[[موسيقي فاصلة]]]

الشيخ رشيد رضا : لقد صرح الخديو توفيق بكلام مخجل، يندى له جبين الحُرّ، لا أذكر نصه بالضبط.

الإمام : أذكر أنا يا شيخ رضا نصَّ ما قاله الخديو : لقد قال : «أمامي واحدة من ثلاث خطط في الحكم، إما اتباع نصائح إنجلترا وإطاعتها إطاعة عمياء، أو أناقش نصائحها...، وإلا فأنا مضطر لقبولها».

على مبارك: أبعد هذا خنوع يا مولانا.؟! إننا شعب لن ينام على الضيم وفيه الأعلام من المصلحين، الذين لا يخافون إلا الله، ولا يخشون إلا صوت الضمير.

الإمام : إنك يا سيد على مبارك تعلم أن هذه الأمة قد باعت القانون بثمن بخس، فكان جزاؤها أن تشتريه بنفوسها العزيزة ودمائها الشريفة.

سعد زغلول : لقد كثر القائلون في بلادنا، بقدر ما قَلّ العاملون فيها، وبين هؤلاء وأولئك انحدرت أمتنا بمقدساتها، وأقدارها إلى الحضيض.

الإمام : إننا نود يا سعد أن يكون الفعل أكثر من القول، وأن يكون كل شخص من أبناء بلادنا صغيرًا كان أو كبيرًا، مجدًا في نَيْلِ الفضيلة والعمل، ابتغاء مرضاة الله والوطن.

[[[موسيقي فاصلة]]]

(ثم يُسمع طرق على باب الحجرة)

الإمـــام : مَنْ الطارق ؟

الخـــادم : إن الأستاذ محمد راسم، قادم من الإسكندرية؟ ويلتمس الدخول.

الإمـــام : أهلًا وسهلًا ومرحبًا.

محمد راسم: السلام على إمام المسلمين.

الإمام : وعلى السيد راسم السلام، كيف حال الإسكندرية، وكيف حال الشعب السكندري.؟

محمد راسم: الشعب السكندري يريد لمولانا الإمام العمر المديد ؛ ليظل بإحدى يديه المشعل وبالثانية الرسالة فيضيء الطريق، ويؤدي الرسالة، ويهدي الضالين سواء السبيل.

الإمام : يا سيد راسم يقول الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[1]، وسنظل نكافح في سبيل نصرة هذا الشعب على المستعمرين الغاشمين وحكامه القساة، وأذنابهم من السماسرة والعملاء.

السيد راسم : أما من وسيلة تهدي الملوك المارقين والحكام المستبدين، وتقي الشعب من شر هؤلاء وهؤلاء ؟

(١) القصص : ٥٦.

الإمـــــام : إن على الشعب واجبًا إزاء الملوك والحكام المنحرفين، ذلكم الواجب يا أخي، هو أن يقف الرأي العام صفًا واحدًا في سبيل الظالمين، وأن يؤيد بكل قوة عمل العاملين.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[1]

(١) الأعراف : ٨٩.

بطل المقاومة الشعبية[1]

٥- البطل العربي « حسن طوبار»[2]

[هُتافات تختلط بدقات الطبول والمزمار الشعبي، أمام منزل البطل حسن طوبار]

الهتافات :

عاش قائد الشعب.. عاش محطم الاستعمار، عاش هازم العدوان

عاش جمال عبدالناصر.. عاش جمال عبدالناصر

عاش محرر الشعب، عاش بطل الكفاح. عاش جمال عبدالناصر

أحفاد حسن طوبار يحيون قاهر العدوان (تُكَرَّرُ هذه الهتافات)

ثم تشتد الهتافات - على دقات الطبول والمزمار الشعبي - مع طلقات نارية، إيذانًا بقدوم ركب الرئيس جمال عبدالناصر.

ويلى ذلك أصوات السيارات المقلة للسيد الرئيس وركبه.

وأثناء تلاشي هذه الضجة قليلًا.. قليلًا - يتضح هذا الحوار -

مـصـطـفـي إلى أن يتجه الرئيس يا أبي ؟

يسأل والده :

محمود المنزلاوى لابنه: يتجه إلى قبر بطل المقاومة الشعبية « حسن طوبار» ؛ ليضع عليه زعيمنا جمال عبدالناصر طاقة من الزهر، تكريمًا لذكرى البطل حسن طوبار، وكفاحه الباسل.

(١) جاء في الأهرام يوم الثلاثين من ديسمبر ١٩٦٠م، الخبر الذي يعلن عن تمثيلية يكتبها للإذاعة أحمد عبدالمجيد «الغزالي»، والذي يحكى فيها قصة الكفاح الوطنى من عام ١٨٨٩م إلى عام ١٩٥٩م، ومن بينها كفاح « حسن طوبار» الذي حارب الفرنسيين في بطولة وبسالة، وكتب اسمه في سجل الخالدين.

(٢) ترك «الغزالي» هذا الموضوع مكتوبًا بالآلة الكاتبة.

مصطفي : ومَنْ حسن طوبار يا أبي؟ ثم مَنْ أولئك الذين كافحهم هذا البطل؟

محمود المنزلاوي: حسن طوبار يا بُنَيَّ، أسرته من أعرق الأسر، وكانت فيهم مشيخة المنزلة منذ ثلاثمائة عام، وقد كان زعيمًا وبطلًا شعبيًا قاد حركة المقاومة الشعبية ضد جيش نابليون ودَوَّخَ حملة الفرنسيين على طول بلاد البحر الصغير، من المنصورة حتى بحيرة المنزلة.

مصطفي : وما قصة هذه المقاومة الشعبية، التي قادها هذا البطل ؟

محمود المنزلاوى: كان ذلك يا بني في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨م حين رفض أهل المنزلة دفع الضرائب والغرامات، التي فرضها الفرنسيون، وأشعل حسن طوبار نار الثورة على الفرنسيين الغزاة، وأعلنها صرخة شعبية مُدَّوية..

حسن طوبار: يخطب في جماهير شعب المنزلة والبلاد المجاورة : لا. لا. لن ندفع ثمن الذلة والعبودية، ونحن أعزة أحرار، في بلادنا، وأن ترابها الطاهر لن تدوسه أقدام هؤلاء الطغاة إلاّ بعد أن ترويه دماء شهدائنا وأبطالنا.

هتاف (عاش بطل الشعب) (عاش قائدنا المظفر)

يا أهل المنزلة

إن هذه البحيرة سوف نغطيها بجماجم الفرنسيين وأشلائهم، وسيرى نابليون وقواده، كيف سنمزق هذه الحملة شر ممزق (هُتاف.. عاش بطل المنزلة، عاش محطم الخونة).

والآن أيها السادة

نظموا صفوفكم، وأشهروا سيوفكم، وثقوا بالله وبأنفسكم وبوطنكم وبحقه عليكم، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله....

تصفيق وهتافات، الله أكبر.. الله أكبر، حيّ على القتال حيّ على النضال، والله معنا، وهو نعم المولى، ونعم النصير.

ثم تختفي الأصوات والهتافات شيئًا فشيئًا..

ويعود صوت الأب في حديثه مع ابنه

الأب محمود المنزلاوي يكمل القصة لابنه : وهكذا يا بني كان البطل «حسن طوبار» يُثير عزائم المواطنين، ويُلهب الحقد على الغزاة الدخلاء، فاشتعلت الثورة، وتتابعت هزائم الفرنسيين، الذين تحركت سفنهم الحربية، ووصلت إلى بلدة (الجمالية)

أصوات رهيبة للسفن الحربية، وهي مقبلة في طريقها إلى قرية «الجمالية» المناضلة.

إبراهيم الجمال: (من أهالي الجمالية) يا فتيان الجمالية.. يا شباب الجمالية، أيها الرجال، هيا بنا ندافع عن أعراضنا، وأولادنا وبلادنا، وهذه الأصوات المنكرة، أصوات سفن العدو، ولسوف نغرقُها، ونجعلها ومن فيها طعمة لأسماك بحارنا، وصيدًا رخيصًا لشباكنا الكريمة...

صوت قادم من بعيد : يا رجال الجمالية أسرعوا، أسرعوا، تَقَدّمْ الصفوف يا شيخ إبراهيم.

الشيخ إبراهيم: ماذا وراءك أيها الأخ الكريم؟

الصوت : لقد غاصت سفن العدو في الوَحْل، ولم تعدْ تستطيع الحركة، لقد جفت مياه بحر أشمون.

الشيخ إبراهيم: الله أكبر، الله أكبر، وهو منطلق، ومن خلفه الجماهير والجموع في ضجيج، وطلقات الرصاص تنطلق في تلاحق وكثرة..

((وتقول كتب التاريخ أن كثيرًا من هؤلاء الجنود الذين أعدهم نابليون لغزو مصر كانوا يعرفون اللغة العربية)) ثم تلتحم الجماهير في معركة حامية، تُسمع فيها صلصلة السيوف، وفرقعة الرصاص، وتستمر أصواتُ المعركة، ثم تسمع خلالها أصوات الاستغاثة من بين الفرنسيين:

يا فرديناند ألحقني، يا موران أنا خلاص انتهيت.

هؤلاء وحوش.

أصوات من الجرحى الفرنسيين: أين الجنرال «فيال» يا جاك؟

جاك : لقد أمر بالانسحاب، فقم حالاً لنتعلق بأحد جوانب سفننا المنسحبة، فقد أدارت ظهورها جميعًا، وسنعود من حيث جئنا، ولقد أحرقنا قرية الجمالية، وأضرمنا فيها النيران من كل ناحية.

نفس الصوت الأول مخاطبًا»: وهل نجح الجنرال لوجييه في نفس المهمة التي يقوم بها الجنرال «فيال».

جاك : هذا بعيد. بعيد جدًا. فقد رد حسن طوبار على هذه المحاولة حين بلغته، قائلًا في الجموع الشعبية الغفيرة :

حسن طوبار : أيها المواطنون، أيها الشجعان الأبطال، إن هذه الحماقة النكراء، وهذه الجريمة البشعة، اللتين تتمثلان في إضرام النار بقرية الجمالية، وإزهاق أرواح برئية، كان أصحابها يدافعون عن حقوقهم المقدسة، وأعراضهم المصونة.

إنني مسئول عن رد هذه الإهانة، التي لحقت بمواطني وأهلي وقريتنا المكافحة «الجمالية».

هتاف : يحيا أبطال الجمالية، في ذمة الله يا شهداء الحرية، إلى الجحيم يا فرنسا، إلى الجحيم أيها الغزاة.

أيها الأبطال :

إنني قوي بكم، ونحن أقوياء ؛ لأن قوة المؤمنين من قوة الله، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشدَّ بعضه بعضًا، وأن نفوذي مستمد من هممكم الجبارة، وعزائمكم القوية، وعنادكم في سبيل الحرية والكرامة.

وإنه ليملؤني فخرًا أن أتلو عليكم ما كتبه عنّى الجنرال الفاشل «لوجييه» إلى سيده المغرور نابليون الموجود بالقاهرة الآن، يسمع كل يوم أنباء هزائم قواته المغلوبة بأمر الله. قال «لوجييه» إننا لن نستطيع أن نضع يدنا على حسن طوبار بسبب نفوذه العظيم بين أهله، ولأنه يستطيع أن يطوقنا بمقاومته الشعبية الباسلة. والفضل لكم أيها الإخوان: والفضل ما شهدت به الأعداء.

(تصفيق وهتاف بحياة البطل المناضل قاهر الفرنسيين الخونة)

ولقد علمتُ أيها السادة من لحظات أن الجنرال الفاشل «دوجا» قد صدرت له أوامر من شيطانه الرجيم نابليون بأن يقضى على «حسن طوبار»، وعلى المنزلة بأسرها؛ ليطمئنَ على جنوده، التي تريد أن تعبث في بلاد « البحر الصغير» فسادًا بين المنصورة والمنزلة، وليقف على الحدود بين مصر وسورية، ولن يستطيع بعون الله أن يغرق الإخوة الأشقاء في مصر وسورية، ولن يكون الدم العربي ماء أبدًا، فسننتقم وسننتقم، فاستعدوا للقاء الجنرال المهزوم «دوجا» فإنه في الطريق إلى المنزلة.

أصوات أهل المنزلة: مرحبًا بالموت في سبيل الحرية، مرحبًا بالاستشهاد في سبيل الوطن، إلى الجحيم يا فرنسا، إلى الجحيم أيها الخونة.

(تتلاشي الهتافات تدريجيًا - ويعود صوت الابن يسأل أباه)

مصطفى يسأل والــــده: ثم كيف انتهى مصير هذه الحملة أيضًا؟ وكيف لقي أهل المنزلة أعداء البلاد من الفرنسيين مصاصي دماء الشعوب؟

مـــحـــمـــود المـــنـــزلاوي لابنـــه : لقد حدث يا بُنَي أن جاء «دوجا» إلى « المنزلة» في حملة عسكرية ضخمة، ولم يطمئن نابليون، فعزز هذه الحملة بكتيبة أخرى تحت قيادة الجنرال « أندريوس» وما أكثر جنرالات فرنسا الخائبين في الماضي البعيد. والماضي القريب، أيام هتلر، والحاضر الراهن، في الجزائر الباسلة ما أكثرهم، وما أفشلهم.

اتجه « أندريوس» يا بُنَي إلى بلدنا « المنزلة « بطريق البحيرة.

(وهنا تُسْمع أصوات الحملة البحرية، صفارات ومدافع، تنطلق في رهبة، وجلبة، وضجيج)

رجل من أهالي المنزلة : أخلوا العزبة، وسارعوا في إخلائها، ولا تتركوا فيها إلا الشيوخ والعجائز من النساء.

(وهنـــا تقترب أصـــوات الحملـــة البحرية بضجتهـــا، ونيران مدافعها، ودوي الرصاص من كل جانب)

مـــصـــطـــفـــي (لأبيه: وإلى أي غاية انتهى مصير هذه الحملة يا أبي؟

مـــحـــمـــود (لابنه): اقتربت السفن الحربية، وهي تتهادى في طريقها منسابة فوق المياه؛ حتى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من المطرية، وحينما كانت تجثم بعض الجزر التي كان حسن طوبار رابضًا خلفها بمراكبه المحشودة، بنيرانها وفتيانها، وصياديها الرماة، واشتبكت مع سفن العدو في قتال رهيب، فأصلوها نارًا حامية.

مصطفى : وهل انتصر الفرنسيون يا أبي؟

محمود : كان انتصارًا، خير منه الهزيمة.

فلم تقدر هذه الحملة بمفردها على مواجهة حسن طوبار ورجاله، بل خَفَّتْ لها النجدات والإمدادات والعَتَاد، وعلى الرغم من هذه النتائج التي حققتها جيوش الغدر والخيانة، فقد ظل اسم حسن طوبار البطل الشعبي المكافح يقضُّ مضاجع الطغاة من الفرنسيين الجبناء، ولن ينسى التاريخ بطولة هذا القائد المناضل، الذي أرهق الفرنسيين ببسالته الصميمة في سبيل حرية بلاده، وبطولته الخالدة في الذود عن كرامة الشعب العربي العريق، مهد الرسالات والبطولات منذ أقدم عصور التاريخ، حتى عصر جمال عبدالناصر.

ولقد غادر حسن طوبار مصر إلى سورية كارهًا أن تتأذى عيناه برؤية هؤلاء المستعمرين يدنسون بلاده، وكأنه بذهابه إلى سورية يشير من وراء الغيب إلى هذه الوحدة التي حققها شعب سوريا ومصر في هذه الأيام[1].

(وهنا تقترب عودة ضجة موكب الرئيس الذي كان منطلقًا في طريق قبر حسن طوبار، بعد أن وضع الرئيس طاقة من الزهر عليه ؛ تحية وتقديرًا للبطل العربي المناضل).

(ويشتد الهتاف لقائد العرب وبطل الشرق ومحطم الاستعمار)
ويستمر الهتاف أثناء المحاورة التالية)

الابن : لقد عاد ركب الرئيس البطل جمال عبدالناصر بعد أن زار قبر البطل حسن طوبار، وبيده سيفٌ لامع مصقول.

الأب : هذا السيف هو الذي حارب به حسن طوبار الفرنسيين. وقد قدمته أسرة طوبار للبطل الزعيم جمال عبدالناصر. وقد أمر الرئيس أن يصير بيتُ البطل حسن طوبار مُتْحفًا، ويقام عند مدخله تمثال نصفي للبطل.

---

(١) : حدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨م.

الطفل يهتف، عاش جمال عبدالناصر، عاش محرر الشرق، عاش البطل

عـلـى حـين يخلد ذكرى الأبطال.

غِرة[1]،

بعد أن سمع كلام أبيه، فيردد الجميع الهتاف :

---

(١) غِرّة : غفلة.

(٦) قاهـر الاستعمار..![1]

المكافح السوداني البطل
على عبداللطيف

« أصوات خافتة تحمل معني التحيات، يتبادلها المجتمعون سرًا في بيت الحاج صالح، وهو وطني من أهالي دارفور»[2] - وقد اجتمعوا؛ ليتفقوا على القيام بمظاهرة يودعون فيها الضابط «على عبداللطيف» الذي تقرر نقله إلى «وادي مدني»[3]

الحاج صالـــح : أهلًا وسهلًا بأعيان دارفور. شرفتم بيتي، القهوة يا ولد.

الحاج حسام : يا حاج صالح. الوقت لا يسمح بالقهوة، وقد حضرنا لك في هذا الوقت المتأخر من الليل لأمر خطير جدًا.

الحاج صالـــح : خيرًا إن شاء الله يا حاج حسام ؟

الحاج حسام : علمنا أن المستعمرين قرروا ترحيل الضابط الوطني الغيور على عبداللطيف إلى «وادي مدني» في فجر غد.

الحاج صالح: لقد عرفت هـذا، وقد كان السبب المباشر في إبعاده عن دارفـور، هـو خطبته التي خطبها في المسجد يوم الجمعة الماضي.

الشيخ مبارك : والأمر الذي أثار جنون المستعمرين وسخطهم هو موضوع «الخطبة»، فقد تكلم على عبداللطيف عن الزعيم المصري «سعد زغلول» وعن إشعاله لروح النضال في قلوب المصريين في خُطَبه النارية.

[[يُسْمع طَرْقٌ على الباب]]

صـــــوت : افتح يا حاج صالح. أنا ياسر الميمون.

الحاج صالـــح : مرحبًا. مرحبًا.

[[يُسمع فتح الباب]]

---

(١) ترك «الغزالي» هذا الموضوع مكتوبًا على الآلة الكاتبة ضمن أوراقه.

(٢) دارفور : منطقة واسعة بالسودان، يشتد الصراع فيها الآن بين الثوار والحكومة.

(٣) وادي مدني : منطقة أخرى بدولة السودان.

الحـــاج صـالـح تفضل يا شيخ ياسر.

(مستمر)

الـشـيـخ يـاسـر : لقد علم المستعمرون بما تبيتونه، فأجَّلُوا ترحيل على عبداللطيف غدًا - إلى فجر يوم قريب، وقد نصبوا لكم هذا الفخ ؛ ليقبضوا على كل من يتظاهر لتوديع « علي».

الحـاج صـالـح : إذن فعليك أن تخبرنا باليوم الذي سيرحل فيه إلى « واد مدني».

الشيخ يـاسر : إن شاء الله، والسلام عليكم،

المجتمعـون : والسلام عليكم يا حاج صالح.

ينصرفــون : السلام عليكم يا حاج صالح.
إلى اللقاء يا حاج صالح.

الحـــاج صالح شرفتم. ومع السلامة.

[[[موسيقى]]]...... يليها (صوت مؤذن لصلاة الفجر)

(ثم تُسْمع همهماتٌ في المسجد تتبين عند تجمع المصلين للخروج؛ لتوديع الضابط علي عبداللطيف، وهو في طريقه إلى « وادِي مدني».

أصـــوات المصلين: دارفور تحيّي البطل على عبداللطيف، شعب دارفور يودع ابن الشعب البار. مع السلامة يا قاهر الاستعمار. إلى الأهل والإخوان بواد مدني.

عـلـى عبداللطيف يا شعب دافور. أحييكم وأستودعكم الله، وإني أعاهدكم على أن نظل قلبًا واحدًا ويدًا واحدة في مواجهة الاستعمار والمستعمرين؛ حتى يحصل وادي النيل من جنوبه إلى شماله على حقه في الحرية والكرامة والاستقلال. أعاهدكم على أن أبذل آخر قطرة من دمي في سبيل مصر والسودان، إن العهد كان مسئولًا..

[تصفيق وهتاف بحياة الشقيقتين مصر والسودان. وحياة المجاهد البطل علي عبداللطيف]

[[[موسيقى]]]

[[يُسْمع صهيل جواد ووقع حوافره، وقد اعتلى صهوته الضابط « علي عبداللطيف» وهو يسير في أناة وبطء]]

مستر منرو (نائب مدير النيل الأزرق): يا كابتن على - هلْ جئت لوادي مدني مطرودًا أم للفسحة والنزاهة؟

علي عبداللطيف: هذه حريتي الشخصية، وليس لك حق التدخل فيها.

مستر منرو: لكن كيف تسمح لنفسك أن تكلمني وأنت فوق حِصانك؟

علي: وكيف تسمح لنفسك أنت أيضًا أن تكلم ضابطًا من أبناء الشعب بهذه اللهجة، وأنت وأمثالك دخلاء ومستعمرون.

مستر منرو: أنت أهنتني، وسأبلغ محافظ النيل عن هذه الإهانة، إذا لم تبِع لي هذا الحصان.

علي عبداللطيف: بلغ من تشاء، أما عن رغبتك في شراء هذا الحصان، فأنا لا أمارس تجارة الخيول.

[[[موسيقى]]]

[[بائع صحف ينادي]]

[جريدة الأخبار المصرية، الأخبار، علي عبداللطيف يحتج، أمين الرافعي يتكلم، على عبداللطيف يُنْقَل إلى الخرطوم]

صوت: اقرأ لنا من فضلك هذه الاحتجاجات المنشورة في صحيفة الأخبار.

صوت: اسمع يا سيدي هذا العنوان الكبير «علي عبداللطيف يحتج على تعسف المستعمرين، وتمثيلهم بضباط الشعب، وجميع طوائفه بالسودان... «واسمع هذا العنوان الثاني» أمين الرافعي يُحذِّر المستعمرين من النتائج الوخيمة التي تنتظرهم على يد أحرار السودان، وشعبه الذي سيحطم القيود والأغلال».

الصوت الأول: وأين علي عبداللطيف الآن؟

الصوت الثاني: يقيم في بيت أقربائه هنا في الخرطوم، وهو موضوع تحت المراقبة.

الصوت الأول: وهل لإخوانه الضباط علم بالذي يحدث الآن ؟

الصوت الثاني: إن إخوانه في السلاح في ثورة ملتهبة، وينتظرون بفارغ الصبر، على أي وضع سينتهي هذا الأمر، وأن الشعب كله لينظر إلى ابنه الضابط علي عبداللطيف، كرمز للجهاد والتضحية والكفاح من أجل حرية وادي النيل وكرامته واستقلاله.

[[[موسيقى]]]

(بائع الصحف ينادي)

جريدة الأخبار المصرية.. القبض عَلَى/ عَلِي عبداللطيف وسَجْنه

الصوت الأول: ماذا في جريدة الأخبار يا سيدي؟

الصوت الثاني: فيها يا سيدي عنوان « تشكيل المحكمة العسكرية لمحاكمة الضابط علي عبداللطيف، منع بعثة الدفاع والمحامين المصريين من دخول السودان؛ للدفاع عن الضابط السوداني البطل علي عبداللطيف.

الصوت الأول: هذه أمور خطيرة، ولا يمكن أن ينام شعب السودان على الضيم، وهناك ضابط من أبناء الشعب يُنَكَّلُ به هذا التنكيل.

الصوت الثاني: إن السودان يغلى كالمِرْجَل[1]، وإن ثورة الشعب آتية لا ريب فيها، وسيرى المستعمرون أي منقلب ينقلبون.

[[موســــــيقى]]

الصوت الأول: هل علم علي عبداللطيف بأن المستعمرين مَنَعوًا المحامين المصريين من دخول السودان للدفاع عنه؟

الصوت الثاني: لقد استطاع الوطنيون أن يتصلوا به في سجن الخرطوم، وعَرَّفوه حقيقة الموقف، وأنه سيواجه المحاكمة بمفرده، وعليه أن يمتنع عن الإجابة عن أي سؤال، ما دام قد مُنِع من حق الدفاع عن النفس.

الصوت الأول: ما هذه الجموع القادمة من بعيد، تكاد تحجب ضوء الشمس؟

---

(١) المرجل : القدر، وهو إناء مصنوع من النحاس أو الفخار، تُغْلَى فيه السوائل وغيرها.

الصوت الثاني هـذا هـو شعب الخـرطـوم، بـل شعب الـسـودان كله جاء؛ ليحضر المهزلة التي يمثلها الاستعمار اليوم في المحاكمة العسكرية الملفقة التي سَتَبُتُّ في أمر ابن الشعب البطل على عبداللطيف.

[تقترب جموع المتظاهرين، وهى تهتف في حرارة بالبطل علي عبداللطيف، وحياة مصر والسودان]

أصوات مختلفة عاش علي عبداللطيف، عاش البطل ابن الشعب، عاش السودان حرًا مستقلًا، دُمْنَا فداء السودان وأبنائه الأبطال إلى المحكمة، إلى المحكمة.

صوت حارس من قوة المستعمرين أيها الجمهور، غيرُ مسموح لكم بدخول المحكمة، فعليكم بمراعاة النظام والهدوء.

أحد المواطنين سندخل المحكمة سواء رَضِيتم أم لم ترضَوْا، وسنقف على أسوارها؛ لنسمع ونرى ماذا أنتم صانعون بالبطل ابن الشعب.

وطني آخر ومتى عرفتم النظام أيها الدخلاء؟ دعونا ندخل. ادخلوا حتى تمتلئ قاعة الجلسة.

[[حركة دخول]]

حاجب الجلسة ينادي محكمة.

[[تهدأ الحركة قليلًا قليلًا ؛ حتى يسود الصمت]]

صوت القاضي الأجنبي : دافع عن نفسك يا حضرة الضابط.

علي عبداللطيف اسمع يا حضرة القاضي.. كيف تستحِلُّ أن تجلس على هذا الكرسي الذي لا يمثل أي عرف أو شريحة قانونية في بلد أنت أجنبي بالنسبة له ؛ لتحاكم ابنًا من أبنائه وضابطًا من حراسه، إن هذه المحكمة العسكرية التي تمثلونها ما هى إلا وصمة عار، ستظل تلطخ جباهكم بالخيانة والخسة والنذالة على توالي العصور والأجيال.

القاضي دافع عن نفسك، فقد رفض المحامون المصريون أن يدافعوا عنك.

علي عبداللطيف هذا افتراء وكذب، إن المحامين المصريين مُنعوا من دخول السودان عندما وصلوا إلى « الشلاَّل» ولم تمكنوهم من حضور هذه المحاكمة؛ ليقوموا بواجب الدفاع عن شقيق لهم في الدم والدين، والوطنية. وأظن أنك لم تكن تتوقع أن تكون بيدي هذه البرقية المرسلة من مصر، ومن نقيب المحامين المصريين :

اسمع يا حضرة القاضي

مَنَعَتْ قوة الاستعمار الغاشمة دخول المحامين المصريين السودان الشقيق؛ ليتمكنوا من القيام بواجب الدفاع المقدس عن البطل ابن الشعب السوداني الحر، الضابط الوطني الغيور علي عبداللطيف، وأنا من أجل هذا أرفض الدفاع أمام محكمة غير شرعية فَقَدَتْ كل مقوماتها القانونية، وليست إلا وسيلة خبيثة للتمثيل والتعذيب بأبناء الشعب، الذين يسعدهم أن يضحوا بحياتهم في سبيل حرية بلادهم، وكرامتها.. أيها الشعب السوداني المكافح.

إنني أشهد الله، وأنا بين يدي هذه المحكمة غير العادلة أنني سأبذل دمي وحياتي في سبيل بلادي.. وعاش السودان.. ولتحيا مصر [[[تصفيق وهتاف]]

يحيا البطل علي عبداللطيف، يحيا الجندي الباسل

كلنا فداء السودان، كلنا فداء مصر

عاش النيل الخالد...

القاضي الحُكْمَ الحكم....

الأجنبي وهنا يشتد الهتاف بحياة السودان ومصر

وكلما ترددت كلمة «الحكم» تهتف الجماهير في عنف وحرارة بحياة البطل على عبداللطيف.

علي عبداللطيف مرحبًا بالسجن، مرحبًا بالاستشهاد، مرحبًا بهما في سبيل البلاد، انزعوا أيها المستعمرون هذه النجوم، فلم تُعَد شرفًا لي بعد أن لمستها أيديكم الدنسة الهزيلة، ولقد شرفني شعبي المفَدَّى بقلادة كلها فَخَار وشرف ومجد، وسوف لا ينعم لنا عيش أرضنا الكريمة حتى نُطَهّر بلادنا من الاستعمار والمستعمرين..

والله معنا وهو نعم المولى ونعم النصير....

(٧) من حقائق التاريخ

«وحدتنا العربية»(١)

أصداء لموسيقى عميقة كأنها آتية من بعيد.. من بعيد.. بُعْدَ التاريخ.. وقبل أن يتلاشى الصدى ينبعث صوت عريض قوى.. صادر من الأعماق.. صوت التاريخ

التاريخ: أنا التاريخ البعيد القريب.. أنا السجل المطوي المنشور.. كَتبتُ كفاح العرب المنتصر، ونضالهم المقدس، وآمالهم المشتركة . يوم كانوا جبهة واحدة، تجمعها وحدة كبرى، وإيمان عميق بحق العرب في حياة العزة والحرية والكرامة.

[[موسيقى]]

أنا التاريخ : سجلت بدم العرب الأحرار أخلدَ صفحاتي، يوم صارعوا الاستعمار، وقهروا جحافلَ العدوان في عزة وغلبة، وانتصار..

[[[موسيقى]]]

(١) وجدنا هذا الموضوع ضمن تراث «الغزالي» مكتوبًا على الآلة الكاتبة وبدون تاريخ، وله ثلاثة عناوين، أولها في أعلى الصفحة يمينًا، وصيغته (في سبيل المجد)، وثانيها في منتصف الصفحة، ولفظه « من حقائق التاريخ «وأخيرًا» وحدتنا العربية» الذي كتب في أسفل السابق له.

أنا التاريخ: أعيد اليوم نفسي، بين عهدين.. بين بطلين عاشا ويعيشان في وحدة قديمة قريبة.. متجددة.. أيام الحملة الصليبية سنة ١٠٩٧م، في زمن الناصر يوسف صلاح الدين.. فارتدت الحملة على أعقابها، أمام وحدة العرب المنيعة، ثم كانت الحملة الصليبية الأخيرة في هذه السنين، عام ١٩٥٦م، ثم تحطمت على صخرة المدينة الخالدة «بورسعيد».. المدينة الباسلة التي افتدت العرب والعروبة في ظل الظافر المنتصر جمال... الذي حمل المشعل فأنار الطريق.. طريق الوحدة، التي سارت فيه أمم العروبة جمعاء، منذ أن خطا فيه الشيخ حسام الدين، أولى خطواته من أرض مصر قاصدًا العدو البغيض، من الفرنجة الزاحفين على سواحل الشام، وأرض الجزيرة.

[[[[موسيقى]]]]

خالد بن عمار: أيها الأبناء الأبطال.. يا أبنائي الأوفياء.

شيخ من شيوخ مصر الوطنيين وله أبناء سبعة:

أبناء الرجل: لبيك يا أبانا.

خالد: سَيُبْحِر قُبيل فجر هذه الليلة أسطول مصر بقيادة حسام الدين لؤلؤ، متجهًا برجاله ومعداته إلى خليج العقبة؛ ليبدد مراكب الفرنج الغازين، الغادرين.

جهاد: وقد علمنا يا أبي أن مدينة «أيلة»[1] سقطت في أيديهم، وأن الفرنجة أسروا رجالها ونساءها، ولم تأخذهم رحمة بالأطفال فألقَوْا بهم في قاع البحر.

---

(١) أيْلَة : تطلق على عدة مواقع، فهي مدينة على ساحل بحر القلزم (خليج العقبة)، وقيل هي آخر الحجاز، وأول الشام، وقيل هي مدينة لليهود الذين حَرَّم الله عليهم صيد السمك في يوم السبت، فخالفوا فمُسخوا قردة وخنازير، وقيل غير ذلك، معجم البلدان، ج١، ص٢٩٢.

نـــــصـــــر :ولِمَ كَتَمْتَ عنا هذه الأخبار يا جهاد، إننا لن نكون عربًا إذا تركنا إخوانًا لنا في هذا الصراع الرهيب.. والآن إلى المعركة أيها الأشقاء، فالعرب شعب واحد، وأمة واحدة.

خالد (أبوهم): يا أبنائي الأوفياء، أوصيكم أن تُنادوا في الحي ؛ لينفرَ الشعب للقتال، وبعد قليل سينفخ في الصور؛ ليستيقظ النيام من مراقدهم، وليأخذ كلٌ طريقه إلى الأسطول، هناك في الشاطئ الغربي من النيل.

[[[موسيقى]]]

فترة قصيرة جدًا

تؤذن بوقوع أحداث التعبئة

صوت يشبه أصوات السفن المحاربة

ينطلق ليتجمع الناس، وتحتشد الجماهير

جَلَبَة، وضجيج، وطبول، وأبواق تُعطي أصواتًا غريبة تُنْذر بتحرك الأسطول المصري؛ ليأخذ طريقَه إلى سواحل الشام والجزيرة.

حسام الدين: أيها الشعب المصري، إننا في طريقنا بعد قليل لنشق عُبَاب البحر؛ (قائد الأسطول) لنخلص مدينة «أيلة» من يد الفرنجة الخونة، الذين يتربصون بالعرب الدوائر؛ لينقُّضوا عليهم انقضاض الصاعقة، ولابد لكى ندرأ خطر المستعمر الزاحف على أوطاننا العربية، من أن نقف صفًا واحدًا؛ لنرد الصليبيين على أعقابهم مهزومين، ولن يُقْهر الشعب العربي أبدًا، ما دام يقف صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا، فإلى المعركة المشتركة والله ناصر العرب في تعاونهم ووحدتهم، وكان حقًا عليه نصر المؤمنين.

[[[موسيقى]]]

تنطلق صفارات الأسطول موذنة بتحركه

أصوات : انزعوا مراسي الأسطول، فكوُّا السلاسل عن الأعمدة على الشاطئ؛ ليندفع الأسطول، باسم الله مسيرُه ومُرْساه.

حسام الدين: أيها الربابنة، لقد لاحت سواحل الشام، وأصبحنا على مقربة من مراكب العدو، فاستعدوا.

أصوات أحد الربابنة: أيها القائد، إننا على أتم استعداد.. وقد زِدْنا سرعة الأسطول وها هو ذا الآن يندفع بسفنه كالجبال فوق الأمواج، فاللهم اقذف الرعب في قلوبهم، وانصرنا عليهم، فأنت خير الناصرين.

خالد للربابنة: يا قادة الأسطول، افتحوا أفواه النيران، وخذوهم من كل جانب وارموا بكتل اللهب على كل مركب وسفينة..

«تسمع أصوات الاستغاثة من مراكب الفرنجة في أصوات غريبة، كما يُسْمع صوت اصطدام السفن الصليبية ببعضها بين هدير الأمواج، وفرقعة قاذفات اللهب..» (معركة بحرية)

حسام لقواد الأسطول: أيها القواد العرب.. كفُّوا عن الضرب، فقد استسلموا ورفعوا راية الانكسار والهزيمة، وادخلوا بسفنكم عليهم في حَذَرٍ، فهم أهل غدر وخديعة.

هشام : يا عمرو هذه سفينة تميل بجانبها، وستغرق لا محالة.

عمرو : دعها يا هشام يبتلعها الموج.

هشام : خلقنا العربي، وديننا السمح يحتمان أن ننقذ الغريق، ونرحم المهزوم.

خالد : أيها الجنود، ليغادر كل منكم مركبه، ومعه سلاحه وذخيرته، وادخلوا مدينة «أيلة» من كل ناحية، والتحموا مع أعدائكم من الصليبيين هناك، فما زالت المعركة دائرة بين العرب والفرنجة في الأزقة وفوق أسطح المنازل، وعليكم أن ترجعوا بهم أسرى في السلاسل والأغلال.

الجنود : (من شعب مصر) هيا إلى المعركة.. هيا إلى الخونة.. هيا إلى المستعمرين السفاحين.

[[[موسيقى]]]

وتمر فترة قصيرة، ثم تظهر أصوات الأسلحة النارية تنطلق في تتابع وضجيج، ثم يظهر هذا الصوت :

هشام : أيها القائد: هؤلاء هم الأسرى الأذلاء من الفرنجة، فَبِمَ تأمر فيهم؟

حسام الدين: ارموهم فوق أرض سُفُنِكم، ولتعد بهم بعضُ مراكب الأسطول إلى مصر، أما أنا وأنتم فسنتجه من فورنا إلى دمشق؛ ليلتقي الشعبان المصري والسورى في المعركة القادمة مع المستعمرين الأنذال، فسوريا ومصر حريصتان على بقاء الوحدة التي تربط العرب جميعهم برباط الكفاح والنضال، تحت راية قوميتهم الباقية طول العصور والأجيال، وإن أخي صلاح الدين سيحضر بنفسه ومعه جنوده وعساكره، من شعب مصر؛ ليؤكد الوحدة العربية التي لن تقوم للعرب قائمة بدونها.

[[[موسيقى]]]

عمرو: هذه بساتين الشام، وهذه مروجها الخضراء. وما هذه القلاع؟! لعلها قلاع الصليبيين. ولقد علمت أن صلاح الدين كلَّف وزيره القاضي الفاضل أن يكتب للخليفة العباسي رسالة جاء فيها: إن الفرنج قد بَنَوا قلاعًا، يضايقون بها البلاد الشامية.

هشام: وربما لا تعلم يا عمرو أن صلاح الدين، حذَّر شمس الدين بن عبدالملك، كما أنذر ابن الداية، بأن في وحدة العرب عزتَهم وقوتَهم، وفي تفرقهم خدمة لمصالح الفرنج الطغاة المستعمرين.

أصوات: عاشت مصر، وعاش صلاح الدين، شعب سوريا يحمي مصر، مصر وسوريا شعب واحد، هدف واحد، ومجد واحد.. مرحى.. مرحى.. أهلًا.. أهلًا.

(وتكرر)

[[تهدأ الهُتافات والترحيب بمجيء صلاح الدين على رأس قوة كبيرة من أبناء مصر وجنودها المحاربين]]

هشام: من صاحب هذه الدار التي نزل فيها صلاح الدين؟؟

رجل من دمشق: أتجهلها يا سيدي ؟ من أي بلد عربي أنت ؟

هشام: أنا من مصر.

الدمشقي: أهلا وسهلا ومرحبًا.. أجئت مع صلاح الدين ؟

هشام: لا يا سيدي أنا من رجال الحملة التي هزمت الصليبيين، وأخرجتهم مهزومين من مدينة أيلة وخليج العقبة.

الدمشقي عاشت مصر مع سوريا، وعاش النيل موئل العروبة وموطن الأحرار.

هذه يا أخي دار أبيه نجم الدين، وصلاح الدين يستريح الآن، ويخلو إلى الله ؛ ليشكره على نجاته من الشر الذي كان قد دَبَّره له الصليبيون، وهو في طريقه إلى هنا.. إلى دمشق، وكاد يقع هو وجنوده فريسة عند « الرملة»[1] ولكن الله نجاه ونصره عليهم، وقد أخذ الله على نفسه نصر المؤمنين.

[[[موسيقى]]]

التاريخ : أنا التاريخ، وقد ظل صلاح الدين ينتقل من نصر إلى نصر، في ظل الوحدة العربية الشاملة، الضاربة بجذورها العميقة في أرض العروبة منذ قديم الأزمنة والأيام، وظلت هذه الجذور تمتد عبر العصور والأجيال؛ حتى التقي العصران وتعانق العهدان، وكما طوى صلاح الدين صفحة خيانة الصليبيين الغزاة عام ١٠٩٧م، طوى جمال رائد العروبة صفحة الخِسّة التي كتبها الصليبيون الطغاة عام ١٩٥٦م يوم تحطموا على أرض الصخرة الخالدة بورسعيد، التي سجلت أروع مواقف الوحدة بين أقطار العرب أجمعين.

(١) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين – معجم البلدان، ج٣، ص٦٩.

شهر زاد الجديدة

والشيوعيون العملاء

(٨) نار الهشيم [١]

[[تُسمع أصوات مظاهرات للشيوعيين.. من بعيد..]]

هـــتـــافـــات يعيش الزعيم الأوحد..[٢]

الشيوعيين : الموت للخونة..

الموت لأعداء الشعب..

شهر زاد : كلمات حق يُراد بها باطل.

سالم الموصلى: يا سيدي.. إن جموع الشيوعيين تقترب.. ابتعدي عن طريقهم

شهر زاد: وماذا أخشاه منهم....؟ ومنَ أنت أيها الشيخ ؟

سالم : أنا سالم الموصلي، لقد تسللت من الموصل في ظلام الليل، الرهيب، حين باتت الموصل تسبح في بحر من دماء الشهداء الأبرياء، ولم أسلم من أمرهم، فقد ذبحوا زوجتي وأطفالي أمام عيني.

شهرزاد: لست أخشى القتل...

شاعر الشعب: إنهم سيصلون إليك.. هنا بعد قليل..

شهرزاد: لن يصلوا إليّ.. إنني أتحداهم..

شاعر الشعب: يا سيدي.. إنهم بلا عقول..

شهرزاد: عقلي أكبر من عقولهم..

شاعر الشعب: إنهم يدفنون أعداءهم أحياء..

شهرزاد: أنا التي سَتَدْفنُ غرورَهم حيًا..

شاعر الشعب: يا سيدتي.. إنَ شجاعتك تشبه الجنون..

شهرزاد : شجاعتي.. ظل حكمتي..

شاعر الشعب: لم أر في حياتي لك مثيلًا..

[[تقترب مظاهرة الشيوعيين، وتُسمع هتافاتهم أكثر..]]

سالم: سيدتي.. إنهم يقتربون..

شهر زاد: إنني أتحداهم.. لأنني.. أقوي منهم..

سالم : بالله... من أنت..

---

(١) ترك الغزالي هذا الموضوع مكتوبًا على الآلة الكاتبة وبدون تاريخ.

(٢) لعل القصد شخصية الرئيس «جمال عبدالناصر»، إذ أن بعض الشيوعيين كانوا يرونه قريبًا منهم زمن الاقتراب من الاتحاد السوفيتي.

شهرزاد : أنا الحكمة والفضيلة والحق.. فهل عرفتني..؟ أنا شهرزاد الجديدة
سالم : أنتِ شهرزاد.. إن الحكمة والفضيلة والحق أطياف لنور واحد هو الشعب..
شهرزاد : انظر إليهم..
سالم : إنني لا أرى شيئًا.. سوى خسّتهم..
شهرزاد : إنهم يقتلون بلا رحمة.. وبَلا عَدل..
سالم : إن الشعب سينتقم منهم.. وإن يومهم لقريب..
شهرزاد : إن التاريخ يكرر نفسه..
سالم : لأشد ما أريد أن أسمع منك.. قصة التاريخ..
شهرزاد : سأقصها عليك يا سالم؛ لأعيد إليك الثقة والشجاعة والأمل..
سالم : أريد أن أسمع منك.. إنَّ كلماتك تملأ نفسي بالقوة، وتفتح أمام قلبي طريق الحياة..
شهرزاد : إن هؤلاء العملاء نار الهشيم.. ترتفع لحظة.. ولكنها تَخْمُدُ إلى الأبد.. ومثلُ هؤلاء.. تمتلئ صفحات الأجيال..
سالم : أريد أن أسمع منك..
شهرزاد : في هذه المدينة الخالدة.. في مدينة السلام نفسها كان يوجد حاكم.. كهذا الزعيم الأوحد.. عكف على اللهو والشراب.. ونسي الشعب.. وترك الأحداثَ من حوله تَجِدُّ وهو يلعب.. وكان له أخ فاضل.. ساءه ما وصل إليه أخوه، فقام لينتصر للفضيلة وللحكمة.. وللشعب..
سالم : أتعنِينَ الأمين والمأمون.. ؟
شهرزاد : أجل هذا هو ما أعنيه.. وما أردت به إلا أن أجعلك تبصرُ بعينيك مصير هؤلاء، فقد نسي الأمين الشعب، كما نسيه الزعيم الأوحد.. وجعل إعفاءه، ليبقي في الحكم على العيّارين[1] كما جعل الزعيم الأوحد اعتماده على الشيوعيين العملاء، فهؤلاء هم هؤلاء..
شاعر الشعب: أكان العيارون شيوعيين...؟
شهرزاد: إنهم هم.. وإن لهم منهم الضغينة للبشر، والحقد على الناس..

(١) العياريون : جمع عَيّار، وهم طائفة خارجة على القانون، وهم كثيرو التنقل بلا عمل ويعدون من اللصوص، الذين يحترفون السرقة لأهداف اجتماعية ؛ ويرون الصواب فيها، وقد ذاع صيتهم في عصر الدولة العثمانية، وكان ظهورهم امتدادًا للصعاليك في الجاهلية والإسلام - انظر كتاب حكايات الشطار والعيارين للدكتور «محمد رجب النجار»، عالم المعرفة بالكويت، العدد (٤٥) سبتمبر ١٩٨١م.

لقد كان جل اعتماد الأمين عليهم، بعد أن انفضّ من حوله الناس، وهرب من وجهه الشعب.. ولاذ بقائد المأمون طاهر بن الحسين.. فحين ضاقت بالأمين المذاهب، وسُدّت في وجهه المسالك.. أطلقهم من دار السلام.. يقتلون وينهبون ويسفكون دماء الأبرياء بلا رحمة.. وبلا مُنْجِد.. وأصبحت دار السلام[1] فإذا هي.. فوضي.. ودماء وأحزان..

وإليك الصورة التي رسمها شاعر العراق القديم، يصور فيها بغداد في هذه الفتنة الدامية أيام العيارين، وكأنه يصف بغداد في هذه الأيام.. وهي خاضعة لعصابة الشيوعيين العملاء..

صوت شاعر:

بكت عيني على بغداد لما ... فقدت غضاضة العيشِ الأنيقِ
فقومٌ أُحرِقوا بالنار قَسْرًا ... ونائحةٌ تنوحُ على غريقِ
وسائحةٌ تنادي يا صاحبي[2] ... وقائلةٌ تنادي يا شقيقي
تنادي بالشقيقِ فلا شقيق ... وقد فُقِد الشقيقُ مع الرفيقِ
ومغتربٌ بعيدَ الدار مُلْقي ... بلا رأس بقارعةِ الطريقِ[3]

شهرزاد: أسَمِعْتَ يا سالمُ هذا الشعر القديم الذي يصور بغداد حين نُكِبت بالعيارين.. وهم الشيوعيون القدماء.

سالم : إنها صورة دقيقة لبغداد تلك. وهي تعاني صراع المذابح والمشانق، التي يقيمها في كل مكان الشيوعيون العملاء. ثم ماذا كان من أمر الأمين يا شهرزاد.

شهرزاد : جَمَعَ الأمين وزراءه في قصره.. يستشيرُهم.. لعل عندَهم بقيةً من رأى.. وقليلًا من حكمة.. وبعضًا من شجاعة..

[[يبتعد صوت شهرزاد رويدًا.. رويدًا.. في كلماتها الأخيرة؛ ليظهر صوت الأمين ووزرائه]].

الأمين : يا وزراء الخليفة.. ما الرأي.. ؟

---

(١) دار السلام : هي بغداد.

(٢) في الأصل (يا صاحبي) ونرى وضع بدلًا منها (يا صديقي) لإصلاح الوزن.

(٣) الأبيات من البحر الوافر.

الفضل : الرأي.. رأي الأمين..

(أحد الوزراء)

الأمين : لو كان لي رأي.. ما جمعتكم.. ؟

وزير : يا أمير المؤمنين.. الأمر لك، وأنت الأمين على هذه الأمة.

الأمين : لقد ضيّق طاهر بن الحسين الخِناق على بغداد.. فإن لم تخرج برأيَ هَلَكَتُ.. وهَلَكْتم عليّ.. ما الرأي يا ابن الربيع.. ؟

الفضل بن الربيع : يا سيدي الأمين ما أحشدَ الأمورَ إلّا العيارون.. فقد ألحقتَهُمْ يا سيدي يحاربون المأمون.. وهم في الحقيقة يحاربون الناس.. حتى كادوا ينفضُّون من حولك، ويلوذون بابن الحسين..

الأمين : لو لم يساعدنا العيارون.. لأكلَنا المأمون. اسكتْ فلا رأى لك..

الفضل: تعال.. يا سيدي.. من شرفة قصرك وانظر.. لتعلم أني صادق.

الأمين : قم بنا..

الفضل : تعال سيدي.. انظر..

[[يُسمع صوت فتح النافذة.. فتاتي أصوات الناس.. مختلطة بأصوات السلاح والضرب والقتال...]]

صوت امرأة (صائحة) : ولدى.. الوحيد.. يا قتيل العيارين.. يا قتيل الأمين..

أصوات العيارين : عاش الأمين.. عاش الأمين..

أصوات من جهة أخرى : عاش المأمون.. عاش المأمون.

الفضل : انظر يا سيدي إنهم يقتلون النساء والأطفال والشيوخ، ويُمثّلون بالرجال والشباب.

الأمين إن الناس يجّرون أمامهم.. كالقطيع فاجأتْه الذئاب..

[[تُسمع أصوات الناس، وهي تجرى فزعة]]

الفضل كيف يا أمير المؤمنين.. تريد من وراء هؤلاء النصرَ؟

الأمين إن العيارين يندفعون كالسُلّ. إلى قصري.. ماذا يريدون يا ابن الربيع.. ؟

الفضل انزل إليهم يا أمير المؤمنين.. فإنهم وحوش بلا عقول..

الأمين ماذا أصنع لهم.. ولم يبق في خزانتي مال..

الفضل لوح لهم يا أمير بالأماني.. وعِدهم إلى حين..

الأمين صدقت.. هيا بنا إليهم..

[[تشتد الضجة، وتصخب الجموع، هادرة كالرعد مُزَمْجِرَةً، كالوحوش مندفعة كالسيل]]

الأمين : انفلت الزمامُ من يدي، ولم يبقَ لي حولٌ ولا قوة مع العيارين

(وكأنه يخاطب نفسه)

الحسين : أمينَ الله، ثِقْ بالله (م) تلقَ العزَّ والنصرةِ
رأيتُ الحربَ أحيانًا علينا.. و.. لنا مره

الأمين : وبالله.. يا حسين ما هذا وقت الشعر..

الحسين : أمينَ الله.. خذ كأسًا فإن الكأسَ تُنْسيكا
ودعْ بغدادَ والنّاسَ إلى ظل يواريكا

الأمين : ما عدت أجد للخمر طعمًا أريد أن أنجوَ بنفسي.. يا حسين

الحسين : يا أمينَ الله... عندي لك رأي...

الأمين : قله - فداك نفسي.. فإني غريق..

الحسين : اكتب إلى هرثمة بن أعين[1]، فإنه عربي مثلك.. ودع طاهر بن الحسين، فإنه أعجمي، وهو أعدى العدو..

الأمين : ما أشَرْتَ في حياتك برأي أخلص من هذا.. ولستُ مرسلًا سواك..

الحسين : وسأجعله ينتظرك الليلة في سفينة عند باب خُرَاسان[2]

[[[موسيقى فاصلة قصيرة]]]

الأمين : هرثمة...

هرثمة : أهلًا بالأمين.. انزل إلى..

الأمين : جعلت فداك.. لا يرانا جنودُ طاهر..

هرثمة: لن يصلوا إليك.. وأنا معك..

صوت هامس: إنه ركب السفينة.. انزلوا إلى الماء، واسبحوا تحتها واقلبوها..

أصوات هامسة: سمعًا وطاعة..

[[[يُسمع صوت سِباحهم في الماء..]]

---

(١) هرثمة بن أعين : من القادة الشجعان، وله عناية بالعمران، ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٨هـ ودخل القيروان، ولقي من أهلها كما يحب، فأحسن معاملتهم، وأطاعته قبائل البربر، وبني سور طرابلس الغرب، ونقله الرشيد من ولايته على إفريقيا إلى خُراسان، وتنقَّل بين مدنها، وقُتل سرًا في محبسه بمرو عام ٢٠٠هـ.

(٢) خراسان بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند، معجم البلدان ج٢، ص٣٥٠.

الأمين : والسفينة تميل.. يا هرثمةَ..
هرثمة : لعلها الأمواج.. يا ابن الرشيد..
الأمين : إنها تكاد تنقلب..
هرثمة : ما هذا.. ما هذا، إنها تكاد تنقلب..
[[[يُسمع صوت انقلاب الحراقة في الماء.. يثب هرثمة.. ويثبُ الأمين]]]

الأمين (وهو يسبح) : بالله.. فعلها طاهر الخبيث.. سأسبح إلى الشاطئ.. آه.. لقد وصلت..
صوت من الشاطئ : تعال.. يا ابن الرشيد..
الأمين (في فزع) : مَنْ أنت... لا أراك في هذا الظلام..
الصوت : أنا أُجلُّك.. انتظرُك.. منذ جئت..
الأمين : أنا الأمين أخو المأمون.. خذوني إلى أخي..
الصوت : جهات.. أجهزوا عليه..
[[تُسمع ضربات السيوف]]]
الأمين (صارخًا) : آه.. دعوني.. أنا ابن عم رسول الله.. أنا أخو المأمون..
[[ثم يسكت صوته]]
الصوت : اقطعوا رأسه.. واحملوها
[[موسيقى قصيرة]]
(ثم يُسمع صوتُ هتافات الشيوعية تقترب في وضوح)
شهرزاد: أرايَت نهاية الطاغية.. ومصير العيارين يا سالم.. ؟
سالم : إني أرى مصير الزعيم الأوحد.. إنه مصير الأمين....
شهرزاد : أرأيت العيارين؟
سالم : إنهم هم هؤلاء الشيوعيون العملاء.
شهرزاد: لن يعيشوا طويلا.. غدًا سَيَسْحَقُهم الشعب سحقًا، وستدور عليهم الدائرة، وسيعيد التاريخ نفسه، وسيلحق بالشيوعيين العملاء ما لحق بالعيارين القدماء..
[[إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ]][1]

---
(١) الفجر : ١٤.

(٩) العـــــودة[1]

[[يُسمع صوت إحدى اللاجئات تترنم بالأبيات الآتية

في صوت حزين.. يرافقه ناي يرسل نغمًا باكيًا]]

اللاجئـة : كـان لـي فـي الـلّـد.. أهـلٌ ودیـــــار.......... ونـخـيـلُ[2]

كـــان لـــي زوجٌ شـجـاعٌ كـــان لـــي طـفـل جـمـيـلُ

كـــان لـــي مـلـعـب حُـبٍ ظـــلّـــهُ.... ضـــافٍ ظـلـيـلُ

كـــان لـــي مـجـدٌ وأيّـــا مُ، وتـــاريـــخ طـــويـــلُ

يـــا لـقـومـي.... كـل هذا ضـــاع.. هــذا مـسـتـحـيـلُ..[3]

شهــرزاد: أجل... مستحيل.. مستحيل أن يضيع..
اللاجئة : لكنه ضاع.... يا سيدتي...
شهرزاد : مستحيل... يا سيدتي...
اللاجئة : أترين أننا عائدون......؟
شهرزاد : لابد أن تعودوا.
اللاجئة : بأية وسيلة نعود.....؟
شهرزاد : بالصبر، والإيمان، والاتحاد والتصميم.
اللاجئة : لقد نفد صبرُنا... وها نحن خارج وطننا الحبيب.
شهرزاد: هل نَسيت وطنك......؟
اللاجئة : لن أنسَاه..............
شهرزاد : هل نَسيهُ هؤلاء الأطفال الصغار ؟
اللاجئة: إنهم وَضعوا حُبّه من دموعنا، وعرفوا مجدَه من قصصنا...
شهرزاد : ترى لو طلب منك أن تموتي من أجله.......... أتحبين ؟
اللاجئة: إنني أنتظر ذلك اليوم الذي أموت فيه من أجل وطني.....
شهرزاد : إذن فلابد أن تعودي...... إن الوطن يا سيدتي هو النفس.

---

(١) ترك الغزالي هذا الموضوع مكتوبًا بالآلة الكاتبة.

(٢) اللد : قرية قرب بيت المقدس بفلسطين، معجم البلدان، ج٥، ص١٥.

(٣) الأبيات من البحر الرمل المجزوء.

هو الروح.... وما دامت نفسك حرة، وروحك مؤمنة.... فسوف تحررين وطنك.... وتعودين إليه.........

اللاجئة : لَشَدَّ ما تخفف عني أحزاني كلماتُك.... من أنتِ.... يا فتاة؟

شهرزاد : أنا شهرزاد... أيتها الفلسطينية... أنا الصبر والحكمة والأمل.

اللاجئة : يخيل لي يا شهرزاد.... أن عودتنا أماني وأحلام....

شهرزاد : بل هي حقيقة... يا سيدتي، وسوف أزورك في اللد...... لأؤكد لك أنها حقيقة... فمنذ أجيال يا سيدتي كانت فلسطين تحت حكم الصليبيين... لقد خاضوا لها يوم دخلوها في دماء العرب... وظن الناس يوم ذاك أن فلسطين قد انتهت... إلى الأبد... ولكن ماذا حدث ؟

اللاجئة : (في لهفة) ماذا حدث يا شهرزاد ؟

شهرزاد : أراد صلاح الدين الأيوبي أن يستردها... فَحذَّره الرجعيون وأعوان الاستعمار ودعاة الهزيمة من ذلك؛ حتى قال بعضهم، تفقد إحدى عينيك إن فَتَحْتَ فلسطين.

اللاجئة : فماذا قال لهم صلاح الدين يا شهرزاد....؟

شهر زاد: قال لهم في عزيمة وإصرار « أريد أن أفتحها أعمى» وقد أعد صلاح الدين العدة، وجهز الجيش، وتدرع بالصبر، واتخذ سلامة العزم والثقة والإيمان، وزحف على القدس...

[[يبتعد صوت شهرزاد رويدًا.. رويدًا.. وتُسمع أصوات صهيل الخيول وقعقعة السلاح، وتكبير الجنود.... ويُسمع صوت صلاح الدين...]]

صلاح الدين (يخطب في الجند): يا جنودَ الله... يا جيشَ الأمة العربية... القدسُ أمامكم، والعالَمُ ينظرُ إليكم... لن نَرْجِعَ حتى ندخل مدينتنا، ونطرد الغاصب المعتدى منها... ياجنودَ الرحمن... الجنة تحت ظلال السيوف... طُوبي لمن مات شهيدًا... الزحف... النصر... النصر...

جنـــدى (صائحًا..): يا صلاح الدين...

صلاح الدين لبيك...

الجندى : أين ستكون.. حتى أُرِيك ما أصنع.. ؟

صلاح الدين أمامكم.. وسيفي بسيوفكم...

الجندى: (صائحًا) الله أكبر...

الجنود: الله أكبر... الله أكبر...

[[ويُسمع صوت السلاح، وطعان الفرسان، وصياح القتلى والجرحى...]]

صوت صلاح الدين : العدو يفر أمامكم يا جنود الرحمن إلى الأمام... إلى الأمام... النصر منكم قريب...

[[ثم يختلطِ صوت الموسيقى بأصوات الفارين من جنود العدو..]]

صلاح الدين: أهلا وسهلا بالعماد الأصفهاني

العماد : أهلا بالناصر المنتظر.. أهلا صلاح الدين، يا بطل السلام وفاتح القدس... وقاهر الأعداء..

صلاح الدين أراك مريضًا.... ؟!

العماد : لم أستطع أن أنتظر... فجئت للتهنئة بفتح القدس...

صلاح الدين إن هذا فتحٌ له ما بعدَه، ولن تطيب لنفسي حتى أخرج القريحة[1] من ديارنا جميعًا...

العماد : سيخرجون بعون الله.... وقوة صلاح الدين.

صلاح الدين أسمَع صوتَ امرأة تبكي خارج الخيمة.. ادخلوها..!!

المرأة : أين صلاح الدين..؟!

صلاح الدين أنا هو... فمن أنت ؟!

المرأة: أنا الملكة... سبيل... !!

صلاح الدين ماذا تريدين... نقضيه إن شاء الله ؟!

سبيل : أريد أن تمنَّ على فتطلقني؛ لأزور زوجي السجين في قلعة نابلس..

صلاح : حَيًّا ذكرَ أُمّــهِ... أطلقوا سراحها واحرسوها ؛ حتى تصل لغايتها..!!

سبيل : وتطلق سراح أتباعي... فما أستطيع المسير من غيرهم..

صلاح : وأطلقوا سراح أتباعها...

سبيل : وتسمحُ لي بأن أقبل يدك شكرًا لله فإن الزمان لا يجود بمثلك..

صلاح : بل اذهبي... مكرمة.. فنحن نفعل معكم ما توجبه علينا أخلاقنا وتقاليدنا وديننا.

[[تُسمع أصوات نساءَ يبكين]]

أسمعُ أصوات بكاء.. أدخلوهن إليّ...

[[يدخل عدد من النساء...]]

---

(١) القريحة : كل شيء أوله وباكورته، وقريحة الإنسان: طبيعته التي جُبل عليها، وهى مَلَكَةٌ يستطيع بها ابتداع الكلام وإبداء الرأي، والمقصود هنا: الجروح والأذي.

أصـــــوات أزواجنا يا صلاح الدين.
النساء : أبناؤنا يا صلاح الدين.
أولادنا يا صلاح الدين.
[[ثم تتكلم واحدة منهن بعد أن تخف أصواتُهن...]]
المرأة: لا نستطيع الحياة من غير أزواجنا فمن يعولنا سواهم...
صلاح الدين لا إله إلا الله... أطلقوا لكل واحدة منهن زوجها أو ابنها من الأسر...
امـــرأة من بحق يسوع الناصري ما مثلك في الملوك أحد...
النساء :
صلاح الدين يا هذه... لقد كانت خيلُكم اليوم تدخل بقومك القدسَ تسبحُ في دمائنا... وكنا نَقْدِرُ أن نفعل أشد من فعلكم... فهل رأيتِ منا ما تكرهين... !!
النساء : لا والصليب...!!
صلاح الدين أكرموهن... وردوا إليهن ما لهن...
[[[موسيقى... فاصلة...]]]
شهرزاد: أرأيتِ أيتها الفلسطينية...؟!
اللاجئة: أجل رأيت.... ولكن من لنا بصلاح الدين.
شهر زاد : لقد بعث الله صلاح الدين من جديد...
اللاجئة : أين هو ؟ بربك يا شهرزاد... ؟
شهرزاد : ألم تعلمي أين هو..؟! ألم تسمعي بجمال عبدالناصر..؟!
اللاجئة : صَدَقْتِ...صدقْتِ... إنه الذي يريد وحدة العرب..ولمّ الصفوف... وجمع الكلمة !
من أجل عودة فلسطين إلى أبنائها.
شهرزاد : أجل... إنه هو...
اللاجئة : أذن... فسأراكِ في الله... ؟!
شهرزاد : إن شاء الله

اللاجئة : إن شاء الله سنعود ... فلقد
في صوت قوي فيه أمل ورجاء ويأخذ الصوت في التلاشي قليلًا حتى يذهب مع موسيقى الختام

كان لي في الله.. أهلٌ   وديارٌ ونخيل
كان لي زوجٌ شجاع   كان لي طفلٌ جميل
كان لي ملعب حب   ظلُّه ضفافُ ظليل
كان لي مجدٌ وأيّام   وتاريخ طويلُ
يا لقومي كل هذا   ضاعَ هذا مستحيل[1]

---

(١) الأبيات من مجزوء الرمل وقد تقدم ذكر هذه الأبيات فى بداية الموضوع وكان المثبت هناك كلمة (اللد) وهنا كلمة (الله) بالبيت الأول.

(١٠) في قصر فرعون [١]

الملك : (الملكة) رقص جميل، وتوقيع بديع.

الملكة : (لا تتحدث)...

الملك : (لمن في الحجرة بغضب) انصرفوا جميعًا (ينصرفون).

الملكة : لا شيء.

الملك : بل تتكرين، لقد قرأت ما في قلبك.

الملكة : (مبتسمة ابتسامةً ساخرة) ما في قلبي؟ وهل يستطيع الرجال أن يصلوا إلى ما في قلوب النساء؟

الملك : (باسمًا) إذا اشتد الحب قرأ الرجل ما في قلب المرأة.

الملكة : (باسمة) أنْتَ تحبني ؟

الملك : حبًا عرضه السماوات والأرض.

الملكة : ولو لم أنجب لك ولدًا ؟

الملك : ولو، أنا لا يهُّمني الولد. لا أهتم بذلك، لا تُشغلي نفسك بهذا (يصعد الزفراتِ الشديدة).

الملكة : بل الرجال يحِنُّون إلى الأولاد، إنهم يتزوجون ؛ لينجبوا الأولاد، إنهم لا يهمهم الحياة بقدر ما يهمهم البنون.

الملك : هذا لا يهمني.

الملكة : إنك تخفي ما في نفسك.

الملك : دعي هذا فإنه مرهون بوقته، لو كنت أحب الولد لأتيت بولد(ينتفض) لا، الولد سيقتلني.

الملكة : ولهذا كرِهْتُ كل طفل، ولهذا ذبحتَ كل ولد.

الملك : إنهم يلدون كما تلد الحشرات، يلدون كل ساعة، أما أنا (ينتبه فيقطع الكلام).

---

(١) هذا العنوان ليس للغزالي ؛ وإنما أضفته بنفسي بعد قراءة الموضوع، إذ أن البيان الخاص بهذا العمل الإبداعي من حيث العنوان والتقديم لم أصل إليه، ولذلك اخترت ما ذكرته.

الملكة : (مسرعة) إنكَ تَحِنُّ إلى الولد، أما قلت إنك تخفي ما في نفسك (غاضبة) وما ذنبي أنا ؟ إنا قتلنا أولاد الرعية، فقتل الله قدرتنا على أن نأتي بولد، أصدر أمرك بإبقائهم، لعلنا نأتي بولد، تَقَرُّ به عينُك، وُيَخَلَّدُ اسمك، ويرث مُلْكَك، أبطل قتلهم يا مولاي.

رئيس مولاي رب السماوات والأرض، رب المشرقين ورب المغربين، من

الجنود : أجرى النيل، وخلق الزهر والثَمَر، كان يومًا مخصبًا يا مولاي (يرفعون أيديهم بالدعاء).

الملك : كان المحصول جيدًا؟

رئيس نعم يا مولاي، مائة من الذكور ذبحناهم بأيدينا، وهذه دماؤهم لا

الجنود: تزال فوق راحاتنا (يرفعون أيديهم)..

الملك : لا تبقوا ولا تذروا، راقبوا كل مَنْ تلد، انتزعوا من بطنها إذا شككتم في أنه سيكون ولدًا.

رئيس الجنود: (يركع) أمرك يا مولاي.

الملكة : مولاي.. ارحم هؤلاء المساكين.

الملك : أأرحم من يقتلونني ؟

الملكة : خرافة يا مولاي.

الملك : بل حقيقة.

الملكة: أتظهر للناس أنك تخاف يا مولاي؟ أيستطيع مخلوق أن يَضُرَّ فرعون ؟

الملك : قاتلي، لابد أن أبحث عنه.

الملكة : (مبتسمة) بين الأطفال يا مولاي، أخاف أن يكون فرعون مُضْغَةً للأفواه، يخشى الأطفال، فيقتلهم خوفًا منهم.

الملك : بل تستأصل الداء قبل استفحاله.

الملكة : (في حزن) لو كان لك ولد، لرق قلبك للأطفال.

الملك : أنا ؟ أريد ولدًا، لا أريده (يرفع صوته ويسير في الحجرة) أنا فرعون لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي، مصر، فرعون، كلمتان ستخلدان على الزمان، قوة وسلطانٌ.

رئيس الجند (يستأذن) هدية يا مولاي !

الملك ممن؟ من ملوك الشام ؟ من ملك الحيثيين؟ إنهم يخافون سطوة فرعون، أين الهدية ؟

[[رئيس الجند يخرج مسرعًا]]

الملك : (للملكة) سطوة فرعون في كل مكان، الأرض كلها تخطب وده، بلاد عامرة، وحضارة باهرة، وسطوة قاهرة.

الملكة: (مبتسمة) ولا ينقصه إلا..

الملك : ها، ها، الولد ؟ أتظنين أنّ ذلك شيء يشغل فرعون كثيرًا؟

الملكة : (في ألم) إذن يشغلك قليلاً؟

الملك : لا كثيرًا ولا قليلًا.

[[رئيس الجنود يدخل ومعه جنوده يحملون الصندوق]]

الملك : هذا الصندوق ؟

رئيس الجند نعم يا مولاي.

الملك : وماذا به ؟

الرئيس : لا ندري يا مولاي.

الملك : إنها هدية صغيرة، ما عهدت أحدًا يهدى مثلها إلى فرعون

الملكة : لعل به جوهرة غالية تسرُّكَ وترضيك يا مولاي!

الملك : (لرئيس الجند) ومن الذين أتوا به، أدخلهم.

رئيس الجند هبة النيل يا مولاي.

الملك : النيل، وجدتموه في النيل ؟ وماذا به؟

رئيس الجند لا ندرى يا مولاي، وإنما وجدناه على صفحة النيل[1]، يسير كما تسير السفينة الهادئة، لا تلعب به الأمواج ولا يحركه التيار.

الملك : لعله ثقيل ؟

رئيس الجند خفيف يا مولاي.

الملك : وماذا به؟

الملكة : لعلها جوهرة واحدة، اختارها النيل لفرعون.

الملك افتحوا الصندوق [الجنود يفتحونه، والملكة والملك ينظران]

رئيس الجنود (فَزِعًا) طفل يا مولاي.

الملك : (فَزعًا) طفل.

الملكة : (باسَمة) طفل ؟

---

(١) فوق المياه.

الملك : ولد ؟ بنت ؟ حي ؟ ميت ؟ (يقوم ويجلس)

رئيس الجند (يتأمله) ولد يا مولاي.

الملك : حي ؟

رئيس الجند حي يا مولاي.

الملك : اقتلوه، اذبحوه (يهمون به فتعترضُهم الملكة).

الملكة : أروني هذا الطفل (تذهب إليه وتراه) مسكين جميل، صغير، (تبتسم، والملك يقول: اقتلوه، اذبحوه وهي واقفة بينه وبينهم).

الملك: اقتلوه، احرقوه، اذبحوه، قاتلي، قاتلي.

الملكة : (تنظر إلى الملك) طفل جميل يا مولاي، إنه كالزهرة الصغيرة.

الملك : لا بد من قتله.

الملكة : إنه ولدٌ ظريفٌ يا مولاي.. انظر إليه.. سَيرقُّ قلبُكَ لهذا المسكين.

الملك : (يلوي وجهه) لا.. لا أحب أن أنظرَ إليه.َ لا بد من قتله (يدير وجهه) سأذبحه بيدي (ينظر إلى الجنود) كيف فرَّ منكم أيها الأبطال؟ من أين، سأذبحه، أين الخنجر؟

رئيس الجند (يقدم له الخنجر) هاهو ذا يا مولاي ؟

الملك : (يأخذ الخنجر ويتقدم إليه) سأذبحه.

الملكة : (تقف في سبيله) دعه يا مولاي.

الملك : (صائحًا) بل أذبحه، أذبحه.

الملكة : ألا تحبني يا مولاي؟ أما قلت لي أنك تحبني؟

الملك : وما شأن هذا وذاك (يتقدم).

الملكة : اهده إليّ هدية محب إلى حبيبه (تخرجه من الصندوق وتأخذه بين يديها وتقبله) اهْده إليَّ.

الملك : الهدايا كثيرة غير هذاَ، الدنيا لك غير هذا.

الملكة : لا أريد إلا هذا، وإلا كنتَ تكرهُنَي.

الملك : بل أحبك.

الملكة : فاهده إليّ إذن إنّ قلبي يحن إلى الأطفال (تسقط من عينيها الدموع) كنت أريد ولدًا، وقد هبط عليّ الولد، إنه أصبح قطعة من فؤادي (تُقبّلُ الطفل) أسألك بحق فرعون (الجنود يركعون) أن تهبه ليّ فإنّي أُحِنُ إلى الولد (تمسح الدموع، فينظر إليها الملك، فيلقي الخنجر).

الملك : وإذا... (يَهُزُّ رأسه مفكرًا).

الملكة : لا تخف يا مولاي... فأنت فرعون العظيم، لك المُلْك والسلطان، أهده إلىّ، عَسَي أن ينفعنَا أو نتخذَه ولدًا.

الملك : (مفكرًا) نتخذه ولدًا، ولدًا (يظهر عليه التأثر).

الملكة : (باسمة) يكون قـرَّةَ عينٍ لي ولـك، فقد حُرمنا الولد، انظر إلى نفسك، تحدث إلى قلبكَ (تَضُمُّ الطفل) لقد ساقته الحياة إلى أحضان المحرومين، أهده إلىَّ يا مولاي.

الملك : نتخذه ولدًا؟ إلى أحضان المحرومين، تركتُه لك.

الملكة : (تقبل يديَّه) عشت لي يا مولاي، لقد أهديتَ لي الدنيا، وتمتْ السعادة لي ولك.. هاتوا المُرْضعات.

الملك : هاتوا المرضعات (يذهب الجنود بعد أن يؤدوا التحية)

رئيس الجنود : أمر مولاي (يخرج في ألم).

الملكة : (والطفل بين يديها) طفل جميل. وَلَـدٌ هبط علينا من السماء (تقبله) سيكون زينة القصر، ونور مملكتك يا مولاي رَبّـه تربية الملوك يا مولاي.

الملك : (مفكرًا) وأين أُمُّهُ التي ولدته؟

الملكة : ليس له أم يا مولاي.. إنما هو هبة من فرعون إلى فرعون.. يوم سعيد يا مولاي.. كل شيء مرهون بوقته. قُرَّ عينًا. وطِبْ نفسًا، فقد رزقت الولد (تبتسم) (صَمْتٌ وتفكير).

رئيس الجنود (نُدْخل) المرضعاتِ يا مولاي؟

الملك : أدخلهن (يخرج رئيس الجنود ثم يحضرهن، فيُقبّلنَ الأرض بين يدي الملك).

الملك : (لواحدة) أرضعي هذا الطفل.

المـرضـعـة : أمر مولاي (تتقدم، وتركع أمام الملكة، وتأخذ الطفل، وتحاول إرضاعه) أنا مثل أمك يا بني (الطفل يأبى)

الملك : ما له ؟

المـرضـعـة: (تبْكي بصوت مرتفع) ابني، ابني (يزداد البكاء وتنظر إلى الجنود) ذَبَح (يرتفع صوتها بالبكاء، فيخرجُها الجنود).

الملك : (لأخرى) وأنتِ؟ جرّبي.

المرضـــعة: (تتقدم وتأخذه) شَرَفٌ يا مولاي (تحاول أن ترضعه) فيأبى (يأبى يا مولاي).

الملك : (لأخرى) وأنت جَرّبي (تفعل كما فعلت السابقة، ثم أخرى وأخرى فَيَخْرُجْنَ)

الملك : (لرئيس الجند) أليس هناك غيرهن ؟

رئيس الجند هؤلاء أنظف من وجدنا يا مولاي ؟

الملكة : ألم يبقَ أحد ؟

رئيس الجند هناك بِنت صغيرة يا مولاتي ؟

الملك : (ضاحكا) بنت صغيرة ؟ وما شأنها بالإرضاع ؟

رئيس الجند تقول إنها تعرف مُرْضعًا، لبنها كثير نظيف، يحبها الأطفال.

الملك : أحضرها.

رئيس الجند أمر مولاي (يخرج).

الملك : (للملكة) طفل عنيد.

رئيس الجند (يدخل ومعه الفتاة، فتؤدي التحية، كما يؤديها رئيس الجنود).

الفتاة : عبدة مولاي.

الملك : أتعرفين مُرْضعا نظيفة ؟

الفتاة : نعم يا مولاي، نظيفة تحب الأطفال، ويحبها الأطفال (تنظر إلى الطفل، وتقاوم البكاء).

الملك : ومنْ كمْ وُلدتْ ؟

الفتاة: (مَرتبكة) لا أدري يا مولاي، إلا أنها فقيرة، ومع فقرها فهي نظيفة من حَيّنا.

الملك : (لرئيس الجند) أحضروها.. معها لتحضروها (يخرجون)

الملكة : (للطفل بعد أن تضمَّه) غريب أنت أيها الطفل، ألمْ يعجبك هؤلاء النساء، إنك نظيف ظريف. إنك مدرك يا طفلي يا ابن فرعون.

رئيس الجند (يَدْخَل) المرضع بالباب يا مولاي.

الملك : أحضرها، أسرع.

رئيس الجند (يدخل، ومعه الأم فترى الطفل والصندوق، فتنهمر الدموع من عينيها، ثم تسجد لفرعون).

الأم : التحية لفرعون العظيم.

الملك : (ينظر إلى دموعها) أتعرفين هذا الطفل؟

المرأة : (مرتبكة) لا يا مولاي.. لا أعرفه ابن مَنْ هو؟

الملكة : (باسمة) ابن فرعون.. (المرأة تنتفض)

الملك : (للمرأة) وأين ابنك ؟

المرأة : ليس لي ابن، وإنما لي ابنة[1]
الملك : وأين هي ؟
المرأة : ماتت يا مولاي، لقد شاء فرعون أن تكون بنتًا. فكانت كما أراد، إنا لا نستطيع أن نخالف أمرك يا مولاي (تغالب عواطفَها ودموعَها).
الملك : خذي هذا الطفل لترضعيه.
المرأة : (تتقدم وتأخذ الطفل، وتحاول أن تقبله، فترد نفسها) وتنهمر دموعها على خدها).
الملك : ما لك تبكين أيتها المرأة ؟
المرأة : لقد كانت مثل هذا الطفل يا مولاي.
الملك : مَنْ ؟
المرأة : ابنتي التي ماتت كانت مثلَه تمامًا. أيسمحُ لي مولاي أن أقبله؟ أتسمح مولاتي ؟
الملكة : قبليه، خففي عن قلبك المكلوم، ضُمّيه إلى صدرك، بَدَلَ ابنتك (الأم تضمه بحرارة).
الملكة : (تنظر إلى الملك) مسكينة، عاطفة الأمومة قوية يا مولاي، مسكينة تلك الأم ماتت ابنتها.
الملك : (للمرأة) أتستطيعين إرضاعه؟ لقد رفض جميعَ المرضعات.
المرأة : (تضم الطفل) أظنه سَيَرْضَى يا مولاي، فهو مثل ابنتي، ولعلي أكون شبه أمه، لولا أنه ولد لقلت إنه هي يا مولاي، إنه جميل.
الملك : حاولي.
المرأة : (تعطيه ثديَها فيمسِكُ به) لقد رضي يا مولاي، لقد رآني مثلَ أمه، لقد عرفني (تبتسم).
الملك : عَرَفك ؟
المرأة : (في ارتباك) عرف أنني مثلَ أمه، فرضي بي.. أيُّ فخر لي يا مولاي أن أحظى برضاك (تضم الطفل) شكرًا لك أيها الطفل العزيز، لقد أرَحْت قلبي، لقد كان صَدْري يحترق، فلما ضممتك ذَهَبَتْ لوعتي.
الملكة : مسكينة، مسكينة.
الملك : ستقيمين في القصر مؤقتًا.
المرأة : أمر مولاي.

---

(١) هذه الفقرة من المرأة إضافة منّي، فقد كانت ناقصة وغير موجودة في الأصل.

الملكة : وسنجعل لك هذه الحجرة.

المرأة : أمر مولاتى.

الملكة : لك أجرٍ كبير إذا اعتنيتِ بهذا الطفل، إنه ابن فرعون (المرأة تنتفض) وارِثُ عرشَ مصر.

المرأة : لي الشرف يا مولاتى.

الملك : هذه الحجرةَ ستُعَدُّ لك بما يلزمك. وعليك أن تعتني بنفسك، وبالطفل. واعلمي أنك أصبحت مرضعة لابن فرعون (المرأة تنتفض) (يخرج شيئًا من جيبه) هذه القطعة الذهبية لك.

الملكة : (تقدم لها قطعة أخرى) وهذه لك (تلتفت إلى رئيس الجنود) أين الفتاة التي دلَّت عليها أحضروها.

رئيس الجند (يخرج ويعود بالفتاة) ها هي ذى يا مولاتي.

الملكة : (للأم) قد جعلنا هذه الفتاة خادمة لك، جزاء صنيعها الجميل.

المرأة : شكرًا يا مولاتي.. شكرًا يا مولاتي..

الملك : أيتها الفتاة، قد رأينا فيك العطف والذكاء، وقد اخترناك؛ لتخدمي ابن فرعون (يهم بالخروج)

الفتاة : (تركع) عبدةُ مولاي.

الملكة : لديك ابني (المرأة تنتفض) فأكرميه تجدي إكرام فرعون (يخرجون).

المرأة : (لا تكاد تصدق، فتغلق الباب، وتندفع البنت إلى الولد تقبله، والمرأة كذلك تنكبّ على الطفل، ويعلو بكاؤها وتخر ساجدة لله، ثم ترتفع يديها إلى السماء).

حمدًا لك يا إلهي، يا من تعاليت في سمائك، يا راحم الضعفاء، يا منقذ المظلوم، إن وعدك الحق. رددت قلبي إلى جوفي وروحي إلى جسمي، رددتَ موسى إلى أمه، وأحسنت إليها بنعمتك، فشكرًا لك يارب، موسى موسي (تضمه إلى صدرها، وتعطيه ثديها) أمك يا موسي، أنا أمك يا موسي. إن الله مع الصابرين، مع الصابرين يا مريم..

(يغلبها بكاء الفرح)

[[[ستار]]]

انتهت

إطلالة على المسرح النثري عند الغزالي

يتمحور الإبداع النثري عند الغزالي في عدد من المسرحيات التي تسير في طريق موازٍ لمسرحه الشعري، الذي عرضنا له في الجزء الأول - ويؤكد هذا البيان - ابتداءً - قدرات الغزالي ومواهبه التي لا تتوقف عند فن واحد، وإنما تتعدد بمستويات متقاربة، فقد بدأ شاعرًا غنائيًا ينزع إلى الرومانسية وعشق الطبيعة، وانصهر في أتون المجتمع بواقعيته وارتباطه بتراثه الأصيل، ومارس كتابة الشعر التمثيلي (المسرحي) وذلك ما عرضنا له في الجزء الأول من هذا الكتاب، ونأتي معه - هنا - لنعرض لتوجهاته مع مسرحه النثري، الذي انتظم منه عشر تمثيليات متنوعة في الموضوع، وإن تقارب الشكل فيها بدرجة كبيرة.

والنظرة العابرة لهذه المسرحيات النثرية، تؤكد اقتراب الغزالي من التاريخ الإسلامي، وما احتواه من بطولات عربية خالدة، ثم يقترب بخطوات ثابتة من الواقع المحلى والعربي وما تمخض عنه من بطولات متعددة ومتنوعة، لم تكن - في مجملها - بعيدة عن الشعب، وإنما كانت شديدة التمازج معه والالتحام به، ذلك أن هذا الترتيب الذي خضعنا له لم يكن للغزالي علاقة به، فلم يربط أي إبداع مسرحي له بتاريخ محدد كان يمكن أن نستعين به في تعقب التطور الفني له، وإنما جاءت إلينا الأوراق، أو ذهبنا إلى منزله بعد وفاته؛ للحصول عليها - كما ذكرنا سلفًا - وتعاقبت السنون إلى أن اخترنا ما سرنا عليه، وكان تأخير الموضوع الأخير (في قصر فرعون) ؛ لأنه جاء إلينا بلا عنوان فأبقيناه إلى مؤخرة المسرحيات، واخترنا له عنوانًا ينضم به إلى نظائره التسعة.

وكانت هذه الأعمال الإبداعية من نتاج صاحبنا في مرحلة الثورة المصرية عام

١٩٥٢م وما جاء بعدها إلى وفاته في بداية عام ١٩٦٢م، تلك الحقبة من عمر الزمن الثوري في مصر، وما اشتملته من آمال وطموحات كبيرة، كان الشعب كله يغنى لها ويسعد بها، وكان صاحبنا من أدباء تلك المرحلة التي انتعشت فيها الإرادة المصرية.

وجاءت البداية بكلمة وجهها الغزالي إلى الشباب في مستهل حديثه الإبداعي عن عدد من البطولات العربية الخالدة، واقتصرت تدخلاتنا على الهوامش المثبتة في أسفل الصفحات، وتحقيق ما يقع في النصوص من اضطراب أو تناقض؛ حتى تسفر المقدمات عن النتائج في سهولة ويسر، وتحقق أطر النص ومتطلبات المسرح النثري، الذي لا يبتعد كثيرًا عن شقيقه (المسرح الشعري).

وجاءت بداية هذه المسرحيات بما دبّجه يراع الغزالي عن المثني بن حارثة، ثم تأتي بعدها مسرحية (عبدالملك بن مروان)، وكان للشعر وجود في هذه المسرحية النثرية، ولم يتضح لنا بشكل قاطع مرجعية هذا الشعر، والذي يفرضه السياق، ومتطلبات العمل.

وتمثل الأبيات، وهي من الرجز المجزوء مزجًا مقبولًا في سياقات النص.

وخضع الحوار للقِصَر - خاصة مع مسرحية (بطولة ووفاء)، ولم يطل الحوار التمثيلي إلا في مواقف قليلة.

وتؤكد هذه الإبداعات قوة الصلة بين الغزالي وصحائف التاريخ كالذي خَطَّه قلمه في (بطوله ووفاء)، وتتناول بطلًا من الشعب وهو الإمام محمد عبده، واقتبس الغزالي في هذا النص بعض الآيات من الذكر الحكيم، وجعل المقاومة بالكلمة من أشرف الجهاد.

وقدم مسرحية عن أحد أبطال المقاومة الشعبية، وهو حسن طوبار، وتجلت فلسفة الغزالي في تصوير البطولات، وذلك بالربط التوثيقي للموضوع بين شخصية بطل المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية وهو (حسن طوبار) وبطل ثورة عام ١٩٥٢م وهو (جمال عبدالناصر).

وكتب عن بطل شعبي من منطقة (دارفور) بالسودان، وهو (علي عبداللطيف).

وأظهر الغزالي مقدرته ومعرفته باشتراطات البناء الفني للمسرحية، وتجلى ذلك في ظواهر عديدة مثل عنايته ببيان الأصوات الخافتة، التي تحمل معنى التحيات، والموسيقى التي يليها صوت المؤذن لصلاة الفجر، والتصفيق والهتاف، وبائع الصحف الذي ينادي، وحركات دخول الأشخاص والتحكم في مصادر الصوت والجلبة مثل قول حاجب المحكمة: محكمة.. وبنى الغزالي معظم مسرحياته النثرية على الأشخاص أكثر من بنائها على الموضوعات.

وانتقل من مسرحيات البطولات إلى ما أسماه (في سبيل المجد)، واختار لذلك عنوانًا لإحدى مسرحياته وهو (من حقائق التاريخ - وحدتنا العربية) عارضًا لمقاومة صلاح الدين الأيوبي للصليبيين، معتمدًا على التاريخ في رصد مسيرة الأحداث، منتقلًا إلى مقاومة الطغاة في حرب ١٩٥٦م، وانتصار المصريين في مدينة بورسعيد.

وعرض لبطولات أخرى تحت عنوان جانبي هو (شهرزاد الجديدة) والشيوعيون العملاء، وذكر نموذجًا من الشعر الذي أورده لشاعر يبكي على بغداد، لما ألمّ بها من عصابة الشيوعيين مسترجعًا تاريخ هذه المدينة الخالدة التي تعددت نكباتها قديمًا وحديثًا.

وتجلى تأثر الغزالي بمبادرة ثورة ١٩٥٢م، وحبه لزعيمها (جمال)، وما أحدثته الثورة بقيادته من متغيرات سياسية واجتماعية وعربية، وذلك في مسرحية (نار الهشيم).

وانتقل صاحبنا إلى مسرحية أخرى وهي (العودة) ومع شهرزاد الجديدة في خيام اللاجئين، حيث مزج بين الواقع المعاش في خيام اللاجئين الفلسطينيين، ومقاومة العرب والمسلمين في عصر صلاح الدين.

وجاء ختام المسرح النثري بموضوع تسلمته من ورثة الغزالي خاليًا من العنوان، وبعد قراءة النص اخترت له عنوانًا يعبر عن مضمون المسرحية وهو (في قصر فرعون)، والبطولة هنا للمرأة، وهى امرأة فرعون - أولًا- حيث قاومت طغيانه، وساسته بالحكمة الرشيدة، والعقل السليم، وتأتي معها إلى ساحة الأحداث أم

موسى في المشهد الأخير وبقصر فرعون، حيث قال الغزالي (ستار)؛ أي أن الأنوار قد أضيئت، والستائر قد أسدلت، وذلك مع نهاية الأحداث.

ويبدو أنه قد أطلع على تأليف المسرحيات، وعرف أصولها، ومعايير الإجادة فيها، لكنه لم يتوسع في اختراعاته وخيالاته إذ كان اعتماده على التاريخ الذي استمد منه الأخلاق والتوجهات لشخوص مسرحياته، وعرف بدراساته لسمات أبطاله وطموحاتهم، ولم يطغ قلمه على أحداث التاريخ، وإنما اختار منها ما يخدم سياق الموضوع ونمو الأحداث، وإحياء الصراع ؛ للوصول إلى قَدْر من التشويق والإثارة، وكان اصطفاء هذه الأنماط مواكبًا للبحث عن البطولة، والمقاومة في وقت التأليف والإبداع لهذه المسرحيات النثرية خاصة، لكن العمر القصير الذي عاشه لم يحقق له ما كان يسعى إليه في هذا الفن النثري الأصيل، ولم يصل إلى ما حققه في مسرحه الشعري، الذي ترك كثيرًا منه مسجلًا في الإذاعة، وليس مخطوطًا في الأوراق فقط، ولذلك عندما سعيت إلى جمع تراثه الأدبي ما كنت أظن أنني سوف أجدُ له إبداعًا في المسرح النثري، هذا الذي كتب فيه الكثيرون، ومنهم وفي مقدمتهم توفيق الحكيم ومحمود تيمور، هذان اللذان استمدا مسرحياتهما من أحداث التاريخ كثيرًا.

وكان للغزالي معرفة بالتقنية المسرحية النثرية، والتي لها دور في إنجاح العمل المسرحي، لكن نتاجه في هذا اللون لم يخضع لكثير من التجريب والنقد اللذين يصلان بالمبدع – مع الموهبة – إلى درجة كبيرة من الرسوخ والثبات، ولكن صاحبنا قد اجتهد في حدود المتاح له من الإمكانات المتنوعة، فترك هذه المسرحيات العشر التي نقدمها للقراء من خلال هذا الكتاب.

وأهم ما يتميز به هذا الإبداع النثري هو الحرص على اللغة الفصحى، والحقائق التاريخية.

وقد أسهم تكوينه الثقافي في التمسك بهذا المستوى من التعبير، ولم يلجأ إلى اللهجة العامية لا في السرد القصير ولا في الحوار المتواصل بين الأشخاص، كما لم تخرج من لسانه إلى مسرحه الكلمات الساقطة، والمصطلحات الهابطة، تلك

التي نشهدها أحيانًا في الأدب الحديث، وخاصة ما اتجه منه إلى معالجة الواقع، ذلك أن اللغة في المسرح محل نـزاع بين الأدباء، فالذي يستعمل العامية كلًا أو بعضًا يُغَلِّبُ -كما يقولون- الواقعية في التعبير على حساب اللغة الفصحي، هذه التي انحاز الغزالي إليها، وحرص عليها، وتعامل بها في أدبه شعرًا ونثرًا، إبداعًا ونقدًا - رحمه الله رحمة واسعة قدر إخلاصه للغة العربية لغة القرآن الكريم وأدب العرب.

***

ثانيـــًا

صلــة الشعــر بالحيــاة

(حلقات إذاعية عن صلة الشعر بالحياة)[1]

أيها السادة

إن الحياة.. هي تلك الطاقة الواعية الموجهة في الكائن الحي.. وهي تأخذ مظهرها الأعلى في الإنسان.. ولها في الإنسان جانبان، جانب داخلي، وآخر خارجي.. الجانب الداخلي: يتمثل في طاقته العقلية والوجدانية، والخارجي: يتمثل في هذه العلاقة التي تربط بين أفراد المجتمع البشري.. ومن هذين الجانبين تتتابع الأحداث، ويتألف التاريخ.. فالإنسان – كفرد – له ذاته، وهذه الذات يؤلفها عقل يفكر، وقلب يحس، وبعقله المفكر وقلبه الذي يحس، يستقبل الإنسان تجارب الحياة والوجود من حوله، ويقف منها موقفًا، تكيفه ذاته وتحدده شخصيته.

والإنسان – كعضو في المجتمع – لا يستطيع أن يعيش منفصلًا عنه، بعيدًا عن تيارّه، مستقلًا عن أحداثه.. وهو لا يستطيع ذلك؛ لأن نظام الحياة منذ وُجدت الحياة، قائم على هذا الترابط المتين بين أفراد المجتمع.. ولولاه لما امتدت الحياة عبر الأجيال. ومن الأمور البديهية أن الطاقة الوجدانية في الإنسان، كانت أكبر من طاقته العقلية منذ بدايته، وأنه كان من خلالها ينظر إلى الوجود حوله، ويتلقى بها تجاربه في الحياة.. ومن أجل هذا نشأت الفنون مع الإنسان، وكان ذلك ضرورة اقتضتها حاجاته النفسية التي كانت تدفعه إلى الإحساس، محاولًا التعبير عن هذا الإحساس بشتى الوسائل.

---

(١) إن التعريف ببرنامج الغزالي (صلة الشعر بالحياة) كان في غير موضعه بالحديث السادس عشر، ولذلك رأينا أن نستله من هناك، ونثبته هنا ؛ ليكون في البداية، حسب المتطلبات المنهجية للبحوث والدراسات.

وكانـــت البيئـــة الطبيعية والاجتماعيـــة عاملًا من أهم العوامـــل، التي أوجدت الاختـــلاف في طبيعة الفن، فـــي أُمَّةٍ عنه في أخرى.. وكانت كذلك عاملًا قويًا في ربـــط الفن بالحيـــاة بوصفه مظهرًا من مظاهرها.. ولم يحـــدث أن خرج الفن عن هذه الدائرة في أية أمة من الأمم، ولكن هذه الرابطة تقوي وتضعف بمقدار حيوية الأمة، وصلتها بالحيـــاة.. والأمة العربية وهي التي تعنينا في هذا الموضوع - تكاد تكون أقوى الأمم جميعها صلـــة بالحياة.. في جانبها الفردي والاجتماعي.. ولهذا فإن الشـــعر - وهو الفن الوحيد الذي بـــرزت فيه - كان هو الصورة الأصلية التي نطالع فيه هذه الصلة الوثيقة بين الأمة العربية ومجالي حياتها المختلفة في ســـائر العصور والأجيال.

ولقد كانت الأمة تستلزم واقع الحياة في مناحي تفكيرها، ومنابع وجدانها، وحتى في تفكيرها الميتافيزيقى، لم تتصور العالم الآخر، إلا صورة على شاكلة هذا العالم الدنيوي.. وقد عاشت الأمة العربية في هذه الواقعية أجيالًا طويلة.

فتدفق شعرُها من هذه الواقعية، لا في العصر الجاهلي فحسب، بل في كل العصور.. ومن هنا كانت صلة هذا الشعر بالحياة قوية عميقة.

****

الحديث الأول

حين يستشرف الإنسان آفاق الشعر العربي، منذ العصر الجاهلي حتى مطالع هذا العصر الحديث، يلمح على جوانب هذه الآفاق البعيدة والقريبة، ظاهرتين تُمثّلان الخط التاريخي العريض لتطوير الشعر العربي عَبْرَ هذه العصور والأجيال، التي انسابت من حوله، وقد ظللنا حتى مستهل عصر النهضة الأدبية في العصر الحديث رمزًا لحقيقتين جديرتين بالذكر والتسجيل.

- **أولاهما** أن الشعر العربي مازالت تَسْرى فيه روح الصحراء، وتنبُضُ فيه بأوهامها وخَيالاتها حتى بعد أن انتقل الشعر إلى الحَضَر، ونهل من ثقافات الأمم ومشارفِ حضاراتها.. وهذه الحقيقة ثابتة رغم ما طرأ على الشعر في الأندلس من ناحية الشكل والموضوع.

والحقيقة الثانية : أن الشعر العربي يمثل الطبيعة العربية، أو النفس العربية أصدقَ تمثيل... وهو بهذا ينفرد بسماته وخصائصه عن الشعر في الأمم الأخرى، ويسرفُ النقاد على أنفسهم حين يُقحمونه في مقارنة لا تقوم على أساس التشابه أو التقارب في الصفات... أو يطلبون منه أن يخرج عن طبيعته، ليكون كالشعر اليوناني أو كالشعر الهندي فيعطينا قَصَصًا وملاحمَ عن البطولة والأبطال... والواقع لا ينخلج على شك[1] أن الشعر العربي قد أعطانا كلَّ ما يستطيع، على طريقته التي تتواءم مع النفس العربية، وتكشف عن ملامستها الوجدانية للأشياء ووسائلها في الإحساس بالحياة...

---

(١) لا ينخلج على شك؛ أي لا يدخل فيه شك أو (لا ينطوي على شك).

والعرب شعب نشأ في الصحراء، يطلب الكلأ، وينتجع المرعى، ويقيم خيامه على عيون الماء، المتناثرة على صفحة البادية... وقد عزلته الصحراء، وعزلت عنه الأمم الأخرى فلم يدخل في معترك بينه وبينها... اللهم إلا مناوشات صغيرة على مشارف الجزيرة من ناحية الفرس تارة، والروم تارة أخرى... ومن هنا تحولت طاقة الصراع في الشعب العربي - وهي طاقة ضخمة - إلى صراع بين القبائل والبطون، فوق صراعه مع الطبيعة القاسية، والصحراء القاحلة.

ولم يهدأ هذا الصراع إلا في فترة وجيزة، تلك التي ظهرت فيها الدعوة الإسلامية، وانشغل الناس بها عن كل ما يضطرب حولهم من شئون الحياة.

ولكن ما إن استقرت الدعوة، وانحسرت موجة الفتوح، حتى عاد إلى سيرته الأولى.

وطبيعة الصحراء أضْفَتْ على النفس العربية صفاتٍ أصيلة وشمائل كريمة توارثها الأبناء عن الآباء جيلًا بعد جيل، تجمَّلتْ النفس العربية بالصفاء والعمق، وسرعة الخاطر، كما اتسمت بالشجاعة والكرم والصراحة، ودانت بالحرية وإباء الضيم، وحماية الجار... إلى غير ذلك من ألوان الخُلُق العربي الصميم، الذي دَرجت عليه تلك النفس العربية الصافية، غير أن أهم صفة تأصلت فيها، ولصِقَتْ بها هي أنها كانت شديدة الاتصال بالواقع. فليس لها وراء الواقع شيء، ولم يُفصح أدبها الذي وصل إلينا عن شيء من ذلك... وأقرب تعليل لهذا هو طبيعة الصحراء نفسها، والظروف الاقتصادية التي أحاطت بالحياة العربية إذ ذاك...

فسعة الصحراء وامتدادُها يجعل توقع الخطر فيها بعيدًا، والاحتراس منه سهلًا ميسورًا، فأمام الذي يعيش فيها فرصة يستخدم فيها طاقته العقلية للنجاة...

وهذا على النقيض من الحياة في بلاد تختلف طبيعتها عن طبيعة الصحراء كبلاد اليونان ـ مثلًا؛ حيث تمتد الغابات الكثيفة في السهول، وعلى سفوح الجبال، وحيث يضطر الذي يعيش فيها - أن يكون مسرح حياته، ومجال معيشته في قلب الغابة، وفي متاهة الوديان والأحراش، فهو في كل خَطْوة يتوقع خطرًا، وفي كل

لحظة يترقب مفاجأة، ووراء كل شجرة يسمع دبيبًا، وعند ذلك لا تسعفه طاقته العاطفية، التي تعينه بالوهم، وتنفحه بالصور، وتفتح ذهنه على أودية الجبال... من أجل هذا وذاك كان الخيال في الشعر العربي بسيطًا غير مركب، وقريبًا غير بعيد، وكانت صوره أكثر تجاوبًا مع مظاهر الحياة ومعارضتها، لا مع خفاياها ومكنوناتها... وكان الخيال في الشعر اليوناني مركبًا غير بسيط، وأقرب إلى الوهم والخرافة منه إلى الحقائق الواقعة، والظواهر المرئية.

إن الشيء الجدير بالملاحظة هو أن هذا الشعر اليوناني فقد صفة التركيز التي عُرف بها الشعر العربي، فهو يشرح العاطفة، ويحلل الإحساس، ولا يترك للسامع فرصة ليَسْبَحَ بخياله أو لينعمَ بالصور والظلال التي توحي بها العاطفة العميقة، وتزخر بها الأبيات القليلة المعبرة... فالفرق هنا... فرق بين طبيعتين وشعبين...

يمر الشاعر العربي بآثار أحبابه، وطلولهم فينعم بها ما شاء له حبه، ثم يفارقها، وقد مد بصره إليها حتى تغيب عنه... فإذا صُورتُها تتمثل في قلبه.. وترتسم في مشاعره، وتتجسد في روحه... إنه يقول:

وتلفَّتتْ عيني فمُذْ بعُدتْ عنها الطلولُ تلفتَّ القلبِ[1]

في هذا البيت قصة حب كاملة تفيض بالعواطف والانفعالات.. وفي كل كلمة ذخيرة كامنة من أحاسيس عميقة، ووجدانات مشبوبة ووراءها أطلال لأفراح وأحزانٍ تلاقت في الغيب البعيد... إن هذا كله يعطيك إياه الشاعر العربي في بيت فَرْدٍ، فيسبح بك في عوالم جميلة.. رحيبة... وليس كذلك الشعر اليوناني؛ لأنه حينَ يتعرض لمثل العواطف التي تعرّض لها البيت العربي فإنه معطيك إياها مشروحة محللة في قصة أو ملحمة، بعد أن يَسْلُبَ منك هذه المتعة الذاتية، التي يهبها لك البيت العربي.

إننا نستطيع أن نقول – في غير غلو– إن حضارة هذا الشعب العربي التقت كلها في هذا اللون من الفن وهو الشعر، وأن الشعب العربي نفسه أحسَّ بهذا إحساسًا قويًا، في متعة ولذة وابتهاج.

---

(١) الطلول : الآثار، والبيت من الكامل.

ومن هنا كان للشعر على العرب هذا السلطان القوي.. وقد فَجَّر في نفوسهم جميعًا ينابيع الفتنة والسحر.. فأحب العرب الشعر وافتتنوا به، وأصبح شَغْلَهم الشاغل في الحرب والسلم على السواء...

رَوَى صاحب الأغاني: « بينما المُهَلَّب ذات يوم بفارس، وهو يقاتل الأزارقة، إذ سَمِعَ المهلب في عسكره جَلَبَةَ وصياحًا، فقال: ما هذا؟، قالوا: جماعة من العرب تحاكموا إليك في شيء..! فأذِنَ لهم... فقالوا: إنَّا اختلفنا في جرير والفرزدق فكل فريق منا يزعم أن أحدّهما أشعرُ من الآخرَ، وقد رضينا بحكم الأمير..!! فقال: كأنكم أردتم تعرضونني لهذين الكلبين، فيمزقان جلدتي؟!.. لا أحكم بينهما، ولكني أدلكم على من يَهُونُ عليه سؤال جرير وسؤال الفرزدق.. عليكم بالأزارقة؛ فإنهم قوم عرب يبصرون الشعر، ويقولون فيه الحق..

فلما كان الغد خرج عبيدة بن هلال اليَشْكُري، ودعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل من عسكر المهلب كان لقَطَرِيّ[1] صديق فقال له: يا عبيدة! سألتك الله ألا أخبرتني عن شيء أسألك عنه.. قال: سَلْ. قال: أوتخبرني؟ قال: نعم.. إن كنت أعلمه..!! قال: أجرير أشعر أم الفرزدق..؟ قال: قَبَّحك الله.. أتركْتَ القرآن والفقه وسألتني عن الشعر..!! قال: إنا تشاجرنا في ذلك، ورضينا بك..! قال: من الذي يقول:

وَطَوَى الطِرادُ مع القِيادِ بطُونَها   طيَّ التَّجارِ بحضرَمْوتَ بُرُودَا[2]

فقال: جرير....

قال: هذا أشعر الرجلين !!

هكذا كان العربُ يشغلون أنفسهم وأوقاتَهم بالشعر والشعراء،

(١) هو قطري بن الفجاءة من كبار الخوارج وقادتهم في الدين والأدب والحياة.

(٢) شرح ديوان جرير، ص ٢٠٣ - إيليا الحاوى - الطراد: العَدْو الدائم، القياد: حبل يقاد به، البرود: جمع بُرْد، وهو الثوب المخطط.

والاختلاف على أقدارهم ودرجات تفوقهم، والاحتكام إلى الثقات من أولى الرأي والأمر فيهم.

وسنرى في الحديث القادم، صورًا محددة المعالم، لسيطرة الشعر على سائر جوانب الحياة العربية، وطبقات المجتمع فيها.

الحديث الثاني

عرضنا في الحديث الأول إلى شغف العرب بالشعر، وتذوقهم له وافتتانهم به. وقلنا إنهم بلغوا من ذلك حدًا، شَمِل الخاصة والعامة إلى درجة جعلت كثيرًا من المستشرقين ينظرون إلى الأمرَ في شيء من الدهشة والعَجَب، فلم يحدث في تاريخ أمة من الأمم أن بلغت ما بلغه العرب في ذلك،.. وقد عَلَّق المستشرق نيكلسون على قصة المُهَلَّب التي اختتمتُ بها حديثي السابق فقال : إنها برهان ساطع على أنّ تذوق الشعر لم يكن مقصورًا على الأوساط الأدبية... وإنما كان ذائعًا في جميع أوساط الأمة، حتى كان يُغنّي به خلال أهوال الحرب وأخطارها...».

ويرجع هذا الحب الجارف للشعر عند العرب، إلى أسباب كثيرة كان أهمها جميعًا أن الشعر يمثل الخطَّ العريضَ للحضارة العربية، فلم يكن للعرب حضارة عقلية، تتمثل في العلم أو الفلسفة، أو حضارة عمرانية، تتجلى في الآثار أو في غيرها...

لم يكن لهم غير الشعر يعبرون به عن حياتهم، ويصورون مشاعرَهم، ويسجلون فيه مفاخرهم وأمجادهم.. وكان إلى هذا شديد الصلة بحياتهم جميعًا فأحبوه هذا الحب، وكَلِفوا به هذا الكَلَف، وكان له عليهم سلطان عظيم.. وقد بقي للشعر هذا السلطان القوي، حِقبةً طويلة من التاريخ.. فقد روت أمهات كتب الأدب والأخبار كالعقد الفريد، والأمالي والكامل، والأغاني.... أحاديث تدل كلها على ما كان للشعر من سلطان عظيم، وأثر بالغ، يتناولان مختلف طبقات المجتمع العربي..

كان بنو أنْفِ الناقة يُعَيَّرون بهذا الاسم في الجاهلية حتى قال فيهم الحطيئة:

سيرى أُمامَ فإن الأكثرينَ حصىً ... والأكرمينَ إذا ما يُنسبون أبَا[1]

قومٌ هم الأنْفُ والأذنابُ غيرُهُم ... ومن يسوّى بأنفِ الناقةِ الذَنَبا[2]

فعاد هذا الاسم فَخْرًا لهم، وشرفًا فيهم...

وكان بنو نُمير أشرافَ قيس، وسادتها، إذا انتسب واحد منهم مَدَّ صوته وفخره، وقال «نميرى» حتى قال فيهم جرير:

فغضّ الطرفَ إنك من نُمَيرٍ ... فلاَ كَعْبًا بلغتَ ولا كِلابا[3]

فما بقي نميرى إلا طأطأ رأسه... وقد بلغ من قسوة هذا الهجاء أن ضُرب به المثل... قال حبيب الطائي:

فسوف يزيدُكم ضِعةً هِجائي ... كما وَضَعَ الهجاءُ بني نُميرِ[4]

ومما يُروى في هذا الصدد أن المحلق بن حَنْتَمْ كان خاملًا لا يُذكر حتى طرقه الأعشي في فِتية، وليس عنده إلا ناقة، فأتي أمه فقال : إن فتية طرقونا الليلة فإن رأيتِ أن تأذني في نحر الناقة... قالت: نعم يا بُني.. فَنَحَرها، واشترى لهم ببعض لحمها شرابًا، وشوى لهم بعض لحمها... فأصبح الأعشى ومن معه غادين... فلم يشعر المحلق حتى أتته القصيدة التي أولها:

أرِقْتُ وما هذا السهادُ المُؤَرِّقُ ... وما بي مِنْ سُقْمٍ وما بي مَعْشَقُ

لَعَمرِى لقد لاحتْ عيونٌ كثيَرةٌ ... إلى ضوء نارٍ في يَفَاعٍ تُحَرَّقُ

تُشَبُّ لمقرورَيْن يَصْطلِيانِها ... وَبَاتَ على النار النَّدى والمُحَلَّقُ[5]

---

(١) أُمام : زوجته.

(٢) البيت الثاني بالأغاني، ج٢، ص١٨١ ضمن الحديث عن الزبرقان بن بدر.

(٣) ديوان جرير، ص ٩٧.

(٤) وضع : أي صار وضيعًا (أي ذليلًا)، وهذا البيت غير موجود في ديوان أبي تمام (تحقيق: محمد عبده عزام)، ولا في النسخة المحققة بقلم الدكتور شاهين عطية، المطبوع في مكتبة الطلاب، ببيروت عام ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م.

رَضِيعَيْ لِبَانِ ثَدْيِ أُمٍّ تَحالَفَا بِأَسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرَّقُ
تَرَى الجودَ يَجْرِي ظاهِرًا فوق وَجْهِهِ كما زَانَ مَتنَ الهِنْدُوانِيَ رَوْنَقُ[1]

فذاع صيته، وتقاطرت إليه الأشراف يخطبون إليه بناتِه، وهم يقولون «وبَاتَ على النار الندى والمحلّق...».

وكان العرب لطبيعتهم الصحراوية - يحبون خصالًا، ويحبون أن يُمَدحوا بها، كانوا يحبون الشجاعة، ويمجدون الشجاعَ، وكانوا يحبون الكرم، ويتغَنّون بفضائل الكريم. ولم يفت الشعرَ أن يصور ذلك، وأن يعبرَ عنه.

يقول أبوعبيدة: خرج دُريد بن الصّمّة في فوارس من بني جُشَم.. حتى إذا كانوا في وادٍ لبني كنانة، يقال له الأخرم، وهم يريدون الغارة على بني كنانة، إذ رفع له رجل في ناحية الوادي معه ظعينة.. فلما نظر إليه قال الفارس من أصحابه: صاح به.. خلِّ عن الظعينة[2] وانجُ بنفسك.. فانتهى إليه الفارس وصاح به، وألح عليه فألقي زمام الناقة، وقال للظعينة :

سِيري على رَسْلِكِ سيرَ الآمِن سيرَ رواح ذاتَ جأشٍ ساكنِ
إن التأني دونَ قِرْني شائنٌ أبْلَى بلائي وأخبري وعايِني[3]

ثم حمل عليه فصرعه، وأخذ فرسه فأعطاه للظعينة... فبعث دريد فارسًا آخر لينظر ما فعل صاحبه... فلما انتهي إليه ورأى ما صنع به، فتصام عنه[4] كأنه لم يسمع، فظن أنه لم يسمع، فغشيه، فألقي زمام الراحلة إلى الظعينة، ثم خرج وهو يقول:

خلِّ سبيلَ الحُرَّة المنيعةْ إنك لاقٍ دونَها ربيعةْ
في كفِّه خطّيةٌ مطيعةْ أو لا.. فخذها طعنةً سريعةْ
والطعنُ مني في الوغي شريعةْ[5]

---

(١) يراجع ديوان الأعشى الكبير، ص ٢٧٥، تحقيق الدكتور: محمد محمد حسين.
(٢) الظعينة : المرأة.
(٣) شائن : معيب.
(٤) فتصام عنه : ادعى الصمم.
(٥) الوغى : الحرب.

ثم حمل عليه فصرعه.. فلما أبطأ على دريد! بعث فارسًا لينظر ما صنعا، فلما انتهي إليهما، وجدهما صريعين، ونظر إليه يقود ظعينته، ويجر رمحه.. فقال للظعينة

مـاذا تـريـدُ مـن شَـتـيـمِ عَـابـسِ   ألـم تَـرَ الـفـارسَ بـعـدَ الـفـارسِ

أرداهما عاملُ رمحَ يابسِ

ثم حمل عليه فصرعه وانكسر رمحُه... وارتاب دريد، فظن أنهم قد أخذوا الظعينة، وقتلوا الرجل... فلحق دريد بربيعة، وقد دنا من الحي، ووجد أصحابه قد قتلوا.. فقال : أيها الفارس.. إن مثلك لا يقتل، ولا أرى معك رمحَك، والخيل ثائرة بأصحابك، فدونَك هذا الرمح، فإني منصرف إلى أصحابي، ومثبطهم عنك، فانصرفَ إلى أصحابه.. فقال: إن فارس الظعينة قد حماها، وقتل أصحابكم، وانتزع رمحي ولا مطمع لكم فيه.. فانصرف القوم ويقول دريد في ذلك:

ومـا إن رأيـتُ ولا سـمـعـتُ بمثله   حـامـي الظعينةِ فـارسًـا لـم يُقْتلِ

أرْدَى فـوارسَ لـم يـكـونـوا نَـهْـزَةَ   ثـم اسـتـمـر كـأنـه لـم يَـفْـعَـلِ[1]

مـتـهـلـلا تـبـدو أسـرَّةُ وجهه   مثلَ الحُسام جَلَتْهُ كفُ الصَيْقلِ[2]

وترى الفوارس من مَخَافةِ رُمْحِهِ   مثلَ البُغَاثِ خَشِينَ وَقْعَ الأجْدلِ[3]

وحين نقرأ أبيات ربيعة بن مكدم في هذه الحادثة نعلم صدق القصة، وما تضمنته من دلالات ترسم لنا صورة من الحياة في هذا العهد البعيد، صورة كاملة لا ينقصها شيء.. قال ربيعة :

إن كـان يَـنْـفـعُـكِ الـيـقـينُ فسائلى   عَـنِّـى الظعينةَ يـومَ وادى الأخْـرَمِ

---

(١) أردى فوارس: ألقاهم على الأرض، ونهزة : غنيمة.

(٢) الحسام : السيف، الصيقل : الحداد الذي يزيل الصدأ.

(٣) انظر كتاب « دريد بن الصمة » حياته وشعره – لمناحي ضاوى القثامي – مطبوعات نادى الطائف الأدبي – ص٥٦ (أعده المؤلف في عام ١٣٩٩هـ)، والبغاث : الغنم الصغيرة، الأجدل : الصقر.

إذ هـي لأولِ مَـنْ أتـاهـا نُهْبَةً   لَـوْلا طِـعَـانُ ربـيـعـةَ بـنْ مكدَّمِ

إذ قـال لـي أدْنـي الـفـوارس مِيتةً   خـلِّ الـظـعـيـنـةَ طـائـعًـا لا تَـنْـدَم

فَصَرفْتُ راحلـةَ الظعينةِ نَحْوَه   عِمْدًا.. ليعلم بعضَ ما لم يَعْلَم

وهـتـكـتُ بـالـرُّمـح الـطـويل إهابَه   فـهـوى صـريـعًـا لـليدينِ وللفَم[1]

ومـنـحـتُ آخـرَ بَـعْـدَه جيّاشةً   نَجْلاء، فاغِرةً، كِشْدقِ الأضْجَمَ[2]

ولـقـد شَـفَـعْـتُـهـمـا بـآخَـرٍ ثالثٍ   وأبَـيَ الـفـرارَ لي الـغـداةَ تكرُّمي[3]

والقصة تجملها أبيات قالتها الظعينة نفسُها وهى امرأة ربيعة.. ريطَة بنت جذل الطعان.. قالتها لآسر دريد بن الصمة، حين وقع في الأسر بعد ذلك تحضه على إطلاق سراحه ؛ ليده التي كانت على ربيعة يوم أعطاه رمحه :

سنُجْـزي دُرَيـدا عـن ربيعةَ نعْمةً   وكـلُّ امـرئٍ يُـجْـزَى بمـا كـان قَدَّما

فـإن كـانَ خـيـرًا كـان خـيـرًا جزاؤهُ   وإن كـان شـرًا كـان شـرًا مُذَمَّما

سَنَجْزيهِ نُعْمى لم تَكُنْ بصغيرةٍ   بإعطائه الـرمْـحَ الطويلَ المُقَوَّمَا

فـلا تَـكْـفُـروه حـتـى نُـعْـمَـاه فيكمُ   ولا تَرْكَبُوا تلكَ التي تملأُ الغَمَّا[4]

هكذا كان الشعر وثيق الصلة بحياة العربي الضارب في الصحراء، والملتحم في سعير القتال وغبار المعارك، وسنرى في الحديث القادم، هل وقف الشعر عند هذا الجانب من حياة العربي في الصحراء أم اجتازه إلى جوانبَ أخرى من حياته ؟.

---

(١) الإهاب : جلد الجسم.
(٢) الأضجم : الأكول.
(٣) كتاب الأمالى للقالي، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٥م، ج٢، ص٣٠.
(٤) السابق ج٢، ص ٣٠٣.

الحديث الثالث

أيها السادة

جَلّت لنا قصة دُريد بن الصمة، وربيعة بن مَكْدم صورة دقيقة الملامح، مُعبّرة السمات من حياة العربي الهائم في الصحراء، والضارب بين الرمال والكثبان، صورة تؤكد متانة الوشائج والصلات بين الشعر والحياة للعربي، الذي يُزَج به في القتال، ويُخاطِبُ به الظعينة، ويَحيّى به الشجاع، وُيَفك به أصفاد الأسير[1].

غير أن هذه الصورة على روعتها ودقتها، إنما تمثل جانبًا من حياة العربي، وبعضًا من عواطفه، ولم تكن حياته كلها غارات ومعارك، وصراعًا.. ولكنها كانت كذلك حبًا وشَدْوًا وغناءً.. وكانت زاخرةً بالعواطف، فياضةً بالمشاعر، عامرةً بالأحاسيس، وما بَرِح العربي يعبّرُ عن هذا كله، ويتغنى بما يثير انفعالاته ووجداناته، في شعر جميل.. ولحن مُوقّع.

وقد حَفَلت كتب الأدب بكثير من القصص الممتعة، والأخبار النادرة، التي تُبين لنا مدى الصلة القوية التي كانت تربط بين الشعر والحياة في ذلك الحين.. وتكشف عن مقدار التجاوب العميق بينهما.. وتُرِينا تلك السجايا العربية التي خَلَقَتْهَا الصحراء في نفوسهم، وألقت ظلها على طبائعهم.. متمثلةً في أبياتهم وقصائدهم التي تضجُّ بها البادية من أقصاها إلى أقصاها..

التجأ قوم من حشد، وهم من بني مُحارب إلى بني عامر بن صَعْصعة وحالفوهم فقالوا - وكان لهم ثأر في بني مُحارب - نقتلهم بقتل محارب من قتلوا منا، فقام

(١) الأصفاد : القيود.

خِدَاش بنُ زُهير دونَهم حتى منعهم من ذلك، وقال :-

يـا راكـبًـا، إمّـا عَـرَضْـتَ فَبلغَنْ عَـقـيـلًا وأبـلـغْ إنْ عَـرَضْـت أبـا بكرِ
فَـيَـا أخـوْيـنـا مِـن أبـيـنـا وأمّـنـا إلـيـكُمْ... إليكم، لا سبيلَ إلـى جَسْرِ
دعُـوا جـانـبـيَ، إنـي سـأتُـركُ جَانبًا لـكم، واسـعًـا، بـيـنَ الـيـمـامـةِ والقَهْرِ
أبِـي فـارسُ الضَّحيْاء عمرُو بنُ عامرٍ أبَـي الدَّم واختارَ الوفاءَ على الغَدْرِ[1]

وغزا صخرُ بن عمرو الشريد، فأصيب في غزوته بطعنة في جنبه، ظل منها مريضًا قرابة الحول حتى ملَّه أهلُه... فسمع امرأة من جاراته تسأل سليمي امرأته : « كيف بعلُك..؟» قالت : لا حيٌّ فَيُرْجى، ولا ميت فيُنْسى، لقد لقينا منه الأمرَّين، وكانت تسأل أمَّه : « كيف صخر»، فتقول : أرجوُ له العافية إن شاء الله... فقال صخر في ذلك:

أرى أمَّ صَـخْـرٍ مـا تَجِـفُ دموُعها ومـلَّـتْ سُـلْـيمي مَـضْجَـعي ومكاني
فـأيُّ امـرئٍ سـاوى بـأمِ حليلةً فـلا عَـاشَ إلا فـي شـقًـا وهَـوانِ
ومـا كـنـتُ أخـشـي أن تـكونِ جنازةً عـلـيـكِ، ومَـنْ يـغـترُّ بـالـحَـدَثَـانِ[2]
لَعَمْري لقد أيقظتُ مَنْ كان نائمًا وأسـمـعـتُ مَـنْ كـانـت لـه أذنـانِ
أهـمُّ بـأمـر الحَـزْمِ لـو أستطيعُه وقـد حِـيـلِ بـينَ الـعـيْـر والـنَـزَوانِ[3]

وتراهن قيس بن زهير، وَحَملُ بن بدر على داحس والغبراء، أيهما يكون له السَبْق؟، وتواعدا لذلك، فلما كان يوم السباق وضع حمل بن بدر فتيانا في الطريق ليردُّوا داحسَ إن جاء سابقًا، ففعلوا وردوه عن الغاية.. وفي هذا يقول قيس بن زهير :

(١) راجع : الاختيارين للأخفش الصغير- تحقيق الدكتور: فخر الدين قباوة، ص٤٣٦، ٤٣٧، والضحياء: اسم فرس.
(٢) الحدثان : الليل والنهار.
(٣) تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج١، ص ١٦٨، والبيت الأخير في غير موضعه.

كما لاقيتُ من حَمَلِ بن بَدرٍ ... وإخوته على ذَاتِ الإصَادِ
هُمُ فخَروا علَيّ بغير فَخْرٍ ... وذادُوا دُونَ غَايته جَوَادي[1]

وثارت الحرب بسبب ذلك بين عَبْسٍ وذُبْيان، وبقيت أربعين سنة، وكان من فُرسانها عنترة بن شداد وأبوه.. وشداد بن معاوية هو الذي يقول لفرسه جَرْدة :

ومن يكُ سائلًا عني فإني ... وجَرْدة كالشَجا تحت الوريد
أقُوتُها بقوتي إن شَتونَا ... وألحِفُها ردائي في الجليدِ[2]

وفي هذه الحرب قال عنترة معلقته:

يا دارَ عبلةَ بالجَواءِ تكلّمي ... وعِمِي صباحًا دارَ عبلةَ واسلمي[3]

ومنها يخاطب ابني ضَمْضم، وقد بلغه أنهما يشتمانه ويتوعدانه.

ولقد خَشِيتُ بأن أموتَ ولم تدُرْ ... للحرب دائرةٌ على ابْنَي ضَمْضَم[4]
الشاتمي عِرْضي ولم اشْتمُهْمَا ... والناذرين إذا لقيتُقما دَمي
إنْ يَفعْلا فلقد تركتُ أباهُمَا ... جَزَرَ السباعِ وكلّ نَسْر قَشْعَم[5]
لما رآني قد نزلتُ أريدُه ... أبدي نواجِذَه لغير تَبسُّم[6]

وفي هذه المعلقة يخاطب عبلة ابنة عمه بهذا الغزل الرقيق:

---

(١) البيتان في كتاب شعراء النصرانية في الجاهلية، للأب لويس شيخو، ص٩٢٦، طبع مكتبة الآداب بالقاهرة.
(٢) لعله شداد بن معاوية العبسي، والد عنترة، حيث ذكر له الأغاني خبرًا.. هذا ولم نتمكن من تحقيق نسبة الأبيات له، وإن كانت النزعة العنترية غالبة على البيتين، ولربما نظمهما عنترة، ونسبهما إلى أبيه.
(٣) الجواء : موضع.
(٤) ابنا ضَمْضَم : هما: هَرم، وحُصين.
(٥) قَشْعم : الكبير من النسور.
(٦) ورد هذا البيت هنا في غير موضعه، إذ أنه مقدم بالديوان على ما قبله.

ولـقَـدْ ذكـرتُـك والـرمــاحُ نواهلٌ   مِنَي وبيضُ الهندِ تَقْطُر من دمي
فــوددتُ تقبـيـلَ الـسـيـوف لأنها   لَمَـعَـتْ كـبـارِقِ ثـغـرِكِ المتَبَسِّمِ(1)

ولما قتل كليب رثاه أخوه المهلهل، فكان من خيرِ ما رثاه به قوله:

كليبُ لا خَيْرَ في الدنيا ومَنْ فيها   إن أنْـت خلَّيْتَها فـيمَـنْ يُخَلّيها
كـلـيـبُ أي فـتـي عــزٍّ ومـكـرمُـةٍ   تحتَ السفاسفِ إذ يعلُوك سَافيها
نَعَي النُعَاةُ كليبًا لِـي فقلت لَهُمْ   مَادَتْ بنا الأرضُ أم مادتْ رواسِيَها
القـائدُ الخيـلَ تَـرْدى فـي أعِنَّتها   زَهْوًا إذَا الخيلُ بُحَتْ فِي تَعَاديها
مِـنْ خَيْل تَغْلِبَ ما تُلقي أسنتهُا   إلا وقـَـدْ خضَّبَـتهْا مِـنْ أعاديَها
يِـهـزْهِـزُون مـن الخَـطَّـى مُدْمَجَةً   كُمْـتًـا أنابيُبـهـا، زُرْقًـا غَوَاليها(2)

هذه كلها صور من حياة العربي تكشف لنا عن سجاياه وطبيعته، وتُرينا أن حياتَه كلها صراع في صراع، صراع مع الصحراء، وصراع من أجل العيش. والشعر من وراء ذلك هو اللسان المعبر، والسجل الحافل والصورة اللاقطة، التي سجلت نوازع الشعور وألوان العاطفة.

ولم تَخلُ حياة العرب في الصحراء مع هذا من الفرص السوانح للسلم والموادعة، يصيبون فيها حظًا من المتعة، وينالون نصيبًا من اللهو، ويأخذون قسطًا من الراحة بعد مكاره الكفاح ومعارك الجِلاد... وشعرُهم الذي سجل هذا الجانب من حياتهم يدل على أن في تلك النفوس التي أُغرمت بالحرب، وكَلِفت بالنضال جوانب رقيقة كأرقّ ما تكون النفوس، وألطف ما تكون الطباع...

(1) شرح ديوان عنترة، ص١١٧، وما بعدها - دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٥م.
(2) ديـوان مهلهل بن ربيعة - إعـداد وتـقـديم: طـلال حـرب - طبـع دار صــادر ببـيـروت - ص ٨٩، ٩٠، ٩١. السـفـاسـف : جمـع السـفـسـاف، وهـو مـا دقّ مـن الـتـراب فارتفع.. مادت : مالت، والسافي : التراب، يهزهزون : يحركون، الخَطّى : الرماح، أنابيب: جمع أنبوب، وهو قصبة الرمح، زُرْقًا : جمع الأزرق وهو النعل الشديد الصفاء.

وكان لطبيعتهم وظروف حياتهم أثر كبير في تلوين هذا الشعر، وتحديد أغراضه، وكانت المشاعر المبثوثة فيه أقربَ ما تكون إلى الفطرة والبساطة وأصالةِ الشعور، وعمق الأثر الذي تتركه في قرارة النفوس.

وحسُبك أنهم جعلوا الغزل مطالعَ قصائدهم، وندُر أن خلت منه قصيدة، ولغَزَلِهم طابعُه الخاص الذي أوحت به ألوان حياتهم وطبيعة عَيْشِهم، والبيئة التي تُحيط بهم، ونستطيع أن نرى في القصة الآتية جانبًا من هذه الحياة، ولونًا من ألوان لَهْوِهم وعبثهم..

رُوى أن امرأ القيس كان يحب ابنة عمه عنيزة، وأنه طلبها زمانًا فلم يصل، حتى كان يوم الغدير وهو يوم دارة جُلْجُل.. ذلك اليوم الذي انتهي بأن نحر ناقته للنساء وللخدم الذين تحلقوا وجعل يقطعُ أطايِبها، ويُلقي بها على الجَمْر، ويأكُلْن، ويأكُلُ مَعَهُن، فلما أرادوا الرحيلَ قالت إحداهن: أنا أحمل طُنْفَسَهُ.. وقالت الأخرى : أنا أحمل رَحْلَه.. وساعدنه، فتقسمن متاعه وزاده، وبقيت عنيزة لم تحمل له شيئًا... فقال لها : يا بنت الكرام لا بد أن تحمليني معك فإني لا أطيق المشي... فحملته على غارب بعيرها. وفي ذلك يقول امرؤ القيس:

ويومَ عقرْتُ للعذارى مطيّتي ... فيا عَجبًا مِنْ رَحْلها المُتَحمَّل
يظلُّ العذَارَى يَرْتمين بلَحْمها ... وشَحْم كهُدَّابِ الدّمقس المفتَّل
ويومَ دخلتُ الخِدْرَ خِدْر عنيزةٍ ... فقالت لَكَ الويلاتُ... إنك مُرْجِلى
تقولُ وقد مالَ الغبيطُ بنا معًا ... عقرْتَ بعيري يا امرأ القيس..فأنزِلِ
فقلتُ لها سِيرِي وأرخِي زِمَامَه ... ولا تُبْعِديني مِنْ جَنَاكِ المُعَلّل(١)

هذه إحدى الصور اللاهية للشعر العربي الجاهلي، وسنرى في المحاضرة التالية كيف أن الشعر لم يقف في تسجيله لبدوات الشعراء في حياة الصحراء ونزواتهم

---

(١) ديوان امرئ القيس – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – طبع دار المعارف بمصر – ص ١١، ١٢، يرتمين بلحمها: يتهادينه بينهن، والدمقس: الحرير الأبيض، الخدر: الهودج، مرجلى : تاركي أمشي راجلة، والغبيط: قتب الهودج، والعلل: الشرب بعد الشرب.

في البادية، وصراعهم في معاركها الفتاكة... فتناول فلسفات الكون وخطرات النفوس.

وهكذا أرجو أن يكون قد اتضح لحضراتكم مما أسلفت من أقاصيص العرب ولهوهم، وبعدما قصصناه عن أحوالهم ومعيشتهم – مدى صلتهم بالحياة في مجتمعهم، تلك الصلة التي ربطت بينهم، وبين الشعر برباط متين، وجعلت منه رمزًا لحضارتهم، وعنوانًا على تفكيرهم، ورغم الحجج التي يسوقها أنصار المذاهب الجديدة لتأييدها ولترويجها بين الناس، فلم يزل الرأي العام العربي مفتونًا بتراثه، مؤمنًا بمزاياه، فخورًا بمستواه الإنساني، الذي ارتقي إليه. وما نحسب أنه بمقبلٍ على هذه الألوان الجديدة إلا بعد جهد شاق متواصل إلى زمن بعيد – ولكن هيهات.

الحديث الرابع

أيها السادة

في قصة يوم الغدير، التي أجملناها إجمالًا، في خاتمة حديثنا السابق، والتي سجلها امرؤ القيس في هذه الأبيات القليلة التي جاءت في نهاية القصة، والتي انتظمت ما دار بينه وبين ابنة عمه عنيزة من حوار.

في هذه القصة صورة دقيقة للحياة الضاحكة المرحة، التي ترجمها الشعر للحياة اللاهية، التي كان يحياها امرؤ القيس، وهي صورة تعطي ألوانًا صارخة من الحياة الجاهلية – وهناك صورة أخرى من الحياة اللاهية قريبة من هذه لفتيان القبائل وشبابها، انساب بها شعر الشعراء في ذلك الحين، يقول طرفة بن العبد:

وإن تَبْغني في حلقة القومِ تلقَني　　وإن تَقْتَنصني في الحوانيتِ تَصْطَدِ[1]

إذن كانتَ هناك حوانيت تقدم الشراب، وتيسر وسائل اللهو لهؤلاء الفتية الشعراء.

ولم يقف الشعر عند هذا الحد في تسجيل مظاهر الحياة في البادية، من صراع ونضال، ومن فرح ولهو. بل سجل أيضًا تلك الخطرات الإنسانية، التي تختلج بها نفسُ الإنسان الذي يحيا، ويعيش، ويتأمل، ويحِسُّ بالحياة، والموت اللذين يتجاذبان أمام عينيه أطراف الوجود، وهذه الصورة التي تنطق بهذه الألوان العديدة

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ص٩٨ – دار الباز بمكة المكرمة، والحوانيت بيوت الخمارين.

بين الحياة الجادة، وإن لم تبلغ أمام الفلسفة العليا، ولم تكن من الشمول بحيث تصبح ظاهرة عامة، إلا أنها من غير شك تكشف لنا القناع عن حقيقة هذه النفس العربية، والتي تحس، وتفكر، وتعبر عن حسها وفكرها، وتحتاج صورُها وأخيلتها من معينها الذاتي... وهذا امرؤ القيس الذي جرّب وقاسى مرارة التجربة بعد مقتل أبيه ينظر إلى الدنيا التي تجهمت له، وبرمت به، فيقول في عمق وصدق:

ومن يأمنِ الدنيا يكنْ مثل قابضٍ على الماء خانته فُروجُ الأصابعِ(1)

وينظر شُريك بن عامر المصطلقي إلى ناحية أخرى... إلى الموت.. فيقول:

لا تأمَنَنْ وإن أمسيتَ في حَرَم إن المنايا تُلاقِي كلَّ إنسانِ

فكُلُّ ذي صاحبٍ يومًا مفارقُهُ وكل زادٍ وإن أبقيتَه فاني

والخيرُ والشرُ مقرونان في قَرَنٍ بكل ذلك يأتيكَ الجديدانِ(2)

وقد أُنشد النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ هذه الأبيات فقال : لو أدرك هذا الإسلام لأسلم... ويتجه علقمة الفحل إلى وادٍ آخر.. إلى المرأة.. فيعرّيها أمام عينيك على حقيقتها بقوله:

فإن تَسْألوني بالنساءِ فإنني بصيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ

إذا شَاب رأسُ المرء أو قلّ مالُهُ فليس له مِنْ ودِّهِن نصيبُ

يُرِدْنَ ثَرَاءَ المالِ حيثُ علمنَهُ وشرخُ الشبابِ عندهُن عجيبُ(3)

ويزيد عبيد الأبرص فيقرن بذكر الموت ذكر الله في قوله:

(1) لم يرد هذا البيت في ديوان امرئ القيس بشروحه المتعددة في حدود ما اطلعنا عليه.

(2) قرْن : حبل، والجديدان : الليل والنهار، (ولم نجد لهذا الشاعر شريك بن عامر المصطلقي ذكرًا في قبيلته بني المصطلق، وهم بني جزيمة بن سعد بن عمرو ابن عامر)... راجع: جمهرة أنساب العرب، الطبعة الخامسة ص٢٣٩، دار المعارف بمصر ١٩٨٢م.

(3) جواهر الأدب للهاشمي ج٢، ص٩٧.

وكـــلُّ ذي غَــيْــبَــةٍ يَــؤوبُ   وغــائــبُ المــوتِ لا يَــؤُوبُ

مَــنْ يــســألِ الــنــاسَ يــحــرِمــوه   وســائِــلُ الــلــهِ لا يَــخــيــبُ(١)

ويقول المرقش يفرق بين نموذجين من الناس:

ومَـنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النـاسُ أمرَه   ومن يَغْوِ لا يَعْدَمُ على الغيّ لائمًا(٢)

تعمق الشعر بعد ذلك حقائق الحياة والأحياء، وفلسف شئونَ الحياة التي يضطرب بها المجتمع آنئذ، ومن هذا قول دُرَيْد بن الصمّة في مخالفة قومه لنصحه:

أمـرتُـهـم وأمْـــري بمـنـعَـرجِ الـلَّـوى   فلم يستبِيُنوا الرشدَ إلا ضُحى الغد

فلمَّا عَصَوني كنتُ منهم وقَدْ أرى   غـوايـتَـهـم وإنــنــي غــيــرُ مُـهْـتـدِ

ومـا أنَـا إلا مـن غُـزَيّـةِ.. إن غَـوَتْ   غَـويـت.. وإن تـرشـدْ غُـزَيـة أرشُـدِ(٣)

ومنه قول عمرو بن معد يكرب يذكر ما يختلف عليهم من نعمة وبؤسٍ ومن خَفْضٍ وشَقاء

فـيـومًـا تـرانـا فـي الخُـــزُوز نَجُـرُّهـا   ويـومًـا تـرانـا فـي الحـديـدِ عوابسًا(٤)

ويـومًـا تـرانـا فـي الـثـريـدِ نـدوسُـهُ   ويـومًـا تـرانـا نَـكْـسِـرُ الكعك يابسًا(٥)

ويطول بنا القول، ويستطرد الحديث حين نريد الاستقصاء، ولكن حسبنا من ذلك أن ندرك أن الشعر عند العرب في جاهليتهم، بدأ مع الحياة، واتصل بها اتصالاً شديدًا.. فلم يدع مظهرًا من مظاهرها ولا خاطرًا من خواطرها إلا ومر

---

(١) شرح القصائد العشر، ص ٣٦٧.
(٢) الشعر والشعراء ج١، ص٢٢١.
(٣) دريدُ بن الصمة حياته وشعره – مناحي ضاوي القثامي، ص٣٥.
(٤) الخزوز : الأثواب.
(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ج٦، ص١٦٥، تحقيق محمد سعيد العريان.

عليه يصفه، ويستلهمه ويجيبه، ولم ينس حتى شئونها اليومية يسجلها، ويتغنى بها، ويأخذ منها موضوعًا لأبياته، وزادًا لمعانيه... ونستطيع نحن من هذه الناحية أن نسميه شعر الحياة.... الذي لم يفرط في صغيرة، ولا كبيرة في هذه الحياة إلا أحصاها.

كان هذا في الجاهلية، والعرب داخل بيدائهم، وسرعان ما ظهرت الدعوة الإسلامية، وأخذت طريقها إلى الأمم والشعوب، على يد أبنائها العرب، وانتقلوا بها بعيدًا عن بلادهم وأوطانهم حتى زادت صلة الشعر بالحياة قوة، فقد جدَّت ظروف اتسعت بها أغراض الشعر، وتعددت موضوعاته.. وبلغ من سلطان الشعر على النفوس إذ ذاك ما جعل قبيلة دَوْس تدخل في الإسلام فِرقًا[1] من بيتين لكعب ابن مالك هما :

قَضَيْنا من تهامةَ كلَّ رَيْبٍ وخَيْبَرَ.. ثم أجمعنا السُّيوفا

نُخَبِّرها ولو نَطَقَتْ لقالَتْ قواطِعُهُن دَوْسًا أو ثقيفًا[2]

ومعنى هذا أن سلطان الشعر زاد قوةً عنه في أيام جاهليته، وقد عَرَف النبي عليه الصلاة والسلام ذلك.. فاتخذ من حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله ابن رواحة وهم شعراؤه وشعراء الدعوة. اتخذ صلوات الله وسلامه عليه من هؤلاء السابقين سلاحًا ماضيًا يَذود به الأعداء، ويحارب به الخصوم.. وقد روى عنه ﷺ أنه كان يَنْصِبُ منبرًا لحسان في مسجده ليُنشده شعره في قريش... وكان يحييه وهو يسمعه بقوله: « قل وروح القدس تؤيدك...» وكان يقول : «لكلامه أشد عليهم من وقع النبل..» والحقيقة أن الشعر في هذا العصر قد أصبح شَغْل الناس الشاغل، وقد أصبح لهم بمثابة الصحافة للناس في العصر الحديث.

ومن هنا ظهرت مدارس جديدة للشعر في الحجاز والعراق والشام، وكان لكل

(١) فرقًا : جماعات.

(٢) كعب بن مالك الأنصاري حياته وشعره، دكتور عبدالمنعم أحمد يونس، مطبعة الأمانة ١٩٨٦م، ص٨، ودوس وثقيف : قبيلتان.

مدرسة مذهب وأسلوب، وتعددت هذه المدارس أو هذه المذاهب بمقدار ما كان في الحياة إذ ذاك من أحزاب سياسية، ومن فرق دينية، واسْتَعَرَت نيران الحرب، وكان الشعر سلاح المعركة التي ظلت مستعرة، حتى بعد ظهور الدولة العباسية، تلك التي قامت على أكتاف الفرس، وبُنيت دعائمها بسواعد أبنائها.

وسنرى في حديثنا القادم، كيف كان يَتَصَاولُ هؤلاء الشعراء، ويصطرعون حول شئون الحياة وأحداثها، التي كانت تفيض بها الدعوة الجديدة في ظل الرسالة الكريمة، رسالة سيد المرسلين وصفوة الأنبياء.

الحديث الخامس

أيها السادة:

حين أشرقت الأرض بنور الإسلام، توثقت صلة الشعر بالحياة، وقَويت شوكةُ الشعراء في ظل الدعوة الإسلامية، والجهاد في سبيلها، وقد احتدمت المعركة بين الشعراء وحَمِي وطيسها، وتسلح المشتبكون بأسلحة الشعر في معركة الحياة والمثل العليا، لا عندَ المسلمين وحدَهم، بل وعند المشركين كذلك.

ونحن نقرأ اليوم هذا الشعر بعد أن توارت أيامه، وانتهت أسبابه، فإذا هو - من فرط ما فيه من حياة - يكاد يقربنا لها أو يقربها لنا، حتى كأننا نعيش فيها، ونشارك في أحداثها - نجد هذا حين نقرأ مثلًا قول حسان بن ثابت يُعَيّرُ الحارث ابن هشام بفراره يوم بدر على فرسه:

إن كُنْتِ كاذِبةَ الذي حَدَّثتني ... فنجوتِ مَنْجَي الحارثِ بنِ هشام

تركَ الأحبَّةَ أنْ يقاتِل دونَهم ... ونَجَا برأسِ طِمِرَّةٍ ولِجامِ[1]

فيرد عليه الحارث بن هشام بقوله:

الله يعلمُ مَا تركتُ قتالَهُمْ ... حتى عَلَوْا فرسي بأشْقرَ مُزْبِدِ

وعلِمْتُ أنّي إنْ أقاتِلْ واحِدًا ... أُقتلْ.. ولا يَضْرُر عدوّى مَشْهدِي

فَصَدْدتُ عنهمْ والأحبَّةُ فيهمْ ... طَمَعًا لهم بعقابِ يومِ سَرْمَدِ[2]

---

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق الدكتور وليد عرفات، ج١، ص٢٩، طبع دار صادر، بيروت.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون، طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧م ج١، ص ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠.

ونجده حين نقرأ قول كعب بن مالك يرد على شعراء قريش بعد هزيمة أحد:

أبلغ قريشًا وخيرُ القول أصدقهُ   والصدقُ عند ذوي الألبابِ مقبولُ
إنْ قد قَتَلْنَا بقتلانا سَرُاتِكمُ   أهلَ اللواء ففيما يكثُر القيلُ
ويومَ بدرٍ لقيناكُمْ لَنَا مددٌ   فيه مع النّصرِ ميكالٌ وجبريلُ
إن تقتُلونا فديُن الحقّ فطرتُنا   والقتلُ في الحقِ عند اللهِ تفضيلُ[1]

ونجده حين نقرأ قول حسانَ:

فَمَا نَخْشَى بحمدِ الله قومًا   وإن كثُرُوا وأُجْمعَتِ الزُّحوفُ
إذا ما ألّبوا جَمعًا علينا   كفانا حَدَّهم رَبٌّ رؤوف
سَمَوْنَا يومَ بدرٍ بالعَوالي   سِراعًا ما تُضعضِعنا الحتوف
ولكنا توكلنا وقلنا . مآثرُنا   ومعقلُنا السُّيُوفُ
لقيناهم بهَا لَمّا سَمَوْنا   ونحن عصابةٌ وهمُ ألُوف[2]

ولعبد الله بن رواحة يذكر موعدًا بعد موقعة أحد... وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد خرج لِلقاء المشركين، ولكنهم لم يخرجوا فرجع إلى المدينة:

وَعَدْنا أبا سفيان بَدْرًا فلمْ نَجِدْ   لميعاده صِدْقا، وما كانَ وافِيا
فأقْسَمَ لو وافيتَنا فلقيتنا   لأُبْتَ ذميمًا وافتقدت المواليا[3]
تَركنَا به أوصالَ عتبةَ وابنه   وعَمْرًا أبا جَهْلٍ تركناه ثَاديًا
عصْيتُمْ رسولَ الله.. افٍ لدينكُمْ   وأمرهمُ السئُ الذي كان ثاويًا[4]
فإني وإن عنفتُموني لقائلٌ   فدًى لرسول الله أهلي وماليا[5]

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣، ص١٠٩.
(٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ج١، ص٤٩٥.
(٣) لأبْت : لعُدْتَ.
(٤) ثاويًا : مُقيمًا.
(٥) عتقتموني : تركتموني، فدِى : فداء.

أطعناه لم نَعْدِلْهُ فينا بغيره شَهابًا لنا في ظُلْمةِ الليل هاديًا[1]

ولحسان في ذلك... وهو يهدد الكفار بأن طريق تجارتهم إلى الشام قد سُدَّ:

ذَرُوا فَلَجَاتِ الشامِ.. قد حالَ دونَهما ضِرابٌ كأفواه المَخاضِ الأوارِك
بأيدي رجالٍ هاجَروا نحوَ ربِّهم وأنصارِهِ حقًا، وأيدي الملائك
إذا هَبَطَتْ حَوْرَانَ من رَمْلِ عَالجٍ فَقُولا لها ليسَ الطريقُ هنالكِ[2]

وقد رد عليه أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب بقصيدة منها قوله:

أقمتُ على الرسِّ النزوعِ تُريدُنا وتتركنا في النُّجْلِ عند المُبارِك[3]
فلا تَبْعثِ الخيلَ الجيادَ وقل لها على نَحْو قولِ المعصَمِ المتماسك
شَقِيتُم بها وغيركمُ أهلُ ذكرها فوارسَ من أبناءِ فِهْرِ بن مالك
فإنك لا في هِجْرةٍ إن ذكرتَها ولا حَرَماتِ الدينِ أنت بناسك[4]

وحين هُزمت بنو قريظةَ بعد الخندق نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقال حسان ابن ثابت، وفي قوله ظل من السخرية والتشفي:

لقد لَقِيتْ قريظةُ وما عظَاهَا وَحَلَّ بِحُصنها ذُلٌّ ذليلُ
وسعدٌ كان أنذرَهُمْ نَصِيحًا بأن إلهَهُم رَبٌّ جَلِيلُ
فما بَرِحوا بنَقْضِ العهدِ حتَّى غزاهُمْ في ديارِهِمُ الرسول

---

(١) ديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق دكتور/ حسن محمد باجودة، طبع دار التراث بالقاهرة، ص١٠٩.
(٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ج١، ص ٨٥.
(٣) الرس، النجل : موضعان.
(٤) أبو سفيان بن الحارث هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب، أحد الأبطال الشعراء في الجاهلية والإسلام، وكنيته في الجاهلية أبو سفيان واسمه المغيرة، وله شعر كثير في الجاهلية هجاء بالإسلام، وشعر كثير في الإسلام هجاء بالمشركين، وأسلم يوم فتح مكة، وحسن إسلامه، ومات بالمدينة وصلى عليه عمر، وجاء البيت الثالث في طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي.. راجع : الأعلام للزركلي جزء٧، ص٢٧٦-٢٧٧، ويراجع طبقات ابن سعد والإصابة في باب الكنى.

أحـاط بِـحِـصْـنِـهِـمْ مـنَّـا صفوفٌ   لـهُ مِـنْ حَـرِّ وَقْـعَـتِـهَـا ظَـلـيـلُ[1]

وقال فيهم أيضًا:

تَـفَـاقَـدَ مَـعْـشَـرٌ نـصـروا قُـرَيـشـا   ولَـيْـسَ لـهـم بـبـلـدتـه نـصـيـرُ
هـمُ أوتُــوا الـكـتـابَ فـضـيَّـعُـوه   فـهـم عُـمْـيٌ مـن الـتـوراة بُـورُ
كـفـرتُمْ بـالـقـرآن وقـد أتُـيـتُـمْ   بـتـصـديـقِ الـذي قـال الـنـذيـرُ[2]
لَـهَـانَ عـلـى سَـرَاةِ بـنـي لُـؤيَّ   حـريـقٌ بـالـبُـوَيْـرَةِ مُـسْـتَـطـيـرُ[3]

ويظهر أن هذه القصيدة كان لها وقع شديد في نفوس الكفار، فقد رد على حسان جماعة منهم أبو سفيان بن الحارث، وجبل بن جوال الثعلبى، فمما قال أبوسفيان:

أدامَ الـلـهُ ذلـك مـن صـنـيـعٍ   وحـرَّق فـي طـرائـقـهـا الـسـعـيـرُ
سـتـعـلـم أيُّـنـا مـنـهـا بِـنُـزْهٍ   وتـعـلـمُ أي أرْضَـيـنـا تَّـضِـيـرُ
فـلـو كـان الـنـخـيـلُ بـهـا رِكَـابـا   لـقـالـوا لا مُـقَـام لـكـمْ فـسـيـروا

وقال ابن جوال، ويظهر فيها أنه كان يريد أن يوقع بين المهاجرين والأنصار:

ألا يـا سـعـدُ سـعـدُ بـنـي مـعـاذ   لـمـا لَـقِـيـتْ قـريـظـةُ والـنـضـيـرُ
وجـدنـا المـجـدَ قـد ثـبـتُـوا عليه   بِمَـجْـدٍ لا تـغـيّـبـه الـبـدور
أقـيـمُـوا يـا سـراةَ الأوس فيها   كـأنـكـم مـن المِـخـزاة عُـورُ
تـركْـتُـمْ قِـدْركـم لا شـيء فيها   وقِـدْرُ الـقـوم حـامـيـة تـفـور[4]

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ج١، ص٣٢٧.
(٢) هنا حذف المد للضرورة.
(٣) السابق ج١، ص٢١٠.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣، ص١٩٩، تحقيق الدكتور/ أحمد السقا حجازي، طبع دار التراث العربي بالقاهرة.

وهكذا بقى الشعر في المعركة من أولها إلى آخرها لم يَخفّ صوتهُ، ولم تُغْمد أسلحته، ولم يدع الشعر ظاهرة في هزيمة أو انتصار إلا تعرض لها وسجَّلها.

ولكن ما إن انتهى الكفاح للدعوة في جزيرة العرب، بالنصر المبين لها، حتى انتقل الكفاح إلى خارجها.. ونشأت بعد ذلك الأحزاب السياسية، والفرق الدينية، وجدَّت في الحياة أمور، والشعر من وراء ذلك لسان الجميع، في القرية والمدينة، وفي البادية والحضر يصور الحياة الجديدة، في صور جديدة أيضًا.

وفي الحديث القادم سنرى كيف كانت هذه الأحزاب السياسية التي ظهرت في الشام والعراق شَغَلَ الشعراء الشاغل، وكيف كانت مأساة أمير المؤمنين عثمان بن عفان مثار الصراع بين الشعراء، ونقطة التجمع والإعداد للقتال والحرب بين علي ومعاوية، حتى بلغ الأمر بينهما مبلغه.

الحديث السادس

حضرات المستمعين الكرام :

تبدلت الحياة العربية تبدلاً كبيرًا بعد أن انتقل الكفاح في سبيل الدعوة الإسلامية من داخل الجزيرة... إلى خارجها.. وقد اتخذ هذا التبدل مظهره في الأحزاب السياسية التي نشأت بالشام، والعراق، وفي هذه الفرق الدينية التي ظهرت آنئذ... ولقد كان الحجاز آخذًا بأوفى نصيب من حياة الترف والمتعة والغناء، التي غَرق الناس فيها، وقد نهل الناس وعَلُّوا من ذلك النبع الزاخر في أعقاب موقعة الحَرَّة التي قضى فيها يزيد بن معاوية على البقية الباقية من النفوذ السياسي، الذي كانت تتمتع به المدينة.

وتبدأ نقطة التبدل من مقتل عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند نقطة التحول في مجرى الحياة العربية، وقد أثيرت بسبب مصرع عثمان الحرب بين علي ومعاوية، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه... غير أن الجلاء بالشعر والصِيال[1] بالحجة والرأى لم ينتهيا إلى شيء.. وكان الغالب والمغلوب فيه سواء..

والحق أن مقتل عثمان كان حدثًا خطيرًا، وكانت نتائجه أكثر خطورة... وقد شُغل به الناس - خاصتُهم وعامتُهم - وكان فيه رأي يحرص على أن يظهره للناس! وأن يكون له الغَلَبَة والسلطان... وقد روى أن حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال لعلي: إنك تقول: ما قتلتُ عثمان، ولكن خذلته، ولم آمر به، ولكن لم أنه عنه. فالخاذل شريك القاتل، والساكت شريك القاتل. وقال:

---

(١) الصيال : الوثوب والقفز.

إني لَمِنْهُمْ وإن غابُوا وإنْ شَهِدوا حتَّى المَمَاتِ وما سُمِّيتُ حَسَّانا

بَلْ لَيْت شعري وليتَ الطيرَ تُخْبِرني ما كانَ شأنُ عليّ وابنِ عَفَّانا

لَتَسْمَعنَّ وشيكا في ديارِكُمُ الله أكبر يا ثاراتِ عُثْمانا

ضَحُّوا بأشمطَ عنوانُ السجودِ به يُقَطِّعُ الليلَ تسبيحًا وقرآنا[1]

ويقول حسان في ذلك أيضًا:

إن تُمْسِ دارُ بني عَفَّانَ خاليةً بابٌ صريعٌ وبابٌ مُحْرَقٌ خَرِبُ

فَقَدْ يُصادفُ باغِي الخَيْرِ حَاجَتَهُ فيها ويأوي إليها الذكرُ والحَسَبُ

يا أيُّها الناسُ أبدوا ذاتَ أنفسِكم لا يستوي الصدقُ عند الله والكَذِبُ[2]

ويقول الفرزدق:

إن الخلافةَ لما أظْعَنَتْ ظعنت من أهل يثربَ إذ غَيْر الهدى سَلَكُوا

صَارَتْ إلى أهلها منهم ووارثها لما رأى اللهُ في عثمانَ ما انتهكوا

السافكي دمَه ظُلْمًا ومعصيةً أيُّ دم لا هُدُوا مِنْ غيِّهم سَفَكُوا[3]

وهذا يدل على أن جرح الحادثة في النفوس لم يندمل، حتى بعد مرور السنوات عليها، ولم يكن الأمر قاصرًا على كبار القوم وحدهم في الإحساس بالفجيعة، بل تجاوزهم إلى العامة أنفسهم.

ولم يسكت عليٌّ رضوان الله عليه على هذا، ولا سكت أصحابه بل تَلَقُّوهم بالمِثْل،

---

(١) الأشمط من اختلط البياض والسواد في شعر رأسه، والمقصود ذو النورين وهو عثمان بن عفان رضي الله عنه، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ج١، ص٩٦، وانظر العقد الفريد، لابن عبدربه، ج٣، ص٢١٠، تحقيق / محمد سعيد العريان.

(٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ج١، ص١٢٠.

(٣) العقد الفريد، لابن عبدربه ج٣ ص٢١٠.

وقابلوا عدوانهم بعدوان، بل إن أصحاب على غَلُّوا في ذلك غلوًا كبيرًا، وأخذوا الأمر على أنه عقيدة يناضلُونَ لها، ويُسْتشهدون من أجلها... ومما يُرْوى في ذلك قول السيد الحِميّري- وكانت الشيعة من تعظيمها له تُلْقي له وسادًا بمسجد الكوفة :

إنـي أُديـنُ بمـا دانَ الـوصـيُّ به   وشـاركَـتْ كفُّـه كفـي بصِفّـينـا[1]

في سَفْك ما سَفَكَتْ يَوْمًا إذا احتضروا   وأبـرز الـلـه لـلـقِسْط المـوَازيـنـا

تلك الدماءُ معًا يا رَبُّ في عنُقي   ثم اسقني بعدها آمـينَ.. آمينا[2]

آمـينَ مـن مِـثْلهـم فـي مثـل حالهمُ   في فتيةٍ هاجرُوا في الله شارينا[3]

لـيسُـوا يـريـدون غيـرَ الـلـه رَبّـهِـمُ   نِـعْـم المـرادُ تـوخَّـاه المـريـدونـا[4]

ومما كتبه النجاشي[5] (شاعر علي) إلى معاوية:

يـا أيُـهـا المـلـكُ المُـبْـدي عـداوتَـهُ   انـظـر لـنـفـسـك أيَّ الأمـرِ تـأتـمرُ

فـإن نَـفَـسْتَ علـى الأقـوام مجدهمُ   فـابسطْ يديك فـإن الخيـر يبتدرُ[6]

واعـلـم بـأن علـىّ الخيـر مـن نفر   شـم الـعـرانـين لا يـعلـوهـمُ بـشـرُ[7]

نـعـم الـفـتـي أنـت، إلا أن بينكما   كما تفاضل ضوء الشمس والقمرُ

ومـا أخـالُـك إلا لَـسْـتَ مُنْتَهِيًا   حتى يَمَسَّكَ من أظْفارِه ظُفُرُ[8]

---

(١) الوصي : يقصد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وذلك من إطلاقات الشيعة، وبصفينا : القصد حرب صفين، التي جرت أحداثها بالعراق، وتمخضت عن مقتل علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقد جاء بديوان السيد الحميري أن الشطر الثاني من هذا البيت هو: يوم الخريبة من قتل المحلينا.

(٢) في رواية العقد الفريد (مثلها) بدلًا من (بعدها).

(٣) شارينا : هم الشراة أي: (الخوارج).

(٤) ديوان السيد الحميري، تحقيق شاكر هادي، مكتبة الحياة ببيروت، ص٤١٨.

(٥) هو : قيس بن عمر.

(٦) نفست : نغصت.

(٧) شم العرانين : إشادة ومديح لأصل علي ونسبه.

(٨) جاءت الأبيات في كتاب: تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، ج١، ص٣١٤، ومعنى ظَفَر أي: فوز.

ولم تهدأ هذه المعركة حتى بعد موت علي ومعاوية، بل استمر أوارُها، حتى ذهب بالدولة الأموية كلها، وقد رُوي أن يزيد بن معاوية حرّض الشعراء الذين حوله على هجاء الأنصار، فكلُّهم تحرجوا من ذلك واستعظموه فُدلّ على الأخطل، فقبل، فهجاهم بقصيدته التي جاء فيها:

ذَهَبَتْ قُرَيشٌ بالمكارمِ، والعُلَى والـلُّـؤْمُ تحتَ عَمائمِ الأنصارِ
فَذَرُواْ المَكارِمَ لستُمُ مِنْ أَهلِها وخُذُوا مَساحِيكُم بَنِي النَّجَارِ[1]

ويزيدُ هذا هو الذي بعث إليه مسلم بن عقبة برؤوس القتلى من أهل المدينة بعد وقعة الحرّة.. فلما ألقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبعري[2] يوم أُحد:

ليت أشياخي ببدر شَهِدوا جَزَعَ الخزرج من وَقْعِ الأسَلْ[3]
لأهَلُّوا واستهلوا فَرِحًا ولقالُوا ليزيدَ لا تَشَلْ[4]

وقام الشعراء من الجانبين يؤججون نارها ويوالون إشعالها، حتى لا تَخْمُد، فتُرى من ناحية الأخطل والأحوص ومن لفّ لفهَّما، وترى من ناحية أخرى الكُمَيت ابن زيد والسيد الحِميرّي، ومن كان على مثل رأيهما - ولكننا لا ننسى الخوارج في هذا المقام؛ لأنهم كانوا طرفًا ثالثًا في المعركة ضد الفريقين المتخاصمين جميعًا.. وللخوارج شعراؤهم الذين عبُّروا عن عقيدتهم أصدق تعبير، وكان شعرهم صورة من حياتهم منهم عَمّران بن حَطَّان الذي قضى حياته متخفيًا.. متنقلًا بين القبائل مستعيرًا لنفسه أسماء مختلفة، وأنسابًا متباينة حَسْبَما يقتضيه المقام.. وهو القائل في ذلك :

---

(١) شعر الأخطل، تحقيق دكتور/ فخر الدين قباوة، طبع دار الآفاق الجديدة ببيروت، ج٢ ص ٤٨٣، ٤٨٤، والمساحي : جمع مِسْحاة : وهي الفأس، وبنو النجار من الأنصار، وهم رهط حسان بن ثابت.

(٢) ابن الزبعري: هو عبدالله بن الزبعري شاعر قريش في الجاهلية.

(٣) الأسَل : المقصود الرماح.

(٤) البيت الأول موجود في الكامل للمبرد، ج٤، ص١٣ وكذلك في سيرة ابن هشام، ح٢، ص١٠ في أعقاب أحداث غزوة أحد، لا تشل : أي لا نتبعك.

نـزلـتُ بـقـوم يـجـمـعُ الـلـه شملَهُمْ   ومـا لـهـمُ عـودٌ سـوى المجْـدِ يُعْتَصَرُ
مـن الأزْدِ إنَّ الأزْدَ أكـرُم أُسْــرَةٍ   يمـانـيـةٍ قَـربُـوا إذا نُـسـب البشَرْ
وأصـبـحـتُ فـيـهم آمـنًـا لا كَمَعْشَر   أتَـوْنـي فـقـالـوا من ربـيـعـةَ أو مضرْ
أو الحــيِّ قـحـطـانٍ وتـلـك سفاهةٌ   كـمـا قـال لـى رَوْحٌ وصـاحـبُـه زُفَـرْ
ومــا مـنـهـمُ إلا يُـسـرُّ بـنَـسـبـةٍ   تـقـربـنـي مـنـهـم وإن كـان ذا نَـفَـرْ
فـنـحـنُ بـنـو الإســلامِ والـلـهُ واحـدٌ   وأولـى عِبادِ الله بالله مَنْ شَكرْ..[1]

وهو القائل في ابن مُلْجم الذي طعن عليًّا:

يـا ضـربـةً مـن تَـقـيٍّ مـا أرادَ بها   إلا ليبْلُغَ مِنْ ذي العرشِ رِضْوَانا[2]

ورغم أن أكثر شعر الخوارج لم يصل إلينا، إلا أن ما بقي منه موزعًا على كتب الأدب يتسم بطابع القوة، والإيمان، والتضحية، وكان هذا هو طابع حياتهم، وقد رُوي أن أم حكيم كانت زوجة لقائدهم قَطِرّي بن الفُجَاءة، وهو الذي قال فيها، وهو يذكر يوم دولاب :

لـعَـمْـرُك إنِّـي فـي الحـيـاة لـزاهـدٌ   وفـي الـعـيشِ مـا لـم ألْـقَ أمَّ حكيم
ولـو شَـهـدتْـنِـي يـومَ دولابَ أبصرتْ   طِعـانَ فتًى فـي الحـرب غيرَ ذَميم[3]

وأم حكيم هذه كانت تشاركهم في القتال، وكانت ترتجز بقولها :

أحـمِـلُ رأسًــا قـد سَـئِـمْـتُ حَمْلَه   وقــد مَــلَــلْــتُ دَهْــنَــه وغـسْـلَـهُ
الاَ فتى يحملُ عنّى ثِقْلَهُ[4]

هكذا كان الشعراء يخوضون غمار الحياة، ويصارعون أحداثها، ويقتحمون أخطارها، ويذيعون في الناس آراءهم في صراحة، وقوة، وإيمان.

---

(١) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج١٨، ص١١٤.
(٢) تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، ج١ ص٤٩١.
(٣) الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣ ص ٢٩٧.
(٤) الكامل ج٣ ص ٢٩٧.

وموعدنا الحديث القادم ؛ لنعرف كيف كان الشعراء ألسنةً حدادًا[1] بين الأحزاب السياسية، والفرق الدينية، في الشام والعراق، وكيف كانوا ناعمين تحت ظلال الحياة الوادعةِ المترفة في الحجاز...

---

(١) المراد : أصحاب ألسنةٍ حادة في الدفاع عن الخير ومقاومة الشر.

الحديث السابع

أيها السادة:

انتهى بنا الحديث في المحاضرة السابقة إلى الإشارة بأن الناس قد شُغلوا طوالَ عهد بني أمية تقريبًا بالصراع الدائر بين الأحزاب السياسية والفِرق الدينية في الشام والعراق، وكانت أنباء هذا الصراع تتوالى عليهم تباعًا من أفواه الشعراء والرواة، في شيئ كثير من اللذة والشَغَف، وشيئ كثير من الحب والإعجاب، وكان الناسُ أنفُسُهم شيعًا وأحْزابًا، وكان لكل شاعر أو شعراء شيعةٌ وأنصار، يتعصبون له أو لهم، ويقدمونهم على مَنْ سواهم، وقد يكون الشاعر من حزب، والمعجبون به من حزب آخر، فلم تكن تَغْنِيهم غير المتعة التي يغتنمونها ويحرصون عليها... وقد كان الناس من ذلك في دوامة عنيفة شغلتهم عن كل شيئ...

ولكن الأمرَ في الحجاز لم يكن على هذه الشاكلة، فقد بات الحجاز بمَنْحَى من هذه التيارات المتضاربة، والفتن المتلاحقة، ولم يحدث فيه بعد موقعة الحَرَّة غير خروج ابن الزبير، وسرعانَ ما قُضي عليه، وأُخمدت نار فتنته، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي...

وكأن خلفاء بني أمية قد أرادوا للحجاز في تلك الآونة هذه العُزْلَة؛ ليشغلوه عن السعي للخلافة، وليحجبوه عن السلطان، فأغدقوا هناك العَطَايا والهِبَات، حتى شاع فيه الترف والنعيم... وعكف على الترف والغناء يعبُّ منها ما شاء...

وفي ظلال هذه الحياة المترفة الواعدة، كان لابد للشعر أن يجد مكانه، وأن يعبر

عن حاجة الناس إلى اللهو، ورغبتهم في اغتنام اللذة، واقتناص المتعة، ومن هنا نشأت طبقة من الشعراء تفرغوا للغَزَل، لا يعدلون عنه إلى سواه؛ لأن الحياة اللاهية الجديدة لم تَعُدْ تُطيق جلبة المعارك، ولا ضوضاء الأحزاب، ولا عجيج المتعصبين... ونشأت بجانب هذه الطبقة من الشعراء طبقة المغنين والمغنيات، أجادَتْ فنونَ الغناء وأتقنتها، ونقلت إلى الغناءِ العربي ألحانًا فارسيةً وأخرى رومية، وتغنت بها أبياتُ هؤلاء الشعراء الغزليين كعمُر بن أبي ربيعة، والأحوص ونُصيب، وكُثَيّر عزة، وغيرهم من شعراء الحجاز.. حتى فُتنت الناس فتنة كبرى..

وقد كان عبدالله بن جعفر، وهو من أشراف الحجاز، ومن كبار التابعين يقيم للغناء في منزله حفلاتٍ يدعو إليها الناس للسماع، وكان منزله ملتقى للمغنيات الكبار، من أمثال عَزَّةَ الميلاء، وسلاَّمة، وللمغنين من أمثال طُويس، والعَريض، وكانت جميلة الخزرجية شيخة الغناء في الحجاز لا تذهب إلى البيوتَ لتغني، كما كان يفعل غيرُها، بل كانت تقيم في منزلها حفلات يحضرها أشراف المدينة وكبراؤها...

وكان عبدالله بن جعفر كثيرًا ما يحضر عندها هذه الحفلات...

وكان الأمر من الشيوع بين الناس، حتّى إن الفقهاء والنُسَّاك كانوا يُشاركون في ذلك، من غير أن يستنكر عليهم أحدٌ شيئا، فقد كان أبو السائب المخزومي، وهو من عُبَّاد المدينة، يُصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة، وكان إذا استمع إلى أبيات من الشعر الغَزِل طَرِبَ طربًا شديدًا....

وقد رَوى أبو الفرج أن إسماعيل بن أبي أويس أنشده لقيس:

تعلَّقَ روحي روحَها قبل خَلْقِنا   ومِنْ بَعْدِ أنْ كُنّا نِطَافًا وفي المَهْدِ
فعَاشَ كما عِشْنَا فأصبحَ ناميًا   وليسَ وإن مُتْنَا بمنقَصِف العَهْدِ
ولكنه بَاقٍ على كل حالةٍ   وسائرنا في ظُلمة القبرِ واللحدِ[1]

فحلف لا يزال يقوم ويقعد، حتى يحفظها ويرويها...

---

(١) ديوان مجنون ليلى، شرح عدنان زكى درويش، طبع دار صادر ببيروت، ص٨١.

وروى صاحب العقد الفريد أنه خرج يومًا هو وابن أبي عتيقٍ يتنزهان.. فمال أبو السائب لبعض حاجته وعليه طويلته.. فانصرف دونها.. فقال له ابن أبي عتيق، ما فعلت طويلتك...؟ قال: ذكرت قول كثيّر:

أرىَ الإزارَ على لبُنى فأحسُدُه إنّ الإزارَ على ما ضمَّ محسودُ[1]

فتصدقت بها على الشيطان الذي أجرى على لسانه هذا البيت.. فأخذ ابن أبي عتيق طويلته فرمى بها وقال له: أتسبقني أنت إلى بر الشيطان..!!.

ويقول أبو الفرج: «كان أبو السائب رجلًا صالحًا زاهدًا متنقلًا، يصوم الدهر، وكان أرقَّ خلق الله وأشدَّهم غَزَلًاَ.. توجه ابنه يومًا يأتيه بما يفطر عليه، فأبطأ الغلام إلى العَتَمهِ.. فلما جاء قال له: يا عدو نفسه.. ما أخرك إلى هذا الوقت؟ قال: جُزْتُ بباب بني فلان، فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذتُه.. فقال: هات يا بُنَيّ.. فوالله لئن كنت أحسنت لأحبَوَنَّكَ[2].. ولئن كنت أسأت لأضربنَّك.. فاندفع يغني بشعر كثيّر.

فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل... فقالت له زوجته: يا هذا قد انتصف الليل وما أفطرنا.. فقال لها: أنت طالق إن كان فطورنا غيره.. فقال: فلم يزل يغنيه إلى السَّحَر، فلما كان السَّحَر قالت له زوجته: هذا السحر وما أفطرنا.. فقال: أنت طالق إن كان سحورنا غيره.. فلما أصبح قال لابنه: خذ جُبَّتي هذه، وأعطني خلفك، ليكون الحِتاء فضل ما بينهما.. فقال له: يا أبت أنت شيخ.. وأنا شاب، وأنا أقوى على البرد منك.. قال: يا بني أما ترك صوتك هذا للبرد عليَّ سبيلًا ما حييت...»

وكان عروة بن أذينة معدودًا في الفقهاء والمُحدّثين، روى عنه مالك بن أنس، وعبيد الله بن عمر العدوي، وكان له شعر يلحنه هو ويغنيه ومن شعره:

---

(١) العقد الفريد، ج٧، ص٢١، والبيت ليس بديوان كثير، طبع دار صادر بيروت بشرح عدنان زكى درويش، الطبعة الأولى عام ١٩٩٤م.

(٢) لأحبونك: أي لأقربك.

إن الـتـي زَعَـمَـتْ فـؤادك مَلَّها خَـلَـقَـتْ هـواك كما خلقت هـوى لها

فَبِـك الـذي زَعَـمَـتْ بـهـا وكلاكما يُـبـدي لـصاحبـه الـصبـابـةَ كلَّها[1]

وإذا وَجَـدَتْ لـهـا وسـاوسَ سلوةً شـفَـعَ الـفـؤادُ إلـى الـضمير فسَلَّها

بـيضاء بـاكَـرَهـا الـنـعـيمُ فصاغَها بـلـبـاقـة فـأدقَّـهـا وأجـلَّـهـا

مَـنَـعْـتَ تحيَّتَها فـقـلـتُ لصاحبي مـا كـان أكـثـرَهـا لـنـا وأقـلَّـهـا

فَـدَنَـا فـقـال لـعـلـهـا مـنـدورة مـن أجـل رقبـتـهـا.. فقلت : لعلها[2]

ومثل عروة عبيد الله بن عبدالله بن عتبة، وكان أحد فقهاء المدينة السبعة الذين حَمَلَ عنهم الدِّينَ والعلم، وكان موضع إكبار الخلفاء والأمراء.. كان يحب عَثْمَة زوجته، ولكنه طلقها وندم بعد طلاقها، وحاول أن يسلوها[3] فلم يستطع.. فعاذ بالشعر[4] يلتمس فيه البر والشفاء، ومن شعره في هذا :

تـغـلـغـلَ حـبُّ عَـثـمـة فـي فـؤادي فـبـاديـة مـع الـخـافـي يـسـيـرُ

تـغـلـغَـلَ حـيْـثُ لـم يـبـلُـغْ شـرابٌ ولا حُـزْنٌ ولـم يَـبْـلُـغ سـرورُ

أكـادُ إذا ذكـرْتُ الـعـهـدَ مِـنْـهَـا أطـيـرُ.. لـو أنَّ إنـسـانًـا يـطـيـرُ [5]

وهكذا خالط الشعر الحياة الضاحكة المَرِحة، وعبَّر عنها أدق تعبير. وسنعرض في حديثنا القادم نماذج تبرز تلك الصلة الوثيقة بين الشعراء وبين مجالي الترف والغناء في إقليم الحجاز، حين كانت تتدفق على هذا الإقليم هِبَات الخلفاء وأموالهم.

---

(١) الصبابة : الشوق.

(٢) سعينا بكل جهد وطاقة لتحقيق نسبة هذه الأبيات إلى عروة بن الزبير فلم نصل إلى ما يؤكد هذه النسبة.

(٣) يسلوها : ينساها.

(٤) فعاذ بالشعر : لجأ إليه واحتمى به.

(٥) الأبيات الثلاثة في الأغاني ج٩، ص١٥١، في قوله «لو أن» ضرورة،وذلك بوصل همزة القطع.

الحديث الثامن

أيها السادة:

شُغل الناس في الحجاز وخاصة في المدينة بالشعر والشعراء، والغَزِلين وشغفوا بحياة الترف والغناء، ولم يَنْجُ من هذا الشَغَف أحد حتى الفقهاء، والنساك، فقد شاركوا فيه لا بالسماع والطرب فحسب، بل بالتأليف والتلحين أيضًا، وكان لبعضهم أصوات معروفة ينقلها عنهم المغنون، والمغنيات.. وقلنا في الحديث السابق إن ذلك كان منشؤه شيوع الترف في الحجاز كله، بسبب ما كان يتدفق عليه من أموال الخلفاء وهِبَاتهم.

والحق أن مظاهر الحياة المترفة في هذا العهد قد أثَّرت أبلغ الأثر في حياة الناس، وفي كل ما أنتج الشعراء، وما ترنَّم به المغنون والمغنيات.. ومن شعر ابن قيس الرقيات في عائشة بنت طلحة، هذان البيتان :

جِـنِّـيَـةٌ بـرزت لـتـقـتُـلَـنـي   مـطـلـيـةُ الأصْـداغِ بـالمِسْـك

عـجـبًـا لمـثـلـك لا يـكـونُ لـه   خَـرجُ الـعـراق، ومِـنْـبَـرُ المـلْـك[1]

ولا غُلُوَّ في هذا الشعر إنه حقيقة تؤكدها أخبار عائشة، التي تفيض بها كتب الأدب والتاريخ، فقد كانت حياة الترف والأُبَّهة[2] تعمُرها وتعمر كل من يلوذ بها... روي أنها كانت إذا حجَّت ذهبت ومعها ستون بغلًا عليها الهوادج والرحائل، فتعرَّض لها عروة بن الزبير فقال :

---

(١) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، دكتور / شوقي ضيف – طبع دار المعارف، ص٢٩٧.

(٢) الأبهة : العظمة والكبر.

عـائِـشُ يـا ذاتَ الـبِـغَـال السِّتِّين   أكُـــلَّ عــــامٍ هــكـذا تَحُـــجِّـــين[1]

فأرسلت إليه : نعم يا عُرَيّة[2]...

وقد قيل: إن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت عبدالملك في الحج فقال لها: ارفعي حوائجك، واستظهري، فإن عائشة بنت طلحة تَحُجّ... ففعلت، فجاءت بهيئة جَهَدَتْ فيها... فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكبٌ قد جاء فضغَطها، وفَرَّق جماعتها فقالت : أرى هذه عائشة بنتَ طلحة... فسألت عنها.. فقالوا : هذه خازنتُها.. ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك.. فقالوا : عائشةُ.. أعائشةُ..! فضغَطهم، فسألت عنه.. فقالوا : هذه ماشِطَتُها... ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سُنَّتِها[3].. ثم جاءت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلةٍ عليها القباب والهوادجُ... فقالت عاتكة : ما عند الله خيرٌ وأبقى[4]..!

هذه صورة من ترف هذا العهد، وهي صورة تُغْنينا عن صور كثيرة.. وقد انعكست ظلال هذه الصور على الحياة والشعر، وانتهت بالحياة إلى المسرح، وبالشعر إلى الغناء..

إننا حين نستعرض أخبار الشعراء والمغنين في ذلك الحين، نستطيع أن ندرك في يُسْر وسهولة ما كان بين الحياة والشعر من صلة قوية، ومن تجاوب عميق.. فقد كان لِزامًا والحياةُ على هذا القدر الكبير من الترف والنعيم أن يكون الشعر كذلك في أسلوبه ومادته مترفًا، ناعمًا، رقيقًا، فقد كان في دقة وقوة وصدق والشاعر يستشف أخيلة معانيه من أعماق هذه الحياة، ويترجم أحاسيسها ومشاعرها.. حتى إنه استطاع أن يفوز بمكانة لم يستطع أن يفوز بها الشعر التقليدي، الذي كان سائدًا إذ ذاك في الشام والعراق، وغيرهما من الأمصار الإسلامية...

روى أن جريرًا سَمع لعمر بن أبي ربيعة قصيدته الرائية التي مطلعها:

---

(١) كتاب الأغاني، ج١١ ص ١٨٨.

(٢) عُرَيَّة : تصغير عُرْوة.

(٣) أي سنتُها، والمعنى « أي جاءت مواكب على هذه السنن».

(٤) كتاب الأغاني ج١١ ص ١٨٨، ١٨٩.

أمِــنْ آل نُـعْـم أنــتَ غَــادٍ فمبْكِرُ ....

فقال : هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته، ووقفتْ تبكي على الطلول...

وروى أبو الفرج لابن أبي عتيق في المفاضلة بين عمر والحارث بن خالد : «لشعر عمر بن أبي ربيعة نَوْطَةٌ[1] في القلب، وعُلُوقٌ بالنفس، وَدَرَكٌ للحاجة ليست لشعر، وما عُصِي الله جل وعزَّ بشعر أكثر مما عُصِي بشعر ابن أبي ربيعة..

فقال المفضل للحارث : أليس صاحبنا الذي يقول :

إنّــي ومــا نــحــرُوا غــداةَ مِــنــىً   عــنــد الجِــمَــارِ يــؤودهــا الــعــقــلُ[2]

لَــوْ بُــدِّلَــتْ أعــلَــى مــسـاكِـنـهـا   سُــفْــلًا وأصــبــح سُــفْــلُــهــا يَــعْــلُــوُ

فــيــكــادُ يــعــرِفُــهــا الــخــبــيــرُ بها   فَــيــردُّه الإقْــــوَاءُ والمَحْــــلُ[3]

لــعَــرَفْــتُ مَــغْــنَــاهــا بمــا احــتَــمَــلَــتْ   مِــنِّــى الــضــلــوعُ لأهــلِــهــا قَــبْــلُ

فقال له ابن أبي عَتِيق : يا ابن أخي استُرْ على نفسك، واكتُمْ على صاحبك، ولا تشاهد المحافلَ بمثل هذا.. أمّا تطيُّر الحارثِ عليها حين قَلَب رَبْعَها فجعل عاليَه سافلَه.. ما بقى إلا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حِجَارةً من سِجِّيل.. ابن أبي ربيعة كان أحسن صُحْبةً للرَّبْع من صاحبك، وأجْمَلُ مخاطبة حيث يقول :

ســائــلًا الــربــعَ بــالــبُــلَــيّ وقــوْلا   هِــجْــتَ شــوقًــا لــنــا الــغــداةُ طــويــلًا[4]

أيْــنَ حَــيٌّ حــلّــوكَ إذ أنــت محفو   فٌ بــهــمْ آهِــــلًا أراك جَــمــيــلًا

قــال : ســـاروا بــأجــمــعَ فاستقلُّوا   وبــكُــرْهِــي لــو اســتــطــعــتُ سبيلًا

سَــئِــمُــونــا ومــا ســئــمــنــا بــبَــيْــنٍ   وأرادوا دَمَــــاثَـــــةً وسُــــهــــولًا[5]

(١) النوطة : التعلق، ويؤدها : من أدَّهُ الأمر يؤدُّه ويئده إذا دهاه.

(٢) العقل : الحبس.

(٣) أقوت الدار : أقفرت وخلت من أهلها، والمحْلّ : الجدب.

(٤) إلى هذا من كتاب الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني، ج١ ص ١٠٨، ١٠٩.

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م، ص١٧٤.

قالوا: وكان عمر بن أبي ربيعة يترقب مواسم الحج على عادته، ليلُقّي بشباكه.. وقد رأى في بعض ما رأى « سُبيعة البكرية» فتبِعَها إلى العراق ثَم تقابلا، وتواعدا على الزواج، وتركها قافلًا إلى المدينة، فنزل بدار جميلة : وقال لها غنِّي :

مِــنَ الــبَــكَــرَاتِ عــراقــيــةٌ   تُــسَــمّــي «سُــبَــيْــعَــةَ » أطْــرَيــتُــهــا

مِــنْ آل بَــكَــرَةَ الأكْــرَمِــيـــن   خَــصَــصْــتُ بُــودَى فاصْفَيْتُها

فــأقْــسِــمُ لَــوْ أن مــا بــي بِــهَــا   وكُــنْــتُ الــطَــبِــيــبَ لــداويْــتُــهــا

ومِــنْ حُــبِّــهــا زرتُ أهْــلَ الــعِــراق   وأسْــخَــطْــتُ أهــلــي وأرْضَــيْــتُــهــا(١)

فغنَّت جميلة الأبيات، فطرب عمر حتى شَقَّ ثيابهَ.. ثم حجت سبيعة في العام القابل، فأخذها عمر إلى بيت جميلة، وظلت معه عندها أيامًا، وفي إحدى الأمسيات جلست جميلة تغنيها :

أبَــت الــبــخــيــلــةُ أنْ تــواصِــلَــنــي   فــأظــنُّ أنّــي زَائِــرٌ رَمْــسِــي(٢)

لا خَــيْــرَ فــي الــدنــيــا وبــهــجَــتِــهَــا   إذا لــم تــوافِــقْ نــفــسُــهــا نفسي(٣)

فقالت سُبيعة: لو أن هذا الشعر لعمر لقدمته على كل ما سمعت..!!

وكان الأحوص وهو أكبر شاعر غنائي بالمدينة كرفيقه عمر بن أبي ربيعة في التشبيب والغَزَل، إلا أن الأحوص اختص بالغزل في الجواري، بينما اختص عمر بالغزل في الحرائر، وقد كان بين الأحوص وجميلة، وبينه وبين جواريها علائق معروفة، ومن شعره في الذلفاء إحدى جواري جميلة :

إنمــا الــذلــفــاءُ هــمّــي   فَــلْــيَــدَعْــنِــي مَــنْ يــلُــوُم

أحْــسَــنُ الــنــاسِ جــمــيــعًــا   حــيــنَ تَمْــشِــي وتــقــومُ

حَــبَّــبَ الــزلــفــاءُ عِــنْــدي   مــنــطــقٌ مــنــهــا رخــيــمُ

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٣٩، بترتيب مختلف للأبيات.
(٢) رَمْسي : قبري.
(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١١٢.

أصـــلُ الحـــبـــلَ لـتـرضـي   وهـــي لـلـحـبـل صَــــرُومُ
حُـبُّـهـا فــي الـقـلـب داءٌ   مـسـتـكـنٌ لاَ يــــرِيمُ[1]

ومن قوله في سلاّمة :

يا دَيْـنَ قلبكَ منها لَسْتَ ذاكرَها   إلاَّ تـرقـرقَ مـاءُ الـعـينِ أو دَمَـعَـا[2]
أدعـو إلـى هَـجْـرِهـا قَـلْبِـي فيتبَعُني   حـتـى إذا قـلـتُ: هـذا صـادقٌ نَزَعا
لا أستطيعُ نُـزُوعًـا عـن محبَّتِها   أو يصْنعِ الحبُّ بي فوقَ الذي صَنَعا
وزَادَنِـــي كَـلَـفًـا فـي الحـب أن مَنَعَتْ   وحبُّ شـيء إلـى الإنسـانِ مـا مُنِعا[3]

ومن قوله وقد غنته حبابة للخليفة :

الاَ لاَ تَـلُـمْـهُ الـيـومَ أنْ يتَبَلَّدا   فـقـد غُـلـب المحـــزونُ أن يتجلَّدا
بكيْتُ الصِّباَ جُهْدي فَمَنْ شاءَ لامني   ومَنْ شـاءَ آسَـى في البكاء وأسْعَدَا[4]

بهذا الأسلوب البارع الرقيق، شدا شعراء الحجاز، ورسموا في قصائدهم وأبياتهم صورة باسمة مشرقة لهذه الحياة، التي كان يحياها الناس جميعًا، ويهتف بها الشعراء من أشراف قريش وسادة العرب.

وسنوضح في الحديث القادم صلة هؤلاء الشعراء ومكانهم من الحياة ومن المجتمع في هذه الآونة التي مرت بإقليم الحجاز.

---

(١) شعر الأحوص الأنصاري، تحقيق عادل سليمان جمال، تقديم دكتور/ شوقي ضيف، طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. عام ١٩٧٠م، ص ١٩١.

(٢) الدين : الداء.

(٣) السابق، ص١٥٣، ومعنى وزادني كلفًا : أي زادني رغبة وشغفًا.

(٤) السابق، ص٩٨.

الحديث التاسع

•

أيها السادة:

عرضنا فيما سلف من الحديثين الأخيرين إلى شيوع الحياة الرغدة المترفة، في الحجاز خلال عصر بني أمية، ودللنا على تأثير هذه الحياة في الشعراء وتأثرهم بها، حتى كان هذا الشعر المأثور عن هذا العصر مرآة عكست حياة الترف هذه، على مواهب الشعراء، فجاءت أشعارهم مترفة، ناعمة، رقيقة...

يتمثل ذلك بوضوح في شعر أمثال عمر بن أبي ربيعة، والأحْوَص، ونُصيب، والعَرْجي وغيرهم وهنا نلاحظ أمرين هامين:

ـ أولهما : أن أغلب الشعراء في ذلك الحين كانوا من طبقة الأشراف، فعمر، والعرجي، وابن قيس الرقيات، والحارث بن خالد، كانوا من فتيان قريش وسُراتها، والأحوص كان من أشراف الأنصار، فجده عاصم بن ثابت، من كبار الصحابة، وقد قُتِل في بعث الرجيع، وذكره الأحوص في شعر يباهي به:

فأنا ابنُ الذي حَمَتْ لَحْمَه الدَّبْـ ـرُ، قتيلِ اللِّحْيَانِ يومَ الرَّجِيع[1]

وخاله حنظلة بن عامر الذي قُتل في وقعة أحد، وغسَّلته الملائكة :

غَسَّلَتْ خالى الملائكةُ الأبْـ ـرارُ مَيْتًا.. طُوبى له مِنْ صَرِيعِ[2]

(١) شعر الأحوص الأنصاري، ص ١٥٧.

(٢) السابق، ص١٥٧.

وهكذا كان شعر هؤلاء الشعراء تعبيرًا عن حياة هذه الطبقة، وتصويرًا لها، وكان ضرورة اقتضتها ظروفهم، التي رسمت لهم حدود هذه الحياة ولوَّنت جوانبها.

ـ وثاني الأمرين : أن الأغلب الأعم من شعر هؤلاء الشعراء كان يُنْظَم للتغني به.. وكان المغنون والمغنيات في مكة والمدينة، يتلقفون من أفواه الرواة والشعراء؛ ليصنعوا فيه أصواتًا وألحانًا.. ينشدُونَها في البيوت.. أو في مواسم الحج والعمرة.. أو يَحْدوُن بها القوافل في مسالك الصحراء ومسارب الوديان..

ولهذا كان أكثر الشعر غزلًا ونسيبًا، وقد اتسم بطابع خاص انفرد به عما سبقه، وما تلاه من شعر في هذا الباب... وهو رغم صدقه في تصوير أحاسيس الشعراء وعواطفهم إلا أنه لم يضع أمامنا نموذجًا واحدًا للحب الذي يشغل صاحبه بواحدة يقف عليها حياته وقلبه، ويُذيب فيها شخصيته.. ويَنْسى بها كل وجود إلا وجودها.. وكأن طبيعة الحياة في الحجاز إذ ذاك، أطلقت الشاعر كالفراشة تطوف على أزهار الروضة هنا وهناك، تأخذ من هذه رَشْفة.. ومن تلك قَطْرةٍ.. وتلتمس من هذه أو من تلك لمسةَ ظل، أو نشوة عطر.. ثم تنقلت راجعةً إلى حيث تَنْعَمُ بالراحة والسكون..

فنحن نقرأ للأحوص مثل قوله :

سَتَبْقي لها في مُضْمَرِ القلب والحَشَا   سَرِيرةُ ودٍّ يومَ تُبلي السرائرُ[1]

أو قوله :

فَمَا هُو إلا أنْ أرَاهَا فُجَاءة   فأُبْهَتَ حتى ما أكادُ أُجِيبُ[2]

أو مثل قوله :

(١) شعر الأحوص الأنصارى، ص ١١٨.

(٢) السابق، ص ٢١٣.

إذا قلتُ: إني مُشْتَفٍ بلقائها   وحمَّ التلاقي بيْنَنا زادني سُقْما[1]

نقرأ له ذلك، وأمثاله، فنتخيله طائرًا مغردًا يتنقل من فنن إلى فنن، ومن دوحة إلى أخرى، في غير مشقة ولا عَنَت.. فهو يعرف امرأة تُدْعى أم جعفر فيقول:

لقد مَنَعَتْ معروفَها أمُّ جعفرٍ   وإني إلى مَعْرُوفِها لفقيرُ
وقد أنْكَرَتْ بعدَ اعترافٍ زيارتي   وقدْ وَغِرَتْ فيها عليَّ صدُورُ
أدورُ ولولا أنْ أرَى أمَّ جَعْفَرٍ   بأبياتِكُم ما دُرْتُ حيثُ أدورُ
وما كنتُ زوَّارا ولكنَّ ذَا الهَوى   إذا لم يُزَرْ لابُدَّ أنْ سيزُورُ[2]

ويقول الأحوص في صاحبته تلك :

أبُثُكِ ما ألْقَي، وفي النفسِ حَاجَةٌ   لهَا بَينَ جِلْدي والعظامُ دَبِيبُ
لَكِ اللهُ إنّي وَاصلٌ ما وَصَلْتِني   ومُثْنٍ بما أوْلَيْتِني ومُثِيبُ[3]
وآخِذُ ما أعطيتِ عَفْوًا وإنني   لأزْوَرُ عَمّا تَكْرَهِين هَيُوبُ[4]
فلا تَتْرُكِنِي نفسي شُعَاعًا فإنها   مِنَ الحُزْنِ قَدْ كَادَتْ عليكِ تذُوبُ[5]

ثم نقرأ له بعد ذلك قوله في عقيلة العقيقية :

يَا للرجالِ لِوَجْدِكِ المُتَجَدِّدِ   وَلِمَا تُؤَمِلُ من عقيلةَ في غَدِ
تَرْجُو مواعِدَ، بَعْثُ آدمَ دونَها   كانتْ خَبَالًا للفؤادِ المُقْصَدِ

(١) شعر الأحوص الأنصارى، ص١٩٥.
(٢) السابق، ص١٢٥.
(٣) مُثْنٍ : مادح.
(٤) أزورُ : أميل، وهَيُوب : شديد الخوف.
(٥) شعر الأحوص الأنصاري، ص ٧٨، ٧٩.

هـل تـذكـريـن عَـقِـيـلَ.. أو أنْـسَـاكِـهِ بَـعْـدِي تـقـلُّـبُ ذا الـزَّمَـانِ المُفْسِدِ
يَـوْمِـي ويـومَـكَ بالعقيقِ إذِ الْهَوَى مـنّـا جـمـيـعُ الـشُّـمْـلِ، لـم يتبدّد[1]

ونقرأ له قوله في سلاّمة:

اسَــــلاَّمُ هَــلْ لِمُــتَـيَّـمٍ تَـنْـوِيـلُ ام هَـلْ صَـرَمْـتِ، وغَـالَ وُدَّك غُـولُ
أَزَعَـــمْـــتِ أن صـبـابَـتـي أكـذوبـةٌ يـومًـا، وأنَّ زيـارتـي تَـعْـلِـيـلُ[2]

نقرأ له هذا وغيره، في هذه وغيرها ممن عُرف من النساء.. فإذا نحن أمام شاعر يطلب المتعة، ولا يعرف الحب.. وهو يطلبها في أية صورة من صورها، لا في صورة بعينها يرى فيها أقصي غايات المثل الأعلى المنشود، والكمال الموعود.. وهكذا كان كل الشعراء حوله – إذا استثينا كُثَيّرًا صاحب عزّة، وجميلًا صاحب بثينة – وهما قد لا يدخلان في نطاق شعراء الحجاز إلا من باب التجوز...

ويظهر أن البيئة الحجازية قد استطابت ذلك من هؤلاء الشعراء، وأحبَّتْهُ، وحضتهم عليه، فقد حدّث السائب «راوية كُثير عزَّة»، فقال : « قال لي كثير عزَّة يومًا... قم بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدث عنده.. قال : فجئناه، فوجدنا عنده ابن معاذ المغنّي.. فلما رأى كُثيرًا قال لابن أبي عتيق : ألا أغنّيك شعر كثير عزة؟.. قال: نعم.. فغناه :

أَبَـائِـنَـةٌ سُـعـدى؟ نَـعَـمْ سَـتَـبِـيْنُ كـمـا انـبَـتّ مـن حبـلِ الـقَـرِيـنِ قَرِينُ
أإنْ زَمَّ أجْـمَـالٌ، وفَـارقَ جـيـرةٌ وصـاحَ غُـرابُ الـبَـيْـنِ أنـتَ حزينُ
كـأنَّـكَ لـم تـسمـعْ ولـمْ تَـرَ قَبْلَها تَـفَـرُّقَ آلافٍ لَـهُـنَّ حَـنِـيْنُ
فَـأخْـلَـفْـنَ مِـيـعـادي، وَخُـنَّ أمَانَتي ولـيـس لِمَـنْ خَـانَ الأمـانـةَ ديـنُ[3]

(1) شعر الأحوص الأنصارى ص ١٠٩.
(2) السابق، ص١٧٤.
(3) ديوان كثير عزة، شرح عدنان زكى درويش، طبع دار صادر ببيروت، ص٣٢٤، ٣٢٦.

فالتفت ابن أبي عتيق إلى كثير.. فقال : وللذين صحبتهم يا ابن أبي جمعة ذلك، والله أشبه بهن، أدعي للقلوب إليهن، وإنما يوصفن بالبخل والامتناع، وليس بالوفاء والأمانة.. ذو الرقيات أشعر منك حيث يقول :

حَبَّ ذَاكَ الدَّلُّ والغُنُجُ والتي في عَيْنِها دَعَجُ

والتي إن حَدَّثت كذبَت والتي في وعدها خَلَج

خبَّروني هل على رجلٍ عاشقٍ في قُبْلةٍ حرج..!![1]

فقال كُثّير : قم بنا من عند هذا...

ولم يُنْصِفْ أبو عتيق كُثيرًا فيما ذهب إليه من نقد.. لأنه لم يصفه إلا بما أراد ابن أبي عتيق.. كما أنه لم ينصفه بتفضيل ذى الرقيات عليه.. ولكن ابن أبي عتيق معذور في هذا النقد، وهذا التفضيل ؛ لأنه إنما ينطق بلسان المجتمع الذي يعيش فيه.. وهذه الصور التي يرسمها ذو الرقيات وأحزاب من شعراء الحجاز كانت صورًا يُحِسُّون بها، ويعيشون فيها.

هذه نماذج من صور الحياة في إقليم الحجاز، كما رسمها الشعراء، وسنرى في الحديث القادم كيف كانت صور الحياة، التي حفلت بها قوافي شعراء البادية وقصائدهم، وكيف كان هؤلاء الشعراء يستلهمون العواطف الإنسانية، التي تزخر بها النفوس الشاعرة، وتفيض بها معارض الطبيعة الأصلية بين السهول والكثبان فوق رمال البادية.

---

(١) يراجع الأغاني، ج٥، ص٩٨، ٩٩.

الحديث العاشر

- **أيها السادة:**

ظلت الحياة في البادية تجرى على سَنَنٍ جاهلي مطَّرد، ولم تتغير إلا بالقدر الذي غزت به الدعوة الإسلامية حياة البادية، ولم تكن تلمح في هذه البادية، ظلًا لهذا الترف الحجازي، الذي فصَّلنا فيه القول تفصيلًا، ورأينا آثاره في حياة المجتمع، وشِعْر الشعراء... لم تتغير البادية تغيرًا كبيرًا عما كانت في الجاهلية، من حيث نظام العيش، وتقاليد المجتمع، والعقلية الصحراوية...

غير أنه كان للعقيدة الإسلامية، وللقرآن الكريم أثر كبير فيما طرأ على البادية من مظاهر التغير، الذي حدث في بعض شئون الحياة، وفي تلوين الاتجاهات العقلية، والعاطفية، لا في البادية فحسب، بل في كل البلاد التي تتكلم العربية..

وقد كان الاتصال بالبادية بماضيها الأول في الجاهلية، وحرصِها على هذا الماضي وزَهْوِها به، أضف إلى ذلك أثر العقيدة، وأثر القرآن في حياة البادية.. كان لهذا كلِّه أثره في شعر البادية، مما جعله يختلف أشد الاختلاف عن الشعر في الحجاز.. فقد كان الشعر في الحجاز تعبيرًا عن الترف، بينما كان في البادية تعبيرًا عن الفطرة.. وهذا الكلام على إيجازه وإجماله، يضع حدًا فاصلًا بين الشعر هنا وهناك.. ونحن حين نقول إن شعر البادية كان تعبيرًا عن الفطرة، فإنما نعني أنه عبّر في صدق، وأمانة، عن هذه المشاعر الإنسانية التي ينفعل بها كل إنسان، ويحس بها كل كائن حيّ، وأن هذا الشعر لم يكتف بالنظر إلى نبع الحقيقة الخالدة، بل إنه اغترف منه ما شَاء، وقدم منه للأجيال ريًا لم تظمأ بعده أبدًا..

إن الشئ الذي نستطيع أن نقرره مطمئنين، واثقين، هو أن هذا الشعر كان نسيجَ وحده، فليس له شبيه فيما سبقه من شعر حتى الشعر الجاهلي، ولا فيما تلاه من شعر أيضًا، حتى هذا العصر الذي نعيش فيه.. والحقُّ أن الشعر في هذا العهد لم يُدَرس دراسة علمية صحيحة، ولم يأخذ حظه من العناية التي كان يجب أن يحظى بها، والتي حظيت بها عهود أقل منه شأنًا...

ومازالت في هذا الشعر جوانب لم يتعمقها الباحثون، ولم يصدروا فيها أحكامًا أدبية حاسمة، تلك هي الأسباب النفسية والاجتماعية، التي جعلت أغلب شعراء البادية يُشَبِّبُ كل منهم بمحبوبة واحدة.. ثم التطور الذي حدث في معاني القصيدة، وصورِها، ثم المشاعر الإنسانية التي تركزت في هذا الشعر وانفراده بمزاياه، والأسباب التي حالت بينه وبين السير الطبيعي في طريق التطور إلى الكمال الفني...

ثم صلة هذا الشعر بالشعر الجاهلي، ومدى التجاوب بينه وبين الحياة.. في ذلك الحين.

وأخيرًا هل استطعنا أن نحلل العناصر النفسية للمشاعر المبثوثة في ثنايا هذا الشعر، وخاصة العاطفة الإنسانية الكبرى وهي الحب...

على أن الذي يثير الدهشة والعجب، أن كثيرًا من النقاد القدامى والمحدثين طالما تصايحوا، وشككوا في نِسْبَةِ كَثيرٍ من هذا الشعر لأصحابه، بل إن منهم من ذهب إلى أن بعض شعراء هذا العهد، ممن نُسجت حولهم تلك المآسي الخيالية، ولا وجود لهم... وهذا كلام - رغم أنه يتسم بالمبالغة والغلو - فإنه لا يُنقص هذه الحقيقة الثابتة، وهي أن هذا الشعر نُظِم في هذا العهد، ولن يشغلنا بعد ذلك أن نتعرف على مَنْ نَظَمَه، فإن الخلاف على نسبة هذا الشعر لأصحابه لا يغير من الحقيقة شيئًا...

وسواء أكانَ مجنون ليلى شخصًا حقيقيًا، عاش حياته التي نعرفها، وأحب حبه الذي ألمنا به أم كان شخصًا مجهولاً توارى وراء هذا الاسم، فإن شعرَه الذي وصل إلينا، ونُسب إليه، لا يتطرق الشك في أن ناظمه شاعر من الشعراء العالميين، الذين تفخر بهم اللغة العربية أعظم فخر، وتعتز بهم أكرم الاعتزاز.

إننا نقرأ له هذا الشعر فيملأ نفوسَنَا التأثرُ والانفعال... يقول :

ألا يا حَمَامَاتِ الحِمَى عُدْنَ عَوْدَةً   فإنِّي إلى أصْوَاتِكُنَّ حَنُونُ
فعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ عُدْنَ لِشِقْوَتي   وكِدْتُ بأسْرَارٍ لَهُنَّ أبِينُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مثلَهن حَمَائِمًا   بَكَيْنَ فَلَمْ تَدْمَعْ لَهُنَّ عُيُونُ[1]

أو قصيدته التي يخاطب فيها جبل التوباد :

وأجْهَشْتُ للتوبادِ حينَ رأيتُه   وهَلَّلَ للرحمنِ حَينَ رآني[2]

أو قصيدته اليائية التي يقول فيها :

يقولون لَيْلَى بالعراقِ مريضةٌ   فياليتَني كنتُ الطبيبَ المداويا
أصَلِّي فما أدْرِي إذا ما ذكرْتُها   اثنتين صليتُ الضحى أم ثَمَانيا[3]

أو قوله :

كأن القلبَ ليلةَ قيلَ يُغْدَى   بليلى العامرية أو يُراحُ
قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فباتَتْ   تُجَاذِبُه، وقد عَلِقَ الجَنَاحُ[4]

إننا مع هذا الشعر أمام شاعر عملاق من شعراء الإنسانية، شاعرٍ كبيرٍ لا يدانيه كثيرون في جمال التعبير، وعمق الإحساس، وصدق العاطفة، وتصوير أدق خلجات المحبين، ورسم اهتزازات الشوق، ورعشات الحنين في نفوس العاشقين...

وينزل نفس هذه المنزلة شاعر آخر هو قيس بن ذُرَيح عاشق لُبْنَي، وله في لُبْنَي شعر تَحُسُّ عند قراءته أنه قمة التعبير الملهم عن معاني الشوق والعاطفة الجيَّاشة بألوان الحب، تلك التي يقول فيها ابن ذُرَيح :

(١) ديوان مجنون ليلى، ص٢٠٢.

(٢) السابق ص ٢١٢، التوباد : اسم جبل.

(٣) السابق : ص ٢٣٣، ٢٣٤، ولم يرد البيت الأول من هذين البيتين بهذه البائية، وأبقيناه لشهرته وذيوعه.

(٤) السابق : ص ٦١.

أُحِبُّكِ أصنافًا من الحُبِّ لَمْ أجِدْ لها مَثَلًا في سائر الناس يُوصَفُ
فمنهُنَّ حُبٌّ للحَبِيب ورحمةٌ بمعرفتي منهُ بما يتكلَّفُ
ومِنْهُنَّ ألاّ يَعْرِضَ الدهرَ ذكرُها على القلب إلا كادت النفسُ تَتْلَفُ
وحُبٌّ بدا بالجسمِ واللونُ ظاهرٌ وحبٌّ لَدَى نَفسي منَ الرُّوحِ الطفُ(1)

ويوغل مجنون ليلى في تصوير حبه بما لم يسبق إليه فيقول :

تعلقَ رُوحي روحَها قَبْلَ خَلْقِنا ومن بَعْدِ ما كُنّا نِطافًا، وفي المَهْدِ(2)

وهو القائل في تصوير حاله :

نَهَارِي نَهارُ النَّاسِ.. حَتَّى إذَا بَدَا لِيَ الليلُ هزَّتني إليكِ المضَاجعُ(3)

ومن قوله في ذلك: ١٣٣٤

أَيا حَرَجَاتِ الحيِّ حينَ تَحَمّلوا بذي سَلَمٍ لا جَادَكُنَّ ربيعُ
فلوْ لمْ يَهِجْني الظاعنونَ لهاجني حمائمُ وُرقٌ في الديار وُقُوعُ
تداعَيْنَ فاستبْكَيْنَ مَنْ كانَ ذا هوي نوائحُ لا تجري لَهُنَّ دموعُ(4)

سنقف في حديثنا القادم عند الدعاوى التي يتذرع بها أصحاب الرأي القائل بأن هؤلاء الشعراء ليسوا أصحاب هذا الشعر الذي وُضع لهم، وسنناقش آراءهم في إنكار وجود هؤلاء الشعراء، وسنستعرض خصائص أشعارهم، وسماته، أولئك الذين أضافوا الذخائر والروائع إلى تراث اللغة العربية الخالدة على كَرِّ العصور وتوالي الأجيال(5).

---

(1) كتاب الأغاني، ج٩، ص٢١٥.
(2) ديوان مجنون ليلى، ص٨١.
(3) السابق ١٤٢.
(4) السابق، ص ١٤٦.
(5) ومن الملاحظ أن القضايا المعروضة للبحث والنقاش بالحديث التالي، ليست لها علاقة مباشرة بموضوع هذه الأحاديث، وهو (صلة الشعر بالحياة).

الحديث الحادي عشر

- **أيها السادة:**

كان الشعر في الحجاز كما قدمنا تعبيرًا عن الترف، وكان في البادية تعبيرًا عن الفطرة وذكرنا من شعراء البادية المجنون، وقيس بن ذُريح، وهناك شعراء من هذه المدرسة، نشير إليهم من غير تفصيل، نظرًا للتقارب الملحوظ بينهم، في مادة التفكير، والإحساس، والتعبير... فمن هؤلاء عُرْوة بن حِزام، الذي أحب بنت عمه عَفْراء بنت عُقَيل القدرية، ولعروة هذا قصة معروفة تذكرها كتب الأدب، وترويها فصول العشاق، وسواء صحَّت أم لم تصح، فإن هذا لا يعنينا كما قلنا في حديثنا السابق ؛ لأن الأسماء في ذاتها لا تغير من الحقيقة شيئًا، ولا تنال من الجوهر فتيلًا... ولكن الذي يهمنا من هذه القصة ومَثِيلاتِها هي أن الذين وضعوها، أو تخيلوا وقائعَها، إذا ذهبنا مع القائلين بأنها موضوعة - إن هؤلاء كانوا يراعون الدقة في أن لا تخرج الحوادث عن نطاق التقاليد المعروفة، وعن نظام الحياة المورث، كما كانوا يحاولون أن يمثل الشعر قائليه، وعصرَهم وبيئَتهم...

على أننا نشك كثيرًا في أن يكون هذا التراث الضخم موضوعًا كله، لأنه يمثل رُوحًا واحدة في كل ما أُثِر منه، وهي روح العصر الذي قيل فيه، والبيئة التي نشأ فيها... ومن الجائز أن يكون بعضُه قد وُضِع، ولكن هذا لا يدفعنا إلى إنكاره كله، لأن هذا معناه أننا نهدم جانبًا كبيرًا من المجد الأدبي لهذه الأمة... وهذا مما لا يرضاه ضمير الناقد النزيه، ولا تقرُّه قواعد النقد في كثير أو قليل...

إن هؤلاء الذين يقررون بأن هذا التراث موضوعٌ كلُّه، إنما يبنون رأيهم على أدلة يعوزُها الإثبات، فمن أدلتهم التي بنوا عليها رأيهم !!. هذا التناقض البَيِّن في

الأخبار المروية عن هؤلاء الشعراء، ثم وجود آراء لبعض النقاد القدامي، ينكرون فيها وجود بعض شخصياتهم... ونسبة أشعار لهم مع أن الثابت أنها لغيرهم...

وواضح أن هذه الأدلة لا تكفي، لأن نؤيدهم فيما ذهبوا إليه، فالتناقض في الأخبار يوجد حتى في حوادث التاريخ الثابتة، ولم يَقُلْ أحد إننا نستطيع أن ننكرها لذلك... لأن مبعث التناقض قد يكون من تعدد مصادر الرواية، واعتمادها على الذاكرة، التي قد تخطئ، وقد تزيد أو تنقص من الحادثة على قدر قوة الذاكرة أو ضعفها... ومن أيسر الأمور على الناقد الحصيف أن يكشف الخطأ، أو يظهر ما طرأ على الرواية من الزيادة أو النقص...

كما أن وجودَ آراء لبعض النقاد القدامي تنكر وجود هؤلاء الشعراء، لا يكفي أيضًا لأن ننكر وجودَهم، فهذه الآراء تعتمد على تعليل واحد لما ذهب إليه أصحابها، أو دليل فَرْدٍ يؤيد كلامهم... وإذا علمنا أن من هؤلاء النقاد القدامى، الأصمعي أدركنا لماذا قال : « رجلان ما عُرفا في الدنيا قط إلا بالاسم»... مجنون بني عامر وابن القرية، وإنما وضعهما الرواة..!! ذلك لأن الأصمعي ومن على شاكلته من نقاد هذا العصر كانوا مفتونين بالشعر الجاهلي، فتنة صرفتهم عن كل شيء سواه، وكانوا يعتبرون الشعر الجاهلي القمةَ العليا التي يتضافرُ دونها كل شعر أتي أو يأتي بعد ذلك... فهم لهذا كان يعزُّ عليهم أن يجدوا شعرًا يطاول هذا الشعر، ويسمو عليه، رغم أنه نشأ في نفس البيئة، وكان هؤلاء الشعراء يعيشون، كما يعيش أولئك - أما عن نسبة بعض الأشعار إلى هؤلاء الشعراء، ممن ثبت أنها لغيرهم، فإن تعليل ذلك سهل يسير، وهو رغبة الرواة في الإطالة في أخبارهم، ونسبة كل جيد لهم طمعًا في الكسب، وميلًا إلى أن يظهروا بمظهر العارفين بما لا يعرفه سواهم... وهو أمر ملحوظ في هذه الطبقة من الرواة، التي كانت صلتها مباشرة بالعامة - والعامة لا تريد - ولا قدرة لها إن أرادت - أن تأخذ كل خبر بالتحقيق والتمحيص - وهي في العادة لا يعنيها ذلك بقدر ما يعنيها أن تشعر باللذة، وأن تحس بالمتعة فيما تسمع من قصصهم، وما تتلقاه من أفواههم... ومثال ذلك هذان البيتان اللذان أُضيفا لمجنون بني عامر، وهما لجميل بن مَعْمر:

وخَـبَّـرتُمـانـي ان تـيـمـاءَ مَـنْـزِلٌ　للیلی، إذا ما الصيفُ ألقي المَرَاسيا
فهذي شهورُ الصيف عنا قَدِ انقَضَتْ　فما لـلـنَّوى ترمي بليلي المراميا[1]

وإنما دعا الرواة إلى أن يضيفوا البيتين للمجنون، فإنّ له قصيدةً من هذا الوزن والقافية، تلك التي يقول فيها :

يـقـولُـون لـيـلـى بـالـعـراقِ مريضةٌ　فـيـالَـيْـتَـنـى كـنـتُ الـطـبـيـبَ المداويـا
أُصـلِّـى فـمـا أدري إذا مـا ذكرتُها　اثِـنْـتَـينِ صلَّيتُ الضحي أمْ ثَمَانِيا[2]

نخرج من هذا كله بأن المجنون، وابنَ ذريح، وعروةَ وغيرَهم من شعراء البادية الغزليين إنما هم أشخاص حقيقيون، عاشوا وأحبُّوا ونَظَمُوا شعرًا عبروا به عن ذوات نفوسهم، وهذا الشعر الذي وصل إلينا منسوبًا إليهم يشير إشارة واضحة إلى شخصياتهم، وإلى إشعاعات رُوحهم الثائرة، الطامحة، ورغم اتفاقه في الموضوع وفي العاطفة، وفي صورة التعبير، إلا أن الخلاف في شعر هذا وذاك هو الخلاف بين نفسين ووجِدْانَيْن، وليس من الصعب أن تميز شعر المجنون، من شعر ابن ذُريح، أو من شعر ابن حِزام فإذا قال المجنون:

وأجـهـشْـتُ لـلـتـوبـاد حـين رأيـتُـه　وهـلَّـل لـلـرحـمـن حـينَ رآنـي[3]

وقال ابن حزام:

جـعـلْـتُ لـعـراف الـيـمـامـةِ حُـكْـمَـهُ　وعــرَّافِ حَـجْـرٍ إن هـمـا شَفَيانِي
وقـالا: شـفـاكَ الـلـهُ والـلـهِ مـا لنا　بما ضُـمِّـنَـتْ مـنـك الـضـلـوعُ يـدانِ[4]

أدركنا أن قائل هذا غيرَ قائل ذاك وأحسسنا بهذه الفروق الدقيقة تتضح وتكبر كلما أمعنا النظر، وأوغلنا في التأمل.. ووقفنا على الاهتزازات النفسية عند كل

(١) ديوان مجنون ليلى ص ٢٣٤، والنَّوىَ : الفراق.
(٢) سبق ذكره في الحديث العاشر.
(٣) سبق ذكره في الحديث العاشر.
(٤) كتاب الأغاني، ج٢٤، ص ١٥٦، ١٥٧ والأبيات لعُروة بن حِزام.

منهما... والظاهرة الجديرة بالنظر في شعر هذه المدرسة أنه كله يتقارب في خصائصه، ويتفق في صوره، لا عند من وقفوا حياتَهم على واحدة بعينها كالمجنون، وقيس، وعروة، ولكن كذلك عند من لم يشتهروا بذلك، بل كانوا كالبلابل المغردة تنتقل من فَنَنٍ إلى فنن، ومن روضة إلى روضة كيزيد بن الطَّثريَّة، وابن الدُّمَينَة وأضرابِهما من شعراء البادية، ويُخيَّلُ إلينا أن روح التجديد والإبداع، كانت من القوة بحيث غمر تيارُها المتدافع الزاخر كلَّ نفوس الشعراء، وكانت النفوس في درجة كبيرة من الخصوبة الفنية، بحيث نلمح علامات الإجادة والسمو على كل شعر نقرؤه لكل شاعر في هذا العهد... وهذه الأبيات لابن الطثرية تعطينا فكرة واضحة عن ذلك:

ألا يا صَبا نَجْد لقد هِجْتِ من نجدِ فهيَّجَ لي مَسْرَاك وَجْدا على وَجْدي

بكُلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا على أنَّ قُرْبَ الدار خيرٌ من البُعْدِ

عَلَى أن قربَ الدار ليس بنافعٍ إذا كان مَنْ تهواه ليس بذي وُدّ[1]

وهو القائل :

وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ بعلّةٍ فأفْنَيْتُ علاّتي، فكيفَ أقولُ؟[2]

وقد تطلع شوقي إلى هذا المعني حين قال في روايته « مجنون ليلى»

كَمْ جئتُ ليلَى بأسبابٍ مُلَفَّقَةٍ ما كان أكثَرَ أسبابي وعِلاّتي[3]

وواضح جدًا ما بين بيت الشاعر البدوي القديم وبيت شوقي من فروق تتلخص في أن شعر المجنون مصدره الفطرة، والشعور الأصيل، والآخر مصدره قوة الصنعة ودقة التقليد، وقد قصُر شعر شوقي عن شعر المجنون في المعنى وكرر فيه- مضطرًا- كلمتي أسباب وعلاتي.. وهما بمعنى واحد.

---

(١) كتاب ذيل الأمالي والنوادر لأبي على القالي، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦ ج٣، ص١١٦، ١١٧، والبيت الثالث غير موجود مع الاثنين السابقين.

(٢) تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج١، ص٧٠٦.

(٣) مجنون ليلى، أحمد شوقي، طبع شركة فن الطباعة، ص٢٦.

وعندما انتقل الحكم من يد بني أمية، إلى يد بني العباس، وكان انتقاله على أيدي الفرس أخذت الدولة الجديدة، عرفانًا منها بالجميل، تضع مقاليده في أيديهم، وبدأت الحياة تصطبغ بالصبغة الفارسية، وفقد العرب نفوذهم، بل وفقدوا معه شعورهم بالعزة القديمة... وكان طبيعيًا أن تنشأ طائفة من الموالي تَنْظِمُ الشعر، وتشارك العرب فيه، وتحاول - بروح الشعوبية التي سيطرت عليها- أن تنتقص من العرب ومن حضارتهم، ومن شعرهم أحيانًا كما حدث من أبي نواس في أكثر من قصيدة، ومن ذلك قوله ساخرًا من الذين يقفون على الطلول يبكون فيها أحبابهم وذكرياتهم :

قـلْ لِمَـنْ يبـكي عـلـى رَسْـمٍ دَرَسْ   واقـفًـا.. مـا ضَـرّ لـو كـانَ جَـلَـسْ[1]

بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك فيهجم على العرب وعاداتهم وتقاليدهم هجومًا عنيفًا في أكثر من قطعة.

لقد نشأ هذا التغير الملحوظ لا نتيجة لتطور فني، بل لتطور الحياة التي لوَّنتها المظاهر الفارسية الجديدة، التي تتسم بالأناقة، والإسراف في المتعة، مما ظهر أثره جليًا في شعر المجون من ناحية، وفي ظهور البديع من ناحية أخرى...

ولما كانت الحياة الجديدة قد استهلت أيامها بحركة كبيرة في الترجمة من اليونانية، إلى السريانية، فالعربية، كما اقترن ذلك بظهور فرق المتكلمين، واشتداد التنافس بين كل منهم على تأييد مذهبه.. فإن ذلك مَهَّدَ ظهور العصر العقلي في العهد العباسي، ومن شعراء ذلك العصر أبو تمام، والمتنبي، والمعري... كما كان منهم حماد عَجْرد، ومُطيع بن إياس، وبشار بن برد في فجر الدولة العباسية...

وسنناقش في الحديث القادم، القضايا التي اتفق عليها أصحابها، وَكَفَلُوا لها الرواج والذيوع، فأصبح ثابتًا في الأذهان أو كالثابت فيها، إن الحضارة العربية قد تأثرت بحضارات الأمم التي أخضعها العرب لسلطانهم، وفتحوها بسيوفهم.

(١) ديوان أبي نواس.. طبع دار الكتاب العربي ص١٣٤، تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي.

الحديث الثاني عشر

- **أيها السادة:**

يُضفي ترديد الآراء، وتداولها بين شتى المصادر والمراجع، صفة خاصة عليها في أخلاد الناس وأذهانهم فيتناقلونها على أنها حقيقة من الحقائق، لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها، وبعض هذه الحقائق بلغ حدا من الشيوع، والتداول بحيث يصعب على الناقد أن يتعرض لها، أو يعرّضَ بها حتى لا يستقيم رأي الذين قرروها وألحوا في تقريرها.. والناقد الجرىء يواجه صعوبات جمة حين ينبري لإزالة آثارها العالقة بالأذهان، والتي ثبتت فيها بالتكرار والترديد عبر أجيال سحيقة وعصور طويلة أكسبتها هذه الصفة، وقد تكون منها براء... والذين ساعدوا على رسوخ هذه الحقائق في نفوس الناس طائفةٌ عاونوا على ذلك معاونة كبيرة خالطها حسن النية حينًا، وسوء النية أحيانًا كثيرة... ولكننا على الرغم من هذا كله مضطرون اضطرارًا بدفع من عوامل عديدة أن نتناول هذه الحقائق بالمراجعة، والتعديل، والتصحيح... وذلك لشعورنا العميق بفداحة الضرر، الذي لحق بأدبنا وقوميتنا من جراء هذه الحقائق المزعومة.

قالوا: إن الحضارة العربية تأثرت بحضارات الأمم التي غَلَبها العرب على أمرها، وفتحوها بحد السيف، وأن العرب لم تكن لهم حضارة يمكن أن يكون لها مكان في طريق الحضارة الإنسانية الكبرى... والقائلون بهذا الرأي والذين يحاولون أن يقرروه في النفوس، ويثبتوه في الأذهان يؤكدون أن هذا الأثر الجديد لتلك الحضارات بدأ مع عصر الترجمة أيام المأمون، وفي المحاولات التي سبقت في عهود الخلفاء العباسيين والأمويين من قبله...

نُفنّدُ هذا القول إلا لأنه أصبح حقيقة ثابتة مقررة، وحسبنا في تفنيده أن نقول: إن الإسلام، وهو الصورة العليا للحضارة العربية، ظهر قبل عصر الترجمة، بمائتي عام على وجه التقريب، وقد كان له أثر عميق في تحويل مَجْرى الحياة العربية، وتكوين النفس العربية أيضًا... وكان أثره أعمق في تحويل مجرى الحياة الإنسانية إلى وجهة أخرى، وكان تياره المندفع من القوة بحيث كان من العسير رده عن غايته... هذا فضلًا عن أن التراجم العلمية والفلسفية التي ظهرت إذ ذاك، قد استطاع العقل العربي أن يصبغها بالصبغة العربية الخالصة، وأن يوفق بينهما وبين الحضارة العربية في الأصول والفروع، وهي مع هذا لم يكن لها أثر ما على الأدب العربي من شعر ونثر، فقد بقي على المنهج الذي رسمته له الطبيعة العربية منذ كان، وظل على الصورة الأصلية التي خلقتها ظروف العرب وبيئتهم.

لسنا وحدنا في هذا الرأي الممحَّص السليم فقد التفت إليه الدكتور نجيب محمد البهبيتي في كتابه تاريخ الشعر العربي.. وتعرض له بالشرح في شيء من الإسهاب في كتابه هذا - وقد جعل عنوان هذا الشرح :

«وَهْمٌ قديم»... وجعل العنوان الذي يتلوه : « قصة الحضارة الفارسية، قصة أضخم انتحال في التاريخ» وقال عنها إنها قصة « سهرت على تنظيمها عصبية شعب حُرِم من مميزات التفوق التاريخي « في مجال صراع عنصرى جبار، فادعي كل مقومات الحضارة والفكر، في البيئة التي وقعت له غنيمة... ثم قال في عنوان آخر: الواقع المستخرج من التاريخ هو أن الفرس يوم لقيهم العرب لم يكن لهم أدب يقوم مقام غيرهم من الأمم القديمة، ولم يكن لهم ماضٍ ثقافي مشرف يضعهم موضع العرب أو اليونان أو الهند...!!

وأيًا كان الأمر فإن الأدب العربي شق طريقه المرسوم من أول نشأته، لم ينحرف عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، وحين لمسته عصا التطور، لمسته بيد عربية إسلامية، لا شرقية ولا غربية، ورأينا في هذا الصدد أن الأمر كان على النقيض تمامًا من ناحية الأدب، فإن الفرس تأثروا بالأدب العربي، فنقلُوا الأفكار والمعاني إلى أدبهم، ولم يكتفوا بهذا، بل نقلوا أوزان البحور العربية، إلى لغتهم، واستعملوها في نظمهم على نحو ما نشاهد عند الخَيَّام، في رباعياته الفارسية، حيث استعمل أوزانًا عربية منها

البسيط، والخفيف. والفردوسي، ناظم الشاهنامة، استعان فيها بجميع الأوزان العربية.

والذي يدعونا إلى هذا القول هو تأكيدنا أن الشعر في العصر العباسي لم يتأثر بأى مؤثر خارج عن حدود النفس العربية، والذين يقولون بغير هذا إنما هم قوم من القدماء يطلقون عليهم اسم «الشعوبية» ونطلق عليهم نحن اليوم «عملاء الاستعمار» فبشار مثلًا حين قال :

إبليسُ من نارٍ وآدمُ طينةٌ والطينُ لاَ يسمو سموَّ النَّار[1]

لم يكن متأثرًا بالفلسفة الفارسية، أو بمذهب «ماو» كما يقولون، وإنما هو يتناول قضية كل أصولها في عقائدنا المدونة في كتابنا الكريم القرآن، وهو إنما يحكم عليها حكمًا ذاتيًا حسبما ترامى له...

وكذلك أبو تمام لم يكن متأثرًا بالفلسفة اليونانية، وهو يكتب في شعره تلك المعاني العميقة الدقيقة، ويضع فيه هذه الصور الرائعة الخلابة، وإنما قد استمد هذه المعاني، وألف هذه الصور من مصدرين : من نفسه أولًا، ومن حياته وماضي أمته العربية ثانيًا، وقُلّ مثل ذلك في ابن الرومي، والمتنبي، والمعري وغيرهم، من عمالقة الشعر العربي... فكلهم احتاجوا من يَنْعِهم وسقُوا الناس، ولم يلتفتوا إلى ينابيع سواهم، بل قل إنهم لم يعرفوها أيضًا...

ولما كانت الحياة في العصر العباسي قد دَلفَ إليها الترف، وتسربت إليها مظاهرُ النعيم، وانتشر الثراء والغني بين الجميع، فقد كان لذلك كلّه ظل على الشعر الذي يتأثر بدوره بكل مظاهر الحياة... ومن مظاهر هذا الأثر نشأة البديع، ونمو الصناعة التي وَجَدت طريقها إلى الشعر، والمعاني التي حام عليها الشعراء

---

(١) جاء في ديوان بشار هذان البيتان من الشعر المنسوب إليه :

إبليسُ خيرٌ من أبيكمْ آدم فتنبهوا يا معشرَ الفجّار

إبليسُ من نارٍ وآدم طينةٌ والأرضُ لا تسُمو سُمو النارِ

قال محقق الديوان محمد الطاهر بن عاشور :» ولا أخاله صحيح النسبة إليه « ج٤، ص٩٢.

وطاف بها الناظمون.. وإذا صح ما نسب إلى ابن المعتز من أنه هو صاحب هذا الموشح وقد رواه البارودى في مختاراته ونسبه إليه وهو:

ونديمٍ همتُ في غرّتِه

وشربتُ الراحَ من راحتهِ(١)

كلما استيقظ من سَكْرته

جَذَب الزقّ إليه، واتكا

وسقاني أربَعًا في أربَعِ(٢)

إذا صحَّ أنه صاحب هذا الموشح، فإنه يكون أول خطوة تمت في سبيل تطوير شكل القصيدة الذي عُرف منذ عصر الجاهليين، وتكون البداية الجريئة للتجديد الشامل الذي لحق نظام القصيدة، على أيدي الأندلسيين في العصور الوسطي، والشعراء المحدثين في مختلف أقطار البلاد العربية والمَهْجَر الأمريكي...

ولكن الغريب أن هذه المحاولة الأولى من جانب ابن المعتز، لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار، كما كان منتظرًا، ويظهر أن البيئة العربية إذ ذاك كانت من الجمود، بحيث أنها أُلفتْ أُلْفة شديدة بهذا النظام المعروف للقصيدة العربية... من هنا لحق التطور المعنى والصنعة، ولم يلحق النظام المألوف لها منذ كانت، فبقي على ما هو عليه، كأن هذا النظام كان مفروضًا على الشعر العربي لا يحيد عنه، ولا يحاول التخلص منه...

إن هذا يفسر لنا ذيوع البديع، وتعدد أنواعه، وهو ضرب من ضروب المحاولات العديدة، التي كان الشعراء يلجئون إليها من غير قصد، للتخلص من هذا النظام الموروث - على أن الشعر في هذا العصر - وإن بقي من حيث الشكل على ما هو عليه - فقد تطور من حيث المعنى، والصورة تطورًا كبيرًا... فقد خرج من الفطرة

---

(١) الراح : الخمر، وراحته : أي يده.

(٢) ابن المعتز، تأليف محمد عبدالمنعم خفاجي، طبع مكتبة الحسين التجارية ١٩٤٩م، ص١٧٦

إلى الصنعة، ومن البساطة إلى التعقيد، وألقيت عليه ظلالٌ عقلية، ونسمت منه أنسام منطقية، كانت أثرًا من آثار الرقي العقلي، والفلسفي في ذلك الحين...

وينبغي هنا أن ننص على أنه في هذا العصر، بدأ ظهور الشعر الاجتماعي الذي يتعرض للمجتمع وأحواله، واصفًا ومعبرًا عن شعر الطبقات الكادحة، على نحو ما نراه في شعر ابن الرومي، الذي كان يصف الجمال، والمعري الذي كان يحس بحرارة الظلم الواقع على الرعية من الأمراء والحكام:

ظلمُوا الرعيةَ واستجازُوا كَيْدَها   فَعَدَوْا مصالحَها، وهُمْ أُجَرَاؤها[1]

والذي كان يحاول أن يجهر بما يدور في نفسه فيمنعه من ذلك خوفه من بطش الولاة، وطغيان الأمراء، وذلك في قوله :

إذا قُلْتُ المُحَالَ رفعتُ صَوْتي   وإن قلتُ اليقينَ أطلْتُ هَمسْي[2]

وقوله:

تَلَوْا باطلًا وجَلَوْا صَارِما   وقالوا : صَدقْنَا.. فقلتم : نَعَمْ ![3]

ولكن المعري تقريبًا كان هو القمة العليا، التي بدأ بعدها الشعر والحياة معًا في الانحدار حتى لصقا بالحضيض..!!

لن تتسع هذه المحاضرة لمناقشة حقيقة أخرى من هذه الحقائق، التي ألح أصحابها على ذكرها وترديدها، حتى ظهرت بالرسوخ والاستقرار في أذهان الناس ومداركهم..

---

(١) اللزوميات لأبي العلاء المعري، طبع مكتبة الخانجي بالقاهرة، ج١، ص٤٤.
(٢) السابق ج٢، ص٤٥.
(٣) السابق، ج٢، ص٢٣٧.

الحديث الثالث عشر

أيها السادة:

عرضت في حديثي السابق إلى هذه الحقائق، التي شاعت بين الناس وتداولوها، وقلت إنها في حاجة إلى المراجعة والتعديل والتصحيح... وذكرت بعضَها، ونعود اليوم، فنذكر أن من هذه الحقائق، حقيقة يذكرها أدباؤنا، ونقادنا على أنها حقيقة ثابتة، وهم يؤكدونها بمختلف الوسائل، حتى أصبحت حقيقة متعارفًا عليها... إنهم يقولون : إن الحملة الفرنسية هي التي أيقظت المصريين، وفتحت لهم بابًا إلى الحضارة الحديثة... وهذا القول من جانب هؤلاء لا نُدخِله في باب المغالطات فحسب، بل نقرن إليه أيضًا سوء النية... فكان هؤلاء الذين تسلخوا عن قوميتهم، طمعًا في المكاسب الرخيصة الزائلة، يريدون أن يقولوا لنا بطريقة غير مفضوحة... هذا هو الاستعمار مصدر الخير، والبركة، والنعيم، إنه مصدر الحضارات للأمم المختلفة، فاقبلوه في بلادكم، وافتحوا له نفوسكم.

وكان من الممكن أن نمر بهذا الادعاء مرور الكرام، غير أن هؤلاء القائلين به من القوة بحيث نكون آثمين في حق بلادنا، ونفوسنا، لو أننا سكتنا عنهم، ولم نبين للناس زيف هذه الحقائق، ولم نكشف عنها هذا القناع الخداع الذي يتوارون خلفه... فهم يلبسون لكل حالة ما يلائمها، ويحملون لكل بيئة ما يوائمها...

والحقيقة هي أن الاستعمار أيًا كان لونه لا يحمل خيرًا؛ لأنه سالب الخير، ولا يهيئ حضارات، لأن أسباب بقائه تتنافى مع وجود الحضارات في البقاع التي يريد أن يهيمن عليها... فمصلحته التي من أجلها غَامرَ وضَحَّى، وسلك سبيل

العدوان، تجبره على التجرد من إنسانيته وضميره، وعلى الانسلاخ من كل القيم الأخلاقية التي آمن بها الإنسان.. ونزلت بها الأديان، والاستعمار الفرنسي عندما وطئت قدماه أرض مصر.. وَطِئَ أرضًا نبعت منها أولى حضارات البشر، وجابه شعبًا عَرف منذُ عَهْدٍ موغل في القدم، جميع مظاهر التمدن والرقي... ولم يأت الاستعمار الفرنسي بقوته العسكرية فحسب، بل أتي أيضًا بعدد ضخم من العلماء ليستعين بهم في دراسة تاريخ هذا الشعب وحضارته... لا ليدفعه إلى الكمال، ولا ليحثه على الاستمرار في مدارج التقدم والصعود، ولكن ليتمكن من القضاء عليه بطريقة مرسومة... ولولا مقاومة الشعب المصري الرائعة، التي أقضَّت مَضْجِع الحملة الفرنسية في الأيام التي عاشتها في مصر، والتي لم تمكنها من أن تُخضع الأقاليم النائية لنفوذها، حيث رجعت من رحلتها النيلية لفتح أقاليم الصعيد فاشلة، بعد أن وصلت إلى قنا بصعوبة كبيرة... لولا هذه المقاومة الباسلة، لتم للاستعمار الفرنسي ما أراده على الروح المصرية التي لم تخمُدْ جذوتُها في نفوس بنيها، منذ وُجِدوا على ضفاف النيل...

ثم ما الأثر الحضارى الذي تركته الحملة الفرنسية في مصر من أية ناحية؟ وخاصة الأدب والشعر، إنك تفتش عن هذا الأثر المزعوم فلا تجده، ولا تلمح له أثرًا... ونهضة الأدب الحديث لم تكن إبان الحملة، ولا في الزمن الذي تلاها حتى عهد ظهور البارودي... بل لم يكن هناك ما يُشير إلى ظهور البارودي أو يُمَهّد له.. والذين أشرفوا بالنهضة في فجرها، وحملوا مشاعلها.. لم يكونوا من بين البعوث التي أُرسلت إلى فرنسا في عهد محمد علي، أو في عهد إسماعيل... فقادة النهضة الحديثة من أمثال جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، والبارودي لم يكونوا منهم... وليس في أدبهم أو شعرهم ظل من الثقافة الفرنسية أو غيرِها...

وقُلْ مثل هذا في الاستعمار التركي المدمر[1]... فإنه ما كاد يزحف فوق أرض الشرق حتى جرَّده من كل مقوماته... فإن السلطان سليم بعد فتح القاهرة، نقل معه منها عددًا ضخمًا من العلماء، وَمَهَرَةِ الصناع إلى القسطنطينية... وقد حاول

(١) هذا وصف قاسٍ لما أسماه الاستعمار التركي.

الأتراك بكل الوسائل أن يقضوا على اللغة العربية في الممالك الإسلامية، ولكنهم باءوا بخسران مبين... وآبوا بعد الجهد الجهيد بالفشل الذريع.. وكانت كُبْرى العقبات التي اعترضت سبيلهم الجامع الأزهر.. والروحُ الحضارية المتمكنة من نفوس المصريين خاصة، والشرقيين عامة...

فالقول بأن الحملة الفرنسية هي التي أيقظت المصريين، وفتحت لهم باب المدنية والحضارة الحديثة قول باطل، وادعاء مردود، وأن جذور النهضة الحديثة أعمق من ذلك، فهي متصلة بالجذور الأولى للحضارة الإسلامية، لم تنفصل عنها قط إلا في فترات قاسية... شديدة القسوة، مظلمة... كثيفة الظلام... وهي لم تنفصل بالدرجة التي تفقد بها اتصالها وتنسى فيها مَنْبعها.. بل كان انفصالُها أشبه ما يكون بانفصال البذرة عن التربة الصالحة.. ومن الواضح أن هذه الفترات كانت في عهود الأتراك والفرنسيين، وبداية العهود الحاكمة التي توالت على مصر.. حيث نهضت هذه الروح الماردة فجأة ؛ لتستعيد مجدها الغابر، وعزها القديم.. على أساس من حضارتها هي.. لا من حضارات أية أمّة من الأمم.. وقد أخذت هذه النهضة الجديدة مظهرها الأول في الشعر على يد الشاعر الفحل محمود سامي البارودي..

وقد ارتفع البارودي بالشعر من الحضيض إلى القمة.. إلى أزهى عصوره القديمة، وهو رغم أنه نهض به على صورته الأولى، وروحه القديمة، إلا أنه يعود إليه الفضل الأول في وصل الجديد بالقديم، على تلك الصورة الدقيقة العريقة، التي لم يشاهدها الناس منذ عصر المتنبي والمعري...

والبارودي رغم أنه ابتعد بأسلوبه عن عصره، إلا أنه لم يبتعد عنه بمعانيه، وصوره، وموضوعاته... فشعره من هذه الناحية كان شديد الصلة بالحياة في عصره، ونستطيع حين نَعْبُرُ شعره، أن نلُمَّ بحوادث هذه الحياة المتقلبة، المتدفقة... وإن كنا نلم بها من وجهة نظر الشاعر...

ومن المعلوم أن البارودي عاصر الحركة العرابية، واشترك فيها بسيفه.. وأنه شاهد نهايتها على يد الغاصب المحتل... ونُفي إلى جزيرة سرنديب... واشترك

قبل ذلك في حرب البلقان مع الدولة العلية[1]، وحرب القَرْم... وكل ذلك حفُلَ به شعره، وصوّره أصدق تصوير وأبلغه، وهو القائل في هذا السبيل:

نَصَحْتُ قومي وقلتُ: الحربُ مُفْجِعَةٌ ... وربمـا نَـاحَ أمـرٌ غـيـرُ مـظـنـونِ
فـخـالَـفُـوني وشَـبُّـوهـا مُـكـابَـرةً ... وكـان أوْلَـى بقـومـي لـو أطاعُوني
حتَّى إذا لم يَعُدْ في الأمـر مَنْزَعةٌ ... واصْـبَـحَ الـشرُّ امْـرًا غـيـرَ مكْنُونِ
اجَبْتُ إذ هتَفُوا باسْمي ومِنْ شِيَمي ... صـدقُ الـولاءِ وتحقـيـقُ الأظـانـينِ[2]

وفي هذه الأبيات إشارة إلى ما كان يجري من الخلاف الداخلي في الصفوف، وهو أحد الأسباب التي انتهت بفشل عرابي.

لم يحاول البارودي أن يجدد في الأسلوب، إلا محاولات ضئيلة، يتعلق أغلبها باختراع أوزان جديدة من الأوزان القديمة.. وهى محاولة لم تخرج به عن النطاق العربي القديم، ومن أمثلة ذلك هذا الوزن المولد:

امْـــلأَ الْـــقَـــدَحْ ... وَاغْـصِ مَـنْ نَصَحْ
فَـالْـفَـتَـى مَـتَـى ... ذَاقَـهَـا انْـشَـرَحْ..[3]

وليس يعيب البارودي هذا، فإن المجهود الذي اضطلع به في سبيل تجديد شباب الشعر العربي كان من الضخامة بحيث يجعلنا نقف حائرين متعجبين... فهو مجهود كان يستغرق في الحقيقة طاقة أفراد لا فرد واحد... وللبارودي من أجل هذا مكانته المرموقة في تاريخ النهضة الحديثة...

وقد تمثلت مدرسة البارودي بعده في حافظ، وشوقي، ومطران، هؤلاء الذين حملوا رسالته وساروا على طريقته... وكان كل منهم لسانًا معبرًا- على ما بينهم

---

(١) ربما تكون الدولة العثمانية.

(٢) مجموعة أعلام الشعر لعباس محمود العقاد طبع دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٠م، ص٣٣٥، ٣٣٦.

(٣) ديوان البارودى، تحقيق / على الجارم، محمد شفيق معروف، طبع دار المعارف بمصر، ١٣٩١هـ ١٩٧١م، ج١، ص١٦٩، ١٧٠.

من تفاوت عن عصره، وعن الحياة فيه... غير أننا نستطيع أن نقول إن شوقيًا كان شاعر الحياة المترفة أو شاعر الطبقة الحاكمة... كما كان حافظ شاعر الشعب، أو شاعر الطبقة المحكومة... وكان مطران شاعرًا مترددًا بين مذهب هذا وذاك... ولم يكن شعره عندما يتعرض لما يتعرض له زميلاه من حوادث العصر، وخطبه تنبض بمثل ما ينبض به شعرهما من حرارة وقوة، ذلك لأن انفعاله بالحوادث كان انفعال الغريب الذي تربطه بالوطن، الذي يعيش فيه روابط العيش والسكن، والحياة... أما الشعور العميق بحب الوطن، والألفة المستقرة في نفس المواطن الأصيل، الذي يحس بأنه جزء لا يتجزأ من هذه الأرض، ومن تاريخها، وحوادثها، وذكرياتها... فلم يكن لمطران فيه حظ كبير...

وعلى الرغم من أن شوقيًا كان هو الآخر قريبًا من مطران من هذه الناحية، إلا أنه كان يُحِسُّ إحساسًا قويًا بالروابط التي تربطه بالطبقة الحاكمة، وبأنه يعيش ليعبر عن سلطانها.. فهو من هذه الناحية يختلف عن مطران، كما يختلف عن حافظ... ولم يخطئ الذين أطلقوا على حافظ لقب شاعر النيل... لأن حافظًا فِعْلًا عاش حياته التي عاصرت الاحتلال في أوْجِ قوته... ولم يجد بُدًا من أن يكون هو اللسان الصارم الذي يهتف بآمال الوطن وآلامه.. وحافظ من أجل هذا هو الشاعر الفذ، الذي عبَّر عن عصره أصدق تعبير، ونطق بكل ما يجيش في نفوس الشعب من حب للحرية، ورغبة في التخلص من سيطرة العدو الغاصب والمحتل البغيض.. وقصائدُه في هذا الباب تعطينا صورة صارخة وواضحة عن حياة الشعب في ذلك الحين، وعن عواطفه، وإحساسه.

ومن شعره في حادثة دنشواي، وهو يعرضها على الطريقة المصرية في السخرية المريرة والتهكم اللاذع:

أيُّها القائمون بالأمْرِ فينا ... هَلْ نَسِيتُمْ ولاءنا والوِدَادا

خَفِّضُوا جيشكم، ونامُوا هَنيئا ... وابتغُوا صَيْدَكمْ، وجُوبُوا البَلادا

وإذا أعْوَزَتْكُمُ ذاتُ طَوْقٍ ... بينَ تلكَ الرُّبا فَصِيدُوا العِبادا

إنما نحنُ والحَمامُ سواءٌ ... لم تُغَادِرْ أطواقُنا الأجيادا..!!

ثم يعرج على المحاكم والوحشية في القصاص:

جَـاء جُـهَّـالُـنَـا بـأمـرٍ وجـئـتُـمْ ... ضِـعْـفَ ضِعْـفـيـه قَـوْةً واشـتـدادا
احِـسـنُـوا الـقـتـلَ إن ضننتم بعفوٍ ... اقِـصـاصًـا أرَدْتُمُ أم كِـيـادَا
أحْـسِـنُـوا الـقـتـلَ إن ضـنـنـتـمْ بعفوٍ ... أنُـفـوسًـا أصـبـتُـم أم جَـمَـادا
أكْـرِمُـونَـا بـأرْضِـنـا حـيـثُ كُـنْـتُـمْ ... إنمـا يُـكْـرِمُ الجَـوادُ الجَـوادَا..[1]

هكذا كان حافظ يرقب الحياة من حوله، ويصورها ويبدع في هذا التصوير، وقد كان حافظ وشوقي امتدادًا لمذهب البارودي، وكانا يمثلان مدرسة حفية بإشراق الديباجة، ومتانة الأسلوب، وبراعة التعبير، وقد استطاعت هذه المدرسة أن تخلق لها أعداء ألدَّاء أقوياء، صاولوها وصاولتهم، وشنُّوا عليها حَرْبًا عاصفة، غير أن الأيام لم تطل وذهب حافظ، ولحق به شوقي إلى جوار ربه، وبقيت مدرسة شكري والعقاد والمازني[2].

وموعدنا الحديث القادم نتناول فيه هذه المدرسة الحديثة، وأثرها في ميدان الشعر المعاصر.

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ج٢، ص٢٠، ٢١.

(٢) هذا الكلام في مجموعه حيث صاح به الغزالي، وأذاعه على المستمعين يختلف عما قاله عن حافظ في حديثه عن الشاعر محمود غنيم، ورأى العقاد في شعره.

الحديث الرابع عشر

- **أيها السادة:**

كان البارودي مطلع نهضة الشعر العربي الحديث، تلك النهضة التي ظلت تتوثب في ميادينها، حتى ظهرت مجلة أبولو سنة ١٩٣٢م صحيفة الدعوة الجديدة لأنصار التجديد، من أصحاب المدرسة الابتداعية في الشعر الحديث، ومن الصدف العجيبة أن تُوفِّي حافظ وشوقي في نفس هذا العام، ولم يكن بينهما إلا فترة قصيرة، لم تزد على شهرين، وكان السابق حافظ الذي رثاه شوقي بقصيدته الهمزية، التي كانت في الحقيقة آخر صوت نطق به للدفاع عن مبادئ مدرستهما، وفي مطلع هذه القصيدة يقول شوقي:

قَدْ كنتُ أوثِرُ أنْ تقولَ رِثائي ... يا منصِفَ الموتى من الأَحياءِ

لكنْ سَبَقْتَ وكلُّ طولِ سلامةٍ ... قَدَرٌ، وكلُّ مَنِيَّةٍ بقَضَاءِ

وفيها يقول عن خصوم حافظ، الذين هم خصومه أيضًا:

ما حطَّموكَ وإنما بِكَ حُطِّموا ... مَنْ ذا يُحَطِّمُ رفْرَفَ الجوزاءِ(١)

وإشارة شوقي هذه إلى المعركة، التي كانت دائرة بين أنصار هذه المدرسة، وأنصار المجددين من أمثال شكرى والعقاد والمازني تعطينا فكرة عن انفعال شوقي بهذا الصراع، الذي وصل في شعوره الباطني إلى درجة التحطيم...

---

(١) ديوان شوقي، ج٢، ص٢٥٩.

إن ظهور مجلة أبولو كان إيذانًا بظهور عهد جديد، ونهاية عهد قديم، وكان ظهورها نتيجة طبيعية لهذا الصراع العنيف بين مدرسة البارودي وشوقي وحافظ ومدرسة العقاد وشكري والمازني تلك المدرسة التي يصحُّ أن نطلقَ عليها مدرسة المعاني، والمدرسة الابتداعية ؛ لأنها كانت بمثابة رد فعل لمذهب المدرسة البارودية، التي كانت تحتفل باللفظ والصياغة والموسيقى الشعرية...

ومدرسة المعاني - إن صح أن نطلق عليها هذا الاسم - كانت تعيب على المدرسة البارودية هذا الاحتفال باللفظ والحضارة بالصياغة، وإغفال المعنى والإعراض عنه، كما كانت تأخذ عليها أنها تنظر إلى الشعر على أنه مادة للسلوى، وموضوعٌ للمسامرة، وليس هتافًا للشوق المكنون في الضمير الإنساني، وتعبيرًا عن إحساسه بالقوانين الأزلية التي تسّيرُ الحياة والوجود...

ولكن مدرسة المعاني هذه، ارتكبت نفس الغلطة التي ارتكبتها المدرسة البارودية، فعلى قَدْرِ عنايتها بالمعنى، والصورة، والإحساس، كان تفريطها في اللفظ والصَياغة، حتى إنها تَرْسُم لك الصورة الرائعة في الإطار الكئيب...

ويتضح ذلك من أية مقارنة تعقدها بين مثالين من هذه وهذه، وأقرب لذلك قصيدة شوقي، وقصيدة العقاد في ذكرى شكسبير...

إن الذي دفع مدرسة المعاني إلى سلوك هذه السبيل، واختيار هذا المنهج هو أنها تلقت مبادئها من النقاد الغربيين، لم تأخذ عناصر التجديد من ماضينا الأدبي، فانعزلت بذلك عن المجتمع العربي انعزالًا تامًا... فلم يكن يقرؤها إلا هم أنفسهم لأنها فقدت صلتها بالجمهور، وقطعت كلَّ علاقتها به، منذ أن تنكرت لماضيها العريق...

وقد فَقَدت هذه المدرسة صلتها بالحياة بعد عزلتها عن المجتمع، ولم تشارك إلا مشاركة ضئيلة، وعديمة الجدوى في أحداث الأمة، ومطالب المجتمع، فقد اعترضت كل سبيل لشعر المناسبات، ونادت بأن المناسبة يجب أن تنبع من داخل نفس المشاعر، لا من خارجها، وأن على الشاعر أن يصور نفسه هو، لا نفوس الآخرين، وأن يكتب في أحداثه هو لا في أحداث غيره...

إننا حين نطالع ديوانًا من دواوين شكري أو العقاد أو المازني، تلك التي ظهرت في الفترة التي بدأت بمقتل بطرس غالي، وظهور مجلة أبوللو، وهي فترة مليئة بالأحداث، ومشحونة بالصراع العنيف، لم نجد فيها إلا ظلًا قميئًا، لا يشير إلى شيء أكثر من أن هؤلاء الشعراء كانوا يعيشون مُغْمِضيِ العيون عن كل ما يدور حولهم.. فشكرى يكتب لك قصيدة جميلة عنوانها «الشلاّل» في الوقت الذي تجرى فيه المذابح في ليبيا على يد الطليان، والعقاد في هذا الوقت نفسه يكتبُ لك عن النرجيلة.. وطريق الكِبِاش.. وترجمة شيطان..

وحتى ما كتبوه في هذه الحوادث التي لا تتصل بهم، وإنما تتصل بالأمة كلها، وبالشعب كله لا نجد فيه حرارة الإيمان، ولا دفعة الانفعال، ولا ثورة اليقين، وإنما هو كلام لا يثير؛ لأنهم يكتبونه بمشاعر لا أثر فيها للحياة... وهم حتى في هذا لا ينسون أنفسهم، فهم فرديون إلى أبعد حدود الفردية، فالعقاد في قصيدة طريق الكباش، وهذا الطريق يستغرق من يسير فيه في دوامة هائلة من التاريخ والزمان، فلا يكاد يحس بنفسه، ولكن العقاد لا ينساها وهو يختمها بقوله:

وكأنّي وقَدْ وقفتُ لديها وسِقَامي يُثْقِلُنَنِى وشُجوني
نُصُبٌ مَرَّ بي مِنَ الدهر خلسا مثلَ ما مرَّ بالبناء المكين..[1]

إن الذي نلاحظه أن هذه المدرسة عاشت فترةً من الزمان... ولكنها لم تعش بأدبها وشعرها، وإنما عاشت ؛ لأنّ أصحابها كانوا محرري صحف، يكتبون فيها ما شاءوا أينما شاءوا، فيسَّر لهم ذلك أن يُطيلوا الصراع بينهم وبين مدرسة البارودي، وأن يشغلوا الناس بهذا الصراع وقتًا ليس بالقصير.. ولم يكن لمدرسة البارودي هذه الميزة في صراعهم معهم...

ومع هذا فقد ثبتوا لهم بالنفوذ المادي، الذي كان لهم، وبالثروة والجاه الذي كانوا يتمتعون به، وحسبُكَ أن كتاب « الديوان في النقد» الذي كتبه العقاد والمازني، للهجوم على شوقي، والنَّيلْ من شعره، لم يكد يظهر في السوق حتى اختفى، ولم

(١) ديوان العقاد، ج٣ ص٣٠٤، من قصيدة بعنوان (هيكل الكرنك) منشورات المكتبة العصرية، المجلد الأول.

يكن اختفاؤه بسبب إقبال الجمهور عليه، وإنما لأن شوقيًا جمع جميع النسخ من المكاتب، واشتراها لنفسه؛ حتى لا يتداولها القراء... وهي طريقة فذة في التغلب على الخصم العنيد...

وإذا كان العقاد وهو رأس هذه المدرسة قد انفصل عنها اليوم، وانساق مع التطور الجديد، فإن ظهور مدرسة «أبوللو» كان له أكبر الأثر في هذا التحول الذي طرأ عليه...

ومدرسة « أبوللو « أو المدرسة الرومانتيكية كان أساس مذهبها الثورةُ على مدرسة اللفظ والمعنى معًا، واتخذ شعراؤها من مجلة «أبوللو» منبرًا يعرضون من فوقه إنتاجهم الجديد متحدين هؤلاء وهؤلاء، ومتخذين لأنفسهم طريقًا خاصًا، كان أظهر معالمه هو التحلل من القيود القديمة التي لم يستطع أصحاب مدرسة المعاني أن يتحللوا منها...

وكانوا إلى جانب هذا يحاولون أن يوفقوا بين مطالب الشاعر النفسية، ومطالب المجتمع - الذي يعيشون فيه... ولكن جنوحهم نحو الخيال البعيد والصور الغامضة، وعدم احتفالهم بالأسلوب، كان من الأسباب القديمة، التي انتهت بهم إلى ما انتهت إليه مدرسة المعاني من العزلة والانفراد، ولم تطل بها أيام الحياة لذلك... فما كادت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها حتى كانت هذه المدرسة في طريقها إلى مصيرها المحتوم...

إننا إذا تركنا هذا الحيز المصري إلى رقعة الأمة العربية الواسعة، حيث نشأ الشعراء، الذين اشتد تأثرهم بالأدب الأوربي، وعظُم شغفُهم به، فإننا نجد أن الأمر لم يختلف كثيرًا عنه في مصر؛ لأن التجديد الذي حدث هنا وهناك، لم يكن له سند من ماضينا الأدبي.. ذلك لأن الأدب العربي أدب واقعي، وثيق الصلة بالواقع وبالحياة، لم ينفصل عنها في عصر من العصور، إلا في تلك العصور التي تمت فيها للأجانب السيطرة على الأقطار العربية، وانتزاع السلطان من أيدي أبنائها... وهي... عصر المماليك، والعصر التركي، وعصر الحملة الفرنسية حتى عهد إسماعيل...

على أننا نستطيع أن نستثني من ذلك بعض الشعراء الذين لم يسلكوا مسالك هؤلاء... فاعتمدوا في تجديدهم على مجدهم القديم... ولم يستطيعوا أن ينسوا فيما ينظمونه، تلك الروح العربية الأصلية... هذا إلى جانب أنهم أفادوا من صور الأدب الغربي وخياله، بالقدر الذي لا يُبعدهم عن منابعهم هم، وهى منابع ثروة لا يفيض لها ماء، ولا تنطوى عندها ظلال... فأبوريشة - وهو منهم - يذكر وطنه وأمَّتَهُ، وهي ترزخ تحت الاحتلال الفرنسي فيقول :

انا من امةِ افاقتْ على العزِّ   واغْفَتْ مغموسةً في الهوانِ
عرشُها الرثُّ من جراد المغير لِكَ   واعلامُها من الأكْفَانِ..

فلا تحس فيما يقول انحرافًا عن مسالك أدب أمته، ولا ميلًا عن خصائص شعرها... وأبو ريشة في هذه القصيدة يتحدث عن خالد بن الوليد وعن اليرموك فيقول :

فأتاهم بِحفْنَةٍ من رجالٍ   عندَها المجدُ والرَّدى سِيَّانِ[1]
ورماهُمْ بها وما هي إلا   جولةٌ فالترابُ احمرُ قانِ
وضلوعُ اليرموك تجرى نُعوشًا   حاملاتٍ هوامدَ الأبدانِ..[2]

ومن هؤلاء أبو القاسم الشابيّ شاعر تونس غير منازع، والشابّي كان مشغولًا بآلام أمته، التي انبثقت عنها آلامه جميعًا... بل إنه في أخصّ قصائده، التي تعبر عن ذاته يطالعك بآمال أمته وآلامها في كل بيت، بل وفي كل لفظ، وتشعر بروح هذه الأمة، يتنفس عبر الكلمات، وينسرب في ثنايا المعاني، اسمع إليه وهو يقول:

اسكني يا جراحْ   واسكني يا شُجونْ
ماتَ عهدُ النُّواحْ   وزمانُ الجنونْ
واطَلَّ الصباحْ   مِنْ وراء القرونْ[3]

---

(١) و الردى: الهلاك.
(٢) دراسات في الشعر العربي المعاصر للدكتور شوقي ضيف، طبع دار المعارف بمصر، ص٢٣٥.
(٣) أغاني الحياة (الديوان الكامل) لأبي القاسم الشابي، طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة في مارس ٢٠٠٢م، ص١٩٢.

والشابّي حين يريد أن يقدم النموذج الحي للحر المكافح، الذي لا ييأس ولا يضعف ولا يمل يقول :

سأعيشُ رغمَ الداءِ والأعداءِ | كالنَّسْرِ فوق القمةِ الشماءِ
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئًا | بالسُّحْبِ والأمطارِ والأنواء
لا أرمقُ الظلَّ الكئيبَ، ولا أرى | ما في قرار الهُوَّةِ السوداء
لا يُطفئُ اللهبَ المؤجَّجَ في دَمي | موجُ الأسَى وعواصفُ الأرزاء(١)
فاهدِمْ فؤادي ما استطعت فإنه | سيكون مثل الصخرة الصماء
ويعيش جَبَّارًا، يُحَدِّقُ دائمًا | بالفجر...، بالفجر الجميل النائي..(٢)

فهذا الشعر رغم أنه يصور حسَّ صاحبه ووجدانه، إلا أنه يصور كذلك أشواق أمته إلى الحياة الطليقة المتحررة، من ظل الاستعمار الكريه، وقسوة الدخيل المستبد.

على أية صورة انتهت مدرسة التجديد والفكر، وكيف انطوت رسالتها، وما الذي كانت تستهدفه، وتَجْهَدُ في سبيل تحقيقه.. هذا ما سنجلوه في حديثنا القادم... إن شاء الله.

---

(١) الأرزاء : المصائب.

(٢) أغاني الحياة ص٢١٢.

الحديث الخامس عشر

- **أيها السادة:**

سرعان ما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، حتى لفظت مدرسة أبوللو آخر أنفاسها، ونزح رائدها المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي إلى أمريكا... والأمر الذي نريد أن نوضحه هنا هو أن القيم الشعرية التي آمنت بها هذه المدرسة، ولم تحاول أن تفيد منها بقيت لتخلق مدرسة جديدة... تؤمن بالواقع، وتحاول أن تربط الشعر بالحياة، كما كان في عصوره الأولى، وأن تأخذ مادته، وموضوعه من المجتمع وأحداثه...

غير أن هذه المدرسة ارتكبت أخطاء جسيمة في حق نفسها أولًا، وفي حق الأمة ثانيًا، وذلك بمحاولتها تحطيم الشكل العربي للقصيدة تحطيمًا... فقد عملت على إلغاء الأوزان العربية المعروفة في البحور الستة عشر ومجزوءاتها، والاكتفاء بالتفعلية الواحدة، أساسًا لنظم القصيدة، ثم هي تريد أن تدمر اللغة العربية نفسَها بإلغاء حركات الإعراب، وتطعيم لغتهم الجديدة بالأفكار، والألفاظ العامية.. وهذا جُرْمٌ خطير.. بالغ الخطورة.. لأنه لو تم لفقدنا به الصلة الوحيدة الباقية بماضينا كله.. وبلُغتِنا التي نزل بها القرآن الكريم... ولأصبحنا غرباء عنهما إلى أبد الآبدين...

ربما كان دعاة التجديد على حق، حين يحاولون تحوير الشكل الذي ورثناه للقصيدة ؛ حتى يمكن أن تتلاءم مع الحياة الجديدة التي نحياها، ومع الحضارة الحديثة التي نعيش فيها... وحتى تستطيع القصيدة أن تستوعب الأفكار، والأخيلة، والأحاسيس، التي خلقتها الثقافة الواسعة في العصر الحديث.. وهذا ليس معناه

أن نُلْغي طبيعتنا، وظروفنا الخاصة، وبيئتنا التي نشأنا فيها نحن وآباؤنا وأجدادنا وليس معنى هذا أيضًا أن نلغي قيمنا الإنسانية كجنس من الأجناس البشرية الراقية، التي شُيدت حضارتُها على أسس قوية من أفكارها وطباعها وخصائصها وألوان مجتمعاتها.

وقد تكون الحاجة ماسة لتغيير شكل القصيدة ؛ ليتسع للمطالب النفسية؛ وليكون أكثر قدرة على تصوير واقعنا.. ولكن أية ضرورة مُلحة لتغيير اللغة نفسها.. ثم ماذا يبقي لأصحاب هذه المدرسة بعد ذلك.. لا شيء بالضرورة.. لأن الشعر الذي تنظمه مدرستهم تلك.. لن يكون له أثر ما.. ولن تصل به إلى الأهداف العليا التي تريدُ الوصول إليها.. وسوف يكون شعرها شعرًا محليا قاصرًا على الجهة التي يعيشون فيها.. لأن السوري والسعودي مثلًا ومن يعيشون في تونس والجزائر ومراكش.. سيقررونه كلغة غريبة عنهم..

وإليكم مثلًا من أمثلة عدة، فهذه القصيدة التي كتبها أحد شعراء هذه المدرسة في « أم صابر» الفلاحة الشهيدة التي قتلها جنود الاستعمار سنة ١٩٥١م في إحدى القرى المصرية، وقد نُظمت هذه القصيدة على المذهب الجديد الذي يتخذ التفعيلة أساسًا لنظم القصيدة... إذا قرأها قارئ غير مصرى فإنه سيقف طويلًا عند بعض الألفاظ، وسيقف مدة أطول عند بعض الصور التي زخرت بها القطعة :

أمس كانتْ في انتظار

تعصِف الذكرى بها قَبلَ الرحيل

لرتيبة

وتردُّ النومَ عن جفني ثقيل

تتثاءبْ

ثم تخطو بوعاءٍ من خشبْ

وفتات من إدام

وزكيبة

ويقول شاعر آخر من شعراء هذه المدرسة من قصيدة عنوانها «شنق زهران..»

كان زهرانُ غلامًا

أمُّهُ سمراءُ، والأبُ مولّد

وبعينيه وسامهْ

وعلى الصدغِ حمامهْ

وعلى الزند أبو زيدٍ سلامهْ

ممسكًا سيفًا، وتحت الوشم نَبْشٌ كالكتابة

اسم قريهْ

دنشواي

ثم يقول :

شبَّ زهرانُ قويًا

ونقيًا

يطأ الأرضَ خفيفًا

وأليفًا

كان ضحاكًا ولوعًا بالغناءْ

وسَمَاع الشعرِ في ليلِ الشتاء[1].

إلى آخر القصيدة، وهي كلها من هذا الطراز.. ونلاحظ أنها بنيت على نظام التفعيلة الواحدة من ناحية الشكل، أما من ناحية الموضوع، فهو يصور بها حادثة

(١) الشعر لصلاح عبدالصبور من ديوانه الأول (الناس في بلادي) قصيدة (شنق زهران)، ص١٨.

شنق زهران أحد الأربعة، الذين نفَّذ الإنجليز فيهم حكم الإعدام، شنقًا في دنشواي إحدى القرى المصرية.

أما من ناحية المادة فإن الصورة التي رسمتها ريشة الشاعر، فرغم أنها مستمدة من الواقع، فهي مضطربة غاية الاضطراب، لأنها حين نضمُّها بعضها إلى بعض لا تكون هذه البنية الحية للقصيدة، ولا تؤلف هذا البناء الفني المتكامل، الذي ينادي به نقَّاد هذه المدرسة وأنصارُها... فالصور في هذه القصيدة، وفي القصائد التي من هذا النوع لشعراء هذه المدرسة، موضوعة وضعًا، من غير أن يتم الترابط والانسجام بينها ؛ لأنها لم تكن نتيجة الإحساس العميق بالواقع، ولا وليدة التجربة الحية للموضوع.. وإنما هي وليدة الانفعال التحليلي، الذي يتم داخل النفس بعيدًا عن الوقوع في التجربة العملية لها...

وهذا هو سر التفكك المشاهد في شعر هذه المدرسة الحديثة.. يقول صاحب قصيدة شنق زهران فيها :

مات زهرانُ وعيناهُ حياةْ

فلماذا قريتي تخشى الحياةْ؟[1]

ماذا يريد بقوله « وعيناه حياة..» ؟ ثم لماذا تخشى القرية الحياة ؟ لأن زهران مات وعيناه حياة.. إنها صورة لم تنبع من التجربة، ولم تؤخذ من الواقع.. وليس يكفي أن تؤخذ الصور هكذا أخذًا، من غير ترابط ولا انسجام.. لأن هذا الترابط والانسجام بين كل صورة وأخرى، يعين على تكوين الجو العام للقصيدة ؛ حتى يمكن أن يكون لها أثر إيجابي في إقناع السامع بمضمونها، أو بالأهداف التي يرمي إليها الشاعر...

إن الحقيقة الواضحة، هي أن مبادئ هذه المدرسة الحديثة، لم تطبق حتى اليوم، وليس في يد ناقديها إلا أمثلة قليلة للتطبيق، ومن هذه الأمثلة القليلة قصيدة الشاعر عبدالرحمن الشرقاوي، وهى من ناحية البناء الفني أسلَمها جميعًا، وأقربها

(١) الناس في بلادي، ص٢٢.

إلى روح التجديد، التي تريدها مبادئ هذه المدرسة.. ألا وهي قصيدة «من أب مصرى إلى ترومان» فمن أجزائها الرائعة قوله يتحدث عن طفلته الصغيرة :

تحاولُ جاهدةً أن تسيرَ وكانت لعهدى لم تقعدِ

فحيناً تلوذ إلى حائطٍ فإن لم تجدْ فإلى مَقْعدِ

فإن لم تجدْ وقفتْ لحظةً لتضربَ ما حولَها باليد

ويا طالما رنَّحتها الخُطا ويا طالما وقعتْ ضاحكةْ

لتنهضَ عازمةً من جديد كذلك تمضي بنا المعركةْ

وهذه الأبيات مثال صادق للتجديد السليم، الذي يستمد صوره من واقع الحياة، ومن التجربة الحية التي يعيشها الشاعر.. وقد خلت من الضرورات الشواذ، التي تشوب قصيدة «شنق زهران» كاضطراره إلى تشديد كلمة الأب ليستقيم الوزن في قوله :

أمة سمراء والأب مولد

وهو إنما يصفُها هكذا ؛ لأن العامة تنطق بها مشددة... ومثل اضطراره إلى إلغاء حركة الإعراب في قوله :

اسم قريهْ

دنشواي

لأنه لو حركها لما استقام له الوزن الذي بَنَي عليه القصيدة، وهى التفعيلة «فاعلاتن» ومن هذه الأمثلة القليلة أيضًا ديوان «كمال عبدالحليم » الشاعر المصرى... وهو من رواد التجديد السليم في الشعر الحديث... ومما يُرْوى له في هذا الباب قوله على لسان ولده الذي لم يولد بعد :

ولكنني بعدُ لم أولدْ

فمالي من حاضرٍ أو غد

ويأبى الطغاة دعاة الحروبِ

إعادة أمي إلى والدي

أنا كائن بعدُ لم يولدْ

أنا والسلام على موعدِ

إن خلاصة القول أن هذه المدرسة الحديثة قد يكون نجاحها في أنها لفتت أنظار الشعراء والفنانين إلى الواقع... واقع الحياة الإنسانية؛ ليستقوا من نبعه صورهم، وأفكارهم، ومعانيهم من خلال التجربة الذاتية... ونجحوا أيضًا في أنهم قَضَوْا أوْهُمْ في طريقهم إلى القضاء على هذه المدارس التي نشأت في ظلال الاستعمار، وباعدت بين الفن والحياة... وأخذت تضرِبُ في متاهة عمياء، وتحلق في أجواء مظلمة، وتتسرب في سراديب مجهولة... وهي بهذا تعيد الصلة بماضينا الأول، وبالشعر في أزهى عصوره... ولم يكن الشعر في أزهى عصوره إلا هكذا نابعًا من الواقع، متصلًا بالحياة، محلقًا بأجنحتها، في أجواء الفن الساحرة الخالدة...

بقي لي في هذه السلسلة التي تحدثت إليكم في حلقاتها السابقة عن صلة الشعر بالحياة في الماضي والحاضر حلقة واحدة أخيرة، أتمم بها هذا البحث الذي استطرد واستفاض في خمس عشرة حلقة أردت بها أن ألقي على قدر طاقتي ضوءًا ولو خافتًا على هذه القضية، التي تَعرَّضَتْ خلال هذه الأجيال الأدبية المتلاحقة إلى ظلمات كثيفة، حُجِبت أنظارٌ كثيرة أن تنفذ منها إلى نور الحقيقة.

الحديث السادس عشر[1]

• **أيها السادة:**

حين تفضل القائمون بأمر الإذاعة السعودية، فطلبوا إليَّ مشكورين أن أتحدث لمستمعيها الكرام في موضوع... صلة الشعر بالحياة في الماضي والحاضر... أخذت أُعدُّ المراجع والمصادر، التي لا مناصَ من استيعابها ودراستها. قبلَ الخوض في هذا الحديث، وحينما تهيأتُ للكتابة، كان مدلول كلمة « الحياة « شغلَ ذهني الشاغل... وظلَّ يدور بخاطري، ويلح في الدوران، هذا السؤال... ما المقصود بكلمة «الحياة» في هذا البحث الذي نحن بصدده؟ وكان لابد من الإجابة، حتى نستطيع أن نفهم حقيقة صلة الشعر بالحياة، غير أنني اقتنعت بإرجاء الإجابة، حتى أنتهي من كتابة آخر حلقة في سلسلة هذا البحث، وبرز هذا الاقتناع في نفسي أن هذه الصلة التي نريد أن نتحدث، فنطيل الحديث عنها، في ماضيها وحاضرها، لن تُفْهم فهمًا عميقًا دقيقًا، إلا بعد أن نفرُغَ من عرض عصور الشعر العربي، التي اختلفت على عصور الحياة في القديم والحديث، ثم لأن هذه الدراسات التي قدمناها، في هذه الحلقات، هي البيان المفصل، والشرح الوافي لجوانب هذه الصلة..

كان العربي في الصحراء على ناقته أو بين مراعيه، أو على عيون الماء، أو في معارك القتال مع جيرانه، أو بين نَدَوات السَّمَر، أو في مقام التفاخر بالإحساس والتباهي بالأنساب... أو هابطًا في وَهْدٍ أو صاعدًا على نَجْدٍ، كان في كل ذلك، وفي كل خطوةٍ من حياته يسجل إحساسه، ويصور عاطفته، ويرسم مشاعره، في

---

(١) لقد تم اقتطاع جزء من هذا الحديث، وترحيله ليكون في مقدمة هذه الأحاديث.. ولولا أن الغزالي قد وضع لهذا الموضوع عنوانه وهو «الحديث السادس عشر»، لجعلناه كله في مقدمة هذه الأحاديث.

كثير من الدقة والروعة والإبداع... وحين تطورت حياته، وخرج من جزيرته، وفارق صحراءه... إلى أرجاء هذه الدنيا الفسيحة كان شعره رفيقه أينما حَلّ، وأنيسه أينما سار... وكلما دخلت حياته في تطور جديد تطور معها تطورًا يبعث الدهشة، ويثير الإعجاب..

ولكنه مع هذا ظل وفيًا لجنسه، وطبيعته خلال العصور والأجيال.. فلم يقبل أن يُغَيَّرَ من الشكل القديم لشعره.. وإن قبل أن يتغير الموضوع والمادة، في الشكل، غير أنه أصرَّ على أن يبقي الشكل على صوره الموروثة...

وهذا الوفاء الصميم في نفس العربي يفسر لنا عدم تطور شكل القصيدة إلا أخيرًا... وقد بقي الشاعر العربي، وهو مع ذلك حتى هذه الأيام شاكًا، مرتابًا، مترددًا، آبيًا أن يتنازل عن موروثاته، في يسر وسهولة... ذلك لأنه يعتقد أن هذا الشكل الذي يُراد تغييره خصيصة من خصائص أدبه، وميزة من مزاياه، التي انفرد بها فنه بين سائر الفنون في الأمم الأخرى..

لقد لاحظنا أن الشعر العربي في كل عصوره، كان المرآة التي تعكس الحياة وأهدافَها.. وأنه كان يتطور معها، في كل تطور يطرأ عليها.. ففي العصر الجاهلي، وفي العصر الأموي، وفي العصر العباسي كاد الشعر أن يكون تاريخًا للحياة، تنظر فيه، فتقف على كل شيء يتعلق بالفرد في ذاته أو بعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه... فعندما اشتد الخلاف بين الأحزاب في العصر الأموي، كان الشعر هو الصوت المسموع هنا وهناك... وعندما زخرت الحياة بالترف في أول عهد العباسيين كان الشعر هو الفن الذي يصوّر ويعبر، ويحمل صور المتعة من مكان إلى مكان... وفي العصر الحديث غندما انتشرت وسائل المواصلات الحديثة، واستتبع ذلك انتشار الثقافات -المختلفة بين الأمم، وانتقالها من أمة إلى أمة من غير أن يعوقها عائق، أو يقف دونها حاجز- كثرت المذاهب الأدبية الوافدة من الغرب إلى الشرق، واضطر الشعراء من الأمة العربية أن يطَّلِعُوا عليها، وأن يتأثروا بها، وأن لا يقفوا جامدين أمامها...

وقد انتقلت كذلك مع هذه الثقافة بعض مظاهر الحياة في الغرب إلى الشرق، فلم تلبث أن وجدت طريقها إلى الشعر، أو وجد الشعر طريقه إليها... وأصبحنا نقرأ في شعرنا ألوانًا جديدة ونطلع على صور طريفة، ولكنها على كل حال نَبَعَتْ

من واقعنا، ومن تجارب حياتنا، فإذا قرأت للرُّصافى مثلًا قصائده الإنسانية، التي يصور بها الحياة في العراق على عهده، أو قصائده الوطنية التي يستثير بها الهِمَم، ويوقظ بها النفوس عرفت إلى أي حد كان الشعر شديد الصلة بالحياة، وبالواقع الإنساني.... يقول الرصافي في قصيدة « الأرملة الضائعة»[1]..

لقيتُها ليتني ما كنتُ ألقاها   تمشي وقد أثقلَ الإملاقُ مَمْشاها[2]

مات الذي كان يَحميها ويُسْعدها   فالدهرُ من بعده، بالفقرِ أشقاها

كرُّ الجديدين قد أبلى عباءتَها   فانشقَّ أسفلُها، وانشقَّ أعلاها[3]

ومزّق الدهرُ - ويلُ الدهرُ - مِئْزَرها   حتى بدا من شقوقِ الثوب جَنْباها[4]

إلى آخر ما قال، وهى لوحة رائعة، لأرملة فقيرة، مات عائلها، ولم يعد لها من الحياة بعده نصيب... وإذا قرأت لأبي شبكة أغانيه في ديوانه «أفاعي الفردوس» رأيت لونًا آخر من ألوان الشعر، يعبر به عن لون آخر من ألوان الحياة، إذْ يتحدثُ حديثَ التائبِ الذي أفاق من سكرته فاعترف بذنبه فيقول:

وَطَّأتَ لى كَنَفَ الدنيا فقلتُ: قِفِي   يا نفسُ في مَنْهل اللذاتِ، وارتشفي

وغاب عنى أني عُشْبةٌ نَبَتتْ   على جوانبَ إبريقٍ مِنَ الخزفِ..[5]

ثم يقول فيها :

تُرى مَشيئتُك العليا تُناديني   بثورةِ النارِ في تلك البراكينِ

ربّاه! أهل ينتهي حلمي بِبَارقةٍ   من اللهيب ويخبُو الطينُ في الطينِ[6]

---

(١) عنوان القصيدة كما في ديوان الرصافي هو « الأرملة المرضعة »، طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ٢٠٠٤م.

(٢) الإملاق : الفقر.

(٣) الجديديان : الليل والنهار.

(٤) ديوان الرصافي، ص٢٠٨.

(٥) دراسات في الشعر العربي المعاصر للدكتور شوقي ضيف، طبع دار المعارف بمصر، ص١٧٤، ١٧٥.

(٦) السابق ص ١٧٥

فهذان لونان من الشعر يصوران لونين من الحياة... وهناك ألوان وألوان.. هناك الشابّي في أغانيه الجميلة، وهناك أبو ريشة، وجبران، وإيليا أبو ماضي... وكثيرون غيرهم من شعرائنا في المشرق أو في المهجر... يصورون لنا ألوانًا من الحياة وصورًا من الواقع، ويَسْبَحُون بنا في آفاق علوية، ثم يعودون بنا من جديد؛ ليؤكدوا لنا أن الشعر ما زال ـ كما كان ـ متصلًا بالحياة، مصدرا للواقع، وإنه لم يتخلف عن ذلك، إلا في فترات قصيرة أشرنا إليها فيما سبق من أحاديث.

أرجو بعد أن انتهيت من هذه الدراسات التي تناولتُ فيها موضوع صلة الشعر بالحياة في الماضي والحاضر... أرجو أن أكون قد استطعت أن ألقي ضوءًا على الطريق بين يدي المعنيين بدراسة القضايا الأدبية في تاريخ الشعر العربي.

صلة الشعر بالحياة

- **إيضاح ونقد**

قدم الغزالي تعريفًا ببرنامجه الإذاعي (صلة الشعر بالحياة)، والذي حدد فيه معالم هذا البرنامج، الذي عرضه في ستة عشر حديثًا، متواصلة ومتعاقبة، ورأى أن الإنسان « لا يستطيع أن يعيش منفصلًا بعيدًا عن تياره، مستقلًا عن أحداثه... وهو لا يستطيع ذلك؛ لأن نظام الحياة منذ وجدت الحياة قائم على هذا الترابط المتين بين أفراد المجتمع... ولولاه لما امتدت الحياة عبر الأجيال، وكان موضع هذا التعريف بالبرنامج المذكور مقترنًا بالحديث السادس العشر، وهو الأخير فيما أعدّه الغزالي عن هذا الموضوع، ورأينا من الأصوب أن نضعه في مقدمة هذه الأحاديث لرسم بعض خريطة المنهج الذي سار عليه صاحبنا في بيان صلة الشعر بالحياة، وأن النّص الذي قُدم للإذاعة يختلف في استقباله مكتوبًا في أوراق متتالية من حديث لآخر، وقد سار حسب متطلبات المنهج التاريخي والتحليلي في تعقب مسيرة الشعر منذ العصر الجاهلي، وحياة العرب فيه، تلك التي تختلف عما تعيشه البلدان القديمة الأخرى مثل اليونان، التي تمتد الغابات الكثيفة في سهولها، وعلى سفوح جبالها، وحيث يضطر الذي يعيش فيها أن تكون حياته وسط الغابة، وفي متاهة الوديان والأحراش.

وقد جاء سبيل الغزالي إلى هذه الأحاديث اعتمادًا على الشعر العربي في كل عصوره، مما يرفع من قيمة هذا الموضوع لجديته وشموله، وربطه بالبيئة العربية قديمًا وحديثًا، وكان - رحمه الله - ينتقل في اختياراته للشعر من عصر إلى آخر، ويمهد في نهاية كل حديث لما سيأتي بعده، مثل قوله في نهاية الحديث الثاني

: «هكذا كان الشعر وثيق الصلة بحياة العربي الضارب في الصحراء، والملتحم في سعير القتال، وغبارِ المعارك، وسنرى في الحديث القادم... هل وقف الشعر عند هذا الجانب من حياة العربي في الصحراء، أم اجتازه إلى جوانب أخرى من حياته؟».

ولقد عانينا كثيرًا في تحقيق الشعر المختار لهذه الحلقات، إذ أن الشعراء الذين اختار لهم كانوا من عصور متفرقة حسب المنهج الذي سار عليه، وكان بعضُهم من المغمورين، الذين ليست لهم دواوين شعرية مطبوعة، تيسر لنا تحقيق الشعر وضبطه من حيث الدلالات الإعرابية والوزنية صرفًا وعروضًا، وحسب متطلبات المعاني البلاغية والنقدية والمذاهب الفنية، التي يميل إليها شاعر أو آخر، مثل موضوعات الغزل والفخر وصراع القبائل والبلدان..

وقد اعتمد الغزالي في اختياراته على الكتب المشهورة وغير المشهورة، هذا التي ربما لم يتم تحقيقها تحقيقًا علميًا تنسب فيها الأشعار إلى قائليها، ومع ذلك أيضًا لم يحدد مصادره ومراجعه التى اعتمد عليها، مما أوقعنا في مشقة عانينا مِنْها كثيرًا، ولو التزم ببيان موارد اختياراته لكان ذلك أسلمَ منهجًا، وأدعى إلى المتابعة ممن يرغب في مواصلة التتبع لجزئيات الموضوع، وكان شديد الحرص على توثيق الصلة بين الشعر والحياة، والتي تشمل كل ما يعرض للعربي في الصحراء دون أن يمحص القصائد والمقطوعات التي اختارها، أو أن يسلط عليها أضواء النقد الأدبي، وبقي مع الشعر الجاهلي إلى نهاية الحديث الرابع، ثم انتقل مع الخامس إلى تصوير البيئة تحت ظلال الإسلام، مكثرًا من النماذج لبعض الشعراء المشهورين مثل حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة في هذا الجزء بخاصة، وانتقل مع الشعر إلى البلدان الإسلامية الجديدة المفتوحة كالعراق والشام ومصر.

وقد عرض في بيته العراق للنقائض، تلك التي اشتعلت بألسنة جرير والفرزدق والأخطل، كما نقل كثيرًا من معالم الحياة المتجددة في البصرة والكوفة، وبعض الأحداث التي كانت تجري بين الأحزاب السياسية، محددًا معالج الصراع العقدي بين الفرق الدينية في مدن العراق والشام.

ولم يغفل صاحبنا عن مخالطة الشعر للحياة الضاحكة المرحة في إقليم الحجاز، وعرض لنماذج متعددة لبعض الشعراء من هذه البيئة مثل عمر بن أبي ربيعة والأحوص الأنصاري، والعرجي، وابن قيس الرقيات الذي انتقل من مكة والمدينة إلى العراق ؛ لنصرة آل الزبير.

ووصل الغزالي في أحاديثة إلى شعراء البادية، خاصة من اتجه منهم إلى الشعر العذري، الذين أضافوا مع غيرهم الكثير إلى تراث اللغة العربية، الخالدة، ولم ينحرف صاحبنا عما سعى إليه في ربط الشعر بالحياة، ولم يشغل نفسه كثيرًا ببحث القضايا الأدبية والنقدية والبلاغية، فليس ذلك موضعًا لعنايته، وأن بواعثه الموضوعية لا تبتعد عن توثيق الصلة بين الشعر والحياة. ثم انتقل إلى شعراء العصر العباسي، وما اشتملهم من حضارة عربية أصيلة تأثرت كثيرًا بحضارات الأمم الأخرى، وسار مع الزمن إلى أن وصل إلى العصر الحديث حريصًا على إبراز المظاهر التجديدية التي سار البارودي تحت لوائها، وتبعه أحمد شوقي وحافظ إبراهيم.

وأعطى الغزالي لحركة التجديد في الشعر قدرًا من العناية والاهتمام، ولم يقتصر في نماذجه على شعراء مصر، وإنما اختار عددًا من النماذج للشعراء العرب في تونس والشام والعراق.

وكانت عنايته بهذه الأحاديث الإذاعية واضحة جلية مما أهَّلها لتكون مسموعة في مصر وبعض البلدان العربية، ثم لتكون بحوثًا متواصلة يرجع إليها ويحرص عليها القراء والمثقفون جيلًا بعد جيل.

ثالثـًا

شخصيات معاصرة في الأدب والنقـد والحيـاة

تمهيـــد.

(١) طـه حســين.

(٢) العقـــاد.

(٣) (أ) الجانب الاجتماعي في الشعر الحديث

[شوقـي - حافظ - مطران]

(٤) (ب) الجانب الاجتماعي في الشعر الحديث

[شوقـي - حافظ - مطران]

(٥) بيرم التونسي.

(٦) أحمد رامي.

(٧) محمود غنيم.

(٨) فتوح نشاطي.

(٩) عبدالعزيز السعدني.

(١٠) نار وأصفاد. لمحمود حسن إسماعيل.

(١١) ذكرى دسوقي أباظة، كتاب نشره الغزالي.

(١٢) على رُبَا مَيْسِلوُن (يوسف العظمة).

شخصيات معاصرة في الأدب والنقد والحياة

- **تمهيد :**

جاء حديث الغزالي في هذا القسم من الكتاب عن عَدَدٍ من الروَّاد، وقد اعتمدنا على مجموعة من الاعتبارات في الترتيب بينها، وجعلنا الدكتور طه حسين في البداية ؛ لما أثير حول علاقة الغزالي به عند نَشْر ديوان «أبي نواس» بتحقيق الغزالي، وما ترتب على ذلك من ملابسات ومساجلات، ثم جاء الحديث عن العقاد والشعر المعاصر، ذلك العَلَم الكبير، الذي شُغل الغزالي به، وأقبل على أدبه ونقده، وأعدّ من خلال شخصيته بعض البرامج الإذاعية التي سيأتي الحديث عنها في القسم الخاص بالنشاط الإعلامي، وأعْقَبتُ ذلك بدراستين عن الجانب الاجتماعي في الشعر الحديث، من خلال الشعراء: شوقي، وحافظ، ومطران، واللتين نشرتا في نوفمبر وديسمبر ١٩٤١م بمجلة الشئون الاجتماعية، وهذا التاريخ الخاص بالنشر يؤكد نبوغَ الغزالي وقدرتَه على النقد، ورغبته في التعبير عما يختلج بفكره قبل أن يتخرج في دار العلوم، ثم سطر بقلمه رؤيته عن الزجل من خلال كتابته عن «بيرم التونسي»، بعد عشرين عامًا من كتابته عن شوقي، وحافظ، ومطران، ثم أعقبَ ذلك عدة دراسات عن مجموعة من الشعراء هم : أحمد رامي ومحمود غنيم وفَتّوح نشاطي، الذي كان على علاقة حميمة بالغزالي، فضلًا عن تميزه بعدة أمور هي الأدب، والثقافة، والتمثيل، والإخراج المسرحي، تلك الإضافات المتعددة التي نهل هذا الرجل منها، وأخرجها عسلًا مُصَفّى للقراء.

ونأتي إلى المقال الذي كتبه الغزالي عن الشاعر عبدالعزيز السعدني، وأقُررُ مؤكدًا للقارئ أنني كنت مترددًا بين إثبات هذا المقال أو حَجْبِه، ذلك أن شكله

وموضوعه أوقعاني في هذه الحَيرة، وقد كتب الغزالي ما كتبه عن السعدني، وهو ممتلئ بالخوف على صحته، فالصياغة بها كثير من الاضطراب، والحذف ببعض الجمل، وإثبات غيرها، والشطب أحيانًا لما غيرّه، ذلك أن أخطاء هذه الصياغة الشكلية، التي شاهدتها بعيني تُقَوّى حتمية إغفال هذا المقال، كما أورد الغزالي بيتين من الشعر للسعدني لا يصلحان للإثبات عقائديًا، وفيهما جرأة لا تُحْتمل، غير أن الحديث عن هذا الشاعر كان ضروريًا، فهو من بيئة الغزالي، إذ أن قرية غزالة قريبة بدرجة كبيرة من حي الحُسَينية بالزقازيق، الذي عاش فيه السعدني، كما أن هذا الحي كانت تعيش وتحيا فيه الشقيقة الوحيدة للغزالي، فضلًا عن عناية صاحبنا بالشعراء المغمورين من ذوى الموهبة والتميز، الذين يحتاجون إلى من يتحدث عنهم. وقد كان السعدني يعيش في قاع المجتمع (الشعبي) الذي كانت الثورة المصرية شديدة العناية به، خاصة في الثقافة وسائر أنشطتها، ولكل هذه الأمور، وللحفاظ على تراث الغزالي، وحق السعدني معًا كان التوجه منا لإثبات هذا المقال.

أما البيتان اللذان وردا بهذا الموضوع فلا يصلحان للنشر، وقد أغفلناهما، ونبهنا لذلك في موضعهما في هذا القسم من الكتاب.

وجاءت نهاية الحديث عن الأدباء والنقاد بالتعريف لديوان «نار وأصفاد» للشاعر محمود حسن إسماعيل، وحديث الغزالي عن كتاب « ذكرى دسوقي أباظة « الذي يشير إلى وفاء المحبين من سائر التوجهات لهذا الأباظي المتميز، ذلك العلم الكبير في عصره، الذي مارس السياسة بالوسائل الشريفة وصولًا للغايات العظيمة.

وكان ختام الحديث عن هذه الشخصيات بالكلام عن البطل السوري «يوسف العظمة» الذي استشهد على أرض ميسلون عام ١٩٢٠م.

وجاء حديث الغزالي مع هذه الشخصيات من حيث ارتباطها بالأدب والنقد والحياة، وهى دراسات متنوعة ذات أنماط وأساليب متعددة، فهى ليست تراجم أدبية، وإنما هي أمر مختلف، فلم يتناول بالعرض حياة الشخصية التي كتب عنها، فلم يكتب - على سبيل المثال - شيئًا عن ولادة طه حسين في محافظة المنيا،

أو تعليمه في الأزهـر الشريف، أو دراسته في فرنسا، أو غير ذلك مما يتصل بحياته الخاصة، وإنما عرض لما ذُكر عن تحقيق الغزالي لديوان أبي نواس، كما عرض لمعركة الشعراء مع طه حسين، والأمر في مجمله يأتي حرصًا منا على جمع الأشتات المتفرقات التي كتبها الغزالي في مناسبات متعددة، لبعض الجوانب من الشخصية المتحدث عنها، ثم كان الكلام عن العقاد مختلفًا؛ لأن إعجاب الغزالي به كان كبيرًا وعظيمًا، فعرض في هذا الأمر لرأي العقاد في المذاهب الجديدة، وقيمة آثار العقاد، وكتاباته في شتى فنون الأدب والمعرفة.

وجلّى الغزالي بعض مظاهر رؤيته للأدب المعاصر من خلال ما كتبه عن شوقي وحافظ ومطران، والجوانب الاجتماعية في الشعر الحديث، ولم يضع الغزالي ترتيبًا لهذه الشخصيات، كما هو حاصلٌ في هذا الكتاب، وإنما جاء على هذا النسق وفقًا لاجتهاد مني رأيت فيه أن يسير البحث على هذا الترتيب، إذ أخضعته لقليل من المنهج التاريخي، وبعض الكتب ومقدمات الدواوين الشعرية، الخاصة ببعض الشعراء في الترتيب الأخير.

ولا شك في أن هذا القسم من الكتاب يدعم الرؤية الناقدة والبصيرة المتنامية لجهود الغزالي في الأدب والنقد، وشمولية هذه الرؤية، وتعدد مناحي البوح فيها، ونكرر أننا قد أخضعنا منهج هذه الدراسة لرؤيتنا الخاصة في تقديم شخصية أو قضية على أخرى، وأن التناول لبعض الشخصيات كان من خلال القضايا أو الفنون أو الهموم التي خضع الغزالي لها، أو اقترب منها في عمره الأدبي القصير.

(١) طه حسين

نشر الغزالي ديوان «أبي نواس» في بداية الخمسينيات[1]، ثم كتب الدكتور طه حسين - فيما بعد - مقالًا بالأهرام انتقد فيه ما قام به الغزالي في تحقيق الديوان وإخراجه، وأوصى بضرورة طبعه، مستوفيًا شروط الأمانة العلمية، ثم ذكرت مجلة بنت الشرق[2] غَضبَ الغزالي من ذلك النقد، متحديًا أي محقق أن يصدر هذا الديوان كاملًا، وذلك لسبب بسيط هو حصوله على النسخة الوحيدة لمخطوطة الشعر الماجن لأبي نواس، التي وجدها في مدينة «فاس» بالمغرب، وبالتالي فإن الشعر الذي يضمه الديوان ليس كل ما قاله أبو نواس.

وكانت الأهرام[3] قد نشرت في باب «من غير عنوان» للأستاذ كمال الملاخ مفاجأة في شعر أبي نواس بعد سبعة عشر عامًا، قضاها الغزالي مع النواسي شاعر المجون، ذلك أن الغزالي بعد أن أخرج الديوان عُثر على مخطوط نادر وجده في مدينة «فاس» بالمغرب تُجمع فيه سائر خمريات أبي نواس ومجونه، فضلًا عن المخطوطات النادرة، التي حصل عليها من لندن وتركيا والهند وشمال أفريقيا، وتجلى فيما كتبته جريدة الأهرام غضب الغزالي من نقد «طه حسين» عن تحقيق ديوان «أبي نواس».

---

(١) بعد أن أتم تحقيقه وإعداده للطبع في التاسع عشر من جمادى الثانية ١٣٧٢هـ الموافق للخامس من مارس ١٩٥٣م، وتراجع مقدمة الغزالي لهذا الديوان.

(٢) عدد يناير ١٩٦١م في موضوع بعنوان شخصيات من المجتمع..

(٣) أول أغسطس ١٩٥٩م.

وقال الغزالي: « أتمنى أن أبعث للدكتور طه حسين بنسخة من ديوان شعر أبي نواس الذي تقدمه المطبعة قريبًا، ليتسلى به الدكتور في رحلته هذه الأيام».

ولم يتوقف غضب الغزالي عند هذه السخرية، وإنما انتقلت المساجلات إلى ميدان آخر، وهى عن رأي الدكتور طه حسين في الشعراء حيث قال : «إن الشعراء معزولون عن الحياة، ولا يتطورون مع الزمن «، وغضب الغزالي لذلك معبرًا عن سَخَطِه في تحقيقٍ، نشرته مجلة آخر ساعة[1].

وقد دفعت هذه الملابسات والمساجلات الغزالي إلى أن يخُطَّ بقلمه الدراسة التالية:-

(براكين تتفجر في جو المعركة بين الشعراء وطه حسين)

لو غيرَك قالها.!. يا دكتور

من حق شيوخ الأدب، وقادة الرأي فيه، أن يخوضوا فيما يَطِيبُ لهم من أحاديث، تَقْرُب أو تبعد من قضايا الأدب وألوانه ومذاهبه الفنية، أما أن يفرُط هؤلاء الشيوخ الموقرون على الناس، أو أن يُسفّهوا، فهذا ما نربأ بهم أن ينحدروا إليه، أو يتردوا فيه.

ولقد رضي الدكتور طه حسين لنفسه أخيرًا أن يجرى على لسانه منطقٌ غير كريم، في إجابات ثلاث، رد بها على أسئلة المحرر الأدبي، الذي شهد اجتماع الشعراء في نقابة الصحفيين، حين صحت نيَّتُهم على تكوين جمعية لهم، أسوة بجمعية الأدباء، التي يرأسها الدكتور، ولو أن غيره قال هذه الإجابات، لما عَنِينا بالرد عليه.

ويُخيّل لي أن ما قلتُه في هذا الاجتماع عن إصرار الدكتور على محاربة الشعراء، وصل إلى سمعه محرفًا عن مواضعه، ولو أنهُ نقِلَ إليه كما صدر عني لتردد الدكتور كثيرًا، وأملى كلامًا آخر غير الذي نَشَرتْهُ آخر ساعة، فأنا لم أزد عن أن عرضت

---

(١) تراجع مجلة آخر ساعة في الثامن عشر من ديسمبر ١٩٥٧م.

للغرض والهوى، اللذين يسيطران أحيانًا على عقل الدكتور وقلمه، حين يتهيأ للكتابة، وقد مثلت لذلك بما كتبه عني في مقاله الطويل الممتع، الذي خصني به، ونشرته صحيفة الأهرام عندما أخرجتُ تحقيق ديوان أبي نواس منذ أربعة أعوام، وقد داعبتُ فيما قلتهُ بالنقابة غزارة علم الدكتور، ونوهت بسعة إحاطته بتاريخ الشعر العربي، حين زعم في مقاله أن هناك شاعرًا عاصر أبا نواس، وطالبني، وطالب غيري بأن نُعْنَى بهذا الشاعر عنايتنا بمعاصرة أبي نواس.. مع أن مائة عام أو تزيد تفصل بين الشاعرين في الزمن... ثم عرضت لعَثْرَتين أخريين في نفس المقال، وقلت إن إلحاح الدكتور في تَحَيُّفٍ قيم الشعر الحديث، وتسلطه على أقدار الشعراء المعاصرين حتى أولئك الذين يحاولون منهم محاولات قليلة في ميادين التحقيق العلمي، بينما نقرأ الدكتور من حين لآخر مشيدًا ومُسْرِفًا على نفسه في هذه الإشادة، بما يصطنعه لبعض حواريه ومريديه من مواهب وعبقريات.

كل هذا الأذى والشر اللذين تفيض بهما نفس الدكتور، نبهتُ المجتمعين إليهما، وأهَبْتُ بهم ؛ ليتعاونوا على مواجهة هذا الشر الذي يتربص بهم الدوائر، فهل هذا الذي قلته يجعل الدكتور طه يرمى الشعراء بالعَوَزِ والارتزاق، والتطلع إلى أموال الدولة؟.

وكم كنت أحبُّ للسيد العميد الذي نَشَأ فقيرًا، وعانى شَظَفَ العيش، وخشونةَ الأيام، والذي أحسنت الدولة إلينا وإليه حين رعته، فبعثته إلى أوربا؛ لينصقل ذوقُه، ويزيد أدبه... كنت أحب له أن يتكلم بالتي هي أحسن، فيؤثر عفة اللفظ، وسماحة العبارة، وشرف القصد، وهو الرجل الذي علّ ونَهَل من أدب القرآن، والذي تحلى وتجمل بأدب السوريين، والذي يفرُغ في هذه الأيام للكلام عن الذوق الأدبي.

لقد كان خليقًا بالدكتور ألا يغمز الشعراء - وفيهم أصدقاء له - وألا يحذر الدولة من طمعهم، وما كان أحراه ألا يضطرنا إلى إيقاظ حقائق تَغُطُّ في نومها العميق بين سجلات وزارة الأوقاف، تلك السجلات التي لم تحوِ اسم شاعر واحد، سمحت له كرامته أن يُعان على مواجهة أحداث الأيام، وفجاءات الزمن بجنيه واحد.. بينما أستطيع أن أؤكد أن هناك أديبًا كبيرًا، وكبيرًا جدًا، يعرفه الدكتور معرفة وثيقة عميقة، تحتفظ له سجلات الأوقاف بموضوع يتصل به وبأسرته

وخلاصته، أنه تلقى هو وأشقاؤه من وزارة الأوقاف يوما ما، معونة مالية سخية في مناسبة من هذه المناسبات الأليمة، التي رُصدت من أجلها بعض أموال الدولة للبرّ والمعونة.

أما الشعراء يا سيدي فهم بخير دائمًا، وهم في هذه الأيام يعيشون كما تعيش، لأن الدولة بما تدفعه لهم لقاءَ جهدهم وإنتاجهم تضمن لهم ولأسرهم حياة لائقة كريمة، وأن نفرًا غير قليل من هؤلاء الشعراء يقتني السيارات كما تُقتنى، ويسكن الفيلات كما تُسكن، ويصطاف في أوروبا كما تُصطاف.. وأنه ليحضرني في هذا المقام بَيْت لصاحبك أبي العلاء، فيه عزاء وسلوى للشعراء عما ترتكبه معهم من أخطاء. يقول أبو العلاء:

وأعجبُ منّي كيف أخطأُ دائمًا   على أنني من أعرِف الناس بالناسِ[1]

ثم ماذا؟ ثم لم يشأ الدكتور أن يُنهي تعليقاته على حديث المحرر الأدبي معه، قبل أن يُحدِثَ في الموضوع أمرًا عجيبًا، فأقحم اسم رئيس الجمهورية إقحامًا بقوله «واللي أعرفه أن الريس فقير وعمُره ما يعطى من أموال الدولة».

والدكتور يستهدف بهذه العبارة النائية عن صميم الموضوع.. أن يَحُولَ بين الشعراء - وهم ألسنة الثورة - وبين قائد الثورة ورائدها، ولعل الأحداث الكبرى التي اجتازتها مصر أخيرًا، والتي أرَّث نارها[2]، وأذكى أوارَها الشعراء، جعلت الدكتور قلقًا أشد القلق، مشفقًا أعظم الإشفاق على حواريه من الأدباء، وأشباههم، فهو يريد أن يحتكر هذه الأيام أيضًا لحسابه وحسابهم.. ولكن هيهات.

ثم ما الذي يَعْنيه الدكتور من قوله عن الشعراء في ثنايا تعليقاته « لعلهم يريدون العودة إلى أيام زمان.. ويمجدون الريس.

وأؤكد للدكتور أن الشعراء سيشيدون بالرئيس، آناء الليل وأطراف النهار ؛ لأنه هو الذي أخرج مصر من الظلمات إلى النور.. أيام أن كان السيد العميد، ربيب

(١) اللزوميات، لأبي العلاء المعري، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ج٢، ص٣٥.
(٢) أرث النار: أوقدها.

المَلَكَيْن السابقين، يُسَبِّحُ بحمدهما ويذيع في المشرقين مجدهما.. ولم تزل تسرى في أخلاد الناس أصداءُ ذلك الخطاب الرصين المبين الذي تدفقت به عبقرية الدكتور بين يدي فاروق، عند افتتاح جامعة الإسكندرية. والذي اقتبس بعض فقراته المحامي الكبير أحمد رشدي أثناء مرافعاته أمام محكمة الثورة؛ ليدلل على إخلاص الأديب الجليل لصاحب العرش الذي غوى، ثم هوى على يد الرئيس البطل، الذي سيمجده الشعراء، والذي قال ذات يوم لأعدائه وأعداء مصر.. « قل موتوا بغيظكم».

ونحن بعد هذا كله لا نحسد الدكتور على العطف المزمن، الذي يتمتع به من كل عهد، وكل حاكم، بوسائل قد ينأى عنها الشعراء بجانبهم.

أما أن في مصر شعراء يظفرُون بإعجاب الدكتور أو يظفر هو بإعجابهم، فنحن في انتظار مكنونات المستقبل، التي قد يفصح عنها الحواريون والدراويش، الذين قد يغامرون بأنفسهم ويأخذون على عاتقهم تصفية الحساب بين الشعراء من جهة، وبينهم وبين عميدهم من جهة أخرى.

غير أنني أحب أن أذكِّرَهم وأذكرَّ الدكتور بأن في مصر شعراء سيساجلونه القول ويساجلهم.. أولئك الشعراء الذين نَوَّه بهم سيادتُه حين وقف يتكلم في حفل تكريم الشاعر المهجري «جورج صَيْدح» بنادي الشبيبة اللبنانية بالقاهرة. وقد جاء على لسانه بالحرف الواحد. أن في مصر شعراء ممتازين وأنني لن أتصور مجتمعًا ناهضًا يخلو من أنغام الشعر وأحلام الشعراء.. إلى آخر ما جاء في خطبة الدكتور. وقد نهض الأستاذ الشاعر الكبير عزيز أباظة قائلًا بصوت مسموع، وموجهًا كلامه إلى الحاضرين من الشعراء: « سَجِّلوُا هذا الآن على الدكتور، فنحن سعداء برضائه عن الشعر في مصر».

يذكر الدكتور ذلك الذي قاله أمس، أم أنه يريد أن يَنْسَى، كما نَسِي أن يذكر أستاذنا العقاد (في الشعراء اللي فاضلين).. وهو الذي نصبه يومًا ما أميرًا على الشعر والشعراء.

مرة أخرى، أذكّرُ السيد العميد ببيتِ صاحبه أبي العلاء:

وأعجبُ منّي كيف أخطأُ دائمًا ... على أنني من أعرفِ الناسِ بالناس

(٢) العقـــاد..[1]

والشعـــر المعاصـــر

حين يستشرف الإنسان معابر الزمن، التي اجتازتها نهضة الشعر الحديث، بين مغرب القرن، ومشرق هذا القرن[2].. يلمح أثرًا على الطريق لرائدين عظيمين، دفعا موكب هذه النهضة دفعات قوية جريئة جديدة.

كان الرائد الأول أشبه بالظاهرة الطبيعية، التي تقع فجأة، فتهتز من تحتها الأرض، وتضطرب من حولها الأجواء، وتَغْمُرُ ظلالُها وأضواؤها كل الفراغ الهائل بين يديها.

.. هكذا كان محمود سامى البارودي، الذي أحدث أخطر انقلاب في تاريخ الشعر المعاصر، وهزَّ الكيان الهامد للشعر العربي، منذ زالت الدولة العباسية.. وكانت هذه الدرجة العنيفة هي الحياة التي تدفقت في أوصال الشعر المصري الجامد، الذي لا يستطيع أن يتطور أو يتحرك أو يثب.

ومن الممكن أن نجعل من الثورة العرابية، التي كان البارودي بطلًا من أبطالها بداية لأول الطريق، الذي انبعثت منه طلائع نهضة الشعر المصري، على يد هذا الرائد العظيم، الذي قفز بالشعر من طَوْر التقليد والجمود، إلى طور الطَّبْعِ والتجديد في قدرة فائقة، ونبوغ نادر.

---

(١) ورد إلينا هذا الموضوع ضمن أوراق الغزالي، المكتوبة بالآلة الكاتبة.

(٢) القرن الماضي هو التاسع عشر، وهذا القرن أي العشرون وقت كتابة الغزالي لهذه الدراسة.

ذلكم كان الرائد الأول.. أما الرائد الثاني - مدّ الله في عمره - فهو... عباس محمود العقاد.. الذي أرسى قواعد هذه النهضة الشعرية في مصر على أسس متينة مكينة، من نتاج الموهبة الأصيلة، والعبقرية المبدعة.. والنفس السوية، ذات الخوالج الإنسانية العالية، التي تستوعب جمال هذا الكون وأسراره، وجلال تلك الطبيعة وكنوزها.

ولقد كان «العقاد» أحد الثلاثة الذين أرادوا للشعر المصري التحرر والانطلاق ومحاولة الخلق والابتكار، بوسائلهم القادرة، من أصالة الوجدان، وخصوبة الحس، ودقة الخيال، وعظمة النفس.. ثم من روعة ما نَمَّوا به مواهبهم من قديمهم الموروث، والجديد البارع من الأدب الأجنبي الرفيع.

ولقد صور هؤلاء الثلاثة العمالقة.. المازني، وشكري، والعقاد.. حياتَهم ونوازعَ نفوسهم، وحياة المجتمع الذي عاشوا فيه وخصائصه، أدق تصوير وأعمقه.

والعجيب أن أولئك الذين يتصايحون في هذه الأيام، بما يسمونه بالمذاهب الجديدة، إنما يَصْدُرون في كل دعاواهم، عما نادى به هؤلاء منذ سنين طويلة، لعلها تسبق وجودهم، كأحياء في هذه الدنيا.

وقبل أن تستأثر رحمة الله بالمازني، كان قد نفض يديه من الشعر ومن الشعراء، ثم حذا حذوَه عبدالرحمن شكري.. أما الذي وقف كالطود[1]، وسيظل واقفا، فهو العقاد الذي ابتدع ألوانًا من الشعر الجديد، وصدر عن مدرسته نفرٌ كبير من الشعراء الجدد، كما خَلَقَ من المذاهب الفنية، وجَلَّى من الألوان الجديدة في مضمار النهضة الشعرية الحديثة، ما لا يستطاع حصرَه أو تعدادَه.

ويوم أن يُؤَرَّخ لنهضة الشعر المعاصر، فسيكون العقاد وأثره الخالد في توجيه هذه النهضة، وإنمائها بما بَثّه فيها من عناصر القوة، والقدرة، والتفوق.. سيكون العقاد وأثرُه هذا.. أظهرَ معالم هذه النهضة وأعظمها خطرًا.

---

(١) الطود : الجبل.

وحسبنا في التدليل على هذا أن نتخيَّلَ مثلًا.. أن العقاد كان من نصيب أمة غير هذه الأمة العربية، وكان نصيبنا مقصورًا على هذا الزَّبَدِ الذي يذهب جُفاء، من بين كتب أدبائنا النابهين.. أكانوا يغنونا عن العقاد وآثارِه ؟!! التي سيعيش عليها هذا الجيل والأجيال الآتية؟. أعتقد أنه لا يختلف اثنان في هذه الإجابة.. فالعقاد يُغْنِي عن كثيرين، ولكن غيره لن يغني عنه فتيلًا.

والواقع الذي لا يتخلج على ريب، أننا حين نستعرض آثار العقاد، وآثارَ غيرِه من الأعلام.. ثم نزن قيم هذه الآثار وحقائقها.. فلن نستطيع أن نمارَى في الفروق الدقيقة، التي ترتفع بآثار العقاد عن آثار غيره في مختلف المجالات.. في الكِتَاب، والمقالة، والقصة، والفن، والفلسفة، والتاريخ، والعلم، والأدب.. ثم الشعر.

وهنا أريد أنْ أوضِّحَ أمرًا يُشغل أذهان كثير من الشعراء والأدباء.. وهو موقف جمعية الشعراء من شيخ الشعراء «العقاد».

الحقيقة الصحيحة التي لمسها كل من اتصل بالهيئة التمهيدية، التي دعت إلى عقد الجمعية العمومية للشعراء، هي أنه كان شغلُنا الشاغلُ أن نُقنع الأستاذ الكبير العقاد، قبل الأخذ بأسباب دعوة الجمعية العمومية وانعقادها - على الرغم من ظروفه الصحية، ومن عزوفه عن شهود الاجتماعات وغَشَيانها.. كان شغلُنا الشاغل أن يجد أستاذنا العقاد من وقته فراغًا ولو يسيرًا؛ للإسهام في النهوض بجمعية الشعراء، والسيرِ بها إلى أبعد أهدافها، غير أننا لم نتمكن مما قصدنا إليه.

وفور عودة الأستاذ الشاعر الكبير عزيز أباظة من السودان، كان دائم التصريح لكل من يلقاه من الشعراء والصحفيين بأن العقاد أجدرُنا جميعًا بأشرف مكان في مجلس إدارة الجمعية.

وأستطيع أن أزعُمَ لنفسي.. الحق في أن أؤكد أن أعضاء الجمعية كافة، يَرَوْن في الأستاذ العقاد ما يراه الأستاذ عزيز أباظة، ويقدرون ما للعقاد من المكانة الرفيعة في عالم الشعر والأدب.

ولعلهم لم يختلفوا مع الدكتور طه حسين يوم أن نَصَّب العقادَ أميرًا على الشعر والشعراء... وإن كانوا يختلفون معه الآن، فيما ذهب إليه من آراء ضَحِلة في شعر مصر وشعرائها...

(٣) الجانب الاجتماعي(١)

في الشعر الحديث

شوقي - حافظ - مطران

انتهينا في مقالنا السابق إلى هذه الأسئلة « هل كان لشعر شوقي أثر في توجيه حياتنا الاجتماعية إلى هدفها المرجوّ المنشود؟ وإلى أي مدى احتفى شوقي بالناحية الاجتماعية؟ وهل زاحم حافظًا في هذه الناحية أمْ زاحمه حافظ؟ وكيف كان لون تلك الظروف التي أحاطت بالشاعرين؟ ومن منهما كان حُرًّا طليقًا فأمسك عن الشدو والتغريد؟ ثم أخيرًا ما موقف شاعرنا مطران من صاحبيه؟ هل جال معهما في هذا الميدان جَوْلات موفقة ؟ ثم ما قيمة الأثر الذي تركه هذا الثالوث في مجتمعنا المصري؟ وهل قَنَعَ المجتمع بهذا الأثر الذي تطالعنا به دواوينهم ؟ أم طالبهم بأكثر من هذا فلم يستجيبوا؟

وسأحاول الإجابة في هذه السطور بادئًا بشوقي الشاعر الذي شَغَل اسمُه فترةً طويلة من الزمن، فمن حقه أن يتقدم صاحبيه، وسيدور كلامنا على الشعراء الثلاثة، في حدود الفكرة الاجتماعية، التي تَوَافَرنا عليها في دراسة أشعارهم وبيئاتهم.

(١) نشرت هذه المقالة بمجلة الشئون الاجتماعية في نوفمبر ١٩٤١م، شوال ١٣٦٠هـ العدد (١١) السنة الثانية من ص١٠٢ إلى ص١٠٦، وهذه هي الحلقة الثانية مما كتبه الغزالي في هذه المجلة تحت عنوان «في أدب الاجتماع»، ولم نصل بالبحث والتحري إلى ما يمكن أن يكون الحلقة الأولى.

ما من كاتب في مصر إلا وكتب عن شوقي، مجاملًا، أو متجنيًا، ولن تستطيعَ العثور على كلمة بريئة عن الهوى والغرض، ولو ألقى المهاجمون «بعض أسلحتهم» وواجهوا شاعرنا شوقي بحقيقة شاعريته مجردة، لكان لكلامُهم أثرٌ كبير، فيما يهدفون إليه.

لا نريد أن نسترسل في هذه الناحية، فالكلام فيها يطول ويطول، وليست من موضوعنا، والذي لا مِرَاء فيه، هو أن شوقي وصل إلى نباهة شأن، وذيوع صيت، قَلّ أن يصل إليهما شاعر، وذلك بعد أن أعد لهما جاهدًا كافة «الوسائل» التي ضَمِنَت له الوقوف في الطليعة. وقد تهيأت لشوقي ظروف خاصة، لم تتح لسواه، مَكّنته من النجاح في مضمار الشهرة والظهور، وقد أسهم شعر شوقي الذي خَصّ به المجتمع في العمل لهذه الشهرة، وذلك الظهور، على الرغم من ندرة هذا الشعر وقلته، بجانب ما قاله شوقي في فنون أخرى، فقد عاش الشاعر صَدْرًا من حياته غيرَ حافل بما يضطربُ حوله من أحداث اجتماعية وما يقوم من مشكلا مختلفة، تتناول المجتمع المصرى تناولًا غير كريم... ظل شوقي على هذه الحال رَدْحًا طويلًا من الزمن كان فيه وثيق الصلة بالقصر، مشغولًا بأقيال مصر وسادتها، يتغنى بمآثرهم، ويشيد بآثارهم، ولم ينس سلاطين بني عثمان وأبطال الحرية والدستور العثماني.

كل ذلك لفت شوقي لفتًا لا هوادة فيه، ولا رفق، عن حاجات المجتمع، ومشاكل البيئة، فإذا استطاعَ أن يشيرَ، وهو في هذا المقام إلى إصلاح المجتمع، والعملِ على رفع مستواه، ألمع إلى ذلك في قصائده وأمداحه، وحاول أن يصل عن هذا الطريق إلى تحقيق آمال المجتمع وأمانيه:

ولا جَـالَ إلا الخيـرُ بـينَ سـرَائـري   لَـدَي سُـدّةِ خـيـريـةِ الـرغـبـات[1]

ويمدح الخديو عباسًا فيقول :

لا يُـظْـهِـرُ الـكُـبَـراءُ آيـةَ عـزّهـمْ   حـتَّـى يُـعِـزُّوا آيـةَ الأفـكـار[2]

(١) ديوان شوقي، ج١، ص٤٤٢، طبع دار نهضة مصر.
(٢) السابق ج١، ص٤٧٠.

وفي قصيدة أخرى يقول له :

تــركُ الـنـفـوس بـلا عِـلـمٍ ولا ادبٍ   تَــرْكُ المـريـضِ بـلا طِـب ولا آس[1]

هذه الآبيات المبثوثة في شعر شوقي، لا يمكن أن تنهض بمطالب المجتمع، المثقل بأعباء الزمن، وتكاليف الأيام.

عاد شوقي من منفاه سنة ١٩١٩م، فراقب عن كَثَب، شئون المجتمع، وسجَّل في شعره أحداثه، وضمَّنه رغباته، ولكن بعد أن ملأ حافظ جنبات الوادي، بأناشيده وألحانه، وصوَّرَ آلام المجتمع وآماله، في صدق وإخلاص على طريقته وأسلوبه، وسنرى عند الكلام عن حافظ، أنه لم يدع لشوقي في هذه الناحية مجالاً، إلا واقتحمه وَبَرزَ فيه....

قلنا آنفًا إن شوقي قَرُبَ من المجتمع كثيرًا بعد عودته من أسبانيا، ولعله أحسَّ في أعماقه إحساسًا غامضًا، واختلج في وجدانه شعور مُبْهم، نحو حق هذا الوطن عليه، فاشتاق العودة، في عنف وحرارة؛ ليتدارك ما فاته في ظل الوظيفة:

لـكنَّ مـصـرَ، وإن اغْـضَـتْ عـلـى مِقَةٍ   عـينٌ مِـنَ الخُـلْـد بـالـكافـور تَسْقِينا

عـلـى جـوانـبـهـا، رَفَّــتْ تمائمُنا   وحــولَ حـافـاتـهـا قـامَـتْ رواقينا

مـلاعِــبُ مَــرِحَــتْ فـيـهـا مـآرِبُـنـا   وأربُـــعٌ أنِـسَـتْ فـيـهـا أمـانـيـنـا[2]

استقبل شوقي وطنه بعدما بَرِحت به النوى، فلم تكد تطأ قدمُه أرضَ الوطن، حتى قابل مشكلة التموين، التي كانت شَغْل البلاد الشاغل إذ ذاك، والتي هى مشكلة اليوم، فتناولها في هذه القصيدة التي حيًّا بها مصر، وهو ينثُر الدمع، ويذيب سواد القلب:

أُنــادي الـرسـمَ لـو مـلَـك الجـوابـا   وأجْــزِيــه بـدمـعـيَ لـو أثـابـا

وقَـــلَّ لحـقـه الـعـبـراتُ تجْـري   وإن كـانـت ســوادَ الـقـلـبِ ذابـا

(١) السابق ج٢، ص٦١، آس: أي طبيب

(٢) مقة : محبة، تمائم : جمع تميمة، وهي التي تعلق للصبي (العوذة) رواقينا : جمع راقية، وهي التي ترقي الطفل من السحر، ديوان شوقي ج١ ص١٤٨.

ثم يدع التحية على تصوير بؤس الشعب وجوعه:

عـبـادُك رَبّ قـد جـاعُـوا بمصرٍ أنـيـلًا سُـقْـت فـيـهـم أم سَـرَابًـا

امَـنْ أكـلَ الـيـتـيـمَ لـه عـقـابٌ ومَـنْ أكـلَ الـفـقـيـرَ فـلا عـقـابًـا؟

أُصِـيـبَ مِـنَ الـتّـجـار بكل ضـارٍ أشـدَّ مـن الـزمـان عـلـيـه نَـابًـا

ثم يَسْتَدِي الأكف، ويستجديها، للطبقات البائسة الفقيرة وهي سواد الشعب:

وتـسـمـعُ رحـمـةً فـي كـل نـادٍ ولـسـت تُـحِـسُّ لـلـبـر انـتـدابـا

أكُـلٌّ فـي كِـتَـاب الـلـه إلاّ زكـاةَ الـمـالِ لـيـسـتْ فـيـه بـابـا

إذا مـا الـطـاعِـمُـون شَـكَـوْا وضجُّوا فـدْعـهُـمْ واسمع الـغَـرْثَـى السّغابا[1]

ثم تسمعه يحذر من إهمال هؤلاء، وتركهم لعوادي الدهر وكوارث الليالي، ويخشى أن ينقلبوا شرًا مستطيرًا على البلاد، ويعيشوا فيها ذئابًا مفترسة ضارية:

ولـم أر مـثـلَ سـوق الـخـيْـرِ كَسْبًا ولا كـتـجـارة الـسـوءِ اكـتـسـابًـا

ولا كـأولـئـك الـبـؤسـاءِ شـاءً إذا جـوَّعـتَـهـا انـتَـشَـرَتْ ذئـابًـا[2]

وهناك الطائفة العاملة وقضيتها لا ينبغي أن يتناساها الشاعر الاجتماعي؛ لأنها جليلة الخطر، عظيمة الأثر في تقدم المجتمع ونهضته:

أيـهـا الـعـمَّـالُ أفـنُـوا الـ ـعُـمْـرَ كَـدًا واكـتـسَـابًـا

واعـمُـروا الأرض فَـلَـوْلا سـعـيـكُـم أمـسـت يَـبـابـا[3]

ثم يوصيهم بالترفق في المطالبة بحقوقهم، ويحفزهم إلى الجِدّ الدءوب:

أيـهـا الـغـادونَ كـالـنحـ ـل ارتـيَـادًا وطِـلابـا

(١) الغرثي والسغاب : الجائعون.

(٢) ديوان شوقي ج٢، ص ١٥ وما بعدها.

(٣) يبابًا: خرابا.

فـي بكـور الطـيـر لـلرز ق مـجـيـئًـا وذهـابـا
اطـلـبـوا الحَـقَّ بـرفـق واجـعـلـوا الـواجـب دابـا[1]
واسـتـقـيـمُـوا يـفـتـحِ الـلـه لـكـمْ بـابـا فَـبَـابـا[2]

ويخلص من قضية العامل، إلى قضية المرأة، فيحث على تعليمها وتثقيفها، لتأخذ نصيبها من الدنيا، أسوة بنساء رسول الله ﷺ:

هـذا رسـولُ الـلـه لـم يُـنْـقِـصْ حـقـوقَ المـؤمـنـات
الـعـلـمُ كـان شـريـعـةً لـنـسـائـه المـتـفـقِّـهـات
كـانـت سُـكَـيـنـة تمـلأ الـدنـيـا وتـهـزأ بـالـرواة[3]

ولم لا تكون مصر كبغداد ودمشق، ورياض أندلس:

بـغـدادُ دارُ الـعـالمـات ومـنـزلُ المـتـأدبـات
ودمـشـقُ تحـت أُمـيَّـة أمُّ الجـوارى النابغات
وريـاضُ أنـدلُـسٍ نَمَـيـن الـهـاتـفـات الشاعرات[4]

وهو ذا يستنهض همة الشباب، ويحببهم في الدرس والتحصيل ؛ ليسيروا بالمجتمع في هدى ورشاد، يمثل لهم الجهل بشعًا، فهو الداء العضال الذي يفتك بالشعوب فتكًا ذريعًا:

إنـي نـظـرتُ إلـى الـشـعـوب فـلم أجدْ كـالجـهـلِ داءً لـلـشـعـوب مُـبـيـدا
الجـهـلُ لا يـلِـدُ الحـيـاةَ مـواتُـهُ إلا كـمـا تـلِـدُ الـرِّمَـامُ الـدودا[5]

---

(١) دابا : دأبا وعادة.
(٢) ديوان شوقي ج٢، ص١٦.
(٣) سكينة: هي سكينة بنت الحسين بن علي، حفيدة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت سيدة نساء عصرها.
(٤) ديوان شوقي ج٢ ص٢٤ وما بعدها.
(٥) السابق ج١، ص٣٣٥.

لم يبق لشاعرنا في الاجتماع إلا قصيدتاه «مملكة النحل» و « الحجاب والسفور»، والقصيدة الأولى جيدة حقًا، تلمس المجتمع من جانبه الخلقي، فعلى دعائم الخلق قامت هذه المملكة، طاعة، ودأبًا وجهدًا متواصلًا، كل أولئك ترفع شأن الملك وتعِزّ سلطانه :

قف سائلَ النحلَ به بأي عقلٍ دبره
يُجبْكَ بالأخلاقِ وُهي كالعقولِ جَوْهَره
تُغنِي قوى الأخلاق ما تُغنِي القُوَى المفكَره
ويَرفُع اللهُ بِها ما شاء حتى الحشرهْ

وهو يقدّم هذه المملكة نموذجًا يمكن أن يحتذيه قومه ومواطنوه، في سياسة المُلْك وتقوية أسبابه :

أليس في مملكة النحلِ لقَومٍ تَبصِره
مُلْكٌ بناه أهلُهُ بهمَّةٍ ومَجْدَرَهْ[1]
لو التمست فيه بطَّالَ اليدين لم تَرَه
تقتُلُ أو تُنْفَي الكَسالَي فيه غيرَ مُنْذَرهْ[2]

أما قصيدة شوقي «الحجاب والسفور» فليس فيها غيرُ ترديد لفكرة تحرير المرأة في معظم أبيات القصيدة، وأعتقد أنه لن تربو بضاعة شوقي في سوق المجتمع عن هذا القدر، اللهم إلا ما تناثر من أبيات قلائل هنا وهناك، وإذا أردنا أن نقيس ما قاله شوقي، بما قاله حافظ رأينا حافظًا يثب وثبة بعيدة، تاركًا شوقي مكانه. وسنقف في مقال الشهر القادم مع حافظ طويلًا نسمع إليه، وهو يقص علينا سِيَر المجتمع وأخبارَه، ويشرح لنا رسالته التي أداها في أمانة وصدق، وكيف

(١) مجدرة : جدارة.
(٢) السابق ج١، ص٩٣ وما بعدها.

زَاحَم شوقيًا وظهر عليه، ولن نقبل منه هذه الدعوى، إلا إذا أيدها بأدلة قوية من شعره تنهض بدعواه، ثم نعقب على حديثه برأي في زميله وصديق صباه مطران، الذي لاذ بالصمت في هذه الأيام، إلا في مناسبات عابرة، لا حظَّ لها من البقاء والخلود.

(٤) الجانب الاجتماعي في الشعر الحديث[1]

شوقي، حافظ، مطران

كتب إلىّ بعض المعنيين بدراسة الأدب الحديث، يطلبون أن يتسع البحث فيشمل الجوانب الفنية الأخرى، في شعر شوقي وصاحبيه، وهم يشفعون هذا الطلب بمبررات لا تخلو من وجاهة، فأحد الكاتبِين يرى أن من الصعب حصر المعاني الاجتماعية، التي بثها شاعر كشوقي، في قصائده ومقطوعاته، والكاتب يريد لى الحيطة ؛ لأصدر في حكمي على شوقي «الشاعر الاجتماعي»، عن دقة واستقصاء، ويؤكد لي – وأنا في غنى عن توكيده – أن لشوقي « لفتات صريحة جريئة» إلى المجتمع في أمداحه ومراثيه، وأنا أزيد علْمَ الكاتب الأديب، أن لشوقي «لفتات صريحة جريئة» إلى المجتمع... حتى في غزله ونسيبه – إذا سلمنا أن له غزلًا ونسيبًا، ومستعد أن أهديه إلى هذه اللفتات في مجلة غير مجلة الشئون الاجتماعية، تتسع صفحاتها، لهذا اللون من الكتابة...

أقول مرة أخرى، إنني لا أكتب دراسات أدبية في هذه المجلة، وإنما أحاول إبراز فكرة خاصة، في ناحية خاصة، تنساق في اتجاه التحرير، الذي تؤثره هذه المجلة، وتحرص عليه. إذن لن أكلف نفسي عنتًا في لمِّ شتات هذه المعاني المبعثرة هنا

(١) نُشرت هذه المقالة بمجلة الشئون الاجتماعية في ديسمبر ١٩٤١م – من ص١١٢ إلى ص١١٦، وهذه هي الحلقة الثالثة مما كتبه الغزالي في هذه المجلة تحت عنوان «في أدب الاجتماع»... علمًا بأن الحلقة الأولى من هذا الموضوع لم نعثر عليها، كما سبق بيان ذلك.

وهناك، التي تتناول المجتمع من قرب أو بُعد، وتكفيني القصائد القلائل التي قالها هؤلاء الشعراء في الاجتماع، لإبراز هذه الفكرة ؛ لأصل منها إلى تصوير المُثُل العليا، في شعر القومية والاجتماع، وأعود إلى الكاتب الفاضل، لأقول له : إن هذه اللفتات التي يلفتني إليها، لن تُغيّر شيئًا مما قلناه عن شوقي في المقال السابق، وشوقي بعد هذا كله شاعر فذ، له مكانته وخطره في تاريخ الأدب الحديث، ولن ينقصه ظهور حافظ عليه في هذا المضمار، فقد كان لكل من الشاعرين موقف من المجتمع، حتَّمه الزمن وفَرَضَته الحياة، ومن ذا الذي يستطيع أن يتفلت من حكم الزمن، وتكاليف الحياة؟!

وإن كانت ثمة ناحية يبدو لنا الفرقُ فيها هائلًا، بين حافظ وغيره من شعراء هذا الجيل، فهي تلكمُ الناحية وحدَها، فحافظ شاعر، جلَّى كثيرًا من معارض الشعور في الحياة الشعبية، وسجل كثيرًا من مظاهر القومية المصرية، وبيئاتها الاجتماعية، على تباين طبقاتها، وشدة هذا التباين، وأن أسباب عيشه، وملابسات أيامه كما يقول العقاد « كانت أدعى إلى توجيهه، هذه الوجهة، وأدنى إلى إقامته في هذا المقام».

ويظهر أن ظروف الحياة حقيقة، هي التي تسيطر على المواهب والعبقريات، وتوجهها حسب مقتضيات المجتمع، ومطالب البيئة. فلو أن الأيام وضعت حافظًا موضع شوقي، وأحلت شوقيًا مكان حافظ، لانعكست الآية، وجرى كل منهما الشوط الذي جراه صاحبه، ولم يزد قيد أنملة – أريد بذلك أن أطمئن المشفقين على مكانة «أمير الشعراء» من شاعر النيل، فما كان لحافظ أن يعيش بعيدًا عن الشعب، وهو يجوب شوارع القاهرة على رجليه في صحوة الصبح، ويقف على ضفة نيلها في روعة الأصيل، ويعبث في مقاهيها وأنديتها الليالي الساهرة الشاعرة. وما كان لشوقي أن ينأى عن القصر وهو شاعره، شاعر الأمير، تشغله أبهة الملك عن رغبة المجتمع، ومظاهر النعمة عن أشباح البؤس والفاقة(١).

شاعرُ الأميرِ وما بالقليل ذا اللقبِ

---

(١) الفاقة : الفقر.

فهو يعتز بهذا اللقبَ، ولن يستطيع أن يُهمل حقه عليه، وهو بذلك رضىّ البال مستريح الخاطر.

أما حافظ فكما يقول الدكتور طه « صديقُ الشعب كله، صديق الفقراء والأغنياء، وأوساط الناس، تراه في كل بيئة، وتراه في كل مكان، خالط الناس جميعًا فأصبح هو الناس جميعًا، وصوَّر نفسه في شعره فصور بها الناس جميعًا».

من أجل هذا أجاد حافظ التعبير عن آمال الشعب وآلامه، وبرع في ذلك إلى حد الرضا والإعجاب، وجرؤ على مواجهة الشعب بحقيقة أمره، غير هيَّاب ولا وَجِل، واستجاب لداعي القومية في خفة واهتمام، فأحبه الشعب ورضي أن يكون لسانَه الناطق، ورسولَه الأمين. عاش حافظ يرقب الشعب عن كَثَب، ويدفعه دفعًا إلى الحياة الحرة الطليقة، فيرغبه في النهوض بمستواه، ويبصره بالمُثُل العليا، ويسخر منه، إن استحق السخرية والزراية، لا يصانع أو يداجي.

أمةٌ قد فتَّ في ساعِدها بُغضُها الأهلَ وحُبُّ الغُرَبا
تَعْشقُ الألقابَ في غَيْر العُلا وتُفَدّي بالنفوس الرُّتَبَا
وهي والأحداثُ تَسْتهدِفُها تعشقُ اللهوَ وتَهْوى الطَّربا
لا تُبالي لَعِبَ القومُ بها أمْ بها صَرْفُ الليالي لَعِبا[1]

وقريب من هذه المعاني التي كان يرسلها حافظ في ثورة وعنف، هذان البيتان :

أُمُورٌ تمرُّ وعيش يكُرُّ ونحنُ من اللهو في مَلْعب
وشعبٌ يَفِرُّ من الصالحات فِرارَ السَّليم من الأجْرب

وهل تطلب من شاعر يتصدى للكلام في القومية والاجتماع، تصريحًا أوضح

(١) ديوان حافظ إبراهيم ج٢ ص٧، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

وأصْرَح من هذا التصريح الجارح القاسي :

وإذاسُئلت عن الكنانة قل لَهُمْ   هي أمةٌ تلهُو وشعبٌ يلعبُ

في هذا الاتجاه تقرأ أخصب ما قال حافظ وأمتَعَه، هذا الذي خص به المجتمع أيام انحلاله وتدهوره، فعالج أمراضه، وفاخر بماضيه، وشَهّر بحاضره، لا يخشى بطش الحاكم، ولا يرهب صولة المحتل، كل ذلك في أيام كان حديث الناس فيها همسًا، وخطو الناس فيها احتراسًا، كما يصور شوقي يثرب في الأيام الغابرات.

يصيح حافظ بالمجتمع، ليغير أوضاعه المعكوسة، التي يَحْسُنُ أن تستقيم، ويُعَدّل نُظُمَه القَلِقة التي يمكن أن تستقر :

لَعَمْرُكَ ما أرِقْتُ لغيرِ مِصْرِ   وما لي دونَها أملٌ يُرامُ

ذكرتُ جلالَها أيامَ كانتْ   تصولُ بها الفَرَاعنةُ العظام

وأيامَ الرجالُ بها رجالٌ   وأيامَ، الزمانُ لها غُلام

فأقْلقَ مَضْجَعي ما باتَ فيها   وباتَتْ مصرُ فيه، فهَلْ أُلام؟

أخشى إن أنا مضيت في القصيدة ألا أنتهي حتى تنتهي، وقد وجهها حافظ إلى الأمير حسين كامل، رئيس مجلس الشورى والجمعية العمومية، والقصيدة سجل حافل، ينطق بآمال مصر، ويفيض بآلامها، وهي في المحنة الدامية والبلاء الشديد:

أرى شَعْبًا بَمَدرَجَةِ العوادي   تَمَخَّخَ عظمَه داءٌ عُقامُ[1]

إذا ما مَرَّ بالبأساءِ عامٌ   أطلَّ عليه بالبأساءِ عامُ

سَرَى داءُ التواكلِ فيه حتَّى   تخطَّفَ رزقَه ذاك الزحامُ

أتُرى حافظًا ينسى فلاح مصر، وهو في المقام، وكيف وهو ثروة الأمة وعتادُها ؟

---

(١) المدرجة: الطريق، والعوادي : النوائب، وتمخخ العظم : أُخرج مخُّه.

أبَـا الـفـلاَّح إن الأمــرَ فـوضـى   وجـهـلُ الـشَّـعْـبِ والـفـوضَـى لِـزامُ[1]
فـاسْـعِـدْنَـا بـنـشْـرِ الـعـلـم وأعـلَـمْ   بـأن الـنَّـقْـص يـعـقُـبُـه الـتَّـمـامُ
اجِـبْـنَـا: هـل يُـرادُ بـنَـا وراءُ   فَـنـقْـضِـي أمْ يُـراد بـنـا أمـامُ[2]

ويلح حافظ على معاني الرثاء، فلا يقف عند الفجيعة في الزعيم الشاب، يستوحيها ألوان الألم، وأهوال المصاب، فلا يزعم أن السماء تساقط كسفًا، ولا الأرض تمور مورًا، ولا النيل يشق الجيوب، وإنما :

هَنيئًا لهم فليأمَنُوا كلَّ صائحٍ   فقد أُسْكِتَ الصوتُ الذي كان عاليًا
ومات الذي أحيا الشعورَ وساقَهُ   إلى المجدِ فاستحيا النفوس البواليا
يموتُ المداوي للنفوس ولا يَرَى   لما فيه مِنْ داء النفوسِ مداويا
وكُنَّا نِيامًا حينما كُنْتَ ساهدًا   فأسْهدتَنا حزنًا وأمسيت غافيا

وهو إذا أراد أن يغلو في معاني النكبة في الزعيم الشاب، لا يقول أكثر من أن مصطفى كامل، لم يكن فردًا، وإنما كان جيشًا لَجَبًا غازيًا :

ثلاثُون عامًا بل ثلاثونَ دُرَّةً   بجيدِ الليالي ساطعاتٍ زواهِيا
سَتَشْهدُ في التاريخ أنك لم تَكُنْ   فتًى مُفْردًا بل كنت جيشًا مُغازيًا[3]

يخلُص حافظ من معاني الرثاء، إلى معاني الوطنية والاجتماع، في مرونة وحذر.

الزعيم الراحل، شاب في زَهْوة العمر، وريعان الشباب، فلزامًا أن يتأساه الشباب، ويسيروا على طريقته، والأيامُ كفيلة أن تخلق من كل واحد منهم مصطفى كاملًا، إذا هم زاحموا الأيام، وعركوا الحياة، في

(١) أبو الفلاح : كنية للسلطان حسين.
(٢) ديوان حافظ ج٢ ص٥٦ وما بعدها.
(٣) ديوان حافظ ج٢ ص١٤٩ وما بعدها، والأبيات من قصيدة في رثاء مصطفى كامل.

بسالة واعتدام، لا تقفهم تلك السدود والحدود، ولا تجرفُهم تلك «الأمواج» العاتية الجبارة :

يا أيُّها النشء سِيرُوا في طريقته ... وثَابِرُوا، رَضِيَ الأعداءُ أو نَقِمُوا
فكلكُمْ «مصطفي» لو سار سِيرَتَهُ ... وكلكم «كامل» لو جازَه السأمُ
قد كان، لا وَانِيًا يومًا ولا وَكِلًا ... يستقبلُ الخطْبَ بَسَّامًا ويقتَحِمُ

نقول... حتى مواطن الرثاء كان حافظ حريصًا على أن يزحمها بمعاني القومية والاجتماع، وهو في كلتا الناحيتين شاعر نسيج وحده، لا يدانيه شاعر آخر ولا يجاريه... وحافظ إذا فرغ للمجتمع، وليس في ذهنه غيره، أتي بالعجب ؛ لأنه يرسل الشعر عن طبع دافق، ووجدان مشبوب... وما أحسبني قادرًا على قول كل ما أريد أن أقوله عن حافظ « الشاعر الاجتماعي» حقًا في مقال واحد، محدود الصفحات - ذلك لأني أريد أن أرد بنماذج من شعر الرجل، على اللَّغَطِ الذي يدور حول اسم حافظ، في أندية الأدب ومحلاته هذه الأيام، ماذا يريدون أن يقولوا؟ أهان حافظ على الناس وهو الشاعر الذي شدا في شعره الناس؟ أرجو أن يعمل أشدهم غلوًا، واعتدادًا بشاعريته، فإذا وصل إلى ما وصل إليه حافظ، فليمت راضيًا مرضيًا... أقل ما يقال، فارقًا بين حافظ وشعراء هذه الأيام، أنه مفهوم معقول، شعره كصفحة الغدير السيال، وليس أحاجي ولا ألغازًا، وأنا متشائم بمصير الشعر الحديث، إذا ظل على هذا الأسلوب من الأداء، وتفاهة المعاني. لا يمكن أن ننتظر على يديه خيرًا لهذا المجتمع، الذي يجب أن تتعاون كل القوى المفكرة - وفي طليعتها الشعر - على الأخذ بساعده حتى يسير وتنتظم خطاه، في غير مشقة أو عناء.

لن ننكر أن الشعر المعاصر قرب من المجتمع عن طريق الغناء، فتناول معانيه، ولكن في غير هوادة ولا رفق.

إذا نحن طالبنا الشاعر بالإفصاح عما يختلج في ضميره، فلا نطالب الشاعر الغنائي بأكثر من هذا... أريد أن أصل إلى أن شعراء الغناء عندنا لم يوفقوا كما

ينبغي، والذي نرجوه لهم، بعد أن نقدم لهم المثل العليا في شعر القومية والاجتماع، أن يروّضوا أنفسهم على نظم أماني المجتمع ورغباته في سهولة ويسر، وبذلك يتأتى للشعر أن يذيع رسالة المجتمع ضامنًا لها الخلود والبقاء، وسأُفصِّل القول في علاقة الشعر الاجتماعي بالغناء في فرصة أخرى. وكيف يستطيع الشاعر أن يصل مع المَغْنَى إلى خدمة المجتمع ورفع مستواه، ثقافيًا وخلقيًا، فيتجافى السامع عن هذه الرخاوة والميوعة، التي تشيعها اللغة الدارجة في لحن المَغْنَى وإيقاعه، وفي طوق شعرائنا أن يستغلوا هذه الفترات الحرجة التي تمرُّ بالعالم مرورًا ثقيل الخطو، شديد الوطأة، والتي تسكن النفوس فيها إلى وسائل السلوى والتسرية، وتخادع في أعماقها هذه الأحاسيس المروعة المخيفة... أقول في وسع شعرائنا أن يبادلوا المجتمع الرأي في كل ما يشد أزره، لِتُقْبِل عليه النفوس في شوق وارتياح، فيستطيع المجتمع أن يتلمس الشجاعة الكامنة في تجاليده، لمواجهة ما يضمره الغد المجهول في أطوائه وتضاعيفه... والنفوس في مثل هذه الظروف الكريهة تَقْبلُ ما يُلقى إليها سهلًا سائغًا من معاني الحياة، النابعة من البيئة، والصادرة عن الشعور الصحيح بالقومية الحقَّه... فليس إذن على شعرائنا أكثر من أن يكونوا سادة صُرُحاء مفهومين، كما كان شعراؤنا الثلاثة خاصة حافظ الشاعر الاجتماعي الفرد، الذي تشهد بذلك آياته في القومية والاجتماع...

(٥) بيرم التونسي[١]

الشاعر الذي ترك قمة الشعر إلى قمة الزجل

كان يقول... إنني لا أعرف شواطئ لهذا الموج الزاخر، الذي يهدِرُ في نفسي، وقلبي، ورأسي من روائع الشعر، لأضخم الشعراء، في أعظم العصور حفاوة بالشعر والشعراء، وقد حفظت القرآن، ودرست ستة كتب مشهورة في تجويده، وتلاوته بقراءاته الثابتة عن أئمة الشريعة والدين. ثم استوعبت دراسة الأدب العربي من أمهات مصادرة، وشَرِبتُه من أصفى ينابيعه، ودرست البلاغة وعلوم اللغة وفقهها، وأحطت بشواردها وأوابدها، إحاطة السوار بالمعصم.

- أ -

وكنت أقدّر أنني «سأجتر» هذه الثقافات العربية الصميمة، في صقل استعدادي وموهبتي الشعرية، إلا أنني شَهِدت في مطالع حياتي صَرْعى الشعر، وأشلاء الشعراء، تحت أقدم المشعوذين، وشذاذ الآفاق، والمتاجرين في سوق الأدب الفارغ، والكلام الساقط، واللغة الدارجة على أرض خبيثة، ثم تعاقبت المِحَن الثقال، مع الليالي الطوال، فأخَذَتْ المجاعة بخناقي وخناق الأطفال، وتلقيت وحشة الاغتراب، ونكد المرض، وفقدان الأوطان والإخوان، وضراوة المجاعة في بيت لا يؤنس بقايا الآدميين فيه، إلا الأنين والدموع، والأنفاس اللاهثة، فلم أُرِد أن أضيف إلى هذه

---

(١) نشر هذا الموضوع بجريدة المساء في الخامس من فبراير عام ١٩٦١م.

المحن القاصمة، محنة الشعر، فتركت ثقافتي واستعدادي وموهبتي الشاعرة، أمانة في ذمة الأيام.. إلى الزجل أنظم به المسرحية، والموال، والأغنية، وكم استأجرني كل دَعِيّ ومتسلق، لقاء منحي القليل من الإثابة والمكافأة، التي أُجابه بها شظف العيش، وخشونة الحياة، ودعوة حاقد استجابت لها الأقدار، فبت أرزح تحت وطأة الهمِّ، والرزء، والجوع الأزلي..

وهكذا عاش بيرم التونسي يطالع الناس في كل يوم بإحدى شخصيتيه اللتين كانتا تؤلفان فنَّه ومواهبه، وظلت شخصيته.. كرائد، وإمام، ومُوجّه، وأستاذ لكل من زَجَل، تنأى به هى عن الشعر، وتفريه بالزجل، حتى استوى على عَرْشِه ملكًا متوجًا، فكل زجالينا صغيرِهم وكبيرِهم روافدُ لهذا المحيط عميق الأغوار، مديد الأبصار، متلاطم الأمواج.

ولَمَعَ بيرم وتألق نجمه أستاذًا في فرع الزجل، لا يشق له غبار، وأفل نجمُه في سماء الشعر، رغم إرادته، وكان ذلك تلبية -لا مفر منها- لحكم الأيام.

وكنت أحيانًا ألمح عليه أسى وحسرة تنطق بهما أسارير وجهه الصارم المتجهم، حين يُثار حديث عن الشعر المعاصر، فكان يضغط على أسنانه، ويلوّحُ بيديه في مرارة.. وهو يقول: أين هؤلاء الشعراء المعاصرون الجديرون بهذه التسمية؟ هل هم أولئك الذين يعانون قلة الحيلة، وقلة الأدب، ثمَّ يتبعها قائلًا: قلة الأدب طبعًا.. يعني قلة تحصيله واستيعابه ودراسته بفهم ووعي وإدراك، ذهب هؤلاء الشعراء الذين كانوا يرجون للتطور بشكل الشعر ومضمونه، وخلَّفوا من بعدهم، طائفة من «الفتوة» الضعاف الذين يَشْكُون فقر الدم.. والحياء.. وفقر التحصيل والثقافة، تركوهم ليفتعلوا كل يوم « زفة» في صحيفة أو «خناقة» في اجتماع.. باسم خرافة الشعر الجديد، أو الشعر الحر.

هذا ما كان يقوله بيرم من الفتنة الصغرى، التي يوقظها هؤلاء المتهجمون من آن لآخر، حول قضايا الشعر، ومذاهبه الفنية، وهم يدَّعون أن الشعر المتحرر من القافية والوزن، قادر على استيعاب حوادث الحياة وأحداث المجتمع، التي تتوالى لحظة إثر لحظة، وساعة وراء ساعة، وأن القافية والوزن يقيدان خُطَى الشاعر

المتطور، المتجاوب مع المجتمع، الذي يعيش فيه، ويعيش له، وإليهم هذه النماذج، ولن يستطيعوا فيها جدلًا أو مغالطة. هل هؤلاء الشعراء الذين سأعدد أسماءهم مجددون أم جامدون؟ جبران خليل جبران، عباس العقاد، أبو القاسم الشابي، جميل صدقي الزهاوي، بشارة الخوري، إبراهيم ناجي، ثم عبدالحميد الديب، وعلى محمود طه - في اتجاههما - لا نزاع في أن هؤلاء وأندادهم في طليعة المجددين، وهم في الوقت ذاته لم ينحرفوا عن عمود الشعر العربي، فَحرِصُوا على الوزن والقافية، ولم تحجزهما عن الإبداع والتجديد والتطور، بل كسبوا لشعرهم الجَرْس، والإيقاع، والموسيقى العذبة، التي تبثها القافية، ويوقعها الوزن في ثنايا القصائد والمقطوعات..

وكان بيرم في شعره الجاد، أو الساخر مشرق الديباجة، فخم الأسلوب، جَذِلَ اللفظ، رائع الخيال، حلّق في آفاق لم يحلق فيها شاعر من قبله؛ لأنه كان يعيش في حقائق مجتمعه، التي يصنعها المجتمع، وتتألف منها أعمال الشعب وآلامه، وتتبلور فيها أحلامه ورغباته.

لم نعرف شاعرًا سبقه في هجومه السافر على الملكية، وعلى الخونة من الساسة، ومن الكبار، الذين كانوا عملاء المستعمر، وسماسرته، ومطاياه... وكانت الثورة التي تتأججُ في صدره ثورة عارمة، لم نجدْ أمامها غير شاعرية بيرم المتمردة، الثائرة، من أجل حقوق الوطن المهدرة، وأقدامه المستباحة، وعزته المستذلة، فكان أول شاعر ثائر هَزَّ جدار الكبار من محترفي السياسة، وتجار الوطنية حين قال:

كبارُنا كخراف العيد، في عدد لا يُرْتَجي خيره إلا إذا ذُبحوا[1]

.. والأمر الذي يثير الدهشة في إنتاج بيرم، أنه استطاع مع تمكنه من اللغة العربية وآدابها وعلومها، شعرًا، ونثرًا، وبلاغة، وفقهًا، وأصولًا.. إلخ.. أن يخلُصَ نَجِيًا من هذه الثقافات، ويهبط إلى أعماق الشعب، يترجم حسه، ويذيب نفسه فيما يترجم، صاغ الدموع، وجَسَّد الآهات، وغنَّى الأشواق والأفراح، حتى ملأ سمع الدنيا، وتجاوز بآثاره وفنه بلاد الشرق العربي، إلى أوربا وأمريكا، وروسيا، وأصبح

(١) البيت من البحر البسيط.

بيرم هناك في معاهد الأدب الرفيع، والثقافة الأصيلة، عالمًا وإمامًا، جديرًا بأن يُدّرس، ويُعْنَى بمواهبه وملكاته؛ لأنه يصور جيلًا زاهرًا من أجيال الفكر في بلاده، ويعتبر عندهم مرحلة من مراحل التطور الذهني، والنفسي، التي خلقت قِيمًا أدبية لم يكن لها وجود فوق الأرض العربية، التي تمتد من المحيط إلى الخليج.

.. ولقد تجاوب بيرم مع الشعب في مسرَّاته وأشجانه، تجاوبًا عميقًا صادقًا، وكان يسرف على نفسه في هذا التجاوب من فرط تفانيه في حبه للشعب ومختلف طبقاته الكادحة، ودخل في صراع مرير - من أجل حبه لشعبه ولطوائفه العاملة - مع العلماء، ورجال الدين، الذين كان لا يرضيه موقفُهم من أبناء الشعب، كما دَمَّـر ما كان يربطه بكثير من الأدباء والشعراء، وأهل الفن بسبب تخليهم عن الشعب وأهدافه، وهروبهم من تصوير أحداثه، والتصدي لرغباته وأمانيه، وإبرازها أمام من بيدهم الحَوْل، والطَّوْل، والجاه الحاكم العريض، ومما زاد مقتَه لكثير من الشعراء والأدباء الذين عاصرهم، أنهم نأوا بجانبهم من الكوارث، التي كانت تُحَطِّم معنويات الشعب، وتَعْصِف بمقدراته، وتهدم كيانه الروحي، ولن نكونَ مغالين إذا قلنا، إن بيرم الزجال الكبير، الذي زحم أيامه بإثارة الخوالد من الأوبريت، والمسرحية، والموَّال، والأغنية، لا يعرفه كثير من الخاصة والمثقفين شاعرًا كبيرًا، أسهم بشعره في أفراح الشعب ومباهجه، وجوانب الحياة الشعبية الضاحكة.

ثُمّ بيرمُ الذي نظم في الحب والغرام، وألوانِهما المتعددة، من هجر ولقاء، وشكوى، ووصال، في معانٍ جديدة، وأخيلة محلّقة، وأساليب عربية صميمة.. بيرم الذي نظم في هذا المنحى العاطفي المشبوب المتوهج، نظم في مناجاة الله، والتوسل إليه شعرًا في القمة من إلهام الروح، وإملاء الوجدان.. يقول بيرم المتصل قلبه بالله، والمعتصم بحبله بين شِبَاك الكائدين المنشورة في خِضم هذه الحياة.. يقول :

قد دعاك المخزونُ في غَسَق اللَيلِ وقد نامَ كلُّ حيَ سواك
رَبّ أنت اللطيفُ بالبَرّ والعاصى مجيبٌ لكل عبدٍ دعاك
لك لطفٌ في الخَطْب لو أمعن المكروبُ في وقعه يكادُ يراك
أنا مستمسكٌ بحبِلكَ في اليمّ إذا الكائدونَ مدُّوا الشباك

فوق مَنْ دبُّروا على الأرض كَيْدا   كيدُ ربِّ يدبرُ الأفْلاَك[1]

... وإلى جانب هذا الشعر القانت، المتصوف تجد بيرم يصف «المرْقص» على لسان شخص، يراه لأول مرة في حياته، فيقول:

يا صاحِ وحقُّك ليس على   مَنْ رام المرقصَ مِنْ حَرَج
الرقص نعيمُ العمر فقُمْ   وادخل في المرقص واندمجْ
جمعُّوا الفتياتِ مع الفتيانِ   فيا للأمر المنبهج

ما كانَ مُغَنِّي القوم يدقّ   الدفَّ بِلَحْنٍ منه شَجّ
حتى انفرطت وحداتهم   ثُمَّ ازدوجت بالمزدوج

رجلُ وقرينته التقيا   بصدور العز وبالمُهَج
فَعَلَى كَتِفَيْه معاصمُها   ويداه بخصر ذي عِوج
وخُطى الأقدام موقعة   بالرقصِ على نظم الهَزَج[2]
ورواحُهما ومجيئُهما   في النهجِ على أرقَي نَهَج
طورًا كالصاعد في دَرج   أو كالمنحط من الدرج
فإذا انجذبت فلمُنجذِب   وإذا اختلجتْ فلمُخْتلج
وإذا نَقَلَتْ قدمًا.. رَفَعَتْ   قدمًا.. والرفع بلا عَرَج

وأساورُهُم وخواتمُهم   خطفت عيني من الوَهَج
والقوم تموجُ الأرضُ بهم   مما هم فيه من الهَرَج
وفقيه الله على حدة   ثَمِلٌ بالشوق المعتلج

---

(١) الأبيات من البحر الخفيف التام.
(٢) الهزج : أحد بحور الشعر العربي.

فــي الــركــن يــرقــصُ لحيته وتــــروح غُـمــامـتـه وتجِــى

وكان بين بيرم - رحمه الله - وبين مجلس بلدى الإسكندرية خصامٌ دائم، وقد هجا المجلس هجاء فَكِهًا، معجبًا من قصيدته المشهورة التي يعرفها الكثيرون.. والتي يقول في مطلعها :

قد أوقعَ القلبَ في الأشجان والكمدِ هوى حبيب يسمى المجلسُ البلدي

ما شرَّد النوم عن جفني القريح سوى طيفُ الخيال، خيالُ المجلس البلدي

إذا الـرغـيـفُ أتـي فـالـنـصفُ آكُلُهُ والـنـصفُ اتـركهُ للمجلس البلدي

ومـا كـسـوتُ عـيـالي فـي الـشـتـاء ولا في الصيف إلا كسوتُ المجلس البلدي

ولبيرم قصيدة أخرى، غير معروفة يهاجم فيها المجلس البلدي بالإسكندرية أيضًا.. يقول:

وحــول مــنــازل الـغـربـاء عَـنـا غــرســتُ الــورد ثــم الياسمينا

وأخـضـلـتُ الـغـصـون لـهـم سـمـاءً ومــهــدت الــرخــام الجِــذْع حينا

ومــا قـرمـوا لـلـحـمِ الـطـيـر، حتّى مــنــحــتُــهــم الأوز الــعــالمـيـنــا

تـفـجّـر تحـت أرجـلِـهِـم عـيـونـا وتـفـقًـأ وسْــط أوجـهـنـا عـيـونًـا

وتــرضــي عـنـهـم، وتـصـد عـنّـا وقـد سَـخِـطـوا، ونـحـن الشاكرونا

فـمــرُ بـهـا عـلـيـنـا كـلَّ عـامِ بـحـي الأشـقـيـاءِ الـبـائـسـيـنـا

نــرى الــوَحِــلات جـاثـمـة وفيها بـنـاتٌ قـد تـعـلـمن الـعـجـيـنـا[1]

ومنها قوله في ختام القصيدة، والخطاب موجه للمجلس البلدي :

---

(١) من البحر الوافر.

إذا كنتَ الطبيبَ ونحنُ مرضى فأوصِ الناس خيرًا بالبنينا

ومن شعره الذي سلطه على المشرفين على التمثيل في مستهل عهدنا به:

يا مشرفين على التمثيل ويحكُمُ انّي لأمرِ عظيمٍ هاجني الغضبُ
لقد كثُرتم فهلاّ كان بينكمُ شهمٌ لمثل صلاح الدين يُنْتخب(١)

ومن شعره في الفكاهة، وكان يتندر ويقول: إنني أحاكي في هذه القصيدة الشريف الرضي، ومنها قوله :

منازلُ العشبِ، لا حامٍ ولا رَاعِ مضَي الرَّدى بطويل الرمح والباع
حطُّوا الغفيرَ على الدكانِ يحرسُه فباعه جملةً، لا بيعَ قَطَّاع
جاء الحرامي له ليلاً، وقاوله على الذي فيه من مال وإبضاع
والصبح جاء إلى الدكانِ صاحبُه فلم يجد فيه غير السقف والقاعِ

... هذه قطرة من بحر لُجَيّ، تركه بيرم من بعده، يموج بعيون الشعر، الذي نظمه في جِدّه وفكاهته، ومن حق بيرم الشاعر الكبير أن تذاع أثارُه في الشعر على الناس، وقد آن أن يُقرأ بيرم شاعرًا ضخمًا، يُعد في الطليعة من صفوة شعرائنا النابهين، فقد أصبح بيرم الزجالَ الرائد، يجري اسمه على كل لسان، في كل قُطْر عربي، وبقي أن يقف بيرم الشاعر بفنه العربي الصميم، أمام بيرم الزجال، الذي انفرد بأدبه الشعبي الزاخر في عصره، وسيظل منفردًا به بين سائر العصور.

---

(١) من البحر البسيط.

(٦) أحمد رامي... شاعرًا[١]

الشاعر الذي أحاط بالثقافات الرفيعة لأربع لغات حية، والذي صعد سُلَّمَ الشهرة.. وبقي مجهولًا تسعة عشر عامًا في الدرجة الخامسة... والذي عاش في أول عمره، بين مفارقات عجيبة، فكانت نزهته في طفولته، فوق الزوارق السابحة في شواطئ جزر (الأرخبيل)... ثم قضى بقايا طفولته ويفاعته، فوق الرمال والحجارة والأشواك... وحوله أشباح الخوف والوحدة والسأم في أرض (الإمام الشافعي).

وبعد، فهذه قصة الشاعر، الذي أمسك الزجل بتلابيبه، وأبعده عن مكانه في القمة بين شعراء عصره.. لقد استأثر به الزجل، وقَلَّ منه نصيب الشعر..

كانت ملاعب طفولته فوق الصحراء الموحشة، وبين الطرق الحزينة، التي يألفها المشيعون، الذين يَعْبُرُونَها وراء موتاهم.. الذاهبين إلى «مقابر» الإمام.. ليستقر بهم المطاف في مضاجعهم هناك...

وما هي إلا عشية أو ضحاها – حتى انتقل الطفل الموهوب فجأة مع والده الذي أوفدته الحكومة إلى جزر «الأرخبيل» ليكون طبيبًا لجزيرة – طاش يوز- التي آلت إلى الدولة المصرية، ضمن الجزر التي نهبها محمد على.

وهناك تفتحت براعم هذه المواهب الشاعرة، على الآفاق المشرقة، ومجالي الطبيعة الرائعة، والأجواء الناسمة بألوان من الجمال الملهم، والفتنة الحالمة، والسحر الخلَّاب وعاش الطفل الرقيق – أحمد رامي – يعُبُّ وينهل من هذه

(١) نشر هذا الموضوع بجريدة المساء في الثاني من يوليو عام ١٩٦٠م.

المصادر الدفاقة يزداد الخيال المحلّق، والوجدان الصافي، والعاطفة المشبوبة... وهو يغدو ويروح فوق حِيضَان النرجس الزاهية، وضفاف الغدران الناعسة، وظلال الخمائل المغردة، ويصغي إلى همسات الشواطئ الخضر، فيمتلئ من هذا المتاع الخصب ويُسقى من هذا الرحيق السلسال.

ومرة ثانية يجد الفتى الشاعر نفسه عائدًا إلى أطلال «الإمام الشافعي» مع والده، الذي انتهت مهمته في هذه الجزيرة من جزر « الأرخبيل» فهو يود ليقطنَ في «الإمام»، ويلتحق بمدرسة المحمدية الابتدائية، ويقطع المسافة بين المنزل والمدرسة في الصباح، ماشيًا على قدميه، ثم يعود راكبًا حمارًا، لقاء قرش واحد، يدخره من «مصروفه» الشحيح.

وفي هذه الفترة يحرص الفتي أحمد رامي المتوثب الطموح، على أن يحفظ القرآن، ويتدرب على تجويده وتنغيمه، وقد كان لهذا أثر أي أثر في تفوقه وحذقه للغة العربية، وإعداده للعمل في حقل هذه اللغة، وحَمْلِ رسالتها وأدائها، على أتم وجه وأكمله، باذلًا في ذلك ما أُوتي من طاقة خلاقة، وطَبْعٍ مُواتٍ، وقدرة منتجة؛ «ليستكمل أدواته الفنية، لهذه الحالات التي كانت تنتظره وتنتظر موهبته المبدعة، وعبقريته الجياشة، فينساب معينها الزاخر في ميدان الأغاني والمسارح، والسينما، والترجمة، والتأليف والكتابة.

• ١٩ سنة في الدرجة الخامسة:

وبقدر ما كان «رامي « شهيرًا في الميادين الفنية، وهو يَنْظِم الأغاني، ويكتب القصص، ويحرك أبطالها، أو يؤلف الحوار، ويتفنن فيه، فيحدث الحركة، والحياة، والنبض، بقدر ما كان نسيًا منسيًا، وشيئًا غير مذكور، لا يحس به رئيس في عمل، ولا يفكر فيه مسئول كبير، فيتجمد الموظف المثقف النابغة «أحمد رامي» في قاع الدرجة الخامسة تسعة عشر عامًا.. بلياليها.. وهو «رقم قياسي» في سلك الوظائف لم يستطع أن يحطمه منسي «قبله أو بعده».

و» رامي « منذ مطالع عمره، سبَّاق متفوق، كان أصغر تلميذ سنًا حين نال الشهادة الابتدائية، وسنه سبع سنوات، وانتظمت دراسته بالمدرسة الخديوية، وكان

التلميذ الوحيد بين ألف طالب، الذي يأتي دوره في الخطابة، بعد الشيوخ الأدباء النابهين، من أمثال محمد صادق عنبر، ولطفي جمعه والشيخ محمود أبو العيون، والشاعر إمام العبد، وكان رامي تلميذًا رقيق الحال، لا يقدر على شراء ما تُخرجه المطابع من كُتُب في الأدب والشعر، والتاريخ، فكان يعمد إلى ما كانَ يعمد إليه الجاحظ مع اختلاف يسير في طريقة معاملة الكُتبِيّن– فكان ينشئ الصداقات بينه وبينهم، ليقرأ، ويستوعب من غير أن يقاضيه أصحاب المكتبات على ذلك أجرًا قليلًا أو كثيرًا، وشب رامي شاعرًا مطبوعًا، يقرض الشعر في كل خاطر، تضطرب به نفسه، ويختلج به وجدانه، وكانت بواكير شعره في هجاء «مستر دنلوب»، أيام نشاط سعد زغلول ومهاجمته لهذا المستعمر الدخيل، وطوى رامي مرحلة التعليم الثانوي، وأصبح تلميذًا مرموقًا بمدرسة المعلمين العليا، وقد صادفت هذه المدرسة هوى في نفس الشاب الشاعر؛ لعنايتها بدراسة الأدب العربي، والآداب الغربية، وعلى الأخص الأدب الإنجليزي، وفي هذه المدرسة أطلق رامي لنفسه العنَان، فأكبَّ على دراسة الأعلام من شعراء الإنجليز، قرأ شكسبير، وبيرون، وكيتسي وشيلي، ولم ينسَ الأدب العربي، فأخذ بأوفى نصيب من دراسته والإحاطة بأمهات الكتب والمطولات المعروفة في تاريخ هذا الأدب.

ولما وقعت الحرب العالمية الأولى، كان «رامي» ومعه زملاؤه.. محمد فريد أبو حديد وأحمد زكى، وعبدالحميد العبَّادي، ومحمد بدران... قد تخرجوا من مدرسة المعلمين، ولم تكن الدولة في حاجة إلى خدماتهم، فأخذوا يضربون الأرض بَحْثًا عن المدارس التي تحتاج إلى مثل ثقافاتهم، فعين رامي ومحمد فريد أبو حديد مدرسَيْن، بمدرسة القاهرة الثانوية، بحي السيدة زينب، ولم يطل استغناء الحكومة عنهم، فطُلبوا للعمل بمدارسها، فاستقر الشاعر، واطمأن إلى رزقه الرتيب، وأخذ يوثق اتصالاته بشعراء عصره، وأدبائه، عارضًا شعره وإنتاجه، ومتقبلًا نقدَهم، وتوجيههم، وأخرج أول ديوان له عام ١٩١٨م، وفي هذه الفترة من حياته، كان الأدب الروسي يُغير على الأدب الإنجليزي، وتلقف الشاعر النهم، الذي يريد أن يقرأ كل شيء لإحساسه بالجوع إلى هذه الكتب، التي أنفق فيها من عمره ثلاثين عامًا، ثم تركها بعد أن شَغل بها وظيفة الوكيل الأول للدار ؛ لِيُعيّن مستشارًا أدبيًا لإذاعة الجمهورية العربية المتحدة.

وبعد، فهذا هو أحمد رامي، صاحب هذا الديوان الذي اختار موضوعاته من بين سائر دواوينه السابقة، لقد جمع فيه من القصائد والأزجال، ما نال رضاه واطمأن إليه.

• ثقافات زاخرة :

ثقافة عربية عريقة، وأخرى غربية زاخرة صميمة، وثقافة شرقية أصيلة.. كل هذه الثقافات من عربية، وإنجليزية، وفرنسية وفارسية، تعاونت جميعهًا في صقل مواهب الشاعر وملكاته، وامتلائه، من كل الينابيع الفياضة بالفن، والشعر، والأدب، والوجدان، وهذه المواهب الفنية الزاخرة بكل طريف، وجديد، ومبتكر من المذاهب الفنية الحديثة في الشعر والأدب.

ولم يسلم أحمد رامي منذ فجر حياته، من كيد، فقد اتهموه بأنه شاعر يعيش في ظل القدامى، ويضرب في بيدائهم، وليس له قدرة على الخلق والابتكار وإنما هو سجين القافية، وأسير الوزن، وغارق في بحوره القديمة، ورامي كان من الأوائل الذين نظموا الشعر الرومانسي الجديد، متأثرًا في هذا الاتجاه بما قرأ واستوعب من الشعر الإنجليزي، وآداب اللغات الأجنبية، وأسهم في بناء الوحدة من القصيدة، وحَرص على موروثاتنا في الأدب العربي من العناية بالجَرْس والوزن والموسيقي، وإشراق الديباجة، ومتانة الأداء، واستقرار القافية في يسر، وسهولة وتمكن.

• خواطر سجينة :

وطَوَّعَ رامي شعره للتعبير عن آمال وطنه وآلامه، وسجل أحداث أيامه في أفراحها وأتراحها في صور جديدة، وإطار جديد، ومعانٍ دقيقة، لا سوقية فيها ولا تهافت، كما استطاع أن ينأى بالمرأة عن الإثارات الرخيصة التي تصور نوازع الجسد، وهواتف الغريزة، ورامي ليس من أولئك الشعراء الذين تستطيع أن تجد لهم مدارس في الشعر القديم أو الجديد، وإنما هو شاعر لم ينفصل عن المذاهب الفنية للشعر العربي الأصيل، وظل بما يقول من شعر محافظًا على تراثنا الفني العريق، فاحتفل بالمعاني والألفاظ، واحتفى بالأساليب والأخيلة، وأضفى على كل

هذه غلائل متألقة أنيقة من براعة العبارة، ونضارة الألفاظ، وجزالة البيان، مع التطلع للنماذج الجيدة من شعر الغرب وآدابه، فهو متصل بالقديم في الصورة، والآثار، ومتصل بالجديد في المفهوم والمضمون، وهو شديد الاعتزاز بأدبه، وقوميته، وتاريخ فنونه ؛ لأنه يريد أن يشارك مجتمعه في سرائه، وضرائه، وأن يُعبّر عن حاجاته ومُثُله العليا في الحب والحق، والجمال وشعرنا منذ عصر امرئ القيس، حتى هذه الأيام شعر وَسِع بمعانيه الإنسانية العاطفة والخيرة.

أين وحيُ الخيالِ والوجدانِ ... يَسْتقي منه خاطِري وبياني؟!
أسكونٌ والكونُ جَمُّ المعاني ... وسكونٌ والنفس في ثَوَرانِ؟!
هذه نضرة الطبيعة تفترّ ... عن الحُسْن في مُحَيَّا الزمانِ[1]

هذه الخواطر السجينة وأمثالُها، بثها «رامي» في هذه الأبيات، والأبيات التي تليها، وبث نظائرَ لها في أغلب شعر الديوان، هذه الخواطر تصوّرُ كثيرًا من رغبات الشعر، الذي يطويها في جوانحه، ويجب أن يبوح بها دائمًا، وأن الرغبة التي تملأ قلب رامي لتتمثل في التعلق بالحياة أو الاستمتاع بها، وعدم اقتناعه بما حصَّله فيها من متاع لذةٍ وانطلاق.

وبعد، فهذا تخطيط سريع لحياة رامي، ولبعض أشعاره، وقد كنت أرجو أن أجِدَ له شعرًا أكثر من هذا الذي يشتمل عليه الديوان، لأفصّلَ قطاعاتِ هذا التخطيط، وأعلق على كل قطاع، بما يحدد مذهبه الفني، وطريقته الخاصة، فيما يعالج من موضوعات في شعره.

ولقد قسم رامي ديوانه شطرين، أحدِهما أفرده للشعر، والآخرِ للزجل، ولقد كتب على رامي أن يوزّع إنتاجه الأدبي ونشاطه الفني بين الشعر، والزجل والترجمة، والكتابة، ولو أنه وقف مواهبه على الشعر وحده، لكان أجدى وأنسب، وعلى الرغم من هذا كله، فرامي حقيقة من حقائق الحياة الأدبية في هذا العصر، ستظل مرآة صافية، ينعكس عليها وهج المعدن الأصيل للشعر العربي الصميم.

---

(١) الأبيات من البحر الخفيف التام.

(٧) محمود غنيم....[١]

.. لا أدري.. أشرٌّ أريد بي؟! أم أرادت بى هذه المجلة خيرًا؟! حين رَمَتْنِي بهذه الطائفة، التي لا تريح ولا تستريح، ورمتها بي. والشعراء قوم خصهم الله بألسنة حداد، وهم يَغْضَبون، ويُسرفون على أنفسهم في الغضب، إن هَمَسَ ناقد، وحاول أن يهديهم سواء السبيل ؛ لأنهم يزعمون لأنفسهم العصمة، التي اختص الله بها نفسه، ولم ينظروا حُكْم التاريخ، ولم يتأنَوْا حتى يسمعوا كلمة الحق فيهم، فصاحبهم المتنبي كان يقول:

وكلُّ ما خَلَقَ اللّـهُ وما لم يَخْلُقِ
مُحْتَقرٌ في همّتي كشعرةٍ في مَفْرَقِي[٢]

... ومن طريف ما يحكى عن البحتري، أنه كان ينشد شعره ذات يوم، بين يدي الخليفة، فلما انتهى من إنشاده أدار عينيه في السامعين، وقال : لم لا تقولون أحسنتَ، والله لقد أحسنتُ وأحسنتُ !!

... ولم تكن هذه سمة الذاهبين، من شعرائنا القدامى فحسب، بل إن معاصرينا من الشعراء ادعوا الخوارق، التي تَشَقَّقُ السموات والأرض ومن فيهما منها، فهذا شوقي يقول :

---

(١) كتب الغزالي هذا الموضوع ؛ ليكون الأول تحت عنوان شامل هو « شعراء موظفون... ما لهم وما عليهم»، وقد جاء إلينا ضمن أوراق الغزالي؛ مكتوبًا بالآلة الكاتبة دون تحديد لهوية المجلة المذكورة في البداية، وقد ألحق به كلمة موجزة عن حياة الشاعر محمود غنيم.

(٢) شرح ديوان المتنبي ج٣، ص٨١.

وأنا الذي أرثي الشموسَ إذا هوت فتعودُ سِيرتها إلى الدوران[1]

ويقول شيخ البائسين الديب:

يا أمةً جَهِلَتني، وهي عالمةٌ إن الكواكب من نوري وإشراقي[2]

... وعلى الرغم من هذه الكبرياء المجنحة، التي يتلفع بها هؤلاء الأرباب والملوك من الشعراء، فسأقتحم عليهم أبراجهم العاجية، وسألقي منها بمن لا يستحق منهم البقاء فيها.

... هذه مهمة نيطت بي، وسأضطلع بها، ورزقي على الله.

أما الشاعر الذي اختير، ليكون الحلقة الأولى، في هذه السلسلة، فهو شاعر تعبُرُه عينك، في سهولة ويسر، فلا تقف فيه عند معالم أو مجاهل.

وجه صامت ساكن، وعينان تائهتان، وأنفٌ غيرُ سوي، وجبهة تترنح في قمتها شعرات بيض، متهالكة، يجمع كل هذه رأس ليس متسقًا على جسم الشاعر، تطل من جانبيه أذنان غير دقيقتين، أما ثياب الشاعر الفضفاضة، التي يَسبَح فيها، فهي لا تثير، كما أنها لا تروع.

ذلكم الشاعر في شكله، تراه هكذا، فلا يزيد في تقديرك على أنه «عمدة» قرية أو «نجع»... قذفت به إلى القاهرة أغراض أو أمراض !

أما شاعرنا في (موضوعه).. فقد قيل عنه ذات يوم، إنه خليفة «حافظ» وأذكر أن الذي رشحه لهذه الخلافة، أديب عربي من « البرازيل» أراد أن يكرّمَ «غنيمًا» وعندي أن غنيمًا أرسخ قدمًا من حافظ، وأرفع منه قدرًا، في ميدان الشعر المعاصر.. فالمواهب التي تتفاوت عندها أقدار الشعراء، وتتباين منازلهم، يكبر حظ غنيم فيها، ويقل نصيب حافظ..

والذين سمعوا حافظًا، وعاصروه، من أهل النقد، وإصدار الأحكام،

---

(١) البيت من البحر الكامل التام.

(٢) البيت من البحر البسيط التام.

يـرون فـي حـافـظ رأيًـا، يضـعـه فـي مـكـان، لا يـرتـفـع عـن المـكـان الـذي نريد أن نحلق فيه.

... يقول العقاد في كتابه « شعراء مصر».. في الفصل الذي تناول فيه حافظ إبراهيم : «.. كان وسطًا بين شاعر المجلس، وشاعر المطبعة، ولعله استفاد من صفات المنادمة، فوق ما استفاد من معاني الشعر الصميم. والمحقق على كل حال أن صوته في الإلقاء، ولياقته في الإيماء، كان لهما شأن في جذب الأسماع إليه، وإعجابًا بالناس به وليس بالشأن اليسير.»

ثم يقول العقاد.. « وكنت أداعبه فأقول له « إنك بأن تملأ قوالب الحاكي أحرى منك بطبع صفحات الدواوين... « فكان يقوله له حافظ وتكون أنت (عقادي) على تخت الغناء...»

وهذه الفكاهة التي يسوقها العقاد، تحمل في طياتها أبلغ الجدّ، فحافظ شاعر وسط - عاش في كَيانٍ فَكِه عملاق، ومتندر لا يُشقَ له غبار، وقصَصُه في هذا المجال، تزحمُ سُمُعَةَ شاعر النيل من جميع أقطاره..

والذي أريد أن أخلُصَ إليه من عرض رأي العقاد في حافظ «أن العقاد كان أول المحكمين في جائزة مجمع اللغة العربية، التي كان أول من استحقها غنيم بديوانه «صرخةٌ في وادٍ»، ولو أن ديوان حافظ كان إلى جانب ديوان غنيم، لما تردد العقاد وهيئة التحكيم، في الحكم لغنيم، «ذلك لأن الفوز الذي انعقد لصاحب (صرخة في وادٍ) في رأي المحلفّين... كان نتيجة لتفوق صاحبه، في ابتداع الأساليب وإشراق العبارة، وفحولة التراكيب، ولا يختلف ناقدان، في أن غنيمًا يبزُّ حافظًا في هذا المضمار، وهو رأي العقاد أيضًا، فهو يقول عن حافظ :

«إنه مُتَبَسِّط بين المطلعين على الآداب العربية وحدها، والمتوسعين في قراءة الآداب الأوربية، فلا تجد بين العارفين باللغات الأجنبية أحَدا أشبه منه بمن يجهلونها، ولا تجد بين جاهليها أحدًا أشبه منه بمن يعرفونها..»

هذا هو الرأي في «غنيم» حين يقترن بحافظ، أما غنيم حين ننفرد به شاعرًا موظفًا، ينتظر آخر الشهر «مرتبًا».. وآخر المدة «درجة»، وفي نهاية كل سنتين «علاوة».. قد تجد طريقها إليه، أو لا تجد..

فهو القائل في مرتبه آخر الشهر :

ولـي راتـبٌ كـالمـاء، تحـويـه راحتي   فـيـفـلـتُ مـن بـين الأصـابـع هـاربًـا
وإذا استأذن الشهرُ، التفتُّ فلم أجد   إلـى جَـانـبـي إلا غـريمـا مطالبًا[1]

ثم يصف حياته بين حجرات الوظيفة ومكاتبها، وضيقه بهذه الحياة الآسرة الرتيبة فيقول:

لـعـمـرُكَ مـا فـوق المـكـاتـب راحـةٌ   ولا تحـتـهـا كـنـزٌ يـدرُّ المكـاسِـبـا
قضيتُ حياتي بين دارِي ومَكْتَبي   فألفيتُ وجه العيش أصفرَ شاحبًا
تـشـابـهـتْ الأيـــامُ عـنـدي، كأنما   مضى العمرُ يومًا واحـدًا متعاقبًا
أمَـا مِـنْ سبيلٍ للحـيـاة، وغيرُنا   يـرى سُبُـلًا شتـي لهـا ومـذاهِـبـا؟[2]

... وقد طوحت الأيام حينًا من الدهر بغنيم في «كوم حماده».. فقال يصف وظيفته كمعلم:

لـعـمـرُك أنـي قـد بَـرِمْـتُ بفتيةٍ   أروحُ واغـــدُو كـل يــوم إلـيـهـمُ
صـغـارٌ نـربـيـهـمْ بمثـل عقولِهم   ونـبـنـيـهـم لـكـنـنـا نـتـهـدّم
لأُوشِـكُ أن أرتـدَّ طـفـلًا لـطـول ما   أمــثّـلُ دور الـطـفـل بـين يديهمُ

... ثـم يـصـف الـصـمـت الــذي يـلـم أطــراف الـقـريـة، والــسـأم الــذي ينتابه من طول عشرته لأهليها، وبَـرِمـه بخضرتها التي يتحدثون إليه عن نضرتها وجمالها:

أكـادُ مـن الـصـمـت الـذي هـو شاملٌ   إذا حُـسـب الأحـيـاءُ لـم أكُ منهمُ
وعـاشـرت أهـلِـيـهـا سـنـينَ وإنـنـي   غـريـبٌ بإحـسـاسي وروحـي عنهمُ
يـقـولـون : خـضـراء المـرابـع نضرةٌ   فقلت : هُبـوهـا.. لستُ شاة تُسوَّمُ

(١) محمود غنيم – الأعمال الكاملة – المجلد الأول – طبع دار الغد العربي ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، ص٢٤١.
(٢) السابق، المجلد الأول، ص٢٤١

حياةٌ كسطح الماءِ، والماءُ راكدٌ فلا أنا مسرورٌ ولا متألمُ[1]

... وهو ينوب عن إخوانه المعلمين في تحية وزيرهم.. فيقول في شكوى أحوالهم:

خُلِقَ السُّهاد لجفنه ولوجهه خُلق الشُّحوب
هو في الفصول ممثّلٌ آناً، وآونةً خطيب
وإذا اذْلَهمَّ الليل والْتقتْ المضاجع والجُنوب
أمضي سوادَ الليلِ وهو لكل شاردةٍ طَلُوب
إن المعلمَ خُبْزُه بمِداده القَاني مشوبُ[2]

... واستقبل الشاعر منصبه، عندما عُيّن مفتشًا للغة العربية، استقبالًا لائقًا... فقال.. تحت عنوان (منصب زائف) :

وما سرني التفتيشُ حينَ وُليته ولا أنا إنْ ولى عليه بآسف
لقد خِلْتُه يُغنى عيالي من الطَوي فكان كمضروبٍ من النقد زائفِ
وزارةُ مهضومِين ليس بقابضٍ فتىً يرتقي فيها وليس بصارفِ

ثم للشاعر قصيدتان أخريان، إحداهما عن «العلاوة». يقول فيها :

يا أختَ «عرقوب» وعدتِ فانجزي يكفي حَفَاءك من سنينَ طوالِ
هل أنتِ إلا كالغواني طالما سُقْنَ الدلال على رقيق الحال

.... والقصيدة الثانية عن « الكادر » وفيها يقول...

ضغطوا «الكادر الجديد إلى أن لَبَسَتْهُ أعناقُنا أطواقًا
وَيْحَ مصرَ أرى الموظف فيها حَمِلَ العبء وَحْدَه فأطاقا

---

(١) الأبيات من البحر الطويل.
(٢) الأبيات من مجزوء الكامل.

مــن ينـجـيـه مــن بـنــينَ صِــغَــارا وبـــنـــاتٍ يـســألــنـه الإنــفــاقــا

... هذه المختارات التي قدمتها بين يدى القارئ، هى كل ما صادفني في ديوانه، من أشطر تشير إلى «غنيم « الشاعر الموظف..

... والذي أريد أن أتساءل عنه.. هو.. هل هذه الوَمَضَات الخاطفة ترسم صورة كاملة لشاعر موظف؟.. أعتقد أنها ليست بصورة كاملة الظلال، ولا واضحة المعالم..

وقد لا يكون الشاعر مُطَالبًا، أن نلمح أثر عمله الذي يمارسه في شعره، لكننا إلى هذا قصدنا، حين انعقدت النية على الكتابة عن هؤلاء الشعراء الموظفين، ووضعنا نَصْب أعيننا، أن نبرز أثر وظائفهم، فيما يَصْدُر عن مواهبهم من أشعار، تتناول أعمالَهم التي يؤدونها في حياتهم الوظيفية، كمضطرب لهم، يروحون إليها في مشرق كل صباح، ويغدون منها، بعد أن يذهب النهارُ إلا أقله.

وكان المأمول أن يُثْري نَصِيب «غنيم» في الحديث عن هذه الحياة وألوانها وأشجانها، وما أكثُرها !! غير أنه قل قله[1]، تكاد لا تنهض بأن تضيف غُنَيْمًا إلى الشعراء الموظفين وإن ضمته إلى غيرهم.

أين قصيدة غنيم الذي عرض فيها إلى مهنته، وإلى تلاميذه من قصيدة شوقي الذي لم يحترف هذا العمل أبدًا، وهي قصيدة لا نظير لها في منحاها، تلك القصيدة التي يقول في مستهلها:

ألا حــبــذا صــحــبــةُ المكــتــب وأحــبــب بــأيــامــه أحــبــب[2]

وفيها يقول :-

ألا حــبــذا فــتــيــةٌ يمــرحــونَ عــنــانُ الحــيــاة عــلــيــهــم صَــبِــي

وفيها يقول :-

(1) غير واضحة المعنى يمكن أن يتضح المعنى على هذا النحو قُلّ: قِلَّة.
(2) من البحر المتقارب.

وكَـــمْ مــن مُــنْـجِـبٍ فــي تلقي الـدُّروس تـلقِّي الحـيـاةَ فـلم يُنْجِب

وربما كان تحيف حق «غنيم» ونكران صنيعه في ميدان التربية والتعليم، جعل عاطفتَه تتجافى عن حياته الوظيفية، ولا تلامسها، ولا تختلج بين دقائقها.. أو حقائقها.. ومن هنا تقلص ظل الشاعر في هذا اللون من الحياة، أما ألوان الحيوات الأخرى، فلم يفرط الشاعر في صغيرة ولا كبيرة، إلا تناولها في شعره بقدر إحساسه بها، وانفعاله بحوادثها.

والـذي يَعْبُرُ ديـوان « غنيم « يـواجـه حقيقة لا مـراء فيـهـا، تلـك هـي أنه شاعر المجتمع الـذي يعيش، يصور أفراحه وأتـراحـه، ويرسم شئونه وشجونه، فـي إطـارات مـوشّـاة مـن صـفـاءِ خـيـالـه، وسـمـاحـة عـبـارتـه، ورقـة ديباجته، ودقـة سَبْكه، كل ذلـك فـي انسيـاب وإشــراق، يستشف القـارئ فيهما صفحة الغدير المصقول.

وغُنيم الشاعر الموظف في مصر، لا يعيش لمصر وحدَها، وإنما يَسْبَحُ في أجواء المجتمعات العربية لشقيقات مصر، ويحلق في سمواتها، فيعجب ويطرب، ويخلّفُ هناك أكرم الأصداء، التي ترف في هذه الآفاق العربية الصميمة بشعره العربي الصميم.

... وبعد فهذه الصفحات المحدودة لا تتسع إلا لهذا الجانب المحدود من دراسة شاعرنا غنيم.

وقد ألحق الغزالي بهذا الموضوع تكملة له مكتوبة بخط يده واستكمالاً للفائدة، وإتمامًا لحديثه عن الشاعر محمود غنيم نثبتها هنا.

ولد محمود غنيم في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٢م في قرية وادعة من قرى مديرية المنوفية، تتجلى فيها كل خصائص الريف المصري الجميل : هى قرية «مليج» دليل هذا هو السر في حنينَ الشاعر دائمًا إلى الريف وفي إجادة وصفه إياه، وقد سَارَتْ سَيْرَ الأمثال في قصيدته «جمال الريف» التي مطلعها :

عَشِقُوا الجمـالَ الـزائـفَ المجلُوبا وعـشـقـتُ فـيـك جـمـالـك الـوهُـوبـا

قـدَّسـتُ فيـك مـن الـطبيـعة سرَّها   أنـعِـمْ بـشـمـسـك مـشـرقًـا وغـروبـا

وفيها البيت الخالد :

يا بـدرُ انـتَ ابـن الـقـرى وأوراكَ في   لـيـلِ الحـواضـر إنْ طَـلَـعْـتَ غَرِيبا

تربى الشاعر تربية دينية عربية في معهد طنطا الديني، ثم في مدرسة القضاء الشرعي، ثم أتم دراسته في دار العلوم، وكان يجمع في سنى دراسته جميعها بين التفوق العلمي، والتفوق الأدبي.

ولعل هذه التربية الدينية العربية هي التي غرست في نفسه الغيرة على الإسلام والعصبية للقومية العربية، وله في العروبة والإسلام قصائد سارت سَيْرَ المعلقات، ولاسيما قصيدته « مجد الإسلام» التي مطلعها :

مـالـى ولـلـنـجـمِ يَـرعـانِـي وأرعــاهُ   امْسَى كلانا يعاف الغَمْضَة جفناه؟

والتي يقول فيها :

يـا مـن رأى عُـمَـرا تـكـسُـوه بـردتـهُ   والـزيــتُ أدم لـه والـكــوخُ مــأواه

يهـتـزُّ كِـسْـري عـلـى كـرسيـه فَـرِقـا   مـن بطشه، ومـلـوك الـروم تخشاه؟

والشاعر محمود غنيم يحرص على الديباجة العربية الأصيلة، ولا يرى التجديد في مسخ الوزن وتشويه القافية، وإنما يراه في تحديد الصور والأخيلة؛ حتى يمثل الشعر العصر أصدق تمثيل، وقد تأثر أكثر ما تأثر بشاعرين أحدهما قديم وثانيهما حديث، أما الأول فأبو الطيب المتنبي، وأما الثاني فالمرحوم أحمد شوقي.

والأستاذ محمود غنيم يعمل الآن مفتشًا أول للغة العربية بالتعليم الثانوي، وإن كان لنا ما نأخذه عليه فهو أن عمله الرسمي قد طغى بعض الشئ على عمله الفني، فَقَلّ إنتاجُهُ في الأيام الأخيرة، على كثرة ما تخللها من حوادث تستحق التسجيل.

(٨) فتُّوح نشاطي[١]

قليل أولئك القراء الذين يعرفون الأستاذ فتُّوح نشاطي كما عرفتهُ.. وهؤلاء لن يدهشهم أن يجدوا هذا السِّفْر النفيس بين أيديهم.. وربما كان غاية العلم عند أغلبهم الأعم أنهم لا يعرفون عن الأستاذ فتوح، إلا أنه صاحب تمثيل.. وصاحب إخراج.. بلغ في مشارف التمثيل أقربها.. من أعلاها. وبلغ في مشارف الإخراج غاية سامقة فوق أعلاها، فاستوى على منزل هناك لم يستوِ على مثله مُخرج في مصر قبله. اللهم إلا أستاذه الكبير عزيز عيد.

والأستاذ فتوح، صديق قديم.. قد لا أجد من صوالحنا معنا أن أرد هذه الصداقة إلى مَنْبَتِها في مجرى عام من الأعوام.. تلك الأعوام التي تتلاحق أو تتسابق، فتضفي على قديم الصداقات جمال العتق، وعتق الجمال. وتنتقص من جديدها في وَثَباتها التي لا ترحم آمالنا في التزيد من البقاء وما أعزها من آمال.

ولن تدفعني هذه الصداقة أن أُجامَله، فالمجاملة في الأدب سقطة من الكبائر، ولن تعوقني هذه الصداقة أن أثني على أدبه متحرجًا. فَغَمْطُ حقوق الأصدقاء وذوي القربى اتقاء القالة، صغيرة من الصغائر.

وإنه ليسعدني اليوم أن أقدم الأستاذ فتوحًا أديبًا ثابت القَدَم في الأدب... وإن كتابه الذي يوشك أن يطالع القراء. سيقتحم به السبيل المضطربة العسيرة إلى

---

(١) ترك الغزالي هذا النص مكتوبًا بالآلة الكاتبة، وبدون عنوان، ومن غير أن يشير إلى ملابسات كتابته، فاضطررنا إلى وضع اسم المتحدث عنه عنوانًا للموضوع.

مقاوم لا يرقى إليها الأدباء إلا بعد محاولات شاقة مضنية متكررة.. وقلَّما أتيح لأغلبهم كما أتيح للأستاذ فتوح أن يبلغها في إنتاجه البكر.

والأستاذ فتوح إن كنت لا تعرف - رجل يجمع إلى التمكن من الأدب العربي إحاطة واسعة الآفاق بالأدب الغربي... وبالأدب الفرنسي على وجه أعم... واستيعابه لهذا الأدب يبلغ أبعد آماده في أدب المسرح... وهو لون من الآداب، لا نغالي إذا قلنا مع من يقولون: إنه أرفعُها وأخطرُها وأوثقها اتصالا بالنفس، وأشدها تأثيرًا في تكوين الأخلاق، وتهذيبها، وأعمقُها تغلغلًا في حياة الأمم والشعوب، وأهداها سبيلًا إلى خلق مقوماتها وإبراز فضائلها.

وإن تعمق الأستاذ فتوح في دراسة هذا اللون من ألوان الأدب الأصيل الذي يضرب بجذوره في أعرق حضارات الأمم، تجعله في الطليعة من أولئك الأعلام، أصحاب الثقافات الرفيعة ذات الخصائص والسمات المتفردة.

وإذا كنا قد درجنا في مناهج الدراسات الأدبية العالية على أن يتربع أستاذ في كرسي الأدب القديم مثلًا، أو الأدب الأندلسي، أو الأدب اليوناني... أحرى الأستاذ فتوح أن يستأثر بهذا الشرف، فهو الذي يستطيع أن يتحدث إليك في ثقة واطمئنان، عن نشأة الأدب المسرحي وتطوره، وهو الذي يستطيع أن يفيض في قدرة وتفوق في إيراد القضايا التي لا تتخلَّجُ على وهن أو سطحية أو استخذاء... حين يُفَصّلُ الحديث عن اليونان القديمة، وعن الشعر المسرحي في أثينا، وكيف نشأ دينيًا منذ عبادة الإله «ديونيزوس» إله الخصوبة والحياة النباتية.. ثم عن عِيدَيْهِ، عيد الشتاء الذي انبثق عنه شعر الكوميديا، وعيد الربيع الذي ترعرعت في ظله التراجيديا.

إن الأستاذ فتوح هو الخبير المالكُ لناصية القول في هذه المهود التي حبا فيها الأدب المسرحي، وخطا خطواته الوئيدة الأولى في أواسط القرن السادس، قبل الميلاد.. حتى نهض الشاعر المسرحي الأول «أُسخيلُوس» ذو المواهب الأصيلة، من دقة الخيال، وخصوبة الوجدان وعمق العاطفة.

والأستاذ فتوح هو الحجة الثَّبْت، الذي يقص قصة المسرح، منذ أن ارتقى،

وتوثب في مستهل عهد النهضة في أوربا الحديثة، حين كانت هناك مؤثرات أخرى، عدا الأدب اليوناني، طورت المسرح، ودفعته دفعات متواثبة متواكبة.. كانت تتمثل هذه المؤثرات في الثروات الزاخرة والتراث الهائل، الذي تألق في النماذج البارعة، لطائفة بذاتها من شعراء اليونان ومن وليهم من شعراء الرومان.

والأستاذ فتوح هو الفاقه[1] المستوعب الذي تجيش دراساته بالناضج من الرأي، والممحص من الفكر، والمنخَّل[2] من الأحكام الراشدة على أكبر النهضات التمثيلية، التي ظهرت في أوربا الحديثة، سواء في إنجلترا أيام الملكة إليزابيث، أو في فرنسا أيام لويس الرابع عشر، إلى آخر هذه الأجيال، والعصور من تاريخ المسرح، والتمثيل في القديم البعيد، والحديث القريب.

وعندي أن مصرَ وما شاكلها من بلاد، أخذت نفسها بمجاهدة التخلف الثقافي، فسعت جادة إلى أن تنهل وتعل[3] من منابع الفكر العربي.. وهي محقة في ذلك السبيل.. فلن تكتب الحياة لثقافة تُؤثرُ لأبنائها العزلة عن موارد المعرفة ومصادرها.. وإذا استطاعت آداب أمة من الأمم الصاعدة... أو التي اجتازت القمم الشاهقة من المستويات الثقافية.. أن تستغني عن التزود من زاد المعارف الأصيلة الأخرى، فلن يكونَ ذلك إلا إلى حين... ثم تجف الكأس، وينضُب المعين... ثم هي بعد ذلك لا محالة منتجعة الرِّي، ومتسقطة منابع الفن الصحيح، والمعرفة الحقة.. وقد تستطيع أن تتأدى إلى مقصدها وقد ترتد على أعقابها.

ونحن حين نُرجع البصرَ عبر الأزمنة السحقية، في تاريخ اللغة العربية.. تتضح لنا معالم ازدهار هذه اللغة ونضارتها على ضفاف هذه الأزمنة، حين كانت تَعُبُّ عَبًّا من ثقافات الأمم التي دخلت في الإسلام، يوم انبسطت ظلال المملكة الإسلامية على أطراف الدنيا، ويوم مكَّن الله للحضارة العربية في الأرض، فتطلعت إلى الآفاق الرحبة من العلم والأدب والفن... ومن هنا جَدّت الدولة العباسية في تطويع ثقافات الأمم إليها.. بالبحث، والدراسة، والترجمة في شتي ضروب العلم والفلسفة والفنون

(١) الفاقه : الفاهم.

(٢) المنخل : المصفي.

(٣) العلل : الشرب الثاني أو (الشرب المتواصل).

والرياضيات.. وَقلَّ إن كان لهذه الحركة الثقافية العريضة مشابه في تاريخ العلوم والآداب.. وقد كان أعظمُ هذه الثقافات أثرًا في الأدب العربي: الثقافةِ اليونانية والفارسية والهندية.

... لقد أفادت اللغة العربية من هذه الثقافات المختلفة، ولن تتسع هذه العجالة لبسط جوانب هذه الدراسة... والذي نريد أن نخلص إليه... هو أننا نرجو ألا تُصَد اللغة العربية في هذه الأزمنة المتطورة عن الاغتراف من مناهل الثقافات الأجنبية بأكثر من القدر، الذي أمكن أن يصل إليه السابقون في العصور البعيدة.. لنضمن للغتنا وآدابها الحياة، والحركة، والتطور مع اللغات الهادفة، وأن نعملَ على نقل الروائع من هذه الثقافات الأجنبية الخصبة إلى أدبنا ولغتنا وثقافتنا.

وليس أفتك بقيمنا الثقافية، ولا أشد قضاء على تراثنا العربي، من تجنب هذا الزاد الفكري الأجنبي والانصراف عنه.

وإنه لمما ييسّرُ لنا النفع الأكيد، ويحقق لنا الغاية المرجوة في هذا السبيل، لهو احتفاء أمثال الأستاذ فتوح نشاطي، وتصدّيهم بوسائلهم القادرة على نقل آداب هذه الأمم الأجنبية، وعرضها في أمانة وبراعة وجمال.

... والأستاذ فتوح مستكمل أدواته التي تمكنه من الاضطلاع بهذه المهمة الثقافية الخطيرة فهو واسع الثقافة، جزل التعبير، ملم بدقائق اللغة التي ينقل عنها، والتي ينقل إليها.

.. وإن المكتبة العربية ليملؤها الأمل، وتغمرها الثقة في الأستاذ فتوح، لكي يضيفَ إلى أثره البكر، آثارًا أخرى تعمر بها المكتبة العربية وتعتز.

وما أخال صديقي الكريم إلا مُلَبّيًا هذا الرجاءِ فيه، وفي أنداده الكرام ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

(٩) عبدالعزيز السعدني... شاعر ومتفلسف[١]

الأطباء الذين يختلفون فيما بينهم كثيرًا على مواطن الداء، ويختلفون دائمًا على اختيار الدواء ؛ اتفقوا كلهم على تحديد دائي ودوائي، وأصدروا حكمهم الرادع بالإجماع، وهو يقضي بأن أعيش ثلاثة أشهر -بلياليها - أميًا، لا أقرأ ولا أكتب حرفًا واحدًا ؛ ثم على أن أنتبذ من فوري مكانًا قصيًا في أعماق الريف، بعيدًا عن المدن، التي هي بمثابة الأوعية للثقافة والمثقفين، وقد حاولت أن أجادل - بالتي هي أحسن - بعض الأطباء الذين يعالجونني في القاهرة، في موضوع الإذن لي بقراءات خفيفة في كتب الأدب، أو دواوين الشعر، وما كدت أستهل كلامي معه[٢]- وقد عرفته واسع الصدر، رقيق الحاشية، ضاحك الوجه - حتى تفجرت في فمه إنذارات، تهدر كما يهدر البحر في الإسكندرية، حين تلوح العلامات السود على شواطئه الزاخرات.. وأخذ يحذرني من أمراض الكبد الخبيثة، التي تمرح وتسرح في جسمي الهزيل الذي يريد أن ينتفض.

غير أنني لم أستطع أن أحْمِلَ نفسي على ما أرادني عليه الأطباء، فلم أنقطع مثلًا عن كتابة مقالي الأسبوعي - رأي - الذي ينشر مساء كل أحد في صحيفة المساء الغراء، ولم أنقطع عن قراءاتي كلما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولقد شد

---

(١) يبدو أن هذه الدراسة كانت من آخر ما خطّه الغزالي بيده، حيث تحدث في بدايتها عن مرضه، الذي مات به، وقد جاء الموضوع ممتلئًا بالشطب، والتصويب. فكان من المنتظر في أمثال هذه الحالات أن تعاد كتابة الموضوع بشكل نهائي ؛ ولكنه لم يفعل لأسباب لا نعلم كل ملابساتها - رحمه الله.

(٢) لعله يقصد الدكتور / محمد النمر، الذي سيأتي اسمه بعد عدة أسطر، ويبدو من شكل المقال، أنه لم يخضع للمراجعة بسبب الظروف الصحية المشار إليها (أو يكون المقصود طبيبًا آخر).

أزرى، وشجعني على المضي في الكتابة والاطلاع العابر، الطبيب الأديب محمد النمر، الذي دخل مع أمراض الكبد التي أعانيها في صراع قاسٍ مرير، وأصبح قاب قوسين أو أدني من النصر المؤكد إن شاء الله، وتقديرًا من الطبيب الأديب لفاجعة المصابين بالأدب والكتابة يُحرّمون عليهم من مزاولتها، فقد أشار عليَّ بأن أمارس الكتابة والدراسات الأدبية بطريقة «الاستقراء» حتى لا أُجهد أو أُرهق كثيرًا واستجيب للطبيب الأديب، وانتهى بي المطاف إلى صومعة هذا الراهب المعزول عن ضجة الحياة، وضجة المجتمع، إنه الشاعر المتفلسف عبدالعزيز السعدني الذي يقضى سحابة يومه في تجارته الرابحة الواقعة في طرف من أطراف مدينة الزقازيق يصل مشارف المدينة بحقول الكفور والعِزَب، التي تكتنف ضاحية الحسينية التي يقطنها ويتاجرُ فيها.

وطريقة الاستقراء التي رسمتُها لنفسي، وحوَّرت في منهجها بما يتسق وحالتي الصحية، قد تأديت منها إلى دراسة هذا الشاعر المغمور، الجدير بذيوع الصيت، ونباهة الشأن من كثير من شعراء معروفين مشهورين، هذه الطريقة من منهجها تلتقط نماذجها من السفوح العميقة، كما تستدنيها من القمم العالية، فهي تتلمس أصالة الموهوبين، وشاعرية العباقرة، تتلمس هذا في الصفوة والأئمة، كما تتلمسها في المجهولين المغمورين ؛ وحسبها حين ترتاد مجالات هؤلاء، وأولئك، أن تتوقف إلى الفن الصميم، والموهبة الخلاّقة، فتجلوهما وتكشف عن خصائصِهمًا المبدعة، وسماتِهما الفنية، وقد تجد عند هؤلاء المغمورين ما لا تجده عند النابهين المتمتعين بالسمعة العريضة والشهرة الواسعة، وربما كان من حق هؤلاء علىَّ، وعلى الشعراء، الذين سأتناولهم بالعرض والنقد والتحليل، أن أُقدّمَ هؤلاء عليهم، وأن أعرفهم بهم، وأن أثلج صدورهم بأن للشعر روادًا يعيشون للفن في غير تسلق أو ادعاء، لا يبتغون مَجْدًا من شهرةٍ، ولا جاهًا من نباهة.

ولمّا لَمْ يكن لهؤلاء دواوين مطبوعة، يتداولها قراء الشعر، كما لم يسبق أن عَنِيت صحيفة أو مجلة بنشر قليل أو كثير من أشعارهم، فسأقدم بين يدي القراء بعضًا من قصائدهم جيدها ورديئها، فقد يكون رديئُهم خيرًا من جيِّدِ كثيرٍ من شعرائنا النابهين.

يقول الشاعر المتفلسف - عبدالعزيز السعدني - الذي قرأ من عيون الأدب العربي، والأدب الإنجليزي، أخصب روائعهما، وأجمل ما فيهما... قال في مستهل قصيدته - الرحلة الأخيرة - التي عشت في جوها الناسم بأنفاس فيلسوف المعرّة، وإن خلت من أية نظرة لتأملات المعري وسَبَحَاته...

قال السعدني نقلًا عن ذات نفسه :

سأرحلُ عن دُنياي مثلَ قدومي   واطرحُ فيها شِقوتي وهُمومي
وأنسَى إساءاتِ الزمان وأهله   وجَفْوَةَ أحبابي، وكيدَ خُصومي
ولا أشتكي ضَيْمًا، ولا أتقي أذيً   ولا أحتمي من ظالم بظَلُوم
وأرقدُ في بطن الثرى غيرَ حافلٍ   بما فوقَه من ظُلْمَةٍ وغُيوم[1]

وله أيضًا في ظلال هذا المعنى:

لقد ساءني أن الحياة جميلةٌ   وأنَّ مقامي في الحياة قليلُ
وأنّي سأمْضِي غيرَ كاشفِ سرِّها   وأني فيها حائرٌ وخليلُ
وأنّي أراها واحةً في تَنُوفَةٍ   وكم ضَلَّ فيها سالكٌ ودليل[2]
وبالواحةِ الرَّيَّا أناخَ ليرتَوي   فلمْ ينطفئْ بالرَّيِّ منه غليلُ
وشَدَّ على حُبِّ المُقامَ رحالَه   مشُوقًا كما اشتاق للشفاء عليلُ[3]

ثم هو يذكر أولاده حين يذكر فراقه للحياة. ونهاية أيامه، فيأسى على فراقهم، ويخشى أن يَذِلُّوا من بعده، وهو الذي يقيهم قسوة الدهر وخطوب الأيام:

لكمُ الله يا بَنِيَّ إذا مُتُّ   وأصبحتُمْ بغيرِ مُعِين
ولقيتُمُ من قَسْوةِ الدهر ما لا   تستطيعون دَفْعَه بيمين

---

(١) لزوميات جديدة- عبدالعزيز السعدني- طبع مطبعة قاصد خير، بالفجالة، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٢٤.

(٢) التنوفة : المفازة (الصحراء).

(٣) لزوميات جديدة، ص٣٦.

وذلــلــتُـمُ مــن بــعــدِ عـــزٍّ، وذقــتُـمُ   ألــمَ الـيُـتْـمِ والــنَّــوَى والحــنــين[1]

وأشـــدُّ الـــهَـــوَانِ هَـــوْلًا هـــوانٌ   بــاتَ فـيـه مــن كــان غَـيــر مَـهـين[2]

... والسعدني ليس عابسًا في فلسفته دائمًا، وإنما هو ضاحك ومازح أيضًا.. إن فلسفة الموت عنده، تَعْتَصِرُ أحلامه وأوهامَهُ، ومشاعرَه، كما تتفعل به فلسفة الضحك والمرح، فيسكب فيها روحَه وأشواقَه وخواطره.

نزل ذات ليلة ضيفًا على صديقه – الشاعر أحمد العجمي، الذي سيأتي دوره في هذه الدراسة، وبات ليلته تلك في منزل صديقه، وما كاد يستقر في فراشه، حتى هاجمته تجمعات جامعة جائعة من البراغيث، تنهشه وتلسعه، فكانت ليلةً ليلاء، سجلها في قصيدة، قال في مطلعها :

يــا بــراغــيــثُ.. كُــلُّ ضيـفٍ يُـوافـي   تــتــلــقَّــيــنــهُ بــهــذا « الــزُّعــاف»[3]

أقــبــلــي أقــبــلــي تــعــالــى تــعــالــى   لا تــخــافــي مــنِّــى ألا لا تخافي

احِـشـدي فـيـك عـسـكرًا وجـنـودًا   كــالــزنــانــيــر بــيــن بـــاد وخـــافـــي

فــانــهــشــي مـــا يَـــرِقُّ مـــن أعماقي   وانــهــســى مــا يَــدِقُّ مــن أطــرافــي[4]

واطـمـئـنـي فـالـنـاسُ عـنـي نـيـامٌ   وبــعــيــدٌ أنـــا مـــن الإســعـــاف

يـــا بـــراغـــيـــثُ أنـــتِ ذاتُ خراطيـ   ـمِ طـــوالٍ كـــإبـــرةِ الإســـكـــاف

لـيـسَ فـي الأرضِ مـا يـفـوقُـك تَعْدَا   دًا ولا فـــي خـــرائـــب الأوقـــاف

ثم يقول مهنئًا ومداعبًا بعض أصدقائه الموظفين، الذين عُرفوا بارتداء الملابس العربية والعمامة، ثم هجر[5] هذه الملابس إلى الزي الأفرنجي، بعد أن رقي مباشرة إلى درجة أكبر.

---

(١) النوى : الفراق.

(٢) لزوميات جديدة، ص ٩٩.

(٣) السمُّ الزُّعاف: سريع القتل.

(٤) انهسي: بمعني انهشي.

(٥) الضمير للصديق، وقد بدت آثار مرض الغزالي بصياغته لهذا المقال، الذي أصلحنا فيه بعض الصياغات، والتي لو راجعها، وتنبه لها ما فاتت عليه.

أدرُجُ إلى العَلْيَاءِ حتَّى القمَّةِ   بالصدفةِ العمياء لا بالهِمَّةِ
بأيِّ حقٍ ترتقِي بالذمَّةْ   بالله هَلْ نَسِيت عهد « العِمَّةْ»؟

وينطوي صدر الشاعر عميقًا على قلب إنسان كبير، إنه يحس بالحياة التي يحياها، ويحياها الناس مِنْ حوله، إحساسًا عميقًا واعيًا، إنه قلق ومشفق من نعمته، وشقاء الآخرين، ومن يسره، وضيق البائسين، ثم هو ناقم على أولئك «المتعطلين بالوراثة» أولئك النفر الذين وَرَثُوا المال والجاه والمجد، وتركوا سواهم للفقر والجهل والمرض.

قد ساءني أن بِتُّ ليْلِي ناعمًا   وسواي قد حُرِم الكَرَى والمَطْعمَا[1]
أأكونُ ذا قَلْبٍ، إذا لم ينتفِضْ   ألمًا على قَلْبٍ شَكَا وتألما

وفي قصيدة أخرى يقول :

أرَانِي قِدْ بِتُّ في نعمَةٍ   سِوايَ من النَّاس منها حُرِمْ
أيَحْرَم من جدَّ في سعيهِ   وفي سعيه ذاق مُرَّ الألَمْ
ويرزقُ مَنْ عاش لم تَنْتَقِلْ   إلى رزقه قدمُ عن قدمْ

وأحب أن أنبِّه أن هذا الشعر في المقطوعتين السابقتين، والشعر الذي سأورده فيما يلي، نقلته عن نسخة من ديوان للشاعر، مطبوع منذ أكثر من ربع قرن، وكانت مشيخة الأزهر، قد رأت فيه ما يحتم مصادرته فصادرته، وأحرقته، وبقيت بعض النسخ المعدودة بأيدي بعض أصدقاء الشاعر.. مما يشير إشارة قوية إلى ما انفطرت عليه نفس شاعرنا، التي وَسِعت بفلسفتها أوضاعَ الحياة المنحرفة الظالمة، وحظوظها المتباينة البشعة، بسبب ما كان يضطرب فيها من صراع الطبقات، واستبداد السادة بالعبيد، وجوع الإقطاع المستغل.

لِمَ ارتفعتُمْ لم انخفضنا؟   وما صَلُحتُمْ ولا فَسَدْنا

---

(١) الكرى : النوم.

أمَــا خُــلِقــتـمْ كـمـا خُـلِقـنـا   أمــا وُلـــدتم كـمــا وُلــدنــا
فـكـيـفَ فــي وَضْـعِـنــا اختلفنا   فـقـيـل أعْــلَــى، وقـيــل أدنـــي؟
وكــيــف سُــدتم إذا عـلـيـنـا   ولـــو وَزَنَّـــا الـعــقــولَ سُــدْنَـا
يُـصـيـبكُـمْ حـظُّـكـم رُقُـــودا   ولـــم يُـصِـبْـنَـا ومـــا رَقَــدْنـا
يـا غَـيْـثُ جُــدْتَ الـبـحـارَمِـنَّـا   ونـحــن قَـفْــرٌ الا فــجُــدْنَـا[1]

والسعدني كما قدمت، تاجر ناجح في تجارته، إلا أنه بَرِمٌ بها، كارهٌ لها، يرى فيها سجنه، الذي فتحه بيده، وزجَّ نفسه في غياباته :

لـــقـــد رمـــانــــي زمــانـــي   بـمـــهـــنـــةٍ كـــالـــكُـــسَــاح
حـبـسـتُ نـفـسِـي بـنـفـسِـي   وفـــــي يــــدي مــفــتــاحـــي
والمـــــالُ يـــجـــذب نـفـسـي   إلـــيـــه جـــذبُ المُـــلاحِـــي
مَـــهْـــمَـــا أدُرْ فـــإلـــيـــه   كـــإبـــرة المـــــلَّاح[2]

وللشاعر في مجال الوطنية أغانٍ وملاحمُ أسهم بها في أعياد الثورة، وحيًّا فيها بطل الكفاح العربي، وقائدَ نضاله المنتصر، الرئيس جمال عبدالناصر:

بـــلادي لـــكِ الـــروحُ مـنـى فِـدًي   فـمـا مـــات مـن مـــات مُـسْـتَـشْـهـدًا
وإن لـم أزُدْ بـدمـي عـن حِـمَـاك   فـلـسـتُ خـلـيـقًـا بـأن أوْلَـــدا
ولـــي قـــدوةٌ بـرئـيــسِ الـبـلاد   وقـــد فـــازمَـــنْ بـالـرئـيـس اقـتـدى
رأى مـــا يـكـنُّ لـك المـعـتـدون   فـجـنَّـدَ لـلـنـصـر مـا جَـنَّـدا
وألَّـــفَ بـيـن شِـتـات الـقـلـوب   وأصْـلَـحَ مـا غـيـرُه أفـسَـدَا
ورد الحـقـوقَ إلـــى أهـلِـهـا   وحـــرَّر مَـــنْ كـــان مُـسْـتَـعْـبَـدَا

وبعد فهذا هو السعدني، الشاعر المتفلسف في بعض أشعاره، التي اتسع لها المقام، وأمامي الآن من شعره ألوان كثيرة فيها القصائد الطوال، والمقطوعات القصار، وطنية،

(١) لزوميات جديدة، ص٩١، ٩٢.
(٢) لزوميات جديدة، ص١٧.

وفلسفة، وتأملات، وغزل، ووصف، وهجاء، ورثاء، ومدح في العباقرة، وقادة الفكر الذين تتلمذ على آثارهم السعدني.. إلى غير ذلك من ألوان الإنتاج الروحي الخِصْب، الذي خاطب فيه كلَّ هواتف الحياة، وأشواقَها، وأفراحَها، وأتراحَها، في قدرة، وتفوق، وبراعة..

وإن نفسه لتذهبُ حسراتٍ على ما آل إليه تقدير أهل الفن والشعر، لشعره ولفنه، إنهم يبخسونه شعره حين يُنسب إليه، أمَّا حين يسمعونَهُ غير منسوب إليه، فهم معجبون به أشدَّ الإعجاب، ذاهبين إلى المستوى العالي من الشعر الرفيع.

ومنذ شهور وقفت سيارة ضخمة تحمل اسم دار من دور الصحف الكبيرة والمجلات الأسبوعية المعروفة، وبها ثلاثة من المحررين، ومعهم جهاز تصوير، وقد حضروا لالتقاط صور للشاعر عبدالعزيز السعدني، وأخْذِ حديثٍ منه، بعد أن نُمِي إلى علم القائمين بأمر الصحيفة، التي أرسلتهم للحصول على الحديث وأنباءَ هذا الشاعر الفذّ الموهوب، وغزارة ثقافته، وغرابة أطوار حياته.

ويبدو أن المحررين كانوا يتخيلون أنهم سيجدون راهبًا يلبس المسوح[1]، أو صومعةً[2] تضيئها الشموع في وَضَح النهار وقد غمرت أضواؤها الشاعر المغمور، أو أنهم سيجدون « متنبئًا » يعيد سيرة أبي الطيب المتنبي أو فيلسوفًا يبتدرهم بالحديث عن الغيب ومكنوناته، فيعيد أيامَ شيخ المعرة، ولمّا لم يجدوا أحدًا من هؤلاء، ورأوا شبحًا داخل متجر؛ وقد تقاطر عليه الناس يشترون منه ويبيعون، وقد اقتحمته عيونهم، وهان عليهم شأنُه، فلم يُطيلوا معه الكلام من هول فجيعتهم مما رأوا، ولم يتوسموا فيه أي ذكاء أو عبقرية، فعادوا أدراجَهم إلى القاهرة، بعد أن جاملوه مجاملة رقيقة قائلين له: إن إدارة الجريدة ترجو أن تراكم في القاهرة

---

(١) المسوح : أثواب الرهبان.

(٢) وضع الغزالي تصورًا ابتدائيًا لشكل هذا المقال، حيث رأى وضع صورة للسعدني وتحتها بيان من الشعر لا يصلحان للكتابة لما بهما من تجاوز أسلوبي في الحديث عن الله سبحانه وتعالى، والمطلع عليهما يرى سببًا وجيهًا لمصادرة ديوان السعدني.

ليتحدث إليكم محررها الأدبي، فشكرهم السعدني وأكرم وفادتهم وانصرفوا مشكورين[1]..

والذين يريدون أن يعرفوا من يكون الشاعر المتفلسف «السعدني» وكيف وصل إلى إنماء مواهبه، وشحذ ملكاته، وصقل ذوقه الفني والأدبي، واستيعاب الثقافات الرفيعة من دراساته للأدبين العربي والإنجليزي، فليعرف هؤلاء أن السعدني لم يَدْخُل مدرسةً في حياته، ولم يتعلم من مدرس في بيته، ولم يمكث في كُتَّاب القرية أكثر من ثلاث سنوات، تعلم فيها مبادئ القراءة والكتابة، وحفِظَ ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم، هي أجزاء عم، وتبارك، وقدسمع، وكان سنه ست سنوات، ثم طلب من والده أن يشتري له مصحفًا بعد أن قُطع عن «الكتاب»، فأجابه إلى رغبته، فأخذ يزيد محفوظاته من آيات الذكر الحكيم، ثم حصل على بعض القصص والروايات، كألف ليلة وليلة، وأبو زيد الهلالي، والزناتي خليفة، وعنترة، وسيف ابن ذى يزن، وقد أقعدت الضائقة المالية التي كان يعانيها أبوه عن إلحاقه بإحدى المدارس، وافتتح له ولإخوته متجرًا صغيرًا بضاحية « الحسينية» في الطريق الغربي لمدينة الزقازيق، وفي الشارع الذي يقع فيه هذا المتجر أنشيء المعهد الديني، فاتصل السعدني بطلابه، وأُتيح له الاطلاعُ على ما بأيديهم من كتب دينية وأدبية ولغوية وتاريخية..الخ، فأقبلَ على المطالعة، وألمَّ بما في هذه الكتب من علوم النحو والصرف والبلاغة، ومن هنا انفتحت أمَامَهُ آفاقٌ بعيدة من جيد الشعر وروائع البيان فعَلَّ ونَهِلَ[2]، ثم اتجه إلى تعلم اللغة الإنجليزية، فأصاب منها حظًا موفورًا.

... ولم يدع أديبًا من أدباء العصر إلا قرأه، وألمَّ بأدبه وفنه إلمامًا واسعًا، فأحاط بأدب العقاد وشعره وفلسفته، وبطه حسين، والزيات، والرافعي، وشوقي، وحافظ، وغيرهم.

والسعدني كان ولم يزل متحرر الفكر، تقدميًا، يكره التقليد، ولا يطيق أن يجري

---

(١) ويبدو أيضًا أن هذه القصة فيها من الخيال والمبالغة والتوهُّم، أكثر مما بها من الصدق والحقيقة، ذلك أن حكايات الشعراء لا تنتهي، وتوهمَاتهم لا حدود لها، وقد استمع الغزالي للحكاية ولم يفندها كعادته.

(٢) عل ونهل: شرب بمستويين مختلفين.

في غُبار القدامى، وقد جنى من نتائج ثورته على القديم، وانطلاقه في سبيل التخلص من آثاره، وأفكاره، وقيوده، أن أحرقت مشيخة الأزهر منذ أكثر من ربع قرن «ديوانه الأول والأخير»، وقد نَأَتْ فيه عن الطريق السويّ[1]؛ والسعدني ما يزال يَسْبَحُ في أمواج كالجبال من عقائده المتحررة، وأفكاره المتطورة، وإن أعماق نفسه لتتوهج بالشُّعَل المتقدة، التي تذكيها روح ثائرة شاعرة، فيلسوفة، تَسْرِي في ثنايا هذا الكون، وتتسرب في مسالكه ودروبه، ناعمة حينًا، وشقية أحيانًا، تهيم بأفراحها فيه، وتأسى من أحزانها عليه..

وقد لا تكون النماذج التي تضمنها هذا المقال من شعر السعدني تكفي لرسم تخطيط دقيق لخصائص هذه الشاعرية، التي لا يعرف الناس عنها قليلًا أو كثيرًا، ولكنها إيماءات سريعة لنفس موهوبة، تحِسُّ بذاتها، وبالكون الذي يضطرب من حولها بآماله وآلامه، تحس في صدق جارف وانفعال حاد، وإدراك الشاعر لحقائق نفسه وكونه، وما يحيط بهما من ظواهر وكائنات، وما يكتنفهما من أسرار مبثوثة في تجاليدهما، أو حافة من حولهما...

وتتباين قيم الشعر قوة وضعفًا، وخصوبة وجَدْبًا، بقدر ما يتباين نصيب الشعر من الحس الصادق والمشاركة الوجدانية، والتجاوب العاطفي بين الشاعر ونفسه، وكونه وعوالمه الشعورية... ومن هذه الزاوية الرحبة ينعزل الغزالي الشاعر الضحل المنبتّ[2] عن الشاعر الدفاق المبثوث، فيقف المقفرونَ المجدبون بعيدًا جًدا عن الزاخرين الموهوبين.

والشاعر السعدني لم يُحِسّ به إنسان، ولم يعمل على أن يحسَّ به إنسان، وإن أحسَّ هو بكل إنسان في سرَّائه وضرَّائه، فأنت ترى نفسك في شعره، وتقرأ

---

(١) هذه الجملة بها تجاوز من الغزالي - رحمه الله - وقد ذكر في هذه المقالة بيتين للسعدني، وأغفلناهما، لما بهما من خروج عن ثوابت العقيدة، مما يقوى عندي رؤية الأزهر، ومصداقيته في حجب هذين البيتين وأمثالهما عن القراء، وقد شرعت في أن أجعل العبارة (وقد نأى فيه..) بإرجاع الضمير إلى السعدني، لكن ذكر البيتين اللذين أسقطتهما حَتم ضرورة إبقاء التعبير على حالته، وإعادة الضمير إلى مشيخة الأزهر.

(٢) المنبتّ : المتقطع.

عالمكَ في خياله، إنه يُعمِّق إحساسه بالحياة، فتنتفض هذه الحياة فوق قرطاسه حبًا وإنسانية، وشوقًا وحنينًا، وخَلْجة وارتجافة، إنها حقائق الحياة ترسمها ريشة الملهمين، وأحق هؤلاء الملهمين برعاية المسئولين أولئك الذين يعيشون في صمت وزهد وفناء في الفن لوجه الفن، لا يظمْئون إلى أضواء المجتمع، ولا يسيل لُعابهم على ذيوع الصيت.

إنني أقدم هؤلاء الشعراء المجهولين إلى السيد الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة والإرشاد القومي، وبيمين كل منهم ديوان من الشعر العربي المتجدد الأصيل، وَسَيَجِدُ فيهم الوزير الفنان منارات تهدي السارين إلى معالم الشعر الحديث المتطور، في غير ادعاء أو حماقة، أو خروج على مقدسات أدبنا الصحيح الموروث.

وثقتي أن الشعراء النابهين الذين أذكرُ أنني وَعَدْتُ بأن أتناولهم في دراسات تحليلية سريعة، ومن بينهم أحمد مخيمر، خليل جرجس خليل، أحمد علي ذكي، عبده بدوي، والشاعر العراقي.. سوف يرحبون حين أقدم عليهم في الكتابة إخوة لهم من الشعراء المجهولين الموهوبين كشاعرنا السعدني، أحمد العجمي، توفيق عوضي أباظة،،، فإلى لقاء قريب.

(١٠) نار.... وأصفاد(١)

للشاعر محمود حسن إسماعيل

من القضايا الأدبية التي أسرفَتْ عليها لجاجة النقاد، وأرهقتها حماقة الفارغين من الثقافة والفهم... قضية الشعر العربي، ودعاوى التجديد فيه... والصراع حول هذه القضية قديم، مُمْعِنٌ في القدم، انطلق هيّنًا ليّنًا، يتوثب في مواهب الشعراء العمالقة، الذين حلّقوا بقصائدهم وأشعارهم في أرفع المستويات، وأعلى القمم أيام أبي تمام، وأبي الطيب وأضرابهما.

ثم كانت ثورة أبي نُوَاس، على كيان القصيدة العربية، في مطالعها ومفاهيمها، وظلال صورها، هادفة بنَّاءة، وضعت بعض معالم التجديد، على أول الطريق.. غير أن هذه المعالم، لم تلبث أن انطمست وانطوت في مجاهل الأجيال، ومتاهات العصور، التي ظلت تحتفظ بالقصيدة العربية، في تقاليدها القديمة الموروثة، التي تتمثل في الإطار، والمضمون..

وهذا اللون من شعرنا العربي شعر القصائد الطوال والقِصَار، هو ما يسمونه في الآداب الأوربية بالشعر الغنائي، وإنَّ شأن الشعراء الفحول في شعرنا العربي، هو شأن الشعراء الكبار في الأدب الغربي، فعظمة الفكر وأصالة الموهبة، ورحابة الأفق، وعمق التغني بأشواق الحياة وأفراحِها وحُريَّاتها، هي أدوات الشعراء الأفذاذ في مختلف الشعوب والأمم.

---

(١) نشر هذا الموضوع بجريدة المساء في الثاني عشر من مايو عام ١٩٦٠م

وكذلك كان كما نعرف شكسبير وبيرون عند الإنجليز، وجيته في ألمانيا، ودانتي في إيطاليا، والمتنبي والمعرى وأبا تمام وابن الرومي شاعرنا الضخم الذي انفرد بخصائص وسمات، بين شعراء العرب أجمعين. ولا أريدُ أن أخوضَ في هذا الحديث الآن، وإن لي عودةً إلى هذه القضية في مقال قريب.

والذي أريد أن أخلُص إليه، حتى لا أنساق في غير المُنْحَنى، الذي أستهدفهُ من هذا المقال، هو أن قضية التجديد في الشعر العربي مضى عليها حين طويل من الدهر، لم تكن شيئًا مذكورًا، حتى مستهل القرن العشرين، الذي اضطلع فيه العقاد بأخطر دعوة للتجديد في الشعر الغنائي، الذي تتألف منه عصور شعرنا القديم كله، ولم تتعثرْ دعوةُ العقاد ولم تَهُنْ ولم تتخاذل؛ لأنها تتكئ على دعائم قويةٍ راسخةٍ من الثقافات الغربية الزاخرة، ووقف إلى جانب العقاد زميلاه الشاعران شكري والمازني، وقد تخلف المازني عن الرَّكْض في هذا الميدان، وانصرف عن مشكلات الشعر إلى مشاغل الكُتّاب، ثم تخطَّف اليأسُ والمرضُ عبدالرحمن شكري، وأخيرًا استراح المازني وصاحبه من الحياة، وأعباء أصحاب الرسالات فيها، ومدَّ الله حياة العقاد ؛ ليواصل كفاحه في ميدان أدبه الحرّ، وفكره الخلاّق.

في هذه الفترة التي أشْعَلَ فيها العقاد ثورته العارمة، وخصوماتِه الدامية، في ميادين التجديد والتطوير لجوهر الشعر وحقيقته ؛ ليكون ترجمة لوجدان الشاعر، وهواتف حسه ونَفْسه. تلك الثورة التي زلزلت جدار الشعر العربي المعاصر، الذي كان محاصرًا بين مناطق الشعر العربي القديم، والذي كان يُعتبر امتدادًا لحياة شعرائنا الذاهبين القدامى.

في هذه الفترة، ومنذ أكثر من ثلث قرن، ظهر صاحب «أغاني الكوخ، و «هكذا أغني» و «أين المفر» و «نار وأصفاد»، ظهر الشاعر محمود حسن إسماعيل، شاعرًا سويًا، كامل الأداة، بعد أن عَلَّ ونَهَلَ، من أعذب الموارد وأزخرها، وأصفاها، وأفاض كل هذا الخِصْبِ والمتاع، على موهبة أصيلة ووجدان عامر، ونفس وادعة، ولَمَعَ في سماءٍ من خياله وظلالَه، وطَوَّف في أودية من أوهامه وأحلامه، التي سيطرت عليه، ولم تمكنه من التجوال في غيرها، وظل محمود حسن إسماعيل، يسبح في

أجوائه التي لم يستطع النفوذ من أقطارها ولا الانفلات من مساربها، فهو فيها طيف بين الأطياف، وشَبَحٌ يهوم مع الأشباح، بين سفح الكوخ، وأنين الساقية ورهبان النخيل...

ولقد شَغَلَ محمود حسن إسماعيل قراء الشعر ونقادَه، وروادَه ومدارسَه المختلفة في هذه الفترة منذ ثلث قرن، شَغل هؤلاء جميعًا شُغْلًا متصلًا، كانت أساليبُه وصورُه، وطاقاتُه من نسيجه وَحْدَه. فأثار عليه محترفي النقد الشاطح، والرأي المنحرف، والسخرية اللاهية، كان هؤلاء كلما أوْغَلُوا في هجومهم بعنف، أوغَلَ محمود حسن إسماعيل في ميدان الشهرة بعنف أيضًا، ما قرأت له يومًا ردًا على هجوم، ولا دفاعًا منه عن صديق، وإنما كنت أسمع له كل يوم قصيدة في مهرجان، أو شعرًا في صحيفة، أو ملحمة في ديوانه.

وأذكر أنني شهدت في عام ١٩٣٧م احتفال مصر والبلاد العربية بإحياء ذكرى الشاعر حافظ إبراهيم، بدار الأوبرا، وكان برنامج المتكلمين ينتظم أكبر شعراء الشرق العربي، وازدحمت الأوبرا بالمدعوين من مصر وأخواتها الشقيقات، ولم يكن هناك مكان لواقف، وتداول الشعراء على المنصة.. وجاء دور شاعرنا، صاحب «نار وأصفاد» وكان بحكم سنه بعد شيوخ الشعر وأعلامه النابهين، ووقف يلقي قصيدته. ولم يكد يتجاوز الأبيات الأُوَل على مطلع القصيدة، حتى أوشك الجمهور أن يندفع إلى حيث يقف الشاعر؛ ليحمله فوق أكتافه ؛ ليكمل إلقاء قصيدته، وكان الشعراء والمتكلمون الجالسون على خشبة المسرح أكثرَ من الجمهور انفعالًا واحتفالًا بقدرة الشاعر محمود حسن إسماعيل، وتفوقه وروعته ونجاحه المكتسح.

لم يكن الجمهور من الدَّهْمَاء الذين يستثيرهم الإلقاء والتمثيل فيه، وإنما كان صفوةً مختارة من أساتذةِ الجامعة، وشبابِ العلم والأدب والمعرفة، وقادة الفكر والقلم في الشعوب العربية كافة.

هذا مثل من أمثلة سيطرة هذا الشاعر على الجماهير والقراء، ورواد الشعر من الشباب والطلاب.

وصاحب «نار.. وأصفاد» هو صاحب الدواوين التي أشرتُ إليها من

قبل، ثم هو صاحب الشعر الغنائي، الذي ارتفع إلى أكرم المستويات، وأعظمها سُمُوقًا، وأشرفها قدَرًا، هو صاحب الروائع «النهر الخالد» و «دعاء الشرق» اللتين يغنيهما عبدالوهاب، و: رُبَى الفيحاء» التي تنشدها أم كلثوم وغيرها.

ألحان هادئة..

ولقد أسهم شاعرنا في مراحل حياة أمته التي عاشها ويعيشها، وسجل في شعره أحداث هذه المراحل. ولم ينعزل عن ركب الحياة الصاعد، بل هو مع الحُدَاة الشُّداة، الذين يغنون لهذا الركب أناشيد القوة وأهازيج المجد، في ألحانٍ رنانة، جياشة، هادرة، وتتكامل الصورة الشاعرة وتتسق، في خاطر هذا الشاعر؛ حتى تنساب بين الصفحات حركة وفنًا وحياة ائتلاق وإشراق، وتَدَفُّق؛ يستقبل أفراح أمته بأفراح عاطفته وآمال شعبه بآمال قلبه، وانتصار بلده وأحراره، بانتفاضة عرائسه وأشعاره.

يا قَوْمُ إني وَعَظْتُ اليومَ فاستمعوا ... فإنني لكُمُ يومَ الفَخَار أبُ
خلقْتُ من ارضِكم للشمس رابيةً ... عِطْرُ الخلود بها ريَّانُ منسكب
كونُوا لها صفَّ ابطالٍ، على فَمِهِمْ ... نشيدُ مجْدٍ، بلحن النار يَلتهب
فإن دعا هاتفٌ للحرب أو رَجَفَتْ ... مِنْ بُوقِها نُذُرٌ بالشرِّ تقترب
هُبُّواً حتُوفًا، وطيروا انسُرا، وَثِبُوا ... صَوَاعِقًا بالمنايا الحُمْرِ تصْطَخِبُ[1]

... وشاعرنا يتعمقِ أحداث حياته وحياة المجتمع من حوله، في حدة وانفعال، ويتوزع إحساسه عالمان، عالمُه الذي يعيش داخل نفسِه بنوازعِه، وهواجسه، وأسراره، وعالمه الذي يعيش هو فيه خارج نفسه، بحقائقه ودقائقه وأمانيه، وغنت ألحانُه مكنوناتِ نفسه وعصرِه، ولمس جراح أمته، وهي تتنزى[2] وتتلوى، تحت خطوب

(١) نار وأصفاد، محمود حسن إسماعيل ص٥٠، ٥١، طبع الأنجلو المصرية ١٩٥٩م.
(٢) تتنزى: تتوثب وتثور، وتتحرك وتطمح.

الليالي الغاشمة، وهجمات الذئاب العاوية من شُذَّاذ الآفاق وسارقي شعوب هذا الشرق :

ومن كان مِثْلَ الشرقِ، تَغْلي جراحُهُ   فيتركُها للداءِ تَغْدُو مَغانِمَا

مَضَى كلُّ شعبٍ للسماء مُوَحِّدًا   ونحنُ على البَلْوى عِشقْنَا التَّقاسُما

حِمانا حمى الإيمانِ والنورِ والهُدَى   فَكَيْفَ غَدَوْنَا للعِبَاد غَنَائِمَا

ثم هو يربط بين أمم هذا الشرق برباط الأمل والألم، والمشاركة في بأساء الحياة وضَرَّائها.

إذا قَلْبُ لبُنانَ تنَهدَ بالآسي   سَمِعْتَ حفيفَ الأرْزِفي النيل جاحما[1]

وإنْ أرْعَشَتْ مَوْجَ الفُرَات كآبةٌ   رَأيتَ أسَاهَا في رُبَي مصْرَ غائما

... ثم يهيب بالشرق أن يَهُبَّ من سُباته[2]، ويتهيأ للبعث والنشور، متجملًا بالأخلاق، ومتزودًا من تراث الروحانية في مُهود الأنبياء.

فيا شَرْقُ طالَ النومُ، فانْهَضْ، فإنما   يدُ الذّل تجتاحُ الشعوبَ النوائما

تزَوَّدْ من الأخلاقِ، إن سلاحَها   يَفُلُّ حديَد الظُّلْم إنْ هَبَّ غاشِما

تُراثَ مِهادُ الأنبياءِ، بَشطِّه   تَدَفَّقَ نورُ الكونَ كالسَّيْلِ عارِمًا

فأشْعِلْ رمادَ الهامدِينَ، وقُلْ لهم   هُنَا جذوةُ الماضي تُثير العزائما[3]

• نار.. وأصفاد:

.. و «نار.. وأصفاد » تلتهب صفحاته بجمرات موقدة، ولظى مستعِر، وكأنه

---

(١) جاحما : مشتعلًا ومتقدًا.

(٢) من سُبَاته : من نومه.

(٣) نار وأصفاد، ص٥٤.

الحميم يرمى بالشرور ويقذف بالحِمَم، ويتفجر بالصواعق، وتتجاوب أصداء كل هذه الأصوات الرهيبة المدوية مع الغَضْبة، التي صرخت فوق أرض هذا الوطن، وتحت سماء هذا الشرق. فأصمت الطغاة، وردّت الحقوق، ونفضت غبار الذل عن الجباه الكريمة.

ثم هو استجابة إلى الصيحة العالية التي شتتت شملَ الظلام، وزحفت بمواكب النور، لتطوي عاتي الأصفاد، وتحطم قاسي القيود، صاعدة إلى أرواح الشهداء الأبرار، الذين ذهبوا، ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في هِتاف البعث العربي، ونشيد اليقظة الشاملة، التي حملت الراية وركزتها[1] فوق صدر التاريخ.

هكذا زحم الشاعر بنبضات قلبه، ووَسْوَسَاتِ وجدانه، صفحات « نار وأصفاد» الذي يتأجج بالثورة، والقوة، والإيمان في إحساسات حادة، ولواعج مشبوبة، ونداءات ثائرة، تنفخ في الصور، وتَسْرى في أوصال الحياة. وتندفع مع الأحياء في طريق الحرية، والكرامة والنضال « كل ذلك في ظمأ وَتَحدٍّ وكبرياء، إنه الشرق العربي، وهذه أشواقه :

أنا البعثُ، مهما قاومَ الغربُ ثَوْرَتِي ... أنا النُّورُ، مهما قاوم الليلُ يَقْظَتِي
أنا الحرُّ.. يَدْرِي كلُّ حُرٍّ مواقفي ... ويشهدُ لي التاريخُ في كلِّ صفحةِ
أنا العِزَّة الكُبْرَى، أنا الشرقُ، فَلْيَمُدْ ... إلىَ كيَاني بَعْدَ طولِ التفتُّتِ
وترجِعُ راياتي، كما قدْ رفعتُها ... وسُدْتُ بها الأيامَ من كلِ قِمَّةِ

أما بعد، فهذه لمحة سريعة خُضْتُ فيها دخان «نار وأصفاد» وحَسْبِي هذه اللحظات الخاطفة، بين هذه الصفحات العاصفة، التي سكب فيها الشاعر دمه، وأراق عليها عاطفته، فَجَاءتْ تسبيحًا ودعاء وغَضْبةً، وإلى لقاء غير بعيد، مع صاحب ديوان جديد.

---

(١) ركزتها : ثبَّتها.

ذكرى دسوقي أباظة

(١١) هذا الكتاب[1]

ربما كانت حياة الخَالدين، مِلْكًا لهم من ناحية خاصة؛ كما هي ملك لبلادهم ومواطنيهم من النواحي العامة..

... فهم يملِكُون في حياتهم أن يَحُولوا بينهم ؛ وبين الحديث عن المثل العليا، التي يعيشون فيها ؛ ويعيشون لها، إنكارًا لذواتهم؛ وفناء في مقدساتهم..

ثم هم في هذه الحياة ؛ ملكٌ لوطنهم ومواطنيهم ؛ لا يدخرون وسعًا في الاستجابة لأكرم المقاصد وأسمى الغايات..

.. إنهم يعملون ما استطاعوا إلى العمل سبيلًا ؛ غيرَ منتظرين جزاء ولا شكورًا وغير حافلين برقابة غير رقابة الله والضمير.

أما حين يغادرون هذا العالم، فهم يُخَلّفون وراءهم خلودًا ماثلًا في عمل كريم، أو في مأثرة نبيلة، أو في صنيع لم يكن يقصدون به إلا وجه الله.

وهنا، وهم في هذه الحياة الباقية. لا يملِكُون، أن يحولوا - كما كانوا يحولون- في حياتهم الفانية بينهم وبين من يريد أن يتحدث عنهم. فيطيل الحديث..

(١) يقصد الغزالي كتاب « ذكرى.. دسوقي أباظة »، والذي نشره في الثالث من يناير عام ١٩٥٤ السابع والعشرين من ربيع الثاني ١٣٧٣هـ وجاءت هذه الدراسة من الغزالي بصفته الناشر للكتاب المذكور.

.. بهذه المثابةِ صدر هذا الكتاب، وكان لابد أن يصدر، ليشير إلى وفاءٍ ما يزال يضطرب في أعماق كثير من الناس، وليؤكدَ معرفة الجميل التي توشك أن تُجافي حياة بعض الناس.. ثم لَيَصُبَّ في سمع التاريخ قضايا، كان لابد أن يسمعها التاريخ؛ فكم افتَاتَ التاريخُ على أقدارٍ فطَمَرَها[1] ؛ وكم تجنَّى على بطولات فطواها ؛ ولكن كان كل ذلك إلى حين.. ثم انبعثت هذه الأقدار من مَرْقَدِها، وانتفضت هذه البطولات من هجعتها، ترمي من حولها زيفَ التاريخ، وباطلَه، وضلالَه.

وَصَدَر هذا الكتاب أيضًا، حين لم يسمح السادة الكرام ؛ من الأئمة الأعلام، في السياسة، والوطنية، والخُلُق، والأدب، والشعر..

صدر حين لم يسمح هؤلاء، أن يدعوا اليومَ الأول، يمر من وراء هذا الموكب الخالد ؛ الذي أقل دسوقي أباظة ؛ إلى الملأ الأعلى. إلا بعد أن سجلوا الصفحات الأولى، من التاريخ الحق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

.. تكلم السياسيون، وشيَّعُوا في دسوقي أباظة سياسيًا شريفًا، مارس السياسة بوسائله الشريفة ؛ لأنه كان دائمًا يستهدف غاياته الشريفة.

.. وتكلم الوطنيون، وناجوا في دسوقي أباظة وطنيًا صميمًا، تخذته الوطنية لحسابها ؛ منذ صباه الباكر ؛ فلم يُقَامِرْ بها ؛ لأنه كانت في دمه حسًا وكرامة؛ ولم تكن في يديه سلعة.. وتجارة..

.. وتكلم الأخلاقيون، وودعوا في دسوقي أباظة، أخلاقيًا كريمًا، تصون في فضائل عَزَّتْ في زمنه، لأنه اشتقها من ذات نفسه الكبيرة العالية؛ التي لم تعرف السفوح، وعاشت طوال حياتها في القمم البعيدة، وكانت دائمًا تَصْعَدُ إلى فوق..

.. وتكلم العلماء، وذهبت نفوسهم حسراتٍ على دسوقي أباظة ؛ لأنهم فقدوا فيه، حقيقة عليا، من هذه الحقائق، التي يسعدون بها حين يلامسونها، ويمرحون في ظلالها الوارفة الظليلة، فهي تفيء عليهم حَدَبًا، وعونًا، واطمئنانًا، فقد كان - رحمه الله - يتزود بالعلم ؛ ليواجه الجهل والجهالة.. ويتسلح بالحقيقة ؛ ليصارع الفِرْيَةَ والباطل.

---

(١) فطمرها : أي فَطَمَسها.

.. وتكلم الأدباء حين غربت شمس دسوقي أباظة، فأظلمت مِنْ بعدِه أجواء، وآفاق، كان هو إشراقها وروحها، والريحان..

.. لقد خَلَتْ على الأدباء ميادين، كان هو حياتَها، وزحمتَها، ورائدَ الحركة والحياة فيها..

وتلفتت في يومه الفاجع نهضة هؤلاء الأدباء، تلك النهضة التي خَلَقَها، ودعَّمها، وأقامها... تلفتت فألفَتْ راعيها، يولي وجهه نحو الله، فآلمها أنه يَعْبُرُ هذه الحياة إلى الشاطئ الآخر، ويتركها على الشاطئ البعيد، وراءه.. قد تظمأ فلا تجد الرّي.. وكان هو الري والزاد..

.. أما الشعراء - فالفجيعة فجيعتهم - تلك التي ليس لها من دون الله كاشفة.

.. أنبتت الأسباب بينهم، وبين « أبي الشعراء» فأنبتت بينهم وبين ينابيع الحياة الدافقة، التي وصلتهم بالعيش الكريم، حينًا طويلًا من الزمن، امتد امتداد حياة الرجل الكريم.. وقد صعد فيه الموظف منهم إلى حقه، ونَبُه فيه المغمور في بيئته، وعمل فيه الفارغ من العمل.. ثم استشرف رحمه الله. بكل هؤلاء آفاق النباهة والشهرة، حتى أوفى بهم على الغاية، وملأ بفنهم الدنيا..

لقد انتهت بعد يوم الأربعين - إذ ذاك - حفلاتُ التأبين.. انتهت في القاهرة.. والإسكندرية.. والشرقية.. والصعيد.. ولم تنته مآتم الشعراء -على أبيهم - ولن تنتهي.. لأنها مآتم أقاموها بين جوانحهم الجريحة، وقلوبهم الكسيرة، وعيونهم الدامية.

.. وهيهات أن يندمِلَ الجُرح، أو يُجْبر الكسر ؛ أو تَجِفَ الدماء.

.. مات «أبو الشعراء».. فاصطلى الشعراء نار اليتم، التي لن تنطفئ، بل ستظل تشب، وتتوهج، وتندلع.. لأن جمرتها تَتَّقد من الألم الخالد، الذي يثيره ذهاب الخالدين..

.. ثم غير هؤلاء.. وهؤلاء بكى.. وصرخ.. وشق جيبه.. يوم أن استأثر جوار الله بموضوع هذا الكتاب..

.. بكاه أصدقاؤه في الرأي والوجهة ؛ كما بكاه خصومه في المبدأ والسياسة.

.. بكاه الوجيه في المدينة، والفلاح وابنه في القرية ؛ لأنه كان قريبًا من نفس هذا.. وذاك.. فلم تنسه المدينة حق القرية عليه، ولم يحجزه السادة عن العامة ؛ وأوساط الناس..

.. ثم لأن كبرياء المجد والجاه؛ لم تكن تعرف السبيل إلى نفسه أبدًا؛. اللهم إلا في حالة واحدة؛ تحددها العبارة المشهورة.. الكِبُر على أهل الكبر صَدَقَة.

.. أما بعدُ هذا.. وقبلُ هذا.. فقد كان رحمه الله الفضيلة الكبرى، والخُلُق العظيم، والمِثَالية الرفيعة.

.. هذه الأركان الضخمة : التي قل أن يهبها الله ؛ لكثيرين من طراز الراحل الخالد؛ إبراهيم دسوقي أباظة.. هذه الأركان ؛ هي التي أقام عليها الكاتب ؛ في هذا الكتاب كلمته ؛ والشاعر قصيدته، والسياسي رأيه..

فإلى كل من سجل وفاءه – في زمن قل فيه الوفاء – الشكرٌ أعمق الشكر.. ممن جمع ألوان هذا الوفاء في هذا الكتاب..

وما قصدت بإصداره ؛ إلا أن أُطْلِعَ كل واحد من هؤلاء الصفوة الأخيار، على وفاء الآخر ؛ فليس أسعد للوفي من أن يتعرف إلى وفي..

وإن كانوا هم في الأغلب الأعم : اجتمعوا يومًا ما ؛ تحت رعايته ؛ أو أُخوّته، أو فضله.. في البيت.. أو الندوة.. أو الديوان..

وليس الذي بين دفتيّ هذا الكتاب ؛ إلا قطرةً من محيط ؛ قيل فيه، في حياته: شعرًا ونثرًا.

.. ولست غاليًا ولا مُسْرِفًا ؛ حين أقرر أن الشعر ؛ الذي قاله كبار شعراء هذا الجيل ؛ في دسوقي أباظة؛ يَرْبَي على عشرة دواوين ؛ بل

إنـنـي أعـرف ؛ شـعـراء مـن زمـلائـي وإخـوانـي لـلـواحـد مـنـهـم ديـوان كامل، في دسوقي أباظة.

.. ولست مسرفًا ؛ حين أقرر أيضًا : أنه لم يوجد، ولن يوجد رجل كدسوقي أباظة، ظَفِرَ بمثل ما ظفر به من روائع الشعر والأدب، وآراء الساسة والعلماء؛ على تعدد ألوانهم ؛ ومشاربهم..

لقد كان إبراهيم أمة وَحْدَه..

يرحمه الله.. ويتولى من بعد الأدباء والشعراء.

إنه نعم المولى ونعم الوكيل...

(١٢) على رُبَا ميسلون(١)

يا «ميسلونُ» شَهِدْتِ أيَّ رواية دموية، ورأيت أيَّ مذابح
في موكب الغادين مَجدُ أميةٍ بجوانحٍ مشبوبةٍ وجوارحِ
الخائضون الفجرَ بحرَ مُصارعٍ السابحون على السَّعِيرِ اللافح
الناهضُون على السُّيوف وتحتَها شَتَّي جماجمِ في التراب طرائح
الرابضُون على الحُصُون خَرَائِبا مُهَجًا تضرَّمُ في حطام صفائح
حيثُ الشهيد رَنَا لمطلع فجرِهِ ورأي الغمائمَ في الفضاءِ الفاسحِ
وتلفتت لَكَ روحهُ فتمثلت وجه البطولة في أرقّ ملامحِ(٢)

تدفقت أضواء الفجر على خُضْر الربى في ميسلون، وتدفقت مع هذه الأضواء، مواكب الأبطال من شباب سوريا البواسل، وفتيانها الأشداء، وجنودها المناضلين، وازدحم الطريق إلى ميسلون بكتائب المقاتلين الغاضبين من أجل القومية العربية، الثائرين على الزحف الفرنسي الغاشم بقيادة الجنرال «غورد» الذي أنهى الهدنة في فجر اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو ١٩٢٠م وأخذ طريقه إلى ميسلون ليحتل دمشق.

---

(١) أعد الغزالي هذا الموضوع على الآلة الكاتبة في الثامن من مايو عام ١٩٥٩م عن البطل السوري «يوسف العَظْمَة» تلك الشخصية العربية، التي تمثل البطولة في أعلى درجاتها، و«ميسلون» بلد سوري حدثت به موقعة حربية، انتصر فيها السوريون على الفرنسيين في الرابع والعشرين من أكتوبر ١٩٢٠م، واستشهد فيها «يوسف العظمة». تراجع ترجمة البطل السوري «يوسف العظمة» في الموسوعة الثقافية، طبع دار الشعب بمصر، ١٩٧٢م، ص٩٧٤.

(٢) لم تتضح لنا بصورة نهائية هوية هذا الشعر، فهل هو للغزالي، أم لشاعر آخر؟

وسُرْعانَ ما انطوى فجر ذلك اليوم في غلائله الندية الرقيقة، حتى لفحت شمسُ هذا الصباح من يوليو وجوه الأشبال والأسود من أبناء سوريا المكافحين الرابضين في سفوح ميسلون، يغمرُ نفوسَهم الإيمانُ والعزم والتصميم، فهم الذين كافحوا ظلم العثمانيين، وطغيانَهم، حتى نصرهم الله عليهم.

اتقدت حرارة شمس هذا الصباح، واتقدت معها حرارة القتال حول ميسلون، وتفجر الميدان بقوى الشر، والخيانة، والغدر، ولو أنه قُدِّر للتنظيم الحربي الدقيق الذي خططه بطل ميسلون، وشهيدُها الأول يوسف العظمة لتغيَّرَ وجه المعركة في ذلك اليوم الحاسم في تاريخ القضية العربية.

لقد كان هناك ميدانان يضطربان أشد الاضطراب ويتوهجان باللهب والشرر المستطير.

كان أحد الميدانين في دمشق، وكان يَغْلِي بالنفوس الحاقدة الحانقة الهادرة التي حولت المساجد والمعابد والأندية والبيوت، إلى ساحات للخُطب لإثارة المواطنين، ودفعهم لسحق الغزو الفرنسي الضخم الزاحف، الذي تصارِعُه القوة القليلة، المؤمنة المسلحة بعزائم شبابها، وإيمان قائدها، ووزير حربية سوريا يوسف العظمة، ذلكم البطل الذي صمم على أن يَسْتَشْهِدَ في سبيل عروبته وقوميته، وبلاده، وآثر الموت الكريم على حياة الذل والاستعباد.

وقف يوسف العظمة أيها الشباب في بهو « المشيرية « بدمشق مساء تلك الليلة التي استشهد في صبيحتها وخَضَّب بدمه رُبَى ميسلون.

وقف يعبئ النفوس، ويشحذ العزائم، ويُحرِّض المؤمنين بوطنهم ووطنيتهم على القتال ؛ ليقيم على سواعدهم القوية جدارًا قويًا للقومية العربية.

وقف يقول:

«أيتها الأمة النبيلة والشعب الشجاع.. لقد رأينا أن نجعلَ منكم ذلك الشعب المكافح وراء أمانيه، وأن نجعل لكم في نفوس أعدائكم المكانة التي تليق بكم، لقد قررت إعلان الحرب، وخوضَ غمرات القتال، دفاعًا عن وطن قَلَّ ناصروه، وأصبح اليوم في حاجة إلى الشباب وسواعده المفتولة، وإلى هذه الهمم الشماء العالية».

ثم يتجه إلى الشباب ويقول:

«أيها الشباب : هُبُّوا إلى هذه الجيوش الجرارة بجيوش من نفوسكم وقلوبكم فهي أقوى من الفولاذ عزمًا، وأشد من الصخور صلابة، لا تستكثروهم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

ثم يخاطب ميسلون وشباب سوريا فيقول:

يا ميسلونُ هاأنذا قادم فاستقبلني، وهاأنذا فداك أبذُلُ كل دمي وحياتي وروحي، حتى تعيش سورية، حرة مستقلة،

أيها الشباب، هَلُمُّوا إلى ساحة الشرف، إلى ساحة البطولة، إلى ساحة الحياة الخالدة، إلى الجبهة التي أُمِرْتُ بتشكيلها ؛ للدفاع عن هذا الوطن المفدّى، فمن شاء منكم الذودَ عن شرف هذه الربوع فليتبعني، إلى حيثُ أنا متجه الآن، إلى قِبْلَةِ المجد... إلى ميسلون.

أنا ذاهب الآن إلى الحرب، وليس لى ما أوصيكم به بعد ذهابي إلا طفلتي العزيزة « ليلى « ابنتي الوحيدة، التي أترُكُها أمانة لديكم جميعًا. أرجوكم ألا تنسُوها، فإنها أَمَلي بعد وطني».

أيها الشباب :

خذوا عني هذه التضحية، وهذا الإيثار، وهذه البطولة، وذلك الإيمان، أروعَ الأمثلة، وأكرم المبادئ في حمل لواء القومية العربية، عاليًا عزيزًا في إباء وكرامة وفداء.

أيها الشباب

إننا لنذكر بالإكبار والإجلال ونحن نحتفل بذكرى الشهداء إقليمنا الشمالي، بطلَ ميسلون وشهيدَها الأول، الذي وضع لَبِنة كريمة في بناء صرح قوميتنا العربية مع أولئك الأبطال الأعلام من الشهداء، الذين كتبوا بدمائهم أروع الصفحات في سجل هذه القومية، التي انبثقت عنها وحدة مصر وسوريا، تلك الوحدة التي تستشرف بها شعوبنا العربية الحرة آفاق الفجر الجديد الذي بزغ في سماء الوطن العربي الكبير.

رابعًا
ندوات في الأدب والنقد

(١) مكانة شوقي في الأدب العربي.

(٢) المؤثرات في الأدب.

(٣) أدب المغرب العربي.

(٤) الطبيعة والربيع في الشعر السوري.

(٥) مع صاحب المعالي محمد رضا الشبيبي - زعيم المعارضة في العراق.

النــــدوات

(١) مكانة شوقي في الأدب العربي

- **يشترك فيها :**

الأستاذ الشاعر الكبير عزيز أباظة.. (رئيس الندوة).

الأستاذة نظلـة الحكيـم.

الأستاذ أحمد عبدالمجيد الغزالي.

الرئيس.. في عام ١٩٢٦م زار مصر شاعر الهند الكبير طاغور، وكان طبيعيًا أن يحتفل شوقي بطاغور، فأقيمت حفلة كبيرة «بكرمة ابن هانئ» وهو اسم منزل شوقي بالجيزة، أقام شوقي هذه الحفلة، تكريمًا وترحيبًا بشاعر الهند العظيم، ويقول الأستاذ حسين شوقي في كتابه الذي ألَّفه عن أبيه «شوقي» رحمه الله، بصدد هذه الحفلة.. وقد كلفني أبي بالتوجه إلى فندق شهرزاد، حيث نزل طاغور لأصحبه إلى المنزل. وقد حضر ومعه سيدتان هنديتان، وكان الثلاثة يلبسون اللباس الوطني الهندي. وكان طاغور في هذه الملابس، وبقامته الطويلة وشَعْره ذي الحلقات الكثيفة، كأنه أحد الأنبياء الذين ذُكروا في التوراة.. سألني طاغور ونحن في السيارة. في الطريق إلى المنزل عن مؤلفات أبي، وهل ترجمت إلى الإنجليزية، فأجبته بالنفي؛ لأنه لم يكن تُرجم شيء منها إذ ذاك... وقد سمعت أبي يقول لطاغور أثناء حديثه معه: إنه

يغبطه، إذ أن عدد قرائه عظيم، فالهند بلاد واسعة، تضم أكثر من ٢٠٠ مليون من السكان، فأجابه طاغور، حقًا إن الهند واسعة، ولكن مع الأسف كل ولاية فيها تتكلم لغة تختلف عن لغة الأخرى، لذلك أصبح مَنْ يفهمون كلامي لا يتجاوز عددهم عشرة ملايين، ثم أضاف طاغور مبتسمًا، هل أنت أحق مني بالاغتباط، فإن قراءك هم العالم العربي كله، هذه شهادة صحيحة بعيدة عن المحايلة، وليست إلا تقريرًا لواقع محسوس، وحقيقة ملموسة، وهي تشير إلى مكانة شوقي الملحوظة في نظر شاعر ضخم كطاغور.

عــزاء

السيدة.. ذكَّرني قول طاغور عن قراء شوقي من أنهم هم العالم العربي كله. بقصيدة لشوقي تحدث فيها عن شعره وقرائه الكثيرين وهي التي مطلعها..

سـلامٌ مـن صبـا بَـرَدَى أرقُّ وَدَمْـعٌ لا يُكفكفُ يا دِمَشْقُ

وفيها يقول....

دَخَلْتُكِ والأصيلُ له ائتلافُ ووجهُك ضاحكُ القَسَماتِ طَلْقُ
وحولي فِتْيةٌ غُرٌ صِباحٌ لهم في الفضلِ غاياتٌ وسَبقُ
رواةُ قصائدي فاعْجَبْ لِشعْرٍ بكل مَحَلَّةٍ يَرْويه خَلْقُ[1]

وهذه القصيدة من شعره، المصقول ؛ المشرق الديباجة لشوقي.. وأطل، وأعلن الأستاذ الغزالي ولم يذكر شيئًا عن الظروف التي قيلت فيها هذه القصيدة، وربما يحضره الكثير من أبياتها..

الغزالي.. من المصادفات أن هذه القصيدة التي تكلم فيها شوقي عن شعره ومكانته في نفوس قرائه العديدين، قيلت فى ٥ يناير من سنة ١٩٢٦م أي في نفس السنة التي زار فيها طاغور مصر. وقد قال شوقي هذه القصيدة؛ ليعطف

---

(١) ديوان شوقي (توثيق وتبويب وشرح وتعقيب)، الدكتور أحمد محمد الحوفي - الجزء الأول، ص٣٤٨، ص٣٤٩، طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر.

قلوب الناس على منكوبي سوريا.. فإن شوقي[1] كما قال عن نفسه في المهرجان الكبير، الذي أقيم لتكريمه في عام ١٩٢٧م في دار الأوبرا...

كان شِعْري الغناءَ في فَرح الشَّرْ ... قِ وكان العَزَاءَ في أحْزانه[2]

وفي هذه القصيدة - التي ذَكَرَتْ بعض أبياتها الأستاذة الجليلة نظلة الحكيم - أبياتٌ، كلها أسى وحسرة وتفجيع على محنة دمشق.

... يقول شوقي بعد مطلع القصيدة..

ومعذرةُ البَرَاعةِ والقوافي ... جلالُ الرُّزْءِ عَنْ وَصْفٍ يَدِقُّ
وذِكْرَى عن خواطِرِها لقَلْبِي ... إليكِ تلفُّتٌ أبدًا وخَفْق

والخطاب لدمشق.

وبِي مما رَمَتْكِ بِهِ الليالي ... جِراحاتٌ لها في القلبِ عُمْقُ[3]

ثم يقول شوقي في مناجاة باكية رقيقة..

رِبَاعُ الخُلْدِ وَيْحَكِ ما دَهاها ... أحقٌّ أنها دَرَست أحَقُّ ؟[4]
وهلْ غُرفُ الجنانِ مُنضَّداتٌ ... وهل لنَعيمِهِنّ كأمْسِ نَسْق؟
وأين دُمي المقاصرِ من حِجَالٍ ... مُهَتَّكةٍ وأستارٍ تُشَقَّ؟[5]
بَرزْنَ وفي نواحي الأيْكِ نارٌ ... وخلفَ الأيكِ أفراخٌ تُزَق[6]
إذا رُمْنَ السلامةَ من طريقٍ ... أتت من دونه للموت طُرْق[7]

---

(١) لم يلتزم الغزالي مع اسم (شوقي) التسكين، كما هو مذكور في هذه الجملة، إذا أنه أخضعه لعلامات الإعراب في مواضع أخرى.
(٢) السابق، الجزء الأول، ص ٥٨٩.
(٣) السابق، الجزء الأول، ص ٣٤٨.
(٤) درست : زالت.
(٥) الدُّمى : جمع دُمية وهي الصورة المنقوشة، والمقاصر : جمع مقصورة وهي الحجرة.
(٦) أفراخ تُزق: أي حملت الأمهات الأطفال، والنار حولهن.
(٧) السابق، الجزء الأول، ص٣٤٩، ٣٥٠.

إلخ.. هذه الشوقية الرائعة التي تذكرني بشوقية رائعة، عنوانها دمشق أيضًا، ولا أظننى أخرج عن موضوع الندوة حين أستعرضُ القديم البارع من كلام شوقي، الذي يكاد ينفرد به معنى وأسلوبًا بين شعراء العربية.. ولعل أستاذنا عزيز أباظة شاعر مصر الكبير وأنا أعرف أنه يضع شوقيًا في مكان لا يدانيه فيه شاعر قديم أو معاصر.

الرئيس.. الواقع فعلًا أن الحديث عن شعر الشاعر، والاستشهاد به هو حديث عن مكانة الشاعر وقدره، وأنت باستعراض هذه المعجزات لشوقي، تدلل على رسوخ مكانته، وعلو قدره بين شعراء العربية بأسرها. والقصيدة التي يذكرها الأستاذ الغزالي والتي عنوانها دمشق آية من السحر والروعة والبلاغة والأمجاد... يقول شوقي في مستهل هذه القصيدة...

قُم ناجِ جلَّقَ وانشُدْ رَسْمَ مَن بانوا ... مشَتْ على الرَّسْمِ أحداثٌ وأزمانُ

بنو أُمَيةَ للأنْبَاءِ مَا فَتحُوا ... وللأحاديثِ ما سادُوا وما دانُوا

كانوا مُلوكًا سَريرُ الشَّرقِ تَحتَهمُ ... فهلْ سألتَ سريرَ الغَرْبِ مَا كَانوا

عالِينَ كالشمسِ في أطرافِ دَولتِها ... في كلِ ناحيةٍ مُلْكٌ وسُلْطَانُ

يا ويحَ قلبيَ مهما انتابَ أرْسُمَهمْ ... سرَى بهِ الهمُّ أو عادتْهُ أشْجَانُ

بالأمسِ قُمتُ على الزهراءِ أندُبُهم ... واليومَ دَمعي على الفيحاءِ هَتَّان

الزهراء – قصر خلفاء بني أمية بالأندلس

والفيحاء – دمشق

معادنُ العزِّ قد مال الرَّغامُ بهم ... لو هان في تُرْبِه الإبريزُ ما هانوا[1]

لولا دمشقُ لما كانت طُلَيطلةٌ ... ولا زَهَتْ ببني العباسِ بَغْدانُ[2]

---

(١) الرغام : التراب.

(٢) طليطلة : مدينة أندلسية، وبغدان : لغة في بغداد.

مَـــررتُ بـالمسْـجِـد المحـــزونِ أسـألُـه   هـلْ في المُصَلَّى أو المِحـراب مَرْوان؟

تـغـيّرَ المَسْـجِـدُ المحـزونُ واختلفت   عـلـى المـنـابـرِ أحـــرارٌ وعُـبْـدَان

فــلا الأذانُ أذانٌ فـي مـنـارتـهِ   إذا تـعـالـى ولا الآذان آذان...[1]

والقصيدة كلها على هذا النسق الرفيع، والأسلوب العالي اللذين اختص بهما شوقي.. وللمرحوم الدكتور إبراهيم ناجي رَأْيٌ في شوقي وشعره كان يعجبني جدًا، ويهزني هزًا كلما سمعته منه... كان يقول رحمه الله.

إن شوقي ظاهرة من الظواهر الطبيعية، ومنحة من المنح الإلهية، التي لا يعرف إلا الله أسباب ظهورها في هذا الزمن.

وكان يُعقِّب على هذه بقوله:

إننا حين نُعْلي قدر شاعر على آخر نقارن بين فن هذا وذاك؛ ونزن جديد هذا بجديد ذاك ؛ وجيده بجيده.. إلخ.. هذه المقاييس.

وكان رحمه الله يقول:

إن شوقيًا بما أنتج من تمثيليات ومسرحيات شعرية، قد سَدَّ فراغًا هائلًا في الشعر العربي.

لم يُتَح لشاعر أن ينهض به في أي عصر من عصور اللغة العربية.

لقد فتح شوقي بهذا الفن فتحًا مبينًا في تاريخ الشعر العربي، ولو لم يَدَعْ شوقي وراءه إلا هذا التراث الضخم من المسرحيات، لكان ذلك حسَبه ؛ ليحتل مكانه في الخالدين.

السيدة.. ثم هذا الشعر الذي يؤلف ثلاثة أجزاء من الشوقيات تعتبر بحق سجلًا حافلًا لتاريخ مصر بحوادثه وأحداثه صغيرها وكبيرها، لم يفرّط فيه من شئ إلا أحصاه.. ولقد عاب بعض النقاد على شوقي شعره في الأشخاص

(١) السابق، الجزء الأول، ص١٦٠، ١٦١

والمناسبات وقالوا: إنه لا يمثل الشاعرية الأصيلة ؛ والمواهب الممتازة، ويهدم هذا الادعاء شعر شوقي في هذا الصدد... فهو حين ينبري للكلام في المناسبات أو الأشخاص، يجعل الأفق الذي يطل منه على الشخص أو المناسبة أفقًا فسيحًا عاليًا لا ينطبق على الأرض، وإنما يذهب في عنان السماء.. ومثلًا كتب شوقي قصيدة في المرحوم نابغة الجراحة والطب الدكتور على إبراهيم.

أيُّ شاعر غير شوقي حين يتهيأ للكلام في مدح شخص لا يمكن أن يتاح له ما يتاح لعبقرية شوقي، حين يتناول هذا الموضوع بهذا التناول العجيب، قال شوقي في تكريم على إبراهيم موجهًا شعره إلى الشباب:

ابتغوا ناصيةَ الشمس مكانًا وخُذوا القمَّةَ عِلْمًا وبيانًا
واطلبُوا بالعبقريات المَدَى ليس كلُّ الخيل يَشْهَدْن الرِّهانا
ابعثوها سابقاتٍ نُجُبًا تَمْلأ المِضْمارَ مَغْنًى وعِيَانا[1]
وثِبُوا للعزِّ من صَهْوتِها وخُذوا المجدَ عِنانًا فعَنانا

ولشوقي في هذه القصيدة وصف رائع للمرحوم على إبراهيم ؛ ولنحولة ودقة جسمه، وعظمة موهبته الطبية – وأظن الشاعر الكبير يذكر هذه الأبيات.

الرئيس.. فعلًا يا نظلة هانم، إن رسم شوقي لشخصية على إبراهيم رحمهما الله، لن يقدر عليه إلا عبقري موهوب، يتحدث عن عبقرية موهوب، ويقول شوقي عن ضمور جسم على إبراهيم :

وضئيلٍ من أُساةِ الحيِّ لم يُغْنَ باللَّحم وبالشحم اختزانًا
ضامرٍ في سَفْعةٍ تَحْسَبُه نِضْوَ صحراءِ ارتدي الشمسِ دِهانا[2]

(١) سابقات : متقدمات يفزن بالسبق، المضمار : مكان التسابق، عِيانًا : مشاهدة.
(٢) سَفْعة: تغير لون بشرته بسبب الشمس، وتحولَ إلى سواد. ونضو : مهزول.

أو طـبـيـبًـا آيـبًـا مـن طـيـبـةٍ   لـم تَـزَلْ تَـنْـدَى يـداه زعـفـرانًـا
تُـنْـكِـرُ الأرضُ عـلـيـه جِـسْـمَـهُ   واسـمُـه أعـظـمُ مـنـهـا دَورانـا

فـي خِـلالٍ لـفـتَـتْ زهـر الـرُّبـا   وسـجـايـا أنْـسَـت الـشَّـرْب الـدِّنـانـا[1]
لَـوْ أتـاه مُـوَجـعًـا حـاسِـدُهُ   سَـلَّ مـن جَـنْـب الحـسُـود السَّرطانا
يـدُ إبـراهـيـمَ لـو جِـئْـتَ لها   بـذَبِـيـح الـطـيـر عـادَ الـطـيـرانـا

– ثم يقول وكأنه يعنى نفسه:

يـا طِـرَازا يـبـعـثُ الـلـه بـه   فـي نـواحـي مُـلْـكِـه آنًـا فـآنـا
مِـنْ رجـالٍ خُـلِـقُـوا ألْـويـةً   ونجـومًـا وغُـيُـوثـا ورعـانـا[2]

– وهكذا كل شعر شوقي، الذي نظمه في الأشخاص أو المناسبات، لا تستطيع أن تلمح فيه أثرًا لضعف أو لتخاذل، وإنما هو مُحَلِّقٌ دائمًا بمعانيه وأساليبه، في آفاق بعيدة لا يزاحمه فيها شاعر.

– تَرَفٌ في اللفظ؛ وصفاء في الخيال ؛ وأصالة في المعنى ؛ كل ذلك في بيان ساحر أنيق، والشعر عندي كهؤلاء، ودليلي على هذا أن المدارس التي تصدت لشوقي، وحاولت أن تميل ببنائه العالي تهاوت من حول هذا البناء، وظل شوقي يعلو ببنائه صعودًا إلى القمة التي أحله الله فيها.

– ودائـمًـا حـين أذكـر المـنـاوئـين لـشـوقـي أذكـر قـولـه فـي مرثية حافظ إبراهيم...

مـا حـطَّـمـوك وإنمـا بـك حُـطِّـمـوا   مـن ذا يُـحَـطِّـمُ رَفْـرَف الجـوْزاءِ؟[3]

الغزالي.. وهناك ناحية جديرة بالتسجيل والتنويه، تلك هي أن شوقيًا أرسى

(١) خلال : جمع خلة وهي الصفة، والدنان : جمع دن وهو وعاء الخمر.
(٢) رِعان : جمع رَعْن : وهو أنف الجبل الشاخص البارز، وانظر الديوان ج١، ص ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠.
(٣) السابق، الجزء الثاني، ص٣٦٠.

مكانته العظيمة على قواعد ثابتة من نبل عواطفه وكريم شيمه، وعظيم مشاركته، وصادق تجاوبه مع الحياة التي كانت تكتنفه، وأظن أن الأستاذة نظلة وشاعرنا الكبير يذكران قصيدة شوقي التي ألقيت في الحفل الحاشد، الذي انتظم السيدات المصريات في مسرح حديقة الأزبكية؛ لتكوين اتحاد لهن، وللنهوض بعبء الخدمات الاجتماعية وغيرها لِيكُنَّ على قدم المساواة مع الرجال.

الرئيس.. لعل هذه القصيدة التي يشير إليها الأستاذ الغزالي هي تلك التي يقول فيها شوقي:

قـم حـيِّ هـذه الـنَّـيِّراتِ ... حـيِّ الحِـسانَ الخـيِّراتِ

واخـفِـضْ جَـبـيـنَـك هَـيـبـةً ... لـلـخُـرَّدِ الـمـتـخـفِّـراتِ

هـذا مَـقـامُ الأُمَّـهَـا ... تِ فـهـل قـدَرْتَ الأمـهـاتِ ؟

لا تَـلْـغُ فـيـه ولا تَـقُـلْ ... غيـر الـفَـواصِـلِ مـحـكَـمَـاتِ[1]

– ولا بد أن الأستاذة نظلة تذكر أبياتًا من هذه القصيدة، فشوقي فيها ينتصر لحقوق السيدات، ويقف بجانبهن غير مبالٍ بثورة الجنس الخشِن يومئذ.

السيدة... أذكر قول شوقي في أبياته العامرة.

هـذا رسـولُ الـلـه لـم ... يُـنْـقِـصْ حُـقُـوقَ الـمؤمـنـات

الـعِـلْـمُ كـان شـريـعـةً ... لـنـسـائـه الـمُـتَـفَـقِّـهَـاتِ

رُضْـنَ الـتـجـارةَ والـسـيـا ... سـةَ والـشـئـونَ الأُخـريـات

– وهذا الذي أذكره من القصيدة.

الغزالي... ومن هذه القصيدة أيضًا يا سيدتي قول شوقي:

كـانـت سُـكَـيـنـة تمـلأ الـ ... ـدنـيـا وتـهـزأ بـالـرواة

(١) لا تلغ : لا تقل كلامًا باطلًا.

روت الحديثَ وفسَّرتْ آيَ الكتاب البينات
وحضارةُ الإسلام تنطِقُ عن مكان المسلماتِ
بغدادُ دار العالمات ومنزلُ المتأدبات
ودِمشقُ تحت أُمَيَّةٍ أمُّ الجواري النَّابغاتِ
ورياضُ أندلسٍ نَميْنَ الهاتفاتِ الشاعرات[1]

الرئيس.. هذا شعر يمتاز حقًا، وأن البيت الأخير الذي جاء فيه ذكر الأندلس ليذكّرني بالقصيدة الفريدة التي نظمها شوقي في منفاه بالأندلس - وأن مكانة شوقي وعظمته أخذت في النمو والعلو بعد منفاه.

- وقد عاد شوقي من منفاه متجردًا من كل قيد. ومتصلًا على آلام الشعب وآماله، بل ومعبرًا عن رغبات العروبة في سائر أنظارها. والقصيدة التي أعنيها عن تلك التي نظمها شوقي في معارضة قصيدة ابن زيدون في ولَّادة بنت المستكفي... قال شوقي :

يا نائح الطَّلحِ أشباهٌ عَوَادِينا نَشْجَى لواديك أم نأسَى لوادينا؟
ماذا تقُصُّ علينا غيرَ أن يدًا قصَّتْ جَناحك جالت في حواشينا؟
رَمى بنا البيْنُ أيْكًا غيرَ سامرِنا أخا الغريب، وظِلاً غير نادينا

وفيها يقول:

لكن مصرَ وإن أغضتْ على مِقَةٍ عينٌ من الخُلْدِ بالكافور تَسْقِينا
على جوانبها رفَّتْ تمائِمُنا وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعِبٌ مَرِحَتْ فيها مآرِبُنا وأربُعٌ أنِسَتْ فيها أمانينا
بِنَّا فلَم نخل من رَوْحٍ يُراوِحنا من بَرِّ مِصْرَ وريحانٍ يُغَادِينا

السيدة... وقد اختتم شوقي هذه القصيدة بالحديث عن أمه في مثواها الأخير بحلوان:

(١) السابق، الجزء الثاني، ص٢٤، ٢٥.

سَعْيًا إلى مصرَ نَقْضي حقَّ ذاكرانا   فيها إذا نَسِي الوافي وباكينا
كَنْزٌ بحُلْوانَ عند الله نطلُبُهُ   خيرَ الودائع من خير المؤدّينا
لو غاب كلُّ عزيز عنه غيبتَنَا   لم يأتِه الشوقُ إلاّ من نواحينا
إذا حَمَلْنا لمصرٍ أولَه شَجَنًا   لم نَدْرِ أيّ هوى الأُمَّيْنِ شاجِينا[1]

الرئيس.. بهذا الشعر الرصين كتب شوقي لنفسه الخلود ؛ وكان جديرًا بالمكانة التي احتلها في سجل الخالدين..

ولقد روى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، الأصوات التي تغنَّى الناس بها، وأنشدها الحادون للشعراء السابقين، وكان يقيس الشعر بمقياس صلاحيته للغناء والحداء.

ولو أن شوقيًا تقدم به الزمن إلى غصر أبي الفرج، أو أدرك أبو الفرج شوقيًا زمننا هذا، لما وزن أبو الفرج شوقيًا شاعرًا آخر.

إن هذه الألحان التي تُردد الدنيا أصداءها في القصائد التي تغنيها أم كلثوم وعبدالوهاب لشوقي لا نظير لها في تاريخ الأدب العربي قديمه وحديثه.

عذوبة في اللفظ وجمال في الموسيقي ؛ وطلاوة التعبير وسمو المعنى، هذه كلها خصائص فن شوقي، وسمات قصائده الغنائية التي ضَمِنَتْ الخلود لشوقي مع ما قدمه للمسرح من الروائع الباقية على الأيام.

والسلام عليكم ورحمة الله....،،

(١) السابق، الجزء الأول، ص ١٤٧، ١٤٨، ١٥٣.

(٢) المؤثرات في الأدب
(ندوة أدبية)

يشترك فيها :

القائم مقام / أنور السادات (رئيسًا)، والدكتور / محمد وصفي والأستاذ أحمد عبدالمحيد الغزالي.

الغزالي. أريد أن أقترح موضوعًا لهذه الندوة يجول في خاطري الآن بمناسبة وجود السيد الوزير القائم مقام أنور السادات وزير الدولة ورئيس جامعة أدباء العروبة[1].

وهذا الموضوع يرتبط أشد الارتباط بسيادته، بوصفه عضوًا بمجلس قيادة الثورة ورئيسًا لجامعة أدباء العروبة.

القائم مقام.. أنا أُوثر أن نرتاح من الحديث في السياسة يا أستاذ غزالى، ونستروح أنسام الأدب الخالص في هذه الندوة، فما أعذب الحديث الذي يخالط النفس وينساب في الجوانح.

الغزالي.. هو كذلك يا سيدي الرئيس، فالموضوع الذي أقترحه لا يتصل بالسياسة عن قرب أو بعد، فأنا أريد أن أشتق من صفتكم كرجل ثورة وكرئيس لرجال

---

(١) صار رئيسًا لمصر من أكتوبر عام ١٩٧٠ إلى أكتوبر عام ١٩٨١م.

الأدب في جامعة أدباء العروبة، فكرة الحوار في هذه الندوة، وليكن الموضوع هو آثار الثورة في الأدب - فالثورة كانت دائمًا من أهم العوامل المؤثرة في آداب الأمم، والمناقشة في هذا الموضوع ستكون إذن في صميم الجدل الأدبي.

الدكتور.. أظن أن السيد القائم مقام وزيرنا الجليل، راض عن هذا التخريج الذي وصل إليه الأستاذ الغزالي، وأظن أن سيادته اطمأن إلى أن الموضوع سيكون من ألفِهِ إلى يائه في الأدب، وليس في السياسة.

القائم مقام... إذا كان ذلك كذلك يا دكتور وصفي كما يقولون، فلنبدأ الحديث في الموضوع وزيادة مِنِّي في الاحتياط، وجَعْل الموضوع مادة وحوارًا في النطاق الأدبي، أرجو أن تسمحوا لي بأن أشير في إيجاز إلى الحدود التي يمكن أن نرسمها لنُجري بينها المناقشات، وليست هذه الحدود إلا الظلال التي ألقتها الثورات على الأدب، في الشرق والغرب. أو الأصداء التي خلفتها الثورات في الآداب، أو على حد تعبير أهل المنطق، سنتحدث عن المقدمة والنتيجة، والثورة الأدبية هي النتيجة الحتمية للمقدمة التي هي الثورة السياسية.

حمام[1]... نتائج الثورات أليست هي في أحداث النظم والأوضاع أم في أحداث الآداب والمعارف ؟

القائم مقام... الثورات يا أستاذ حمام كما تخلق النُظُم والأوضاع الجديدة، تخلق الآداب والأفكار التي ترسم هذه النظم، وتتمثل فيها هذه الأوضاع، وهناك كلمتان متلازمتان في هذا الشأن في القديم والحديث، وفي الشرق والغرب فتقول خطباء الثورة : تقول هذا حين تريد أن تتحدث بادي ذي بدء عن الثورة الفرنسية مثلًا، أو عن الثورة المصرية، ولن تُذْكر الثورة الفرنسية إلا إذا ذكر ميرابو، ولن تذكر أيضًا الثورة المصرية إلا إذا ذكر عبدالله النديم أو البارودي.

---

(١) لا أدري من هو الأستاذ حمام هذا الذي ورد اسمه في الحوار..

حمام... لكن أرجو أن أستوضح السيد الوزير أمرًا بسيطًا يُشغل ذهني الآن، هل الثورة هي التي تؤثر في الخطيب؟ أم الخطيب هو الذي يؤثر في الثورة، والمعروف أن الشرارة الأولى التي تنطلق فتندلع نيران الثورات، تنطلق أول ما تنطلق من لسان خطيب، أو من صرخة ثائر، فكيف نتصور أن الثورة هي التي تخلق الخطيب؟.

القائم مقام... الثورة في أبسط تعاريفها هي: انفعال، والخطابة تستطيع أن تعرفها أيضًا فنقول: إنها انفعال وبين الانفعالين تجاوب وارتباط، وكل من الثورة والخطيب يؤثر في الآخر، غير أن الأثر الأكبر هو أثر الثورة في الخطيب.

فالثورة دائمًا تتجمع بواعثها، وتتكون أسبابها، ثم تستكن هذه البواعث، وهذه الأسباب بين طوايا النفوس، حتى تصادف الخطيب القادر على الإثارة فتزيده قدرة وإثارة، وكثيرًا ما تحدث التاريخ عن خطباء ثورة، بدءوا في مواجهة الثورات، هادئين غير قادرين على استقرار المشاعر والأحاسيس، ثم ألهبت الثورات مواهبهم فتدفقوا كالشلالات، وانقضوا كالصواعق، ومن هنا تستطيع أن تقرر أن الخطيب مسبب الثورة ووليدها في كل زمان ومكان.

الغزالي... ويؤكد كلام السيد الوزير في هذا الشأن ما نعرفه وما نشاهده، وما نقرأ كل آنٍ من أن الخطيب ظلٌّ للثورة يدور معها، حيث تدور، وينتقل في مرَاحلها كما تنتقل فهو في عنوانها عنيف، فإن هدأت، هدأ - تتحول الثورة إلى المجتمع، فيتحول الخطيب معها يناقش ويجادل، يدفع الحجة بالحجة، ويواجه الدليل بالدليل، ومعنى هذا أن الثورة تخلُق رجل المجتمع أيضًا، وتكيفه وتصرفه على مقتضى حاجات المجتمع ورغباته، بل وتخلق الثورة أحيانًا الحاكم وأدبه.

ومثال ذلك ميرابو خطيب الثورة الفرنسية عَنُفَ حين كانت الثورة حادة عنيفة، وَهَدَأ حين هدأت، بل كان يُوغل في هدوئه وصفته، حتى كانوا يصفونه بالدم البارد، وقد تحور ميرابو بعد أن بدأت فرنسا تجني ثمار الثورة إلى رجل حُكم ونيابة، وأخذ يُشغل نفسه، ويروض ذهنه وقلمه على رسم صورة المجتمع كاملةً من كافة نواحيه.

الدكتور.. إذن نستطيع أن نخلُص من هذا إلى أن الثورة عامل مهم من العوامل المؤثرة في الأدب، فأدبها حاد حينًا، وهادئ حينًا آخر ولخطيب الثورة أدبه الرائع، الذي يتسم بسمعته، وللحاكم في الثورة أدبه الرائع أبدًا، الذي يتشكل بشاكلته، وعلى كلتا الحالتين فهذا الأدب، وإن كان ذا لونين متباينين بمعنى أن أدب الثورة الخطابي أدب مسترسل مستفيض، وأدب الحكم الثوري أدب مجمل مركز، ولعل في تاريخ الأدب العربي شواهد على هذا، قد يذكر بعضها الأستاذ حمام.

حمام... فعلًا يا دكتور وصفي فالدولة العباسية نهضت على بأس «السفاح» ولسانه، وقد آزرها تصميم أبى جعفر المنصور وخطبه، ولما مكَّن الله للعباسين في الأرض حَلَّت توقيعات الخلفاء والوزراء مَحَلَ الخُطب، واشتهر في هذا الميدان «سهل بن هارون» ومحمد بن عبدالملك الزيات - و«عمرو بن مسعدة» فكان هؤلاء أصحاب عبارة رفيعة أنيقة لها سحر الخطب وبلاغتها...

ورجال السيف من الشعراء والأدباء الذين يعرفهم حق المعرفة السيد الوزير رئيس ندوتنا كانوا مِنْ أمهر مَنْ حملوا الأقلام.

القائم مقام... كان البارودي مثلًا من أبرع رجال السيف، ومن أعظم الشعراء، ولعله الشاعر الذي انتقل بالشعر العربي المعاصر من مرحلة التقليد والجمود إلى مرحلة الخلق والتطور، وأثَّرت الثورة المصرية في شعر البارودي، وأثر فيها البارودي، وكانت قصائده تفعل في النفوس فعل النار في الهشيم. ثم نُفى البارودي، فكان نفيه ذُخْرًا للأدب العربي، وبلغت شاعريته أوجها[1] في منفاه، وكانت ثمرة طيبة من ثمار الثورة التي انتهت به إلى النفي، فأنتجت هذا الشعر الخالد، وأثرت في نضج عبقرية البارودي إلى هذا القدر العظيم، الذي تباهى به الفحول من شعراء العرب وغيرهم.

حمام.. هل يذكر السيد الوزير بعضًا من شعر البارودي في منفاه من هذا اللون من الشعر الذي يصفه سيادته بالعظمة والإبداع المنقطع النظير في شعرنا المعاصر؟

---

(١) أوجها : قمتها.

الوزير... تستطيع يا أستاذ حمام أن تحكم على شعر البارودي في منفاه بأنه كله رائع وبارع وعظيم، ألا تذكر يا أستاذ حمام شيئًا من قصيدة القافية التي مطلعها :

يا روضةَ النيل لا مستك بائقةٌ ولا عَدَتْك سماءٌ ذاتُ أغداقِ[1]

حمام.. نعم، هو يقول بعد ذلك :

ولا بَرِحْتِ من الأوراق في حُلَل من سُنْدسٍ عبقريّ الوشي بَرّاق
يا حبذا نَسَمٌ من جوها عَبِقٌ يَسْرِي على جَدْولٍ بالماءَ دفّاق
مَرْعِي جيادي ومأوى جيرتي وحِمَى قومي وَمنبتُ آدابي وأعراقي[2]
وكيف أنسى ديارًا قد تركت بها أهلًا كرامًا لهم وُديَ وإشْفاقي
فيا بريَد الصَّبا بلغ ذوي رَحِمَى أني مقيمٌ على عهدي وميثاقي
وأنت يا طائرًا يبكي على فَنَنٍ نفسِي فداؤك من ساقٍ على ساقِ

الوزير... هذا هو البارودي، وهذا هو شعره الذي لا نزاع فيه، أثر من آثار الثورة التي طوحت به في هذه الأودية السحيقة في المنفى، تلك التي حلَّق في سمائها بخياله الصافي، ووجدانه العميق، وأسلوبه الجزل.

الغزالي... ذكرتني هذه الأبيات ذات القافية الرائعة بقافية رائعة أيضًا للمرحوم حافظ إبراهيم، وحافظ شاعر سار على السَّنَنَ[3] الذي سار عليه البارودي في النشأة العسكرية والانتظام في سلك الجندية - وحافظ من الشعراء الذين سكبُوا أرواحهم في شعرهم الوطني، وَصَقَلَتْ الثورة مواهبه الفنية، وأثَّرت أيما تأثير في تلوين نتاجه الأدبي باللون الوطني الصارخ، وكان شعره

---

(١) بائقة : داهية.

(٢) أعراق : جمع عِرْق، وهو أصل كل شيئ.

(٣) السنن : الطريق.

المرآةَ التي انعكست عليها الآمال والآلام، التي كانت تثور من حوله، ومن حول مواطنه....

حمام.. هل للأستاذ الغزالي أن يُسمعنا من قافية حافظ !! الوطنية التي ذكرتُها على ذكر قصيدة البارودي، التي سمعنا بعض أبياتها الجميلة الآن؟ فهي قصيدته التي أنشدها حافظ في تحية هلال العام الهجري الجديد، قال :

لي فيك حين بدأ سناكَ وأشرقا أملٌ سألت الله أن يتحققا

وفيها يناجي شباب مصر فيقول :-

أهلاً بنابتةِ البلاد ومَرْحبًا جَددتمُ العهدَ الذي قد أخلقا[1]

لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم فلرُبَّ مغلوبٍ هوى، ثم ارتقى

مُدَّت له الآمالُ من أفلاكها خَيْطَ الرجاءِ إلى العلا فتسلّقا

فتجشُّموا للمجد كلَّ عظيمة إني رأيتُ المجدَ صعبَ المرتقى[2]

مَنْ رام وصلَ الشمس حاكَ خيوطَها سببًا إلى آماله وتعلقا[3]

وهكذا أغلب شعر حافظ في النواحي الوطنية نلمس فيه أثر الثورة واضحًا ملموسًا، حين يصب شعوره وعواطفه في ثنايا الأبيات والقصائد.

الدكتور... هذان مثلان على تأثير الثورة في شعرنا المعاصر، ومدى تأثيرها في تلوين عواطف الشعراء وأخيلتهم، ويرى النقاد في أوربا أن الأدباء تخلقهم الثورات، ويشرح لنا بعض هؤلاء النقاد للأدب في أوربا العلاقة بين الثورة والأدب فيقول :

---

(١) أخلق : بَلِي ورثّ.

(٢) تجشموا : تكلفوا.

(٣) ديوان البارودي ج٢، ٥٨ وبعدها.

إن الأحداث والحركات المضطربة التي تنشغل بها الشعوب يولد بعدها الأدباء ؛ لأن هؤلاء البائسين يُحِسّون المتاعب قبل غيرهم. وهم أول من يتنفسُون بعد زوالها. إن العبقريات موجودة في كل زمان ومكان، ولكنها تَظَلّ تائهة هائمة، حتى تقع الأحداث، فتهب هذه العبقريات لوصفها وتمثيلها فيما يصدر عنها من أدب أو شعر.

الوزير... ومما يُتَمّمُ كلام السيد الدكتور أن هناك أدبًا خاصًا، يتخلف عن الثورات الاجتماعية، ذلك هو الأدب الذي يتناول عيوب المجتمع ويرصد رغباته، ويستهدف آماله وآلامه. وقد كان «إميل زولا» في طليعة هؤلاء الأدباء، ومن كلامه وهو يحكي عن نفسه وعن مخالفيه قوله :

إن الشقاء يمكن تخفيفه، إذا عرفناه ووصفناه، إنهم يتهمونني بالكذب المتعمد حين أضع الصور القائمة الأليمة أمامهم. أما الذين يَرْضَوْنَ عني فيعتقدون أنني أعبر تعبيرًا أدبيًا يُجْمع فيه الخيال، وأن واجبي أن أبين لهؤلاء الدليل والمصدر الذي أعتمد عليه. إن هَمّي ينحصر في أن أعرض الناس على ما هم عليه. إنني أمتاح لهم الرحمة من القلوب...

وهكذا دفع إميل زولا - بقلمه - الأدب إلى تلبية حاجات المجتمع تلبية عامة شاملة.

حمام... ربما كان حافظ إبراهيم خَيْرَ من اضطلع بمهمة «إميل زولا» هذه التي أشار إليها السيد الوزير، فتغني حافظ برغبات الشعب، ونظمها في عقود من دُررٍ وحباتِ قَلْبِه.. كقوله :

[مختارات من شعر حافظ في الاجتماعيات التي تصور حاجات المجتمع].

الوزير... وأخيرًا لعلنا بهذه الإيماءات قد عرضنا في سرعة وإيجاز لعامل من أهم العوامل المؤثرة في الأدب والشعر، وهو الثورات وفلسفتها في خلق أدباء وشعراء ملئوا الدنيا بروائعهم وآدابهم، وساروا بأممهم كما أرادت الثورات أن يسيروا..

وإنني لأشكر لمحطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية هذه الفرصة الطيبة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

(٣) أدب المغرب العربي(١)
وصاحب كتاب (نفح الطِّيب)

ندوة أدبية أعدها الأستاذ أحمد عبدالمجيد الغزالي

ويشترك فيها مع الأديبين الأستاذين أحمد مخيمر وأحمد رشاد سلامة

أيها الإخوة...

في هذه الحلقة من أدب المغرب العربي سنتطرق إلى ناحية جديدة من نواحي أدب مغربنا العربي لم نتطرق إليها من قبل... وهي ما يتصل بالأدب القديم، الذي حفظته لنا كتب الأدب وتاريخ الأدباء...

وكم سيبدو جَميلًا عندما تتضح لنا العلاقات الأدبية، التي كانت تربط بين الشرق العربي والمغرب العربي.. والتي لم تكن إلا مظهرًا عاديًا من مظاهر الحقيقة الخالدة على مدى الدهر.. حقيقة الوحدة العربية الراسخة.. لقد كان من أئمة الأدب العربي ومؤلفي أمهات الكتب في تاريخ هذا الأدب أعلام نابهون، نبتوا في أرض المغرب العربي، ودرجوا فوق صعيدها(٢)، وتركوا أخلد الآثار في اللغة العربية، وتاريخها... فصاحب كتاب «نفح الطيب»(٣) مغربي وصاحب «وفيات الأعيان»(٤)

---

(١) بدأت الندوة بالحديث عن القومية العربية، ثم انثنت بالمشاركين فيها إلى الحديث الأدبي عن المغرب العربي والأندلس.

(٢) صعيدها : ترابها.

(٣) المُقرِّي هو : أحمد بن محمد أبو العباس المُقَّري، المتوفى بعد عام ٨٤٧هـ.

(٤) ابن خلكان : أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أَبي بكر بن خلكان المتوفى عام ٦٨١هـ.

وصاحب « الآمالي»[1] وصاحب كتاب « العمدة»[2]، كل هؤلاء وغيرهم من قادة الفكر العربي، نشأوا في المغرب العربي، وعاشوا فيه، وقاموا بزيارات لأهلهم وإخوانهم في المشرق، فكانوا يلقَون في كل بلد عربي يهبطونه أهلًا بأهل، وإخوانًا بإخوان.

... ومن هم هؤلاء الأعلام؟ وما هي آثارهم؟ وأين وقفوا بأدبهم بين آداب أمتهم العربية ؟؟ وما هي الخطوط العريضة التي رسموها للقومية العربية، فيما خلَّفوا وراءهم من آثار باقية ؟؟، تلك الآثار التي يتمثل فيها المجد العربي العريض، والكفاح العربي الطويل، والحضارة العربية التي عاشت الدنيا في ظلها الوارف الظليل آلاف السنين.

الغزالي... يا أستاذ مخيمر هناك صراع رهيب ؛ يدور اليوم بين الشعب العربي في الجزائر، وبين الدخلاء المستعمرين من فرنسا.. ويحاول هؤلاء المستعمرون بكل الوسائل الوحشية التي تتنافى مع أبسط مبادئ الإنسانية إسكات صوت العروبة المدوّي، وإخماد جذوتها المشتعلة، ولكن بدون جدوى...

مخيمر... لقد قرأت يا أستاذ: غزالي أن القانون الأساسي الذي فرضته فرنسا على الجزائر عام ١٩٤٧م، مُصدَّر بهذه المادة :

«البلاد الجزائرية قطعة من الأرض الفرنسية، وتتألف من ثلاث مقاطعات، يتساوى سكانها في الحقوق والواجبات، وجنسيتهم فرنسية».... وهكذا يبدو منطق الاستعمار لسلب الشعوب حريتها وثروتها..

الغزالي... يبدو أن للأستاذ رشاد تعليقًا على كلام الأستاذ مخيمر.

رشاد... الذي أريد أن أقوله هو أنه من أعجب المفارقات في هذه القضية الباطلة أن الشعب الجزائري نفسَه يصارع من أجل القضاء على هذه الأكذوبة الاستعمارية.. وهو يناضل في عزم وإصرار، رغم حرب الإبادة التي يشنها عليه الغاشمون من أبناء فرنسا.

---

(١) أبو على القالي، ويوجد أكثر من كتاب بهذا العنوان مثل « الآمالي « للزجاجي.
(٢) ابن رشيق : وهو أبو على الحسن بنَ رشيق المتوفي عام ٤٥٦هـ.

مخيمر... إن هؤلاء المستعمرين كما نعلم جميعًا، يعيشون بعقلية غريبة لا تستطيع أن تهضم التطور التاريخي للشعوب وللحياة، وهم يعتقدون أن الأكاذيب تستطيع أن تغطي نواياهم، ولكن هيهات..

الغزالي... يا أستاذ مخيمر نريد أن نعرف رأيك في هذه المسألة؛ لأنها تقريبًا هي مسألة اليوم، فهل فقدت الجزائر شعورها بعروبتها... في الحاضر أو في الماضي؟

مخيمر... إن الشعب العربي في الجزائر وفي تونس وفي المغرب وفي ليبيا لم يفقد إيمانه بعروبته، لا في الماضي ولا في الحاضر، ولا يمكن أن يفقد إيمانه بها مستقبلًا، فعروبة هذا الشعب، الذي يعيش في أرضه من الخليج إلى المحيط هي الأساس الذي قامت عليه حضارته، وارتكز تاريخه... والأستاذ رشاد يستطيع أن يوضحَ لنا مدى إحساسِ الشعب العربي بعروبته في عصور التاريخ.... وخاصة في بلاد المغرب العربي.

رشاد... الواقع أن التاريخ واضح في هذه الناحية وضوحًا كاملًا، فالشعب العربي لم ينس نفسه قط في زمن من أزمنة التاريخ... لقد كان المغربي يتنقل من القيروان أو من فاس، إلى القاهرة ومكة وبغداد ودمشق، فلا يحس أنه في بلاد أجنبية، ولا يشعر أنه في شعب غريب عنه.. والتاريخ في ذلك كثير الأخبار... وكُتُب التاريخ الأدبي ملأى بهذه الطرائف...

الغزالي... إن المغربي الذي كان يتنقل إلى القاهرة لم يكن شعوره إلا كشعور المصري حين يتنقل من الإسكندرية إلى أسوان...

مخيمر... هذا حق.. وأضيف إليه أن الشعب العربي في المغرب، كان ينظر إلى الشعب العربي في المشرق، نظرة الإعجاب الشديد بحضارته وفنه وأدبه... ورغم طابعهم الذي ميَّز أدبهم وفنهم، فقد بقيت فيهم الروح العربية الأصيلة..

الغزالي... هل كان للمغرب طابع مميز يا سيد مخيمر؟

مخيمر... من غير شك، فإن اختلاف البيئة ساعد على تكوين هذا الطابع المميز، كما أن للظروف التاريخية دخلًا كبيرًا في ذلك...

رشاد... أستطيع أن أضيف إلى هذا أن معظم أمهات الكتب التي أُلفت في المغرب كانت عن أدب المشرق، كالعقد الفريد لابن عبد ربه والآمالي لأبي علي القالي، وغير ذلك كثير...

الغزالي... ولكن الذي أعلمه أن الشعر في بلاد المغرب والأندلس كان يختلف عنه في بلاد المشرق فما رأي السيد/ مخيمر..؟

مخيمر... نعم.. هناك اختلاف سببه البيئة والظروف التاريخية، كما ذكرت، ولكن هذا الاختلاف لا يتعدى الشكل.. أما الموضوع، فلم يطرأ عليه اختلاف.. كما أن الروح العربية مازالت هي التي تطالعنا وراء الكلمات والمعاني.. على مر الأجيال والعصور..

رشاد... إن العرب في المغرب –تأييدًا لكلام السيد/ مخيمر – لم تَغْفل روحهم لحظة واحدة عن التعلق بأرضهم الأولى وحنينهم الدائم لمعاهد حضارتهم، ومنازل آبائهم وأجدادهم. ونحن نقرأ شعرهم فنجد أثر هذه العاطفة قويًا وعميقًا وواضحًا، فمن ذلك قول الشاعر المغربي:

إذا كنتَ في نَجْدٍ وطيب نعيمه ... تذكَّرت أهلي باللوي فمحسَّر[1]

وإن كنتُ فيهِمْ زدتُ شوقًا ولوْعةً ... إلى ساكن نَجْدٍ وعِيل تصبُّري

فقد طال ما بين الفريقين موقفي ... فَمَنْ لي بنجد بين أهلي وَمَعْشَرِي[2]

وقد كثرت في أشعارهم تلك الإشارات واللفتات إلى الوطن، ومعاهده بصورة تلفت النظر.. وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على عمق الشعور بالعروبة، وعلى أن العربي في المشرق، أو في المغرب أو في الشمال أو في الجنوب لا ينسى أصله ولا تغيب عنه حضارته، ولا يفقد روحه في غمار الأحداث، وتحت ضغط الظروف.

---

(١) محسر: موضع بين مكة وعرفة، وقيل بين مِنى وعرفة، وقيل بين منى والمزدلفة، وليس من مِنى ولا المزدلفة بل هو وادٍ برأسه، وذكره عمر بن أبي ربيعة في شعره انظر معجم البلدان لياقوت ج٥ ص٦٢.

(٢) لم نصل إلى صاحب هذه الأبيات.

مخيمر... تَرْوِي كتب التاريخ أن الهجرة من المغرب إلى المشرق، لم تنقطع في عصر من العصور إلى اليوم.. فانتقال المُقَّرِي صاحب «نفح الطيب».. وابن بطوطة صاحب الرحلات.. وابن خلدون صاحب التاريخ ذي المقدمة المشهورة، وانتقال غيرهم في عصرهم، وفي العصور الأخرى كان شيئًا مألوفًا، لدرجةٍ لم تكن تلفت نظر أحد. وكان العالم أو الأديب ينتقل من إقليم إلى إقليم فلا يجد إلا التبجيل والتكريم، وكثير منهم طابت لهم الإقامة فأقاموا، وشغلوا مناصب، ووظائف في البلاد التي حلوا بها...

الغزالي... إذن يُفْهم من هذا أن القومية العربية فكرة جديدة...؟

مخيمر... إنها فكرة بُعِثَتْ من مرقدها فحسب.. وكان الاستعمار يخفيها عن الشعب العربي كحقيقة عن حقائق حياته، حتى لا تقضَّ مضجعه وتعجّلُ بنهايته، كما ترى اليوم.

رشاد... ما دمنا قد تعرضنا للمغرب العربي ولقضية الجزائر بهذه الصورة، فيحسن أن نقيم الدليل من التاريخ على مدى صدق هذه الحقائق، التي يحاول الاستعمار أن يطمسها.

مخيمر... تستطيع أن تقلب صفحات التاريخ فلن تجد إلا هذه الحقائق، وهي ساطعة إلى الدرجة التي يتضح فيها كل شيء.. والتاريخ يذكر لنا أن العروبة لم تكن في المغرب أقل منها بالمشرق، بل لعلها كانت في المغرب أشد وأقوى، وكان الشعور بها أبلغ تأثيرًا وحماسًا..

الغزالي... فعلا لم تنقطع الصلة بين أبناء الشعب العربي في المشرق والمغرب، ولم تُوضع الحدود وتُصنع الحواجز، إلا بعد أن تسلل الاستعمار إلى بلادنا، وفي يدي كتاب «نفح الطيب» اقرأ فيه منذ أيام.. وكان مؤلفه وهو من أعلام المغرب ينتقل بين الأقاليم العربية، ويلْقى التبجيل والإعزاز في كل مكان...

رشاد... أظن أن مؤلفه هو الشيخ أحمد بن محمد أبوالعباس المقري التلمساني المولد. ولكن أين نزل؟

الغزالي.. نزل بفاس، ثم رحل إلى القاهرة، وزار الحرمين، وبيت المقدس، والشام..

وكتاب نفح الطيب، وهو من أمهات الكتب العربية، كالكامل، والأمالي، والعقد الفريد، والأغاني، رغم أنه مُؤلَّف عن الأندلس وأخبارها إلا أن مؤلفَهُ لم ينس أن يضع له مقدمة طويلة، تعرَّض فيها لرحلته إلى المشرق، وتدوين أخباره بها، وهي كلها من أخباره الطريفة.

مخيمر... وفي هذا دليل يضاف إلى ما سبق على تطلع الشعب العربي في المغرب إلى الشعب العربي في المشرق، فرغم أن الكتابة عن الأندلس فقد وضع المؤلف مقدمته عن بلاد المشرق ورحلته إليها.

الغزالي... إن المقري يجعل من هذه المقدمة بداية جميلة للدخول إلى موضوعه، وهو الأندلس، ولا يخفى ما في هذا من دلالة..

رشاد... إن هذه المقدمة يا أستاذ غزالي رغم الطابع الأندلسي الواضح في أسلوبها فإن روحها عربية أصيلة.. والمقري فيها يرسم لوحات فنية لعاطفة العروبة في الشعب العربي بالمغرب، وتعلقه بمواطنه الأولى في المشرق.

مخيمر... أذكر أن المقري أقام بدمشق أربعين يومًا، ثم رحل عنها في خامس شوال سنة ٧٣٩ هـ، إلى مصر، وقد ذكر في ذلك قوله:

إن شام قلبي عنك بارقُ سَلْوةٍ   يا شأمُ كنتَ كمن يخون ويَغْدِرُ
كم راحلٍ عنها لِفَرْط ضرورةٍ   وعلى القرارِ بغيرها لا يقدِرُ
متصاعدُ الزَّفَرات مكلومُ الحَشَا   والدمعُ من أجفانِه يتحدَّرُ

الغزالي... يظهر أن المقري كان له بدمشق والشام ولوع عظيم وغرام دفين، فقد أكثر من ذِكْرِها في شعره، واحتفى بها في قوافيه، وحيًّا معاهدها ورياضها بأشعَاره، فمن ذلك قوله في المقدمة التي كتبها لنفح الطيب:

وَلَمْ أَزَلْ بعد انفصالي عن الغرب -يقصد الشرق- واتصالي في إثر ذلك الجمع بالفراق:

أحِنُّ إذا خلوتُ إلى زمانٍ   تقضي لي بأغنية الرُّبُوعِ
وأذكرُ طيبَ أيامٍ تولتْ   لنا فتفيضُ من أسفٍ دموعي

وأتوق وقد اتسع من البعد الحَزِق[1] وخصوصًا إذا شدا صادح، أو ومض برق إلى ديار لا يعدوها اختيار:

وأربــــعُ أحـبــاب إذا مــا ذكـرتُـهـا بـكـيـتُ، وقـد يُبـكـيك مـا أنـت ذاكـر
بِـطَـاحٌ وأدواحٌ يـروقـك حُسْنُها بـكـلِّ خـلـيـجٍ تمـنَّـتـه الأزاهــــر[2]
فَـمَـا هــو إلا فـضـةٌ فــي زبـرجـدٍ تَـسَـاقـطَ فـيـه الـلـؤلـؤ المتناثر
بحيثُ الصابا والترب والماء والهوى عـبـيـرٌ وكــافــورٌ وراح وعــاطــرٌ
ومـا جـنـةُ الـدنـيـا سـوى مـا وصفتُه ومـا ضُـمَّ مـنـه لحُـسـن نجد وحاجرِ
بــلادي الـتـي أهـلـي بـهـا وأحبتي ورُوحِـــي وقـلـبـي والمنـى والخـواطـرُ

رشاد... إنه يعبِّرُ عن شعور كل فرد في بلاد المغرب العربي، وليس هذا شعوره هو وحده، وهذه حقيقة، لا يستطيع الاستعمار بكل إمكانياته وبوسائله الوحشية في أن يطمسها، أو أن يخفيها، أو أن يُغيِّرها.

الغزالي... إن الاستعمار سيشهد نهايته على يد الشعب العربي في الجزائر وفي عُمان، وفي كل مكان ابتلى به.

مخيمر... هذا أمر لا أشك فيه أبدًا.. أحب أن أقول إن الحقائق التاريخية التي استعرضنا جانبًا منها في ندوتنا هذه لا نقصد فيها الرد على أكاذيب الاستعمار فحسب، ولكننا نريد أيضًا أن نوضح للشعب العربي، كم كان الاستعمار يحجب عنه تاريخه ويزيف له حقائق ماضيه.

الغزالي... من غير شك هذه غاية مقصودة من ندوتنا.. وأن مهمتنا أن نزيح الستار عن الحقائق.. وأن نقدمها للناس.

مخيمر... إن الأدب المغربي، وكذلك الأدب الأندلسي يمثل جانبًا من تطور الأدب

(١) رجل حزق: بخيل ممسك والحُزُق من الرجال: القصير الذي يقارب الخطو والسيئ الخلق، والبخيل.

(٢) بطاح: أراض واسعة ممتدة، وأدواح: جمع دوحة، وهي الشجرة العظيمة.

العربي على العموم.. والوقوف على حقيقة هذا التطور ومداه من الأهمية بمكان، لا بالنسبة لقضايانا الأدبية فحسب، بل بالنسبة لقضايانا السياسية أيضًا.

رشاد... الحق في هذه القضية أن الأدب هو صورة للمجتمع، وتطور الأدب يتبع تطور المجتمع.

الغزالي... هذا حق.. ويجب أن يكون هذا الحديث في الأدب المغربي مقدمة لتوضيح خط التطور العام، وصلة ذلك بالأحداث الجارية في العالم العربي من الخليج إلى المحيط.

مخيمر... إن الأدب المغربي يظفر بأعلام كبار، لا تقتصر شهرتهم على بلادهم فحسب، بل تمتد إلى بلاد العالم الأخرى، كابن خلدون واضع أسس علم الاجتماع الحديث، وابن طفيل واضع نظرية تطور الحياة الأولى، ومؤلف رسالة «حيّ بن يَقْظان». في إمكان الوصول إلى الحق المطلق بالعقل، كما أمكن الوصول إليه بالشرع..

الغزالي... لولا الوقت قد طال بنا، وهو محدد تحديدًا حاسمًا لاستفاض بنا الحديث في أعلام المغرب العربي، فليكن ذلك إلى حين آخر.... إن شاء الله.

وهكذا تنتهي هذه الحلقة من آداب المغرب العربي أعدها لكم واشترك فيها الأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي مع الأديبين الأستاذين أحمد مخيمر وأحمد رشاد سلامة.. كان موضوع الندوة أدب المغرب العربي.. وصاحب كتاب نفح الطيب.

(٤) الطبيعة والربيع في الشعر السوري

ندوة أدبية [١]

يشترك فيها الأستاذ على الجندي العميد السابق بكلية دار العلوم، والدكتور أحمد هيكل، والأستاذ عبدالحميد بلبع الأستاذان بجامعة القاهرة، والندوة من إعداد وتقديم أحمد عبدالمجيد الغزالي.

وقد ابتدأ الغزالي الندوة بهذه الكلمة:

يقولون لي ماذا رأيتَ بشأمِهمْ فقلت لهم كلُّ المكارم والفضلِ
فبلدتُهُمْ خيرُ البلاد، وأهلُها بإحسانهم تُغْني الغريبَ عن الأهلِ[٢]

طبيعة فاتنة خلاَّبة، رقيقة سمحة، هادئة راضية، فيها المياه الجارية والعشب النضر، والحدائق الغُلّب[٣]، والجنات الألفاف، والثلوج البيض على مدار الأيام والليالي.

تلك هي الطبيعة التي صَبَّ الله فيها الشعب السوري أحد إقليمي الجمهورية العربية المتحدة، فخرج نَزَّاعًا[٤] إلى هذه الطبيعة، يحمل خصائصها

(١) لقد أعدت هذه الندوة - ابتداءً - في صورة محاضرة من ثلاث وعشرين صفحة ؛ لتقدم كندوة، في أعقاب المهرجان الشعري بدمشق، وذلك زمن الوحدة بين مصر وسورية، ومن خلال المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب الاجتماعية، التابع في الإشراف والرعاية لرئاسة الجمهورية.
(٢) للشاعر القاضي الفاضل، كما سيتضح فيما بعد، والشعر من البحر الطويل.
(٣) الحدائق الغُلّب: ذوات الأشجار الكثيفة والملتفة.
(٤) نزَّاعًا : ميالاً .

وسماتِها القريبة والبعيدة، كما تحملُ الأثمار خصائص الأشجار، وإذا كان الناسُ بزمانهم أشبه منهم بآبائهم - كما يقال- فإنهم ببيئتهم أكثر شبهًا، وأصح نسبًا.

هذه الطبيعة من شتى جوانبها، الغَزِلة والعربية، والعادلة، والمُحْسِنة والشاعرة، -هي موضوع ندوتنا الأدبية الليلة.

وقد تولى الأستاذ على الجندي في هذه الندوة - الحديث عن أثر الطبيعة في المُوَاطِن السوري والمواطِنة السورية، من حيث المزاج والذاتية والطبع، والخصائص النفسية، وذلك من أول نَصّ المحاضرة إلى حديث من نساء دمشق، اللائي قصصن شعورهن الفينانة في الحروب الصليبية، زمن الملك العادل الأيوبي، لتُصْنع منها الحبال وغيرها.

ثم تحدث الغزالي فقال: «وعلى ذكر أثر هذه الطبيعة السخيَّة، في تكوين كيان المرأة السورية حضرية وبدوية، من ناحية الخَلْق والزينة والسحر، أذكر أن لشاعر سورية الأكبر[1] أبي الطيب المتنبي شعرًا في هذا الصدد من ذلك أبياته التي يقول فيها واصفًا المرأة السورية:

ذاتُ فَرْع كأنما ضُرب العَنْـ ـبر فيه بماءِ وَرْدٍ وعُود[2]

وتحدث الدكتور هيكل ملخصًا ما قاله الشعراء عن دمشق.

ثم كتب الغزالي في تقديمه للأستاذ بلبع ما يلي : « تُعَد سوريا من أقدم العصور أخصبَ مراتع الشعر وأوسع آفاقه، ثم قال:

فهل للأستاذ بلبع أن يمر بنا مرّ الكرام على هذه الأسباب، التي جعلت من سورية رياضًا غناء للشعر العربي الأصيل؟

---

(١) أبو الطيب المتنبي (أحمد بن الحسين) من العراق حيث ولد في الكوفة، وليس من سورية، كما ورد في كلام الغزالي، وترجع جذوره إلى اليمن، وعاش مدة في معية سيف الدولة الحمداني في حلب بسورية، ذلك البطل العربي الذي مدحه المتنبي بمجموعة من القصائد عرفت بالسيفيات، وجاء المتنبي إلى مصر وهرب منها، وقُتل بفارس في الثامن والعشرين من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة من الهجرة (شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي - جزء أول).

(٢) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص٤٢، والفرع : شعر الرأس.

وقد علق الأستاذ علي الجندي على ما قاله الأستاذ بلبع، وعلى ما ذكره بعض المؤرخين حول معالم سورية، خاصة مدنها الأربعة الكبرى، وهي دمشق وحلب وحمص وحماة، وكانت هذه المدن عُكَاظًا للشعر، ثم ذكر عددًا من الشعراء، الذين تحدثوا عن وصف الطبيعة السورية الحية أو المتحركة.

كما تحدث الدكتور هيكل عمّا قاله الشعراء في الطبيعة الصامتة، تلك التي تحدث عنها الدكتور هيكل بإفاضة، وفي نهاية الندوة ذكر الغزالي بعض الجوانب، التي تجليها الطبيعة حين يعود إليها صباها، وتأخذ الأرض زخرفَها وتتزين، فتتحلى بأزهارها وأنوارها وعطورها وأنسامها، كما يقول الشعراء الذين أفاضوا في الحديث عن الربيع الشاعر، الذي جلاه الأستاذ على الجندي حيث أجمل للحاضرين في الندوة الرأي إجمالًا، شعرًا ونثرًا، مؤكدًا أن هذا الموضوع أكبر من أن يتسع له الوقت في غرف الاستوديوهات، وأماكن الميكروفونات، ذلك الموضوع الذي أفاض فيه الأستاذ الجندي بدءًا مما كتب في المحاضرة تحت عنوان «الربيع الشاعر» إلى ما جاء في نهايتها وهو يقول: «حقق الله آمال أمتنا العربية، وجمعَ شملها، ورفع رايتها، وسدد خطاها، وأيدها بروح من عنده، وجعل أيامها على مدى الزمن أعيادًا ومواسم، وثغورا بواسم آمين».

إن هذه الاقتباسات مما دار في ندوة «الطبيعة والربيع في الشعر السوري» ليست إلا تلخيصًا، مما جاء في المحاضرة التالية:

الطبيعة والربيع في الشعر السوري (حول تحقيق الشعر والشعراء في هذا الموضوع كما كتبه الغزالي)[1]

حرص الغزالي في هذا الموضوع الذي أعده الأستاذ «عَلِى الجندي» عَلَى أن ينقل إلى القراء عددًا كبيرًا من النماذج الشعرية للشعراء، الذين عاش معظمهم في

---

(١) بالصورة التي وجدناه عليها مكتوبًا بالآلة الكاتبة، وقد أعدَّ الأستاذ على الجندي هذا الموضوع في شكل محاضرة طويلة وواسعة، وتعامل الغزالي معها في الندوة واضعًا فهرسًا لهذه المحاضرة من عشرة عناصر، وقد عانيت كثيرًا في تحقيق الشعر الذي اختاره الجندي، واتخذه الغزالي موضوعًا لندوته.

إذن فالمحاضرة من إعداد على الجندي، وتوظيفها للندوة من عمل الغزالي.

العصر العباسي بقسميه، وكان عماد الأخذ والتناول منه شعر أبي الطيب المتنبي، الذي اختير له عددٌ كبيرٌ من النماذج، ولم يبالِ الغزالي بتحديد مصادر الشعر الذي استعان به[1]، وبعض الشعراء معروفون ومشهورون مثل المتنبي، والصنوبري، وأبي فراس، والبحتري، وكشاجم، وابن عُنين، والكثيرون من الشعراء في هذا الموضوع مغمورون، يصعب الوصول إلى أشعارهم، بل ربما يكون الواحد منهم ليس له إلا عدد قليل من المقطوعات الشعرية، ومن هؤلاء الزاهي، وابن حبيب الحلبي، والببغاء، وشعراء آخرون كانت لهم بعض النماذج التي لا تقدم ولا تؤخر في إيضاح الهدف من هذا البحث، والذي كانت مجاملة على الجندي لأهل سورية واضحة جلية بلغت حدًا يفوق مساحة بحث محدود بعدد من الصفحات، وأكثر الشعراء عباسيون، وليس من العصر الحديث سوى «أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم»، ولم يبال الغزالي بما لم يذكره على الجندي من الشعر الأندلسي، لا في الطبيعة ولا في غيرها.

وقد حرصنا على تدقيق الشعر لمن لهم دواوين مطبوعة، أو تناقلت مصادر الشعر نماذجهم، التي اختارها الجندى بدون منهج محدد للاختيار.

وهذا هو نص المحاضرة التي أعدها الأستاذ على الجندي والمعتمد عليها فى الندوة التي نحن بصدد الحديث عنها..

---

(١) أي الأستاذ / على الجندي.

الطبيعة والربيع في الشعر السوري(*)

(١) سوريةِ الكبرى:

تمتد سوريةِ الكبرى - بحدودها الجغرافية والتاريخية المعروفة قديمًا -من جبال «طوروس» شمالًا إلى الصحراء الغربية، وشبه جزيرة طور سيناء جنوبًا، ومن تخوم العراق - يدخل في ذلك الموصل والجزيرة الفراتية - شرقًا، إلى البحر الأبيض المتوسط غربًا.

وهذه الرقعة المترامية الأطراف، تجمع فنونا كثيرة متباينة من الطبيعة، ففيها السهول والحُـزُون[١] والأغوار والأنجاد والأخاديد والوديان، والهضاب والتلال والجبال، والصحاري المجدبة والمراعي المعشّبة، والمُرُوج الفضية الخصيبة، والأنهار الطويلة، والنهيرات القصيرة، والبحيرات الكبيرة، والبِرَك والغُدْران الصغيرة، والعيون الجارية، والحقول التي تنبت الغَلاَّت والبقول، والرياض المزدهرة بأنفس الفواكه: من عنب ومشمش وفستق وخوخ وموز وبرقوق وتين وكمثرى وتفاح وأترج[٢] وغيرها، وفيها أشجار مختلفة كالصنوبر والزيتون، وفيها أوابد الحيوان وأليفهُ، وطيرُ البَرّ والبحر والداجن وغيره.

(*) أُعدَت هذه المحاضرة ضمن مهرجان الشعر بدمشق.

(١) الحُزُون: مفردها الحَزَن، وهو الأرض الغليظة الخشنة.

(٢) الأترج: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر - ثمره كالليمون الكبير، وهو ذهبي اللون، ذكي الرائحة، عصيره حامض.

وفصولها متمايزة بصفاتها المعروفة جغرافيًا، ولا يمنع ذلك من أن تجتمع مظاهر الصيف والشتاء في مكان واحد، وأن يتوج الثلج قمم الجبال العالية على مدى السنة، ويختلف عليها البرد النافح، والحر اللافح، والاعتدال اللطيف، والنسائم الرقيقة البليلة الأذيال، والعواصف الثلجية العارمة، والجدب القاسي المُحْرِق، والمطر الغَدِق المغرق. وفيها آثار مختلفة لأمم عريقة في القدم، وآثار إسلامية تنتمي إلى دول عدة، تعاقبت بالحكم عليها، وقد ضُرب بِرَبْطِها وزُجَاجِها المثل، فيقال: رَبْط الشام، وأرقُّ من زجاج الشام، وطارت لزيت زيتونها شهرةٌ في الآفاق في جودته وصفائه، كان يسمى قديمًا الزيت الركّابي؛ لأنه كان يُحمل على الإبل إلى الخارج.

وفيها قرى ودساكر[1] عامرة، ومدن مستبحرة العمران، منها دمشق الفيحاء، التي لا يعرف التاريخ مدينة أقدم منها، وقيل: إن الدمقش أو المقدش وهو الحرير أو الأبيض منه خاصة، مشتق من اسمها، ولتفاحها ذِكْر سارَ مسيرَ الشمس والقمر، وشذاه العطري، هو الذي عناه البديع الدمشقي الشاعر بقوله:

يا نَسِيمًا هَبَّ مِسْكًا عَبِقًا   هذه أنفاسُ رَيَّا جِلَّقا[2]

وغُوطتها إحدى جنَان الدنيا الأربع ومنازهها، وهي صُغْد سمرقند، وشعبَ بوّان، ونهر الأُبُلّة، وغوطة دمشق، وهي أحسنهن وأفضلهن بالإجماع[3]، وفيها يقول كعب الأحبار: غوطة دمشق بستان الله في أرضه.

ومنها حلب الشهباء، التي بها مقام إبراهيم - عليه السلام- والتي يقول فيها ياقوت: شاهدت من حلب وأعمالها ما استدللت به على أن الله - تعالى- خَصّها بالبركة وفَضّلها على جميع البلاد[4]...

(٢) وحدة جغرافية وانسانية:

ولكن سورية - برغم هذا الاختلاف الكبير البين - في طبيعة أرضها تكوّنُ

---

(١) دساكر: جمع دَسْكَرة، وهي مجموعة من البيوت المتراصة المتميزة من حيث البناء والاستعمال.

(٢) البيت من الرمَل التام.

(٣) انظر معجم البلدان ج ٣ ص ٤٠٨.

(٤) السابق ج٢، ص٢٨٤.

وحدة جغرافية متكاملة، لا يستغني جزء من أجزائها عن الآخر، إلا إذا صح أن يستغني الإنسان ببعض جوارحه عن بعض، وهو عين المحال!!

هل العينُ بعد السمعِ تكفي مكانَه ... أم السمعُ بعد العين يَهْدي كما تَهدي(1)

وأبناؤها ما بين بدو ذوي بأس وكرم، وحضر ذوي لباقة وأناقة، وسَهْلِيين ذوي طيبة وإيمان، وجبليين ذوي فروسة وشَوكة، ويؤلفون شعبًا واحدا، متحدًا في العواطف والنيات، والوسائل والغايات، متحابًا في الرخاء متعاونًا في البلاء!!

(٣) طبيعة فنانة

هذه الطبيعة اللينة الصلبة، الرقيقة الخشنة، الباسمة العابسة، السمحة الكَزَّة، المعطية المنوع، الوادعة الثائرة، الهادئة الهادرة، الراضية الغاضبة الكاسية العارية، النائمة اليقظة، المجدبة المخصبة، القرّة الحارّة!!

هذه الطبيعة الجميلة، الفاتنة الخلابة، الجالية على ألحاظ العيون مزايا كلِّ فصل واضحةٌ، وخصائصه ضاحيةٌ، وشياته سافرةٌ: صيف كما يقول ابن حبيب الحلبي:

مصيفٌ له ظلٌ مديد على الوَرَى ... ومَنٌّ خلا طعْمًا وحلّ أخْلاطَا(2)

يعالج أنواعَ الفواكه مُبْديًا ... لصحتها حفظًا، ويُعْجِز بِقَراطًا(3)

وشتاء كما يقول الزاهي:

الريح تَعْصف والأغصانُ تعتنق ... والمُزْنُ باكيهٌ والزهر مختنقُ

كأنما الليلُ جفنٌ والبروقُ له ... عَيْنٌ من الشمس ترنُو ثم تنطبقُ(4)

وربيع كما يقول الصنوبري:

---

(١) البيت من البحر الطويل.

(٢) المن : نقط حمراء تتجمع على أرراق الشجر، فيها طعم القشطة، وحلاوة العسل.

(٣) من البحر الطويل.

(٤) من البحر البسيط التام.

ما الدهرُ إلا الربيعُ المستنيرُ إذا ... جاءَ الربيعُ أتاك النَّوْرُ والنُّورُ
فالأرضُ ياقوتةٌ، والجوُّ لؤلؤة ... والنبتُ فيروز والماءُ بَلَّور[1]

وخريف كما يقول ابن حبيب:

إن فصل الخريف وافي إلينا ... يتهادى في حُلَّة كالعروس
غيرُه كانَ للعُيونِ ربيعًا ... وهو ما بيننا ربيعُ النفوسِ[2]

هذه الطبيعة ذات المياه الجارية المطاردة، والعشب السندسي النضر، والحدائق الغُلبِ، والجنات الألفاف، والبساتين الفيح، والسحب الممسَّكة المصندَلة، والثلج الأشهب، والشجر والظل والنَّوْرُ والزهر، والفاكهة المتعددة الضُّروب، الجميلة الألوان الحلوة المذاق، العِطْريّة الشميم!!

هذه الطبيعة المزخرفة المطرَّزة، الموشّعة[3] الموشية، المنقوشة نقش الدنانير، التي قيل: إن الشام سمى شامًا من أجلها، لأن أراضيه كالشامات؛ لاختلاف الألوان في تربها، فأبيض وأسود، وأحمر وأصفر وأكدر، وكلٌّ منها يختلف في ذاته شدة وضعفًا.

هذه الطبيعة التي أنطقت قيصر «بني الأصفر» حين أجلاه جيشنا العربي عن سورية العربية، إبان الفتح العربي بهذه الكلمة الحزينة البائسة اليائسة: وداعًا يا سورية!! وداعًا أيها القُطْر الجميل...

هذه الطبيعة - كما أسلفنا بعض وصفها - هي القالب الذي صُبَ فيه الشعب السوري، فخرج ينزع إليها في خَلْقه وخُلُقه، ويحمل خصائصها البعيدة والقريبة، كما تحمل الأثمارُ خصائص الأشجار. وإذا كان الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم - كما قيل - فإنهم ببيئتهم أكثر شبهًا، وأصح نسبًا، وأمتنُ سببًا، فهذه الطبيعة، هي التي منحت السوريين كمال الأجسام، وصحة الأبدان، وطول القوام، وقوة الأبد وشدة المُنّة، وحسن الوجود، وجمالَ البشرة، وبهاءَ الألوان وصفاءَها.

---

(١) الأبيات من البحر البسيط.

(٢) الأبيات من البحر الخفيف.

(٣) الموشعة: المزهرة، المنبتة، الملوَّنة.

وهي التي طبعتهم على حب الوطن والفناء في الذود عنه، فإن قضت الضرورة بفراقه عاشوا فيه بأرواحهم وعواطفهم، ولقّنتهم عشقَ الحرية، والهيامَ بالفروسية، وإباءَ الضيم، والثورةَ على الظلم والطغيان، وطاعة القوانين العادلة، والدقة والنظام، واستجادةَ المطعم والمشرب والملبَس، والكلف بالغناء والموسيقى وفنونِ الجمال، والكدَّ والجدَّ الصارمَ في العمل المثمر، والضربَ في مناكب الأرض، لتحصيل الرزق الحلال، والبعدَ عن الإسفاف والتهالكِ والإسراف، والحنوَّ على الفقراء والغرباء، والحفاظ على النواميس الدينية، والتمسك بتقاليد السلف الصالح، والنفور من النظم الهدامة الموبقة، ومن أوصافهم المأثورة ما جاء في الأساس للزمخشري: ما أنتم يا أهل الشام إلاّ كشجر البشَام، دُهنُه أطيبُ الأفواه، وعوده مَطْيبة الأفواه!! ولله در القاضي الفاضل حيث يقول فيهم:

يقولُون لي ماذا رأيتَ بشامهمْ   فقلت لهم كلُّ المكارم والفضل

فبلدتُهُم خيرُ البلاد، وأهلُهَا   بإحسانهم تُغْنِي الغريبَ عن الأهلِ(1)

وهذه الطبيعة قضت على سورية أن تكون متصلة بأهم الأقطار العربية، ومن ثَمَّ ورثتها العصبية المفرطة للعروبة، والغيرةَ الملتهبةَ عليها، حتى عُدّت بحق قلب العروبة الخافق، ولسانها الناطق، وسيفها المسلول! ولقد كانت دائمًا كثيرة العطف على شقيقاتها، عميقة الوفاء لهم، تثور لثورتهم، وتغضب لغضبهم، وتأسى لأساهم، وتفرح لفرحهم، فما ألمَّت ملمة ببلد عربي، إلا هبت زائرة مزمجرة، تشد أَزْره، وتجبر كسرَه، وتأسو جُرْحَه، وتظاهره بكل ما تملك من حَوْل وصَوْل!!

(٤) طبيعة عسكرية

وهذه الطبيعة قد جاءت على سوريا بهذا الموقع الممتاز برًا وبحرًا، فكانت لذلك أكبرَ معسكرات العرب الحربية وأهمَّ قواعدهم البحرية في العصور الأولى، فبحارةُ الشام هم الذين فتحوا جزائر بحر الروم، وجنودُ الشام منذ العهد الأموي يمكن أن يُقال فيهم : إنهم أولُ قوة عربية نظامية مدرّبةٍ بالمعنى العسكري المعروف، خاضعة، مطيعةٍ لقيادة موجّهة دقيقة، ومتحررةٍ من النظام القَبلي.

---

(1) سبق إيراد هذين البيتين في بداية الموضوع.

هؤلاء الجنود الأشاوس لا يبالغ من يلقبهم «ألمان العرب» في البطولة والصلابة، والنظام والطاعة لهؤلاء الجنود، هم الذين سلكوا دروبَ الروم الوعرة المبطنة بالجليد، حتى وقفوا مرتين أمام أسوار القسطنطينية في عهد معاوية وسليمان بن عبدالملك!!

وهم الذين شرقوا حتى بلغوا «الشغر» من بلاد الصين !![1]

وهم الذين غرّبوا حتى أدخل قائدهم عُقْبَةُ بنُ نافع قوائمَ فرسه في مياه المحيط الأطلسي ؛ ليمهّد العذر لنفسه أمام الله !!

وهؤلاء الجنود هم الذين وثبوا إلى البر الأوربي، بقيادة طارق بن زياد وموسى ابن نصير، حتى وطئت سنابكُ خيولهم شطَّ «اللوار » بفرنسا !!

وهؤلاء الجنود هم الذين ورَّثوا العرب والإسلام هذه الإمبراطورية الواسعة الضخمة، التي فاقت كلَّ الإمبراطورياتِ القديمة، والتي تضمُّ نحو أربعمائةِ مليونٍ من الناس !!

(٥) طبيعة غزلة :

وهذه الطبيعة كما تركت آثارها على الرجل السوري، لم تنس أن تحتفي كل الحفاوة بالمرأة السورية، فتركتها مثالًا صادقًا، ورمزًا ناطقًا لها: في حسنها الباهر، ووجهها الأبيض الملثَّم بالورد، وأناقتِها البالغة، وأنوثتها الرقيقة، وإتقانها فنون التزين والتجميل مع القصد والحشمة، والصيانة والديانة، وفي رَهَافَةٍ حسها وسلامة ذوقها، وحبها للقراءة والاطلاع، وتأثرها بالأدب والشعر، والغناء الرفيع، وحسن قيامها على المنزل، وتربية الأولاد، ومعاونة الزوج، واحتمال الغربة مع المحافظة على شخصيتها وطابعها، والحرص على الآداب الموروثة، ومشاركة الرجال في التضحية والمفاداة. ولقد سجل التاريخ لنساء دمشق أنهن قصصن شعورهن الفينانة في الحروب الصليبية زمن الملك العادل الأيوبي ؛ لتصنع منها

---

(١) بلاد شَغَّر : وهي قلعة حصينة، مقابلها أخرى على رأس جبلين، وهما قرب أنطاكية، معجم البلدان لياقوت الحموى ج٣، ص٣٥٢.

الحبال وغيرها، وبذلك يكن قد سبقن بمئات السنين نساء فرنسا اللاتي قصصن شعورهن في حرب السبعين ؛ لبيعها مساهمة في تأدية الغرامة التي فرضتها عليها ألمانيا.

وقد وصف شاعر سوريا الأكبر أبو الطيب المتنبي[1] المرأة السورية حضريةً وبدوية في خَلْقِها الوسيم، وخُلُقِها الكريم وزينتِها وسحرها وفتنتها، وصفًا كاملًا شاملًا مستوعبًا، منتزعًا من المخالطة والمشاهدة - وإن لم يُتَيَّمْ قلبَه العشقُ، وتقرح كبَدَه الصبابةُ في أغلب الظن. فمن ذلك قوله - وهو غيض من فيض :

ذَاتِ فَـرْعٍ كَـأَنَّمَـا ضُـرِبَ الْعَنْـ ... بَـرُ فِـيـهِ بِمَــاءِ وَرْدٍ وَعُـودِ
حَالِكٍ كَالْغُدَافِ جَثْلٍ دَجُوجِيِّ ... اثِيثٍ جَعْدٍ بِلاَ تَجْعِيدِ
تَحْمِلُ الِمسْكَ عَنْ غَدَائِرِهَا الرِّيـ ... ـحُ وَتَفْتَرُّ عَنْ شَنِيبٍ بَرُودِ[2]

******

كشَفَتْ ثَلاَثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا ... فِي لَيْلَةٍ فَأَرَتْ لَيَالِيَ أَرْبَعَا
وَاسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّماءِ بِوَجْهِهَا ... فَأَرَتْنِيَ الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعًا[3]

******

رات وجهَ مَنْ أهوى بليلٍ عواذلي ... فقُلْن نَرَى شمسًا وما طلع الفَجْر
رأيْـنَ التي للسِّحْرِ في لحظاتها ... سُيوفُ ظُبَاها من دَمي أبدًا حُمْرُ
تناهي سُكونُ الحُسْنِ في حَرَكَاتها ... فليس لِراءِ وجهِهَا لم يَمُتْ عُذْر[4]

*****

(١) سبق أن قلنا إن المتنبي من العراق، ثم انتقل شاعرًا كبيرًا إلى سورية، ومنها إلى مصر.
(٢) شرح ديوان المتنبي ج٢، ص٤٢، والغداف : الغراب الأسود، والجثل : الكثير الملتف، والدجوجي : المظلم، والأثيث : الكثيف، وشنيب : ثغر شنيب أي فيه بياض، وطيب النكهة.
(٣) السابق ج٣، ص٤، أي صارت الليلة بذوائبها الثلاث أربع ليال.
(٤) السابق ج٢، ص٢٢٦، ٢٢٧، والظُبَى : أطراف السيوف، جمع ظُبة.

وفـتـانـةُ الـعـيـنـين قـتّـالـة الـهـوى إذا نـفـحـتْ شَـيْـخَـاَ روائـحـهُـا شَبَّا
لـهـا بـشَـرُ الـدر الـذي قُـلّـدَت بـهِ ولـم أر بَـدْرًا قبلَها قُلّد الشُّهْبا[1]

*****

حِسَانُ التَثنّي ينقُش الوَشْيُ مِثْلَه إذا مِسْنَ في أجسامِهن النواعِمِ
ويَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍ تقلّدن مِثْلَه كأن التراقِي وُشّحَتْ بالمباسِمِ[2]

*****

فتاةٌ تَساوَى عِقْدُها وكلامُها وَمبسِمُها الدُّريُّ في الحُسْنِ والنّظْم
ونكهتُها والمنْدَلِيُّ وقَرْقَفٌ معتّقةٌ صهباءُ في الرّيح والطعم[3]

*****

لجنّيةٍ أَمْ غادةٍ رُفِعَ السَّجْف لِوَحشيةٍ لا ما لِوحشيةٍ شَنْفُ
نَفُورٌ عَرَتْهَا نَفْرةٌ فتجاذَبَتْ سوالِفُها والحَلْي والخَصْرُ والرِّدْفُ[4]

ووصفها في منعَتها وتمنعها، وحصانتها وتحصّنِها وصفًا بديعًا شريفًا مشرّفًا، فقال :

لَبِسْنَ الوَشْىَ لا مُتَجَمّلاتٍ وَلكِنْ كَي يَصُنَّ به الجَمَالا
وَضَفَّرْنَ الغدائرَ لا لحُسْنٍ ولكن خِفْنَ في الشَّعَر الضلالا[5]

*****

(١) شرح ديوان المتنبى ج١، ص١٨٤، والنضج : تضوع رائحة الطيب، والبشر : جمع بشرة وهي ظاهر الجلد، والدر: اللالئ العظام.
(٢) السابق ج٤، ص٢٣٧، الوشي : النقش في الثوب، ويمسن : تَبَخْتَرن، والتراقي : العظام التي فوق الصدر، المباسم : الثغور.
(٣) السابق ج٤، ص١٦٧، ص١٦٨، يقول : عن كلٍ من قلادتها ونطقها وثغرها الذي تبسم عنه سواء في الحسن والنظم، والمندلى : العود الذي يتبخر به، والقرقف : من أسماء الخمر.
(٤) السابق ج٣ ص٢٥، الغادة : المرأة الناعمة. السجف : جانب الستر، الشنف: ما يعلق في أعلى الأذن، والسوالف: جمع سالفة، وهي صفحة العنق، عَرتها : أصابتها.
(٥) السابق ج٣ ص ٣٣٨، والتضفير : فتل الذوائب.

كـلُّ مَـهَـاةٍ كـأنَّ مُـقْـلَـتَـهَـا ... تـقـول إيَّـاكـم وإيَّـاهـا
فـيهـنّ مَـنْ تـقـطـرُ الـسـيـوفُ دمًـا ... إذا لِـسـانُ المحـبّ سـمَّـاهـا[1]

*****

ومـا شَـرَقـي بـالمـاء إلا تـذكُّـرا ... لمـاءٍ بـه أهـلُ الحـبـيـبِ نُـزُول
يُـحـرِّمُـهُ لمْـعُ الأسـنـةِ فـوقـه ... فـليـس لـظـمـآنٍ إلـيـه وُصُـولُ[2]

*****

سَـقَـاكِ وَحَـيَّـانَـا بِـكِ الـلـه إنَّمـا ... عَلَى الـعِـيسِ نَـوْرٌ والخـدُورُ كَمَائمُهْ
حَـبِـيـبٌ كـأنَّ الحُـسْـنَ كـان يحبُّه ... فـآثـرهُ أو جـارَ فـي الحُـسْـنِ قَـاسِمُهْ
تَحُـولُ رِمَـاحُ الخـطِّ دونَ سِبائـهِ ... وتُـسْـبـي لَـهُ مِـنْ كُـل حَـيٍّ كرائمُه
ويُضْحِـي غُـبـارُ الخيل أدنـي سُتُورِه ... وآخـرُهـا نَـشْـرُ الـكِـبَـاءِ المُـلازِمُـهْ[3]

ويقول فيهن أبو فراس الحمداني :

عَـدَتْـنـي عَـنْ زيـارتـكـم عـوادٍ ... أقـلُّ مَـخُـوفِـهـا سُـمْـرُ الـرمـاح
أقـمـت ولـو أطـعـت رسـيـس شوقي ... ركِـبْـتُ إلـيـك أعـنـاق الـريـاح[4]

ويقول المتنبي في الأعرابيات منهن :

عـدويـةٌ بَـدويـةٌ مِـنْ دُونـهـا ... سَـلْـبُ الـنـفـوس ونـارُ حـربٍ تُوقَد
وهـواجـلٌ وصـواهـلٌ وَمَـنـاصِـلٌ ... وذوابـلٌ وتَـوعّـدٌ وتَـهَـدُّدُ[5]

---

(١) السابق ج٤ ص٤٠٧، مهاة: بقرة وحشيَّة، والمراد المرأة الحسناء، وفيهن أي في كل مهاة.
(٢) السابق ج٣، ص٢١٩. الشرق : الغصص.
(٣) السابق ج٤، ص٤٩، العيس: الإبل البيض، والنَّوْر : الزهر، والكمائم : أغلفة الزهر قبل أن تتفتق، والخط : موضع باليمامة تقوم فيه الرماح، والحيّ: الجماعة من الناس ينزلون البادية، والكباء: العود الذي يتبخر به.
(٤) ديوان أبي فراس ص٧٢، طبع دار صادر، بيروت.
(٥) ديوان المتنبى ج٢ ص٥٣، عذوية : أي من بني عدى، وبدوية : نسبة إلى البادية، وهواجل: جمع هوجل وهي المفازة، والصواهل : الخيل، والمناصل : السيوف، والذوابل : الرماح.

هـامَ الـفـؤادُ بـأعـرابـيَـةٍ سَـكَـنَـتْ ... بَيْتًا مِـنَ الـقَـلْبِ لَـمْ تُمـدَدْ لـهُ طُنُبَا

مَـظْلُومَـةُ الـقَـدِّ فـي تَـشْبِيهِهِ غُصُنًا ... مَـظْلُومَـةُ الـرِّيـقِ فـي تَشْبِيهِهِ ضَرَبًا

بَـيْضَـاءُ تُـطْمِعُ فِـيمـا تَحْتَ حُلَّتِها ... وَعَــزَّ ذَلِــكَ مَـطْـلُـوبًـا إذا طُلِبا

كأنَّها الـشـمسُ يُعْيِي كفَّ قابِضِهِ ... شُعـاعُهـا ويـراه الـطَّـرْفُ مُقْتَرِبا[1]

(٦) طبيعة عربية أصيلة :

وتعد سورية من أقدم العصور، وعلى مدى العصور، أخصبَ مراتع الشعر العربي وأوسعَ آفاقة لأسباب كثيرة منها :

إن هذه البلاد كان يقطنها قبل الإسلام قبائلُ عربية صريحة، أو تَمُّت إلى أصول عربية، كتنوخ، وسبأ، والضجاعمة، وكلب، وغسان، وبطونٌ من قيس وربيعة والأنباط، فلم تكن اللغة العربية ولا الشعر العربي بعد الفتح الإسلاميّ وافدَيْن عربيين على أهلها، بل كانا أخوين، حلاّ على إخوة، فرحبوا بهما، وقرّبوا وأهلّوا.

وكان من الوافدين على الغساسنة من شعراء الجزيرة: النابغة والأعشى ومرقّش الأكبر، وعلقمة الفحل، وحسان بن ثابت، واتصال حسان بآل جفنة، وإغداقُ صلاتهم وتحفهم السنّية عليه، كان مما فتق لسانه، ونفض على شعره أشعة الحضارة، ووشّاه بزخارف المدينة، حتى عُدَّ أشعرَ أهل المَدَر في الجاهلية وإبَّان الإسلام.

ومنها: أن العرب منذ عهد أبي بكر وعمر جعلوا سورية دار هجرة وإقامة؛ لمجاورتها جزيرتهم، وقُرْبِها من خُطَطِهمَ، واتصالها بصحرائهم، ولاعتدال مناخها، وخصب ريفها، وجمالِ مناظرها، فاستقر بها أصفى السلائل العربية، ومعظمهم من أهل اليمن، وحسبنا أنْ نعلم أنه نزل بحمص وحدها سبعمائة من الصحابة، ورحم الله ابن المدبّر الكاتب حيث يقول:

---

(١) ديوان المتنبى ج١ ص٢٣٨، الطنب : حبل الخباء، ومظلومة القد: إذا شُبه بالغصن؛ لأنه أحسن منه، ومظلومة الريق: إذا شبه بالعسل، ويُعْي : يعجز، والطرف : النظر، شبهها بشعاع الشمس في قربه من الطرف، وبعده عن القبض عليه.

بـــلادٌ بـــارَك الــرحــمــنُ فيها   فـقـدَّسَـهـا عـلـى عِـلْـم وخُـبْـرِ
بـهـا غـــررُ الـقـبـائـلِ مِـــنْ مَـعَـدّ   وقـحـطـانٍ ومِـــنْ سَـــرَوات فـهـر(١)

لذلك كان الشعر السوري دائمًا يجمع بين جزالة البدو، وفصاحة ألفاظهم، ومتانة سردهم، وبعدهم عن الضعف والهلهلة، وجمال نَسْجهم، وطرافة معانيهم، ولطافة أخيلتهم، وكثرة افتنانهم.

ومنها: أن بُعْدَ سوريا عن بلاد العجم، وقربها من الحجاز بخاصة –وهو مهد النبوة، ومواطن البيان الأصيل – صانَ ألسنتها من الفساد العارض، لألسنة غيرهم، ممن جاوروا الفرس، وخالطوهم، وداخلوهم، فظلّوا على فصاحتهم التي حملوها معهم إلى الوطن الجديد، ومن أجل ذلك يقول الثعالبي: لم يزل شعراء الشام وما يقاربها أشعرَ من شعراء العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام.

ومنها: أنه بعد انتهاء دولة الخلفاء الراشدين، أصبحت دمشق حاضرة الخلافة الإسلامية، وعاصمة الإمبراطورية العربية، فأمَّها أربابُ الفصاحة واللُّسُن، وفرسانُ الشعر والخطابة من جميع أصقاع الدولة، وكان بنو أمية – فوق ما يحملون من عصبية للقومية العربية واللغة العربية لا غاية وراءها– على إرث عظيم من البيان العربي، وما منهم إلا أديب وراوية وخطيب ونقادة، ومنهم شعراء كمعاوية، وابنه يزيد، وحفيده خالد بن يزيد، والوليد بن زيد بن عبدالملك، كما كانوا كرامًا يقدرون الشعر، ويَفْضُلُون على الشعراء. وقد عُرف مِنْ هذا الوقت ما يسمى بشعراء القصور والبلاط، وعلى رأسهم الأخطل التغلبي المسيحي، الشاعر المرموق المكانة في الأسرة السُّفيانية، وشاعرُ الخلافة الرسمي في الأسرة المروانية.

ومنها: أنه وقت نشوء الدويلات في العصر العباسي الثاني – لم تخل سورية من إمارات عربية كبيرة أو صغيرة – وَلِيَتْها أسر عربية، عرفت بالأدب والشعر،

---

(١) النموذج من البحر الوافر.

وازدهـر في ظلها الأدب والشعر كبني حَمْدان من تغلب، وبني ورقاء من شيبان، وبني منقذ من كنانة، ولم تخل من رؤساء وحكام وأعيان وزعماء وعشائر يرعون الأدباء والشعراء، كآل مرداس الحلبيين، ومحمد بن عبيدالله العلوي، وسعيد ابن عبد الله الكِلابي، وعليٍّ بن أحمد الطائي، ومحمدٍ والحسين ابني إسحاق التوخيين، والمغيث بن علي العَجْلي، وعمر بن سليمان الشرابي، وبدر بن عمار الأسدي، وعليّ ابن محمد بن سيار التميمي، وابن الحسن بن أحمد المُرّي، وشجاع بن محمد بن أوسٍ الأزدِي وغيرهم.

وقد كان أكثر هؤلاء الأمراء والرؤساء أدباءَ نقده، وأصحاب ذَوْقٍ مُرْهَفٍ، وبصرٍ بالشعر، يصدق عليهم قول المتنبي:

ملك مُنْشِدُ القريض لديه ... واضعُ الثوبِ في يَدَي بَزَّاز[٢]

لذلك كان الشعراء الوافدون عليهم، يتأنقون في الصياغة، ويبالغون في التصفية والتهذيب، ويجتهدون في اختراع المعاني، وتأليف الأخيلة الزاهية، رغبةً في إرضاء الممدوح، وتحرجًا من لَذْعِ النقد، وطمعًا في التقدم على المنافسين. وقد ذكر المؤرخون: أنه اجتمع في بلاط سيف الدولة من أعلام العلم والأدب والشعر والخطابة والفلسفة والتأليف واللغة والنحو والموسيقى ما لم يجتمع إلا في بلاط كبار الخلفاء كعبد الملك والرشيد والمأمون، وأنّ المختار مما مدح به بلغ عشرةَ آلاف بيت!!

ومنها: أنه كان من لطف الله بسورية أنّ حماها نكبةً جائحة ماحقة أوشكت أن تقع عليها، وهي غزوة التتار الهمجية البربرية بقيادة «هولاكو»، فَسَلِمت لها خططها ومقدساتها وآثارها، وضفا[٢] عليها وعلى شقيقتها مصر، ظل الأمن والطمأنينة والسلامة والعافية، فبقي شعراؤها بلابلَ تغرد في باحات القصور الشُّمّ، وظلالِ الرياض النضيرة، لا بومًا تنعب وأغربة تنعق، فوق آثار الخراب والدمار:

---

(١) شرح ديوان المتنبي ج٢، ص٢٩١، والبزاز: تاجر الثياب يقول المتنبي: إنه عارف بالشعر معرفة البزاز بالثياب.

(٢) ضفًا: كثر ونما.

خَيْرُ الطيور على القصور وشرُّها   يأوي الخرابَ ويسكن الناووسا[1]

يمتد بنا نفس القول إذا عرضنا شعراءَ سورية قديمًا وحديثًا، ولكن مما تَقِرُّ به عيون أهلها « أن يكون من مولّديها، أو ممن سكنوها الطائيُّ الأكبرُ أبو تمام رأسُ الطبقة الثالثة من المُحْدَثين بعد طبقتي بشار وأبي نواس، وأرثى شعراء العرب قاطبة، والطائيُّ الأصغر البُحْتريُّ أطبعُ المُحْدثين وأصفاهم ديباجة، وأعذبهم أسلوبًا وأوصفهم للطيف والبرق والقصور، والمتنبي أحكم شعراء العرب وأوصفهم للمعارك، وأبرعُ المحدثين في وصف الخيل، والمعريُّ أكبرُ فلاسفة الشعر العربي، وأعظم نقاد المجتمع، والسريُّ الرفَّاء أوصف الطبقة الأخيرة من الشاميين، وأجزلهم أسلوبًا، وأسهلهم، وأصفاهم ألفاظًا، وألزمهم لعمود الشعر، وأبرعُ الشعراء عامة في وصف شباك الصيد، والحمّامات، وطير الخُطّاف، والقيسراني أوصف الشعراء للكنائس، وأنسبهم بما تردد عليها من جآذر وظباء والصنوبري شاعر الطبيعة الأول، وأوصف الشعراء للزهر والنَّوْر والطير، والملقب «بحبيب الصغير»، وأبو الرقعمق ثالث شعراء الهزل في العربية، وأبو فراس الحَمْداني أعظمُ شاعر أرستقراطي عربي، وكشاجم طباخ سيف الدولة، والوأواء الدمشقيِ، المنادي على الفواكه في دار البطيخ، أبرعُ الشعراء الشعبيين.

(٧) طبيعة عادلة:

وقد شاءت طبيعة سورية أن تكون عادلة، فلم تَخْلُ بقعة فيها من جمال تتميز به، ويكون قَصْرًا عليها، فأصبحت كالوجه المتناصف، الذي جمع الحُسْن جملة ثم جمعه تفصيلًا؛ لأن كل عضو منه حَسَنٌ في ذاته، وكان من أثر ذلك أن صار الجمال موزعًا على الأماكن السورية بالقسطاس المستقيم، وبات لكل مكان أوانٍ يَسْتجلي فيه جماله ويستمتعُ به، ورأينا لكل مدينة شعراء يُنْسَبون إليها كإنطاكية، وطرابلس، وصُور، والرقة والمصيصة والموصل، ومنبج غيرها.

---

(١) البيت من البحر الكامل.

أما مدنها الأربع الكبرى: دمشق وحلب وحمص وحماة فكانت عُكَاظًا للشعر ومربدًا، وسماءً تُزْهِرُ بكواكب الشعراء اللامعين، وقد أشاد بمحاسن هذه المدن كثير من الشعراء سوريين وغير سوريين، وبخاصة دمشق وحلب، حتى ليبلغ ما قيل فيهما ديوانا كاملًا، فمن قول كشاجم في حلب:

أرتــــكَ يــدُ الـغـيـث آثـارَهـا   وأعـلـنـت الأرض أسـرارهـا[1]

ومـا أمْـتـعـتْ جـارَهـا بـلـدةٌ   كـمـا أمـتـعـتْ حـلـبٌ جـارَهـا

هـي الخُـلْـدِ تَجْـمـعُ مـا تَشْتهي   فَـزُرْهـا، فـطـوبـى لِمَـنْ زارَهـا[2]

وأجلُّ ما قيل فيها قصيدة للصنوبري تربو أبياتُها على المائة، صورها تصويرًا دقيقًا، مفصلًا كأنك تراها، مطلعها:

احـبـسـا الـعِـيـسَ احـبـاسـهـا   وسَـلا الـدار سـلاهـا

أيَّ حُـسْـنٍ مـا حـوتـه   حـلـبٌ أو مـا حـواهـا

سِـرُوُهـا الـدَانـي كـمـا تَـدْ   نـو فـتـاةٌ مـنْ فَـتَـاهـا

آسـهـا الـثـانـي الـقـدود الـهـيْـ   ف لـمـا أن ثَـنـاهـا

نـخـلُـهـا زيـتُـونـهـا أو   لا فـأرطـاهـا عِـضَـاهـا[3]

ثم ختمها بقوله:

فـاخـري يـا حـلـبُ المُـدْ   ن يَـزِدْ جـاهُـك جـاهـا

إنــه إن تـكـن المُـدْ   نُ رَخَـاخـا كـنـتِ شَـاهـا[4]

ويقول علاء الدين بن غانم في حماة:

---

(١) البيت حسب ما ذكره الغزالي يختلف شطره الثاني عما أثبتناه، فقد كانت روايته
.... وأخرجت الأرض أزهارها.

(٢) ديوان كشاجم، ص١٧٨ نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٩٧م، والأبيات من التقارب.

(٣) الأبيات من مجزوء الرمل.

(٤) رخاخا: لينة واسعة.

«حماة» في بهجتها جَنة وهي من الهمّ لنا جُنَّة
لا تيأسوا من رحمة الله قد أبصرتمُ «العاصيَ» في الجنة

يريد نهر العاصي.

وقد فازت دمشق وغوطتها بالنصيب الأوفى من أقوال الشعراء، وكثير منهم زارها إلمامًا، فمن ذلك قول البحتري:

العيشُ في ليل داريّا إذا بَرَدَا والراحُ نمزجُها بالماء من بَرَدى
أما دِمَشْقُ فقد أبْدتْ محاسِنَها وقد وفَى لك مُطْرِيها بما وعَدَا
إذا أردتَ ملأتَ العينَ من بلدٍ مُسْتَحْسنٍ، وزمانٌ يشبه البَلَدا
يُمْسِي السحابُ على أجْبَالِها فِرَقًا ويُصْبِح النبتُ في صحرائها بَدَدا
فلستَ تُبْصُر إلا واكِفًا خَضِلا أو يانعًا خَضِرا أو طائِرًا غَرِدا
كأنما القَيْظُ ولَّى بَعْدَ جَيْئَتِهِ أوِ الربيعِ دَنا مِنْ بَعْد ما بَعُدا[1]

ولم يبلغ أحد في وصفها من القدامى ما بلغه شوقي في قصيدته البارعة «دمشق» التي يقول فيها :

آمنتُ بالله واستثنيتُ جنَّتَهُ دِمَشْقُ رَوْحٌ وجناتٌ وريحانُ
قال الرِّفاقُ – وقد هبَّتْ خمائِلُها الأرضُ دارٌ لها «الفيحاءُ» بستان
جَرَى وصَفَّقَ يَلْقانَا بها بَرَدَى كما تلقَّاك دُون الخُلدِ رِضوان
دخلتُها وحواشيها زُمُرُّدَةٌ والشمسُ فوقَ لُجَينِ الماءِ عقيان[2]
والحَوْرُ في «دُمَّرٍ» أو حول هامَتِها حُورٌ كواشفُ عَنْ ساقٍ، وولدان

---

(١) ديوان البحتري ج٢ ص٧١٠ بتحقيق حسن كامل الصيرفي، طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م، الطبعة الثالثة.
(٢) العقيان : الذهب.

وريـــوةُ الـــوادِ فـي جـلـبـاتِ راقـصـةِ الـسـاقُ كـاسـيـةٌ، والـنـحـرُ عُـريـان

والطيرُ تَصْدَحُ من خَلْفِ العيونِ بها ولـلـعـيـونِ كـمـا لـلـطـيـر الحـانُ

واقبلـتْ بالـنـباتِ الأرضُ مختلفًا افـوافُـه فـهـو اصـبـاغٌ والـــوان[1]

وقدْ صَفَى «بَـرَدَى» للريح فابتَردَتْ لـدى سـتـورِ حـواشـيـهنَ أفـنـانُ[2]

ثم انثنتْ لم يـزلْ عنها الـبِلال ولا جـفَّـتْ مـن المـاءِ أذيـالٌ وأرْدان[3]

خلّفتُ لُبنانَ جنـاتِ النـعيمِ وما نُـبِّـئـتُ أن طـريـقَ الخـلـد لُبنان

حتى انحـدَرْتُ إلـى فَـيْحـاءَ وارفـةِ فيها الـنَّـدى، وبـهـا « طـيٌّ» وشَيْبانُ

نـزْلـتُ فـيـهـا بـفـتـيـان جَـحَـاجِـحَـةِ آبـاؤهـم فـي شبـابِ الـدهـر غَـسَّـان[4]

بـيـضِ الأسِـــرَّة بـاقِ فـيـهُـمُ صَيدٌ من عبد شَمْسٍ وإن لم تَبْق تيجانُ[5]

وكان شعراء سوريا يعرفون مبلغ عبقريتهم الشعرية، لذلك كثُر فخرُهم بشعرهم واستطالتُهم على غيرهم:

يقول المتنبي :

لا تَجْـسُـرُ الـفُـصـحـاءُ تُـنْـشِـدُ ههنا بَـيْـتًـا ولـكـنـى الـهِـزَبْـرُ الـبـاسـلُ[6]

مـا نَـــالَ أهـــلُ الجـاهـلـيـة كُــلُّـهُـمْ شِـعْـري ولا سَمِعَتْ بِسِحْرِىَ بابلُ[7]

ويقول مخاطبًا سيف الدولة :

---

(١) أفواف : جمع فُوف، وهو نوع من الثياب، والمراد به هنا الزهر.

(٢) ابتردت: اغتسلت.

(٣) البِلال : البَلل، الأردان : الأكمام.

(٤) الجحاجح : جمع جَحْجح وهو السيد الكريم.

(٥) ديوان شوقي ج١، ص١٦١ وما بعدها.

(٦) الهزبر الباسل : الأسد الشديد.

(٧) ديوان المتنبي ج٣، ص٣٧٦، وبابل : هي المدينة المشهورة، وإليها ينسب السحر، وفيها نزل الملكان، اللذان كانا يعلمان الناس السحر بها، كما جاء في القرآن الكريم.

وَعِـنْـدِي لَـكَ الـشُّـرُدُ الـسَّـائِـرا تُ لا يُـخْـتَـصِـصْنَ مِـنَ الأرض دارا
قَـــوافٍ إذا سِـــرْنَ عَـــنْ مِـقْـوَلِـي وَثَـــبْنَ الجِـبـالَ وخُـضْـنَ البحارا
ولـي فـيـكَ مـا لـم يَـقُـلْ قـائـلٌ ومـا لـم يَـسِـرْ قَـمَـرٌ حـيـث سـارا[1]

ويقول :

وَمَـا الـدهـرُ إلا مِـنْ رُوَاة قلائدي إذا قلتُ شعرًا أصبح الدهر مُنْشدًا
أَجِـزْنِـي إذا أُنْـشِـدتَ شـعـرًا فإنما بـشـعـري أتـاك المـادحـون مُـرَدَّدًا
وَدَعْ كـلَّ صـوت غـيـرَ صـوتـي فإنني أنا الصائحُ المَحْكِيُّ والآخَرُ الصَّدى[2]

(٨) طبيعة سخية محسنة :

ولم يقف فضل سورية عند تخريج أعظم شعراء العربية، بل تعداه إلى تخريج غيرهم، ممن أقاموا فيها إقامة محدودة، أو اتصلوا بها اتصالًا غير مباشر، فالصاحب بن عباد كان يستملي من الوافدين عليه من سورية كل طريف من الأشعار، حتى ملأ من ذلك دفترًا ضخمًا لا يفارق مجلسه، ولا يُطْلع أحدًا عليه، وكان منه ثقافُ لسانه، ومادة قلمه في مخاطباته ومحاوراته، وكتبه ورسائله.

وطاف بسورية أبو بكر الخوارزمي - وهو حَدَث - ونزل برحاب سيف الدولة، ثم صدر عنها، وهو من أفذاذ النثر والنظم، ويقول معترفًا بجميلها عليه: ما فَتَقَ قلبي وشَحَذ فَهْمي، وصقَلَ ذهني، وأرهف حدَّ لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي عَلِقَتْ بحفظي، وامتزجت بأجزاءِ نفسي، وغصنُ الشباب رطيب، ورداء الحداثة قشيب.

والقاضي أبو الحسن الجرجاني صاحب الوساطة مَدِينٌ بما وصل إليه من مقام محمود في الكتابة والشعر والنقد الحصيف، إلى ما حصَّله من علم هذه البلاد وأدبها.

---

(١) ديوان المتنبي ج٢، ص١٩٨.
(٢) السابق ج٢، ص١٤.

بل إن هذه الطبيعة المُلْهِمة أوحت إلى غير العرب أن يُشعِروا، فكان من أبناء الأتراك والأكراد وغيرهم من يجيد قرض الشعر! كما كان من العامة أصحاب الحرف الأميين من برع في ذلك مثل إبراهيم بن علي الحرّاني الحائك، الذي قصده ابن خلكان، واستنشده من شعره فقال على البديهة :

وما كُلُّ وقتٍ فيه يسمحُ خاطري   بنظم قريض رائق اللفظ والمَعْنَى
وهل يقتضى الشرعُ الشريفُ تيمما   بتُرْبٍ وهذا البحر يا صاحبي معنا[1]

(٩) طبيعة مُنْجية :

هذه الطبيعة المنجية الولود الودود، تُرْفِدُها العروبةُ الصريحة القومية، أخرجت لنا نمطًا خاصًا من الشعراء، لم يعرف تاريخ العرب لهم نظيرًا في وصف الطبيعة نوعًا ومظهرًا، ووصف الربيع منظرًا ومخبرًا، وهم في ذلك صادقون كلَّ الصدق؛ لأنهم إنما وصفوا ما وقعت عليه أبصارُهم وما انطبع على مرايا نفوسهم، وما طربت له آذانُهم، وما حَاكَ في صدورهم، وأثَّر في مشاعرهم، فلم يكونوا في حاجة إلى الكذب والتزييف، والتعمّل والاجتلاب والتقليد، كبعض الشعراء الذين يصفون الربيع نقلًا عن السماع، لا عن الرؤية، وما حاجتهم إلى ذلك، وبين أيديهم كنوز حافلة من تهاويل الحسن وأفانين الجمال، تأخذ بأعنّة الحَدق[2]، وتَمْلك أزِمّة[3] النفوس، وتبعث أعمقَ العواطف، وتُلْهِم أروعَ المعاني، وأبدع الأخيلة، وأجمل الأساليب !

لقد أحسن هؤلاء الشعراء التجاوبَ مع هذه الطبيعة البديعة المبدعة، وبادلوها حبَّ الأم للأولاد، وحب الأولاد للأم، نَعَمْ، دعتهم إليها فأجابوا، وتجلّت لهم فما ارتابوا، وسَفَرت قناعهَا عن مفاتنها فافتتنوا بها وافتنوا فيها.

---

(١) البيتان من البحر الطويل.

(٢) الحدّق : جمع حدقة، وهي السواد المستدير وسط العين.

(٣) الأزمة: جمع زمام وهو الحبل.

ثم لم تلبثْ أن باحت لهم بأسرارها، فوعَوْها في صدورهم إيمانًا، وأجرَوْها على ألسنتهم ترانيمَ وتسابيح، وضمتهم إلى حضنها فَفَنَوْا في شهودها، وتلاشى وجودهم في وجودها!!

وقد كان من آثار هذا الفناء في الطبيعة، تلك الرقة البالغة على كل ما يحيا تحت أجنحة هذه الطبيعة من حيوان وطير ونبات، فنراهم قد عُنُوا بوصف الوحوش والظِباء، والخيل والهِرَرَة، والدِيكة والحمام والفواخت والزرزور، وبنات الماء وغيرها وصفا ينضج بالحب، وينفح بالحنان، حتى لكأن هذه المخلوقات إخوةٌ لهم أو أصدقاءُ مقرّبون.

فهذا المتنبي المتكبر حتى على الخلفاء والملوك، والذي لا يبالي أن يقول:

أيَّ مَحَلٍّ ارتقي أيَّ عظيمٍ أتقي
وكلُّ ما قَدْ خلق الله ومَا لمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ في هِمَّتي كشَعْرَةٍ في مَفْرِقي[1]

والذي يقول:

امِطْ عنك تشبيهي بما وكأنَّهُ فما احدٌ فوقي ولا احدٍ مِثْلي[2]

ويرضى على لسان حصانه هذا الإنكارَ والتقريع:

يقولُ بشِعْبِ بَوَّانٍ حِصَاني أعَنْ هذَا يُسارُ إلى الطِّعَانِ
أبوكُمْ آدمٌ سَنَّ المعاصِي وعلمكُمْ مفارقةَ الجِنَانِ[3]

ويسوي بين الخيل وبين الأصدقاء من الأناسي:

وما الخيلُ إلا كالصديق قليلةٌ وإن كَثُرتْ في عينِ مَنْ لا يُجَرِّبُ

---

(١) ديوان المتنبي ج٣، ص٨١.
(٢) السابق ج٣، ص٢٨١.
(٣) ديوان المتنبي ج٤، ص٣٨٩.

إذا لم تشاهد غيرَ حُسنِ شِياتِها   وأعضائها فالحُسْنُ عنك مُغَيَّب[1]

ويسوي بينها وبين فرسانها في حومة النزال:

وما تنفعُ الخيلُ الكِرامُ ولا القَنَا   إذا لم يكنْ فوق الكِرامِ كِرامُ[2]

بل إنه يفرط في تكريم الحيوان، فيجعل الغاداتِ الحسان فداءً للأفراس والنياق.

ويخاطب آساد «الفراديس» مخاطبته لرؤساء العشائر في البادية، ويسألها: هل الأمن في حماها؟ ويحدثها عن أعدائه، ويرغبها في عَقْد حِلْفٍ بينه وبينها، على شرط ألا يكون مثل حلف بغداد!!

أجارُك يا أُسْدَ الفراديس مُكْرَمُ   فتسكُنَ نفسي أمْ مهُانٌ فمُسْلَمُ

وَرائي وقُدّامي عُداةٌ كثيرةٌ   أُحاذِرُ مِنْ لِصٍّ ومِنْك ومنهُمُ

فهَلْ لكَ في حِلْفِي على ما أريدُه   فإنّي بأسبابِ المعيشةِ أعلمُ

إذًا لأتاكِ الخيرُ من كلِّ وِجْهةٍ   واثْرَيْتُ مما تَغْنَمينَ واغْنَمُ[3]

ويصف الأسد في معركة مرعبة بينه وبين بدر بن عمار الأسدي، فيفضّل «بَدْرًا» عليه في الكرم، ولكنه يسوي بينهما في القوة والبسالة:

فَتَشابه الخُلُقَانِ في إقدامِهِ   وتَخالفَا في بَذْلِك المأكولا

اسَدٌ يَرَى عُضْوَيْه فيكَ كِليهما   مَتْنًا أزلَّ وساعِدًا مَفْتُولًا[4]

والمعري المتسامي على الزمان والأحداث والناس، والذي يقول:

---

(١) ديوان المتنبي، ج١ ص ٣٠٤.

(٢) السابق ج٤ ص١١٠، والقنا : الرماح.

(٣) السابق ج٤ ص٢١٤، والحلف : المعاهدة، والوجهة : الجهة والناحية، وأثريت : كثر مالك.

(٤) السابق ج٣ ص٣٥٧، والخلقان : الطبعان، وقوله : بعضوية ما ذكره في الشطر الثاني وهما : الممتد والساعد.

ولي منطقٌ لم يَرْضَ لي كُنْهَ مَنْزلي   عَلَى أنَّني بين السِّمَاكَيْنِ نازلُ
ينافسُ يومي فيَّ أمسي تَشَرُّفًا   وتحسُد أسحاري عليَّ الأصائلُ(1)

والسرّي الرفّاء يَكْلَف بالخُطَّاف كلفا لا حد له، ويأنس بسكناه في أعلى غرفته أنسَه بالضيف الخفيف الظل، فلا يزعجه ولا يُرَوّعه ولا يضجَر به، ويُصغي إلى شدوه وغنائه في نشوة وطرب، ويتابعه في حركاته وسكناته في لهفة وشوق وإشفاق، فمن ذلك قوله:

تَقَسَّم زُوارٌ من الهند سَقْفنا   خِفافٌ على قَلْب النديم رِشَاقُ
أعاجِمُ تلتذُّ الخصامَ كأنَّها   كواعِبُ زَنْجٍ راعهُنَّ طَلاق
أَنِسْنَ بنا أُنْس الإماء تَحَبَّبَتْ   وشيمتُها غدرٌ بنا وإباق(2)

وكشاجم يرثي القُمْري رثاء شاجيًا، كأنه بعضُ أولاده، فيقول من قصيدة:

وفُجعت بالقمري فجعة ثاكلٍ   فقدت منه أمتعَ السُّمار
لونُ الغمامة لونُه، ومناسِبٌ   في خلقه الأقلامَ بالمنقار
ومُطَوَّقٌ من صُنع خِلْقَه ربه   طوقَيْن خلتُهما من النُّوار
ولطالما استغيث في غسقِ الدجى   بهديله عَنْ مطْرِب الأوتار

بل تبلغ رفاهة الحِسِّ أن يرثي الجماد، فيقول من قصيدة في رثاء قدح:

وعندي فجائي للحادثاتِ   وليستْ كفجعتِنا بالقدَحْ
فلا تبْعُدنَ فكمْ في الحَشَا   كليمٌ عليك وقلبٍ قَرِح
سيُقْفِرُ بعدَك رسم الغَبُوق   وتُوحش منك مغاني الصَّبَحْ

ويقول من قصيدة في رثاء سكين:

---

(1) شروح سِقط الزند ج٢ ص٥٢٧، ص٥٣٠، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٧م.
(2) ديوان السرّى الرّفاء ص٣١٧، ٣١٨، وأراد بزوار من الهند: الخطاطيف.

كانت تقوّمُ اقلامي وتنحتُها نحتا وتُسخِطها بَرْيًا فترضيني
فإن قَشَرَتْ بها سوداءَ من صُحفي عادت كبعض خدود الخُرَّد العين
هيفاءُ مرهَفةٌ، بيضاءُ مذهبَةٌ قال الإله لها -سبحانه- كوني

وابن عُنين يرثي حماره متفجعًا فيقول من قصيدة:

ليلٌ بأول يوم الحشر متَّصل ومُقلةٌ أبدا إنسانها خَضِلُ
ثوي المِصَكّ[1] الذي قد كنت آمله عَونًا، وخُيِّب فيه ذلك الأمَلُ
لا تَبْعُدَنَّ تُربةٌ ضمَّت شمائلَهُ ولاعَدَا جانِبَيها العارضُ الهطلُ
قد كان إن سابَقَتْهُ الريحُ غادرَها كأن أُخمصَها بالشوك مُنْتَعِلُ
لا عاجزًا عِندَ حَمْل المثقلات ولا يَمْشي الهوينى كما يمشي الوجِي الوحِلُ[2]

ويأسى الصنوبري للرياض أن يبتذلها لئامُ الناس، فيقول من قصيدة روضية ناضرة:

يا ريمُ قومي الآن ويحَك فانظري ما للرُّبا قد أظهرت إعْجَابَها
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً فالآن قد كشفَ الربيعُ حجابَها

إلى أن يقول:

لو كنتُ أملِكُ للرياضِ صيانةً يومًا لمَا وَطِئَ اللئامُ تُرابَها

وهذا يذكرنا بقول الوليد بن يزيد الأموي: وددت لو أن كل كأس خمر بدينار وكلَّ امرأة في جبهة أسد. حتى لا يشرب إلا كريم، ولا يتزوج إلا شجاع! وقد دعتهم هذه الرقة المفرطة أن يطالبوها ممن لا تنتظر منه الرقة، أو يصفوها به، فيقول

---

(١) المصك: القوي
(٢) مقتبس من بيت للأعشي قال فيه :
غراءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تمشي الهُوينى كما يمشي الوجي الوَحِل
ديوان الأعشي، شرح الدكتور/ محمد محمد حسين، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت.

المتنبي يخاطب محبوبته:

ألم يَرَ هذا الليلُ عينيكِ رُؤيتي فَتَظْهرَ فيه رِقَّةٌ ونُحُولُ[1]

وليل العاشق لا يمكن أن يرق أو ينحل؛ لأن من شأنه أن يطول ويفرط في الطول، والمتنبي نفسه يصرح بذلك في أول القصيدة، فيقول:

لياليَّ بَعْدَ الظاعنين شُكولُ طوالٌ وليلُ العاشقين طويلُ[2]

ويقول في وصف «سيف» ابن عمار:

رَقَّتْ مَضَارِبُهُ فَهُنَّ كأنَّما يُبْدِينَ مِنْ عِشْقِ الرِّقَابِ نُحولا[3]

والسيف لا يتأتّى منه العشق؛ لأنه ضد طبائع الأشياء، فلو قد عَشِق الرقاب، لرقَّ لها وأعفاها من القطع، فبطلت وظيفته واستغنى عنه!

ويقول في وصف النوى بالحب والغيرة:

مَلامِي النَّوَى في ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ لعَلّ بهاَ مِثْلَ الذي بي مِنَ السُّقْمِ

فَلَوْ لَمْ تَغَرْ لَمْ تَزْوِ عنّي لِقَاءَكُمْ وَلَوْ لَمْ تُرِدْكُمْ لم تكُنْ فِيكمُ خَصْمي[4]

وهو من التشخيص البارع، فقد جعل النوى تحب، فتُصاب بالسقم مثل المحبين، وتغار فَتَزْوَى عنه حبائبه، اللاتي هن حبائبها، ويشفق عليها فليلتمس لها العذر في ذلك؛ لأن المحب يغار على محبوبه ويأبى المشاركة فيه.

ومن أجل هذه الرقة رأينا أبا طالب الرَّقِّي يصوِّر فؤاد الخالي من العشق بأنه أسود مظلم، فيقول:

ولقد ذكرتُك والظلامُ كأنه يومَ النّوى وفؤادِ مَنْ لم يعشقِ

---

(1) شرح ديوان المتنبي، ج٣ ص٢١٩.

(2) السابق ج٣، ص٢١٧، الظاعنين : جمع ظاعن وهو المرتحل، وشُكول : جمع شَكل وهو شبيه.

(3) السابق، ج٣، ص٣٥٤.

(4) السابق، ج٤، ص١٦٥، النوي : البعد.

لأنه بِخُلُوِّهِ من العشق قد صار قاسيًا، والقلبُ القاسي يوصف عادة بالسواد، فشُبِّه به الظلام على قلب التشبيه، ومردَّ ذلك إلى أن أرباب الغرام الذين ابتلوا به، وفلاسفة الحب الذين درسوا علله وأسبابه، يرون أنه لا يصدر من أغلف القلب، غليظ الكبد، كثيف الذوق، وأن العشاق معروفون بلطف الشمائل، والعطف على البائسين، والنفور مما يسبب الآلام والأوجاع، حتى ليتمنى بعضهم أن تُعافى محبوبته من حبه، وإن جَرَّ ذلك عليه البلاء، وفي هذا المعنى.

يقول بعض العصريين:

وفَي الله ليلى ان يَلُمَّ بها الهوى وإنْ سَامحتْ تَحْتَ الهوى بوصالِ
إذا رحتُ مِنْ ليلى سَقِيمًا وعوفِيتُ فلستُ أبالي السقمَ لستُ أبالي
كفانِي مِنْ حُبِّي لها وصَبَابتي بها انها باتتْ عروسَ خيالي[1]

ولهذه الرقة رأيناهم يحبون كل جميل، ولو كان مما يتصل بأعدائهم، فالعرب في الأصل يكرهون زُرقة العين، وينكرونها ويُعيِّرون بها؛ لأنها لم تكن معهودة لديهم؛ لأنهم كانوا يرونها في عيون أعدى أعدائهم الروم، فقالوا: العدوُّ الأزرق، ولكن اتصالهم في سوريا بالزوم وغيرهم جعلهم يحبونها ويدافعون عنها، ويُفتنون بها. فيقول السري الرفاء:

وقالوا: بمقلته زُرقَةٌ تَشينُ فظَلَّ لها مُطْرِقا
وهل يقطعُ السيفُ يومَ الوغى إذا لم يكن مَتْنُه أزرقا[2]

ويتصل بذلك وصفهم للأديرة والكنائس، وما فيها ومن فيها، وتسامحهم في النطق بألفاظ، يبرأ منها أهلُ الروع، فمن ذلك قول القيسراني:

بدينِك يا قَسُّ بريارةٍ وما بتَّ تتلوه في الحِنْدِس
أجرنِي من الصُّور الناطقاتِ متى قُمْنَ حولكَ في مَدْرَسِ

(١) الأبيات من البحر الطويل.
(٢) الأبيات من المتقارب، يراجع الديوان، ص٣٢٧.

إذا هُــنَّ اقْـبَـلْـن وقـتَ الـصلا ... ةِ فـي كـل لَـوْن مـن الأطْـلَـسِ
وجـالَـتْ مـنـاطـقُ أوسـاطِـهـا ... وضـاقـتْ بـهـا حُـلَـلُ الـسُّـنْـدسِ
فـلـولا الـتـحـرُّجُ فـي مِـلَّـتـي ... طَـلَـعْـتُ عـلـيـهـن فـي بُـرْنُـسِ
وقـمـت الْحِـنُ قُـدَّاسِـهـن ... نَ غَـيْـرَ بَـلـيـدِ ولا اخْـرَسِ
تَـرَى كـلَّ فـاتـنـةٍ وجـهـهَـا ... مُـعَـرَّى، بِشَـمـسِ الـضحا مُكْتَسي
فَـرَنجـيـةٌ سـاكـنٌ عـقـدُهـا ... وزُنَّـارهُـا قَـلِـقُ المـجـلِـسِ
إذا أقْـبِـلَـتْ صـورةٌ أقـبـلَـتْ ... عـلـيـهـا بـنـاظـرهـا الأشْـوَسِ
فـيـا لَـيْـتـنـي عـنـدهـا دُمْـيـةٌ ... تـرانـي ولا ريـب فـي مَـلْـمَـس
فـأقـسـمُ لـو انـنـي اسـتـطـيـعُ ... تحـولـت فـي الـصـورةَ مـرْجَـرْجَـسِ[1]

هذا يعني ما قالوه في الطبيعة الحية أو المتحركة، فإذا انتقلنا إلى الطبيعة الصامتة، وهي أوسع وأغزر وأحفل - وجدنا أنهم لم يُغْفِلُوا شيئًا منها، كأنهم كانوا موكَّلين بتتبعها في كل جديد ودقيق، فوصفوا السماء والنجوم والكواكب، والسُّحب والمطر والرعد، والبرق وقوس قزح، والبحيرات والأنهار، والثلج والبرد والنار، والفصول والرياض والفواكه والأنوار والأزهار، إلى غير ذلك.

وقد استطاعوا أن يُتْحفونا بصور زاهية بهيجة تَفْوي[2] ما أنتجته الطبيعة نفسُها، فنقفَ أمامَها مسحورين بهذه البراعة في الجمع بين أشياء يستحيل اجتماعُها في ظل الواقع، مبهورين بهذه الدقة والنقش والتلوين والزخرفة، حتى لنكادُ نُخْدَع من أنفسنا، فنحسَبُ النماذج المقروءة صورًا مجسدة تُرَى بالعين المجردة.

والحق أن هؤلاء الشعراء الوصافين المبدعين، أضافوا إلى فتنة الطبيعة فتنة، وزادُوا إبداعاتها بداعة، ووضعوا أمام أعيننا مَعْرِضًا، حافلًا بالصور المؤلفة من غرائب الأشكال وروائع الألوان.

---

(١) الأبيات من المتقارب.
(٢) تفْوِي : تتطق.

وقد اتخذوا من المركَّب الحسي في التشبيهات أدواتٍ ناجحةً موصلةً إلى ما يرومونه من غاياتٍ في أوصافهم الطبيعية، يقول أبو فراس في وصف بستانه المسمي بالبديع:

انـظُـرْ إلـى زَهْـرِ الربيـع — والمـاءُ فـي بِـرَكِ البديـعِ
وإذا الـريـاحُ جَـرَتْ عـليْـه — فـي الـذهـابِ وفـي الـرُّجـوع
جَـرَّتْ عـلـى بِـيـضِ الـصَّـفا — ئـحِ بـيـنـنـا حَـلَـقَ الـدروع[1]

وهو في ذلك لم يفارقه خيال الفروسية، فأحال هذا البستان البديع الوديع ميدانًا لمعركة طاحنة، تتطاير فيها أنسجة اللامات، فوق شِفَار السيوف، إنه لم ينس صورة الحرب حتى بين الماء والزهر!!

ويقول الصنوبري في الخوخ:

أهـدَى إلـينـا الـزمـانُ خُـوخًـا — مـنـظـرُه أنـيـقُ
مـن كـلِّ مـخـصوصـةٍ بُـحُـسـنٍ — مـعـنـاه فـي مـثـلـهـا دقـيـقُ
صـفـراءُ حـمـراءُ مـسـتـفـيد — بـهـجـتُـهـا الـتـبـرُ والـعـقـيـق
ذاتُ أديـمَـيـنْ ذا بَـهَـار — لـمـجـتـلـيـه وذا شـقـيـقُ
كَـوَجْـنـةٍ أُلـبـسـت خـلـوقًـا — فـزال عـن بـعـضـها الـخـلـوق

ولا خلاف في أن التشبيهاتِ المركبةَ المنتزعةَ من مساقط الحواس وبخاصة البصرية منها، مظهر لبداعةِ الصنعة، وروعة الفن، ومعرضٍ للباقة الفكر، وأناقةِ العقل، وترف الخيال.

ويزيد في قيمة المركب الحسي أن يجيىء في الهيئات، التي تقع عليها الحركات من الاستدارة والاستقامة، والتقوس والتمدد، ومن روائع ذلك قول الصنوبري من وصف بركة، جامعًا فيه بين الشكل وهيئة الحركة:

---

(١) من الكامل المجزوء، ديوان أبى فراس، ص١٨٩.

كـأنَّ فـي غـدرانـهـا حَـواجِـبًـا ظـلـت تُمَـطُّ[1]

وقوله في نهر:

والنَّهْرُ بَيْنَ اعتدالِ مِنْ سَيْرِه وتأوّدِ
كأفعوانٍ تلوَّى ثُمَّ استوى وتمدُّد
كأنَّ فيه سُيُوفًا مهندات بجُرْدِ

ومع أن تشبيه المحسوس بالمحسوس هو الغالب عليهم، فإننا نجد لُمَعًا من تشبيه المحسوس بالمعقول يقول المتنبي:

كأن الهَامَ في الهَيْجا عيُونُ وقد طُبعت سيوُفك مِنْ رُقَادِ[2]

وقول الببغاء في وصف فرس:

فكأنه في اللطف فهمٌ ثاقبٌ وكأنه في الحسن حَظٌّ مقبلُ[3]

وهذا النوع عُرف في العصر العباسي، وهو يقوم على التجريد والوهم والخفاء والتصفية والإرهاف، وقد أنكره بعض البلغاء ؛ لأنه لا يجرى على عمود الشعر المعروف، ولأن فيه تشبيه الجلي بالخفي.

وعدّه ابن الأثير ألطف ألوان التشبيه؛ لأنه نقل صورة إلى غير صورة.

والحق أن هذا النوع مَن البيان، عنوان الأناقة الفكرية، ودليل الثروة العقلية، ومُجَلّي القدرة على اقتناص المعاني من أغوارها السحيقة، وجَوْبِ آفاق الأخيلة الرحيبة بجناحٍ قوي الخفقان، واستشفاف ما وراء الحواس الظاهرة. وهو لا يَسْلس إلا لإنسانٍ لماح الذكاء، فلسفي العقل، عميق الملاحظة، عامر الواعية الباطنية بالمعاني المختلفة، والنظائر والأشباه الكثيرة، والنوع الجيد منه المتلائم الأطراف لا يعبأ الذهن بفهمه، ولا يشعر بغرابته، بلَ يَلَذُّه ويستريحُ إليه، ويُحِسُّ له نداوة

(١) من مجزوء الرجز.
(٢) شرح ديوان المتنبي ج٣ ص٨٠، والهام : الرءوس، والهيجا : من أسماء الحرب.
(٣) البيت من الكامل التام.

وحلاوة لما تضمنه من طرافة وجدة وملاحة!!

وكما مزج هؤلاء الشعراء المبدعون عواطفهم الخاصة بالطبيعة، لم ينسَوْا أن يزاوجوا بينهما وبين أغراضهم الشعرية ؛ حتى فيما يظل أنه بعيد الصلة بها كالهجاء مثلًا.

ويقول أبو فراس في الحماسة والفخر:

علونا جَوْشَنا بأشد منه   وأثْبَتَ عند مُشْتجر الرماح
بجيشٍ جاشَ بالفُرسان حتَّى   ظننتُ البرَّ بَحْرًا من سِلاح
وألسنةٍ من العَذَبَات حُمْرٍ   تُخاطبُنا بأفْواهِ الرِّماحِ
وأروعَ جيشُهُ ليلٌ بهيم   وغُرَّتُه عَمُودٌ من صباح(١)

ويقول أبو فراس في الشكوى:

يا ليلُ ما أغفلُ عما بي   حَبَائبي فيك وأحبابي
يا ليلُ نامَ الناسُ عَنْ مُوجَع   ناءٍ على مَضْجَعِه نابَي
هَبَّتْ له رِيحٌ شاميةٌ   مَتَّت إلى القلب بأسبابِ
أدتْ رسالاتِ حبيبٍ بها   فَهِمْتُها من بَيْنِ أصحابي(٢)

ويقول كشاجم في وصف التين:

أهلًا بِتينٍ جاءنا   مُبْتَسِمًا عَلَى طَبَقْ
يحكي الصباحُ بعضَه   وبعضُه يحكي الغَسَقْ(٣)

ويقول الصنوبري في الرياض:

---

(١) الأبيات من البحر الوافر، ديوان أبي فراس، ص٦٩، وجوشن : اسم جبل، والعذبات مفردها عذبة، وهي ما سدل عن الكتفين من العمامة.

(٢) ديوان أبي فراس، ص٥٧.

(٣) البيتان من الرجز المجزوء، والغسق : الليل المظلم، وظلام الليل.

تَشَبُّهُ الروض بالحبائب قَدْ زاد المحبين في محبَّتِها
كَمْ من قُدودٍ هناك من قُضُبٍ تميلُ مِنْ لينها ونَعْمَتِها
وَوَجْنَةٍ خالُها يلوحُ لنا سوادُه في صفاءِ حُمْرَتِها
وَكَمْ ثنايا تُسْبي بنكهتها وكم عيونٍ تُصبي بلحظتها
كلُّ صفات الجمال مجملةٌ بين تفاريقها وجُملَتِها

وفي هذه القطعة الرائعة شبَّه الصنوبري محاسن الرياض بمحاسن الخُرّد العِين، حتى لَخِلْنا أن الرياض مَعْرِضٌ حافل من معارض الجمال، قد تبرجت فيه عرائسُ سافراتٌ يبدين مفاتنهن للناظرين، ولم يقنع بذلك حتى علّل حُبَّنا للرياض تعليلًا طريفًا، وهو تشبهها بالحبائب، وزاد وصفه سِحْرًا باستخدامه التشبيه المقلوب للمبالغة، فجعل محاسن الحبيبات أصلًا يقيس عليه محاسن الطبيعة!!

هذه بعض الصور الصادرة عن الوعي الشعوري النابض بروح الفن، وهو يُعْرب عن العواطف المفتونة بالطبيعة والتغلغل في أطوائها، والنفوذ إلى سرها ولُبابها، واستجلاء بواطنها، وتصوير مباهجها، فجاء الشعر دافقًا بالقوة، متفجرًا بالحيوية، متوشحًا بالظلال، متضوعًا بالعبير المُسْكِر!!

• الربيع الشاعر:

فإذا كان الربيع، واعتدل الليل والنهار، وعاود الطبيعةَ صباها، ولبست حُلاها، ورفَلت الأرض في معارضها الخضر الأنيقة، وتزخرفت الرياضُ بأزهارها وأنوارها، وعطّرت الجِواءَ بأنفاسها الذكية، وسرى النسيم ساحبًا أذياله البليلة - السَّكْرى، وفاضت الأنهار، وتدفقت العيون وسالت الأودية، انطلق هؤلاء الشعراء بلابلُ تجاوب بلابلَ الروض صُداحا[1] وتَغْريدًا وتَسْجَعُ مع الحمائم، وتهدل مع القُمَاری، وتشقشق مع العصافير، وتعلو كلَّ ربوة، وتنحدر إلى كل قرارة، وتتنسم كلَّ عَبَقٍه، وتناغی كل زهرة، وترنمُ مع كل جدول، وتصفق مع كل غدير، حتى تندمج في مهرجان الربيع وتشركه في فرحه، ومرحه وانطلاقه وطلاقته، وزهوه وازدهائه، ورقصه وغنائه.

---

(١) يُقال : صدح الطائر صَدْحًا وصُداحًا : رفع صوته فأطرب.

إن احتفاء هؤلاء الشعراء بالربيع، وغناءهم له، خلق بإزائه ربيعًا آخر أوسعَ مدى، وأجملَ زينة، وأفتن حِليًا، وأحسنَ صِبغة وأرق شبابا، وأزهى نضرة، وأسبغ ظلًا، وأغض زَهْرًا وأشجى نغمًا.

لقد بثُّوا الحياة، ويتحرك فيما حولَهم من ساكنٍ وهامدٍ، ونفخوُا فيه من أرواحهم، فإذا هو يُحِسّ ويتحرك، ويسعى وينطق، ويبكي ويضحك ويعشق ويغار وينام ويأرق، كأنه بعض الأناسي بما ركز فيهم من طبائع وغرائز، وما فطروا عليه من مشاعر ووجدانات.

ولم يكتفِ الشعراء بتشخيص الأزهار، فعمدوا إلى إيقاظ الفتنة النائمة بينها، وأذكوا جذوة الشحناء الهامدة، فإذا هذه المخلوقات الرقيقة البرئية المبرَّأة من مثالب الإنسان بعضُها لبعض عدو، تتهاجِي، وتتخاصم وقد يصل الأمر إلى التضارب أحيانًا، وهؤلاء الشعراء وقوف على كثَبٍ منها، يقيدون كلماتِها، ويُحصون إشارتها، ويسجلون حركاتها وسكناتها، ويصورون عواطفها في انبساطها وانقباضها، وسرورها وحزنها ورجائها ويأسها ونصرها وهزيمتها.

وقد برع في ذلك براعة فائقة مجير الدين بن تميم والصنوبري.

ويقول الصنوبري في الورد والنرجس، والعداوة بينهما لم تخمُدْ نارُها منذ أن شَبَّها ابن الرومي[1] – سامحه الله – !!

زعـم الـوردُ أنـه هـو أزهَـى ... مـن جـمـيـع الأزهـارِ والـريـحـانِ
فـأجـابـتـهُ أعـيُنُ الـنـرجـس الغضّ ... بِـذُلٍّ مـن قـولـهـا وهَـوَانِ
أيّما أحْسَنُ التوَرُّدُ أمْ مُقلةُ ... ريم مريضة الأجْفَان
أم فماذَا يرجُو بحمرته الورْ ... د إذا لم يكُنْ له عينانِ
فَزَهَا الورد ثم قال مجيبًا ... بقياسٍ مُسْتَحْسنٍ وبيان
إن وردَ الخدودِ أحسنُ مِنْ عينٍ ... بها صُفْرَةٌ من اليرقانِ[2]

(١) شبّ النار : أوقدها.
(٢) الأبيات من البحر الخفيف التام، اليَرْقان : مرض تظهر عوارضه باصفرار الجسم ويسمى مرض الصفراء.

والصنوبري ممن يحسنون تأليف القصص الزَّهْرِيّة، ويحكمون إخراجها على مسرح الطبيعة، ويجيدون إدارة الحوار بين شخوصها، مع العناية باختيار الألفاظ المشعة، والتراكيب الناصعة، التي تجلو المعاني، نابضة متوثبةً، جياشة بالحركة، مليئة بالقوة، كأنما تَهُمُّ أن تفيضَ من معارضها فيضًا، وتنسكب في أذنيك بلا استئذان.

حقق الله آمال أمتنا العربية، وجمع شملها، ورفع رايتها، وسدد خطاها وأيدها بروح من عنده، وجعل أيامها على مدى الزمن أرْبِعَةً[1] نواضر، وأعيادًا، ومواسم، وثغورًا بواسم، آمين.

الأستاذ / على الجندي

عميد كلية دار العلوم – السابق

وعضو لجنة الشعر بالمجلس الأعلى

وأخيرًا فقد كان هذا النص المكتوب بقلم الأستاذ على الجندى هو مدار الندوة الأدبية التى أدارها الغزالى ـ كما جاء فى بداية هذا الموضوع، وسبق أن أبدينا رؤيتنا فى هذا المنهج بما يحمله من إطالة فى بحث الدكتور/ على الجندى.

---

(١) أرْبِعة : جمع ربيع.

(٥) مع صاحب المعالي محمد رضا الشبيبي
زعيم المعارضة في العراق*[1]:

- **أيها الإخوة في العروبة:**

نسهر الآن في ضاحية من أجمل ضواحي القاهرة، في ضاحية الزمالك، وفي منزل يقوم على ضفة النيل الخالد، منزل الشاعر المصري عزيز أباظة، ومعنا الآن شاعر دجلة والفرات، والرئيس الأسبق لمجلس النواب والشيوخ بالعراق، ووزير المعارف السابق بالعراق الشقيق، إنه حضرة صاحب المعالي السيد/ محمد رضا الشبيبي، شاعر العراق وزعيم المعارضة هناك، وأول من هاجم حلف بغداد، وعبَّأ أحرارَ العراق جميعَهُمْ في وجه هذا الحلف[1].

لقد اغتنمنا فرصة وجوده في القاهرة ؛ لنتحدث إليه، ونسمع منه في هذه الندوة، التي تجتمع الآن بمنزل صديقه الشاعر الأستاذ عزيز أباظة.

(*) عُقدت هذه الندوة التي أعدها الغزالي بمنزل الشاعر الكبير عزيز أباظة ؛ لتكون حلقة من حلقات برنامج «مع رجالات العرب» لإذاعة صوت العرب، وقد اشترك في هذه الندوة الشاعر الكبير عزيز أباظة، والأستاذ على الجندي عميد كلية دار العلوم، والأستاذ طاهر الطناحي مدير تحرير مجلة الهلال، والشاعر محمود غنيم مفتش أول اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم، والشاعر محمد شوقي أمين، مدير سكرتارية تحرير مجمع اللغة العربية، والآنسات نهلة الصبّان من سورية، وسُلبمة الشامي من الأردن، وعفاف يميني من لبنان، والصحفي عبدالحميد الحموي من سورية.

(١) ولد الشبيبي في النجف بالعراق عام ١٨٨٩م، وتوفي عام ١٩٦٥م، وله ديوان شعر مطبوع وعدة كتب، راجع كتاب: الأعلام للزركلي ج٦، ص١٢٧.

أيها الإخوة.. الأستاذ عزيز أباظة الشاعر المصري الكبير يستقبل رضا الشبيبي، ونستمع إليه، ومعاليه ليس ضيفًا في مصر، ولا هو ضيف في أي بلد عربي يهبط إليه، إنه من فحول الشعراء الذين امتازوا بقوة الملاءمة بين المعنى السامي والديباجة المشرقة.

وهو ناقد وباحث لغوي متعمق.. وهو عالم ومؤرخ.. وهو سياسي عربي من طراز فريد، وإلى جانب ذلك فرعٌ باسقٌ من دوحة باسقة هي أسرة الشبيبي التي- أهدت للمشرق كله أكرم علمائه وأدبائه وساسته وحكامه.

ونظرًا لأنني ألمح أعضاء الندوة يتهيئون لسؤال الشاعر الكبير، والاستماع إليه، فإنني أفسح لهم المجال.

ثم بدأ الأستاذ علي الجندي فَوجَّه إلى معاليه السؤال الآتي:

س١ ما الخطوط العريضة التي تؤمن بها المعارضة في العراق، بوصفكم زعيمًا لهذه المعارضة؟

فأجاب معاليه قائلًا:

١- تؤمن المعارضة إيمانًا راسخًا بحق الشعب العراقي في اختيار نظام الحكم، وقد عَيَّنَ القانونُ الأساسيّ العراقيّ أو الدستور كما يُسَمىَّ أحيانًا ذلك النظام، فالواجب أن يكون نظام الحكم في العراق نظامًا ديمقراطيًا، وشكله نيابيًا، قائمًا على أساس أن الأمة مصدر السلطات.

٢- وتؤمن المعارضة أيضًا بضرورة مواصلة النضال من أجل وضع أحكام القانون الأساسي موضع التطبيق نصًا وروحًا، إذ تُعْتبر تلك الأحكام الدستورية معطَّلة في الظروف الراهنة، ويعتبر الحكم القائم في العراق اليوم استبداديًا، غير دستوري على الإطلاق.

ثم سأله السؤال الثاني:

س٢ عروبة العراق عبر التاريخ. هل لشاعر العراق الكبير أن يحدثنا عن أسسها ومظاهرها؟

ج) لا مجال للشك في عروبة العراق قديمًا وحديثًا، وسيبقى العراق كما كان في الأدوار التاريخية الماضية حصنًا منيعًا للعروبة، ولن تنال من عروبته الأصيلة دسائس السياسة الاستعمارية، ولن ينال منه تشجيع الدعوة الشعوبية التي تغذيها بعض الدول الاستعمارية الطاغية.

ومن دعائم عروبة العراق استقرار العرب منذ ألوف من السنين على ضفاف الرافدين، وظهور أكثر من دولة سامية أو عربية في هذه البلاد خلال مئات من الأجيال المتعاقبة، وعن مظاهر هذه العروبة نشوء اللغة والأدب والشعر العربي، والكتابة العربية، في الحيرة قاعدة دولة المناذرة، وكانت العربية شائعة أيضًا قبل ذلك في عصور البابليين والأنباط، وما كانت لغة البابليين ولغة الأنباط إلا من بعض فروع السامية.

ثم قال له الأستاذ الجندي بعد أن فرغ من إجابته:

هل لي أن أسأل الشاعر الكبير عن أحد الأغاني الشعرية، التي يميل إلى سماعها فأجاب: إن من أحب الأغاني إلى نفسي قصيدة «حافظ إبراهيم» التي عنوانها «مصر تتحدث عن نفسها» ومطلعها

وقَفَ الخلقُ ينظرُون جَمِيعًا كيف أبْنِي قواعَد المجدِ وَحْدِي

وإنني أرغب في سماعها

ثم وجهت الآنسة نهلة الصبان من سورية إلى معاليه السؤال الآتي:

س١ هل تستطيع أن تَلُمَّ برأي معالي السيد الأستاذ رضا الشبيبي في الاتحاد، بين سورية ومصر، ونتعرف إلى رأيه وآماله في مثل هذا الاتحاد، بين البلاد العربية، كخطوة تقرِّبُ بين أجزاء الوطن العربي الكبير؟

ج) لقد رحبنا ونحن في العراق بإعلان الاتحاد بين مصر وسورية، وبارك الشعب العراقي هذه الخطوة، ونرجو مخلصين، أن تشفع في الخطوات التالية، التي تحقق لنا وحدة سياسية واسعة الآفاق والحدود.

ثم سألته الآنسة عما يطرب له أهل العراق من الأغاني:

فقال: إن قصيدة مهيار الديلمي التي يغنيها عبدالوهاب شائعة جدًا في العراق ومطلعها:

أُعـجـبـتْ بـي بـين نــادي قومها   ذاتُ حُـسْـنٍ وَمَـضَـتْ تـفـخـرُ بي

وأرجو أن أسمعها هنا في مصر

وهنا بدأ الأستاذ طاهر الطناحي يوجه إلى معاليه السؤال الآتي:

س: ما الحدثُ العربي الذي هزَّ أريحيتكم، وهل أمكن أن يعبر عنه الشعراء والملحنون والمطربون؟

فأجاب: من أعظم الأحداث التي هزَّت كياني، وقوت رجائي، في نشوء دولة عربية مستقلة ذات سيادة جلاء الأتـراك عن بلادنا، واحتلال الفيالق العربية الزاحفة في الحجاز لبعض الأقطار العربية، والمناداة بقيام الدولة، وقد وقع ذلك خلال الحرب العالمية الأولى، هذا وفي أدب الثورة العربية منثورة ومنظومة شواهد كثيرة تعبّرُ عن التأثر البالغ بأحداث الثورة القومية المذكورة، ومن ذلك ما نجده في مجموعتي الشعرية.

ثم وجه إليه الأستاذ الطناحي السؤال التالي:

س: تتنادى الأمم العربية بالقومية العربية، فما الدعائم التي ترتكز عليها هذه القومية، وما السبيل لجعل هذه الدعائم حقيقة واقعة؟

فأجاب: ترتكز القومية العربية فيما ترتكز عليه هذا اليوم على أساس متين، من التطور الاجتماعي والسياسي، والوعي الشامل في الأقطار العربية كافة، ومن أجل جَعْلِ هذه الدعائم حقيقة واقعة لا مناص من مواصلة النضال، والبذل!! وتناسي السخائم والأحقاد وبواعث الشقاق والتفرقة، وتجاهل المصالح الشخصية في سبيل المصلحة القومية العامة.

وبعد أن انتهى من الإجابة سأله عن الأغاني التي يهوي سماعها، فأبدى رغبته في سماع قصيدة «نهج البردة» التي يقول شوقي في مستهلها:

رِيمٌ على القاعِ بين البَانِ والعلمِ   أحلَّ سفكَ دمِي في الأشهُرِ الُحرُمِ[1]

وتقدمت بعده الآنسة سليمة خالد الشامي من الأردن بالسؤال الآتي:

س: ما مظاهر النهضة الأدبية والعلمية والفنية في العراق، وهل يمكن توحيد ميادين هذه النهضة في البلاد العربية خاصة؟

فأجاب: مظاهر النهضات المشار إليها في العراق متنوعة، ومن تلك المظاهر في الناحية العِلْمية كثرة ملحوظة في عدد المدارس والمعاهد العلمية، وفي إعداد الطلبة والطالبات، وإقبال منقطع النظير على التعليم، وقد شَرَّع قانونًا بإنشاء أول جامعة في العراق سميت «جامعة بغداد» وفي تلك المظاهر في النواحي الأدبية والثقافية والفنية نشاطٌ ملحوظه في حركة النشر والتأليف، هذا وليس من المتعذر توحيد تلك الاتجاهات بما يماثلها في بقية البلاد العربية، وهناك جهود متواصلة متداولة في هذا الناحية، وحَسْبُنا هذه الدورات الشعوبيةِ المتتالية من المؤتمرات العلمية والثقافية واللغوية، وبعض هذه الدورات الشُّعُوبية المتتالية من المؤتمرات العلمية والثقافية واللغوية، وبعض هذه المؤتمرات معنية بتوحيد اللهجات، وبعضها يُعْنَى بتوحيد البرامج والكتب المدرسية والمصطلحات.

ولما فرغ من إجابته سألته الآنسة الأردنية عن أغنية يرغب في سماعها، فأبدى رغبته في سماع قصيدة شوقي، التي تغنيها أم كلثوم، التي مطلعها:

سَلُوا قلبي غداةَ سَلاَ وتابَا   لعَلَّ على الجَمَال له عِتَابَا[2]

ثم وجه إليه الصحفي السوري الأستاذ عبد الحميد الحموي السؤال الآتي:

تدُل الشواهد على أن خير طريق للأمم الأسيوية والأفريقية ؛ لكي تنجو من هذا التناحر القائم بين الدول الكبرى، هو الحياد الإيجابي، فما رأيكم في هذا الشأن بوصفكم من رجال السياسة والحكم؟

---

(١) ديوان شوقي ج١، ص٦١٧.

(٢) ديوان شوقي ج١، ص٦٠٦.

فأجاب: نصَّتْ برامج الأحزاب السياسية، التي تكونت في العراق، ومنها حزب الجبهة الشعبية المتحدة على التزام الحياد الإيجابي، في الحرب الباردة القائمة الآن بين الشرق والغرب، وفي حالة تطورها إلى صراع دموي لا قدر الله، وكان نشاط الصحف الحزبية عظيمًا مؤشرًا في الدعوة إلى التزام الحياد إلى أن ضاقت السلطات المتعنفة ذَرْعًا بموقف المواطنين العراقيين الأحرار، فانتهجت تلك السياسة الهوجاء القاضية بمصادرة الحريات، ومنها حرية الصحافة والمنظمات السياسية.

ثم وُجّهَ إليه هذا السؤال:

ما الدور الذي تستطيع أن تلعبه الإذاعات العربية، وأن يؤديه الشعر في خدمة القضايا العربية والقومية العربية؟... وهل أدت الإذاعات العربية ما يجب أن تؤديه للقومية العربية.؟

فأجاب: لا شك أن الإذاعةَ اللاسلكية وسيلةٌ فعالةٌ من وسائل النشر والتوجيه، وقلَّما خَلَتْ دولة عربية في الوقت الحاضر من محطة واحدة أو أكثر للإذاعة، وفي وسع الإذاعة العربية أن تقوم بدور فَعّال في خدمة القضية العربية المشتركة، لو تحررت من بعض الاتجاهات السياسية المسيطرة عليها، واتجهت إلى توحيد برامجها، كُلًا أو بعضًا، في هذه الناحية.

وبعد أن انتهى من إجابته على هذا السؤال أستأذنُه في معرفة الأغنية الحبيبة إلى نفسه فقال: إن من أحب الأغاني إليّ قصيدَةُ أبي فراس الحمداني الشاعر السوري أصلًا، والتي مطلعها:

أراكَ عصيَّ الدَمْعِ شيمتُكَ الصبرُ...إلخ ....

ثم جاء دور الآنسة عفاف يميني من لبنان، فسألته السؤال الآتي:

س: منذ قليل استأثرت رحمة الله بالشاعر المهجري الكبير إيليّا أبي ماضي. فأين تضعونه من شعراء العصر الحديث. وما رأيكم في شعره؟

فأجاب: أضع الشاعرَ المُلْهَم «أبا ماضي» في الطليعة من شعراء العصر الحديث،

ويذهب بعضهم إلى أن هذا الشاعر بَزّ[1] جميعَ شعراء العربية في هذا العصر. ولا يخلو هذا القول من غلو، وعلى كلٍ فإنّ شعر أبي ماضي تميز بالانسجام، وبشيء غير قليل من الابتكار والتوليد، وتحاشي التقليد، وإلى ذلك مردٌّ إقبال المتأدبين.

ثم سألته:

س: يضم ديوانكم الشعري الرقيق قصائد تختلج بالعاطفة المشبوبة والوجدان العميق، فما رأيكم في الحب الذي ألهمكم هذا الشعر الجميل؟ وما رأيكم في الشعر العاطفي لشعراء اليوم، هل تَلَمَحُون فيه الصدقَ والعُمْق؟

ج: لا ريب أن الحب والعاطفة الجياشة والوجدان الطاهر من أكبر مصادر الإلهام في الشعر، ولكن الحبّ الذي يستوحيه الشعراء المُحَلّقُون هو حب الجمال والحقيقة والخير المطلق، وهو غير الحب المُستَوْحي في بعض هذا الشعر العاطفي الهزيل الشائع، في هذا الجيل: هذا وللحب الذي يستوحيه الشعراء الهائمون بمظاهر الجمال المطلق مقاييسه، وفي وسعك تَصَفُّح ديوان هذا الشاعر، أو ذاك. فإذا وجدته شاعرًا مقلدًا منهمكًا بأوصاف الظواهر والجوارح، لا يغوص على الأسرار، ولا يهتك الأستار، فقل إن حبه من نوع عادي مصيره إلى الفناء. والواقع أن فحول الشعراء في القديم والحديث هامُوا بحب الحقيقة المطلقة، وبمظاهر الجمال المطلق الماثلة في هذا الكون.

ثم طَلَبَتْ منه أن تعرفَ رأيه فيما يُحب من الأغاني[2]: فقال أحب كثيرًا أن أستمع إلى قصيدة بغداد، وهي تُغَنّي في العراق وفي مصر: وهي من شعر المرحوم الأستاذ علي الجارم ومطلعها:

بغدادُ يا بلدَ الرشيدِ..............

ثم وجه الأستاذ محمود غنيم للسيد الشبيبي هذا السؤال:

---

(١) بزّ: فاق.

(٢) لقد تكرر كثيرًا سؤال الشبيبي عن الأغاني التي تعجبه ويهوي سماعها، وكان على الغزالي أن يحذف هذه الأسئلة المكررة في نص الندوة.

معاليكم أحدُ أفرادٍ قَليلين تولَوْا مَنْصِبَ الـوزارة، واشتهروا في الوقت نفسه بإجادة «الشعر» فهل ترون فَي تولى المناصب الإدارية الرفيعة ما يتعارض مع قرض الشعر؟

فأجاب: لا أرى هناك تعارضًا بين تولي المناصب الإدارية الرفيعة، والانقطاع عن قرض الشعر. وقد حدث فعلًا لجملة من شعراء أنهم انقطعوا عن قرض الشعر. ويُعَلّل ذلك تارة بعلل أو بعقد نفسية طارئة، وطورًا بعوامل اجتماعية، تؤثر في خمود القريحة، وجفاف ذلك الفيض العلوي اللطيف، وهناك عدد من فحول الشعراء ثابروا على قرض الشعر، مع اضطلاعهم في الوقت نفسه بمهام دنيوية، ومناصب إدارية كبيرة، ومنهم مثلًا الشريف الرضي، وأخوه المرتضي اللذان كانا يليان ثقافة العلويين، وإمارة الحج، ويعلل ذلك بالنسبة إلى هذين الشاعرين الفحلين، بمواتاة الظروف وإسعاف الدنيا لهما، وعلى كل حال ليست هناك قاعدة مطردة في هذا الشأن.

ثم سأله ثانية:

كان السيد الشاعر الكبير وزيرًا للمعارف العراقية، فما هو الأثر الذي تعتزون به، حين كنتم توثِّقون العلاقات الثقافية بين مصر والعراق؟

فأجاب: يسعدني كثيرًا أن يكون نصيبي من الإسهام في تكوين العلاقات الثقافية بين مصر والعراق غير طفيف ولا مزوّرَ، وقد عُنيت خلال اضطلاعي بالأعباء الوزارية غير مرة، بإقامة العلاقات الثقافية والأدبية بين العراق، ومصر، على أسس وطيدة، فاتخذت الإجراءات الضرورية لمضاعفة عدد الأستاذة المصريين، المنتدبين للتدريس في بلادنا عامًا بعد عام.

ومما كان يَعْنِيني أن تتميز عقود استخدام المصريين بأفضل الشروط وأحسنها، هذا من جهة، وضوعفت من جهة أخرى أعداد طلبةِ البعثاتِ العلمية الموفدين للدراسة في الجامعات المصرية، ووقّعت بين مصر والعراق اتفاقية العلاقة الثقافية، وتحول العراقيون كثيرًا إلى المناهج والكتب المدرسية المصرية، وراجت مؤلفات المصريين، ومطبوعاتهم في أسواق العراق أيما رواج، ويخيل إلىّ أنه لا يوجد بلد إسلامي أو عربي يضاهي العراق من النواحي المذكورة.

وكان ختام الأسئلة ما وجهه الأستاذ محمد شوقي أمين حين سأله قائلًا:

يعلم أستاذنا الشبيبي أن الزجل يتردد في الأغاني الحديثة كثيرًا، فما رأيكم في الزجل كعادة للغناء؟ وما رأيكم في الأغنية الحديثة؟ هل يصلح الشعر لها أكثر من الزجل أم العكس؟

فأجاب معاليه بما يأتي:

يستريح إلى الأزجال طبقة معينة من الجمهور وخصوصًا في الأرياف، التي لا يتذوق معظم أهلها ما يؤدي بواسطة الفصحى من المعاني الرفيعة في أغلب الأحيان، هذا وشأن الزجل في اتخاذه مادة للغناء كشأن الفصيح، يتوقف في رأيي على تجنب الابتذال، والإسفاف في أغراضه ومضامينه، ولا يصح الإصغاء - فيما أري - إلى كثير من هذه الأغاني الحديثة المبتذلة، فإن ذلك مُفْسِدٌ للأذواق، بل مضرٌّ للآداب، وما أحوجنا في هذه الظروف العصيبة إلى الأناشيد والأغاني الزاخرة بمعاني القوة المجردة من السخف والمجون، وفي رأيي أن الانغماس في الترف والإسراف في اللهو وأسبابه وإن كان بريئًا غير لائق بأمةٍ تنشد النهوض.

ثم عَقَّب على هذه الإجابة بسؤال آخر هو:

للأستاذ الشاعر الكبير رضا الشبيبي شعر يُغَنَّى في مصر، والعراق: فما هذه القصائد؟ وما رأيكم في أحسن شعر يُغَنَّى؟

فأجاب: لُحِّنَتْ للسؤال الماثل في هذه الندوةِ أكثرُ من قصيدة واحدة مثبتة في ديوان شعره، وفي ذلك قصيدة عنوانها «شباب الغد» وأخرى عنوانها «فتنة الناس» ومن أحسن الأشعار التي ينشدها ويلحنها المطربون أشعار أبي فراس الحمداني وخصوصًا التي استهلها بقوله:

أراكَ عصَّي الدَّمْع شيمتُك الصبرُ أمــا لـلـهـوى نـهـيٌ عـلـيـك ولا أمــرُ

وهنا سأله الأستاذ عزيز أباظة عن أحب القصائد التي تغنى من الشعر الحديث إلى نفسه فأجاب: أغنية «همسة حائرة» للشاعر الكبير المصري عزيز أباظة، ثم تلا هذا مباشرة كلمة شكر وجيزة من معالي رضا الشبيبي للأستاذ عزيز أباظة على استضافته له، كما شكر كل المشتركين في الندوة.

• **دراسة ونقد :**

نقدم هـذا التعليق عن الموضوعات الخمسة، التي عرضنا لها تحت مسمى (ندوات في الأدب والنقد)، وهي تختلف من ندوة لأخرى في أمور كثيرة، لكنها تحدد في مجموعها التوجه النقدي والإحساس البلاغي والالتزام المنهجي والتميز في العرض والتقديم مع كبار الشخصيات، التي استضافها الغزالي في هذه الندوات.

وكانت الندوة الأولى عن مكانة شوقي في الأدب العربي ورَأَسَها الشاعر الكبير عزيز أباظة، ولم يخفِ صاحبنا إعجابه بشوقي وبعزيز أباظة هذا الرجل الذي أخذ بيد الغزالي كشأن بعض رجالات الأسـرة الأباظية ومنهم إن لم يكن في مقدمتهم إبراهيم دسوقي أباظة (الباشا الكبير) وفي شأن عزيز أباظة أنه أخذ بيد الغزالي إلى تحقيق ديوان أبي نواس، وتصدى لما وُجِّه إلى هذا التحقيق من نقد، كان فيه من التحامل أكثر مما فيه من النقد البناء والتوجيه الرشيد، وكان عزيز أباظة عماد هذه الندوة التي أشاد فيها بشوقي وبشعره، إذ اعتبره منحة إلهية ترجع أسبابُ ظهورها إلى الله سبحانه وتعالى، كما كان شوقي رائدًا في المسرح الشعري، والذي استفاد منه عزيز أباظة في المسرحيات، التي كتبها وسار فيها على نهج أحمد شوقي، وكانت الأستاذة نظلة الحكيم شريكًا بالرؤية الناقدة والتصوير الصادق لموهبة شوقي الشعرية، وجاءت الندوة الثانية عن المؤثرات في الأدب، وترأس الحديث فيها محمد أنور السادات الذي كان من رجالات الثورة، وذلك قبل أن تُسند إليه رئاسة مصر في أكتوبر عام ١٩٧٠م، ولم يتوقف الغزالي في هذه الندوة عن البوح بتطور الشعر، منذ أن قام البارودي ببعثه وإحيائه.

وكانت عناية الغزالي في هذه الندوة أن يؤصل للمؤثرات في الأدب مستشهدًا بما رأى من نماذج متميزة للبارودي وحافظ إبراهيم، وتأتي الندوة الثالثة تعبيرًا عن توجه الغزالي في فهمه الواسع للأدب العربي، الذي لم يحصره في الأدباء والنقاد المصريين، وإنما اتسع معه إلى عوالم رحبة فسيحة مع حركة الأدب بين الأصالة والمعاصرة، ومن خلال ثلاثة مجتمعات عربية أولها عن أدب المغرب العربي، وثانيها عن الطبيعة والربيع في الشعر السوري، بينما جعل ثالثها لما يتميز به شاعر العراق محمد رضا الشبيبي.

ومع ندوة أدب المغرب العربي كان المشاركان فيها هما الأديبان أحمد مخيمر وأحمد رشاد سلامة، وكانت عن صاحب كتاب نفح الطيب وهو أحمد بن محمد المُقرِّى يقول الغزالي في التقديم لهذه الندوة : « فصاحب كتاب نفح الطيب مغربي، وصاحب وفيات الأعيان وصاحب الأمالي وصاحب كتاب العمدة كل هؤلاء وغيرهم من قادة الفكر العربي نشأوا في المغرب العربي وعاشوا فيه، وقاموا بزيارات لأهلهم وأخواتهم في المشرق، فكانوا يَلْقَون في كل بلد عربي يهبطونه أهلًا بأهل وإخوانًا بإخوان».. كان الهدف الأول لهذه الندوة هو إبراز أدب المغرب العربي، وقضية تحرير الجزائر، وتأكيد الروابط التي تجمع البلدان العربية، وآثر المقرى التلمساني المولد في تأصيل هذه الثقافة العربية الأصيلة، حيثُ أشاد الغزالي وضيفاه بها، وتجلى ذلك في بعض النماذج الشعرية، التي أثبتها صاحبنا في هذا الموضوع، الذي يغلب عليه التوجه نحو الحرص على صيانة اللغة العربية، وتأكيد الهوية العربية قديمًا وحديثًا، وانتقل صاحبنا من المغرب العربي إلى سورية الشقيقة من خلال ندوة أدبية واسعة عن (الطبيعة والربيع في الشعر السوري) وشارك فيها بعض الأساتذة العظام من جامعة القاهرة وأعد لهذه الندوة ورتب لها وقدمها صاحبنا الغزالي، وبدأها ببيتين للقاضي الفاضل وهما :

يقولون لي ماذا رأيتَ بشامِهم فقلتُ لهم كُلَّ المكارم والفضل

فبلدتُهُمْ خيرُ البلاد، وأهلُها بإحسانهم تُغني الغريب عن الأهل

وقد خضع هذا الموضوع للرغبة التي كانت تجتاح الغزالي في جمع العديد من النماذج الشعرية الطويلة والقصيرة، تلك الأشعار التي شكل منها على الجندي أساسًا لمحاضرته، والتي أُعتمدت أصلًا لهذه الندوة المتحدث عنها لعدد ضخم من الشعراء، والذي لم يكن لبعضهم محصول شعري كبير سوى أنهم تفننوا في وصف سورية وبلدانها قديمًا وحديثًا.

هذا الموضوع الذي كان في أصله ندوة مصرية، ثم أضاف إليها الغزالي، وحذف منها مما أهلها لأن تكون محاضرة تُقدَّم للأدباء والمثقفين في سورية، ونذكر أن الكثير من الشعر المختار لا يمثل إضافة إلى الموضوع الذي تحول إلى كم هائل من

النماذج التي لا تخدم الندوة بشكل جيد مع أن الندوة تحسب للغزالي في إدارتها وانتقاء الشعر لها بينما المحاضرة تنسب إلى صاحبها أو معدها في الأصل وهو الأستاذ على الجندي العميد السابق لكلية دار العلوم، والذي انضم إليه للحوار في هذه الندوة الدكتور أحمد هيكل والأستاذ عبدالحميد بلبع الأستاذان بجامعة القاهرة، ونؤكد كما سبق أن ذكرنا أن النماذج الشعرية كانت كثيرة وبلا تعقيب من الغزالي بخصوص ما جمعه الأستاذ علي الجندي في هذا الموضوع.

وكان أبو الطيب المتنبي أكثر الشعراء الذين شكلوا قدرًا كبيرًا من النماذج الشعرية، التي يتصل الكثير منها بالطبيعة، وكانت أيضًا بلا تعقيب من الغزالي هذا الأزهري الدرعمي، الذي كان غَرامُه بالطبيعة والربيع لا حدود له، فقد ولد ونشأ في قرية مصرية تقع قريبة من نهرين صغيرين يلتقيان في زاوية المثلث، الذي تنحصر فيه هذه القرية بمعالمها[1]، وكانت الاختيارات التي ترجع في الأساس إلى علي الجندي، مدعومة برصها وصفها من الغزالي، ومواكبة للحياة العامة في الإقليمين الشمالي (سورية) والجنوبي (مصر) في زمن الوحدة العربية، وتحت مظلة (الجمهورية العربية المتحدة) والتي بقيت زمنًا مليئة بالآمال والطموحات الكبار، إلى أن انفكت عراها في الثلث الأخير من عام ١٩٦١م.

وكانت تلك الحقبة من أخصب السنين في حياة الغزالي، ولذلك تحملت عنتًا شديدًا في تدقيق هذه الندوة بما فيها من اختيارات شعرية ترجع كما ذكرنا في أساسها إلى الأستاذ علي الجندي.

وقد رأينا إسقاط بعض النماذج التي استحسنا أن يعود إليها القارئ في مصادرها الشعرية المألوفة مادامت غير مقترنة بتوجيه ونقد، وقد شعرت بالضيق والعنت من طول هذه الندوة، وكثرة النماذج فيها، التي لم يذكر لها الجندي أو الغزالي مصدرًا أو مرجعًا يمكن الاستهداء به في إعادة هذه النماذج إلى مراقدها من التراث العربي القديم.

وقد كان بوسع الغزالي أن يختصر نص المحاضرة، ولا يُلحقها إجمالاً ويلصقها

(١) أقصد قرية غزالة الخيس.

لصقًا بجسم الندوة، تلك التي خرجت عن إطارها المعروف من خلال الندوات، وعادت إلى أصلها القديم في تجميع النماذج لهذه المحاضرة.

لقد كلفتني هذه المشكلة الناجمة عن طول هذه الندوة جهدًا ووقتًا، حيث عبأت فيها كل طاقتي، فكنت بين حين وآخر أجدد شحنها إما بالراحة الجسمانية، وإما بالراحة الذهنية، وجاء ذلك مرتهنًا بأهمية المراجعة الدقيقة لهذه الأشعار، وكان ذلك شاقًا بكل تأكيد، خاصة مع الشعراء المغمورين الذين ليس لديهم ديوان يتم الرجوع إليه، وأبياتُهم الشعرية القليلة كانت موزعة بين أمهات الكتب القديمة، ولم يسكن فؤادي إلا بعد أن وصلت بهذه الندوة إلى الحالة التي خَرجت عليها أو بها في هذا الكتاب.

وكان من الميسور على الغزالي أن يعفينا من هذه المشقة، ومن هذا التدخل بإسقاط بعض النماذج، ولكن يبدو أن أمورًا كثيرة في حياة الغزالي لم تتضح لنا، كما أننا لم نعرف بالظروف المحيطة بأمثال هذه الندوة.

وكان الغزالي - رحمه الله - يتكلف في الوصف خاصة عند التقديم، ويمعن ويبالغ في حشد الألفاظ والعبارات اعتمادًا على محاضرة الأستاذ علي الجندي من أول فقرة فيها، وهي سورية الكبرى إلى آخر كلمة كانت الدعاء فيها موجهًا إلى الله بتحقيق آمال أمتنا العربية.

ومع أن جهد الغزالي كان قليلًا في هذه المحاضرة، التي أعدت أساسًا للندوة، إلا أنني لم أفكر أساسًا في إسقاطها من هذا الكتاب، بحجة أنها لا تُعَبّر عن صاحبنا، وإنما عمودها الفِقَري للأستاذ الجندي، وكان إثباتها أفضل وأسلم، فقد وضع صاحبنا عناوينها الداخلية، وعلق عليها، واتخذها أساسًا لندوته، مع الإقرار بالنقد الذي سبق ذكره، والإبقاء على اسم كاتبها، وهو الأستاذ على الجندي.

وجاءت الندوة الأخيرة ترحيبًا بصاحب المعالي محمد رضا الشبيبي شاعر دجلة والفرات، ووزير المعارف السابق بالعراق، وزعيم المعارضة فيه، وذلك من منزل الشاعر الكبير عزيز أباظة، وفي تصور عدد كبير من الأدباء والمثقفين من مصر ومن بلدان عربية كثيرة هي سورية والأردن، ولبنان، وقد حرص الغزالي في

هذه الندوة على أن يكون الشبيبي محل الإعجاب والتقدير من سائر الحاضرين، وخاصة عزيز أباظة، وذلك حتى تكون هذه الندوة حلقة من حلقات برنامج مع رجالات العرب بإذاعة صوت العرب.

وقال الغزالي في مقدمة الندوة عن الشبيبي : « إنه فحل من فحول الشعراء الذين امتازوا بقوة الملاءمة بين المعنى السامي، والديباجة المشرقة..

وهو ناقد وباحث لغوي متعمق.. وهو عالم ومؤرخ.. وهو سياسي عربي من طراز فريد، وإلى جانب ذلك فرع باسق من دوحة باسقة هي أسرة الشبيبي، التي أهدت للشرق كله أكرم علمائه وأدبائه وساسته وحكامه، ثم اتجهت الندوة إلى مسار مختلف عن الندوات السابقة، فقد تقدم الحاضرون بأسئلة إلى الشبيبي، والذي انبرى للإجابة عنها، وفي نهاية اللقاء شكر الشبيبي عزيز أباظة على استضافته له، ثم شكر كل المشاركين في هذا اللقاء.

وقد عجبت من ضحالة الأسئلة وتكرارها، حول حب الشبيبي للغناء والمطربين.. فَتَركتْ الندوة المجالات المهمة في حياة الأمة وممارسات الحكم بها، والحياة الثقافية في كل إقليم، واتجهت الأسئلة من سائر المشاركين إلى أحوال الغناء والطرب، ولذلك كانت هذه الندوة جديرة بالحذف والإسقاط من هذا الكتاب، لولا أننا احتكمنا إلى الأمانة العلمية والتاريخية ؛ وحتى تكون سائر المعالم واضحة، فيما يخص الغزالي وضيوفه من مصر وخارجها.

خامســًا

النشاط الإعلامي

النشاط الإعلامي

١- مقدمة :

لقد كان الغزالي معنيًا بنشر إبداعاته الأدبية، وروائعه النقدية في الوسائل الإعلامية المختلفة، وتجلّى ذلك مع الشعر، الذي كانَتْ بدايته مرتبطة به، فظهر للقراء والمستمعين بشعره المتميز، ولم يقتصرْ على إنشاده في المناسبات المختلفة، وفي الأماكن المتعددة، وإنما اتجه في الكثير منه إلى المجلات الأدبية والثقافية، مثل مجلة «الرسالة» لأحمد حسن الزيات، والتي نشر فيها الكثير من قصائده ومقالاته النقدية، ثم اتجه إلى المسرح الشعري في ملاحمه «مواكب النبوة»، و «ليالي العرب»، ذلك النشاط الدرامي، الذي كانت الإذاعة منفذًا إعلاميًا له، خاصة في عهد الثورة عام ١٩٥٢م، والتي كانت حريصة بمبادئها على بعض الماضي بأصالته وعراقته، والتعبير عن الواقع بحداثته وحماسته، وقوة الدفع فيه، التي تستمد طاقتها من إرادة الجماهير.

وتعددت مواهبه إذا لم يقتصر على الشعر، وإنما أسهم في كتابة تمثيليات نثرية متنوعة، أثارت انتباه الكثيرين في داخلِ مصر وخارجِها، وانتشرت أدبياته في الإذاعات العربية، إذ كان إعدادها خصيصًا للإذاعة في المقام الأول، ومن تلك الأعمال الإبداعية (المثني بن حارثة - عبدالملك بن مروان - الإمام محمد عبده) وغيرهم.

وقد وجد الغزالي نفسه المُلْهَمة، وروحَه الوثّابة مع ثورة ١٩٥٢م، فانشغل

بقضاياها وبقياداتها، وتفاعل مع البيئة الثقافية، فطال نفَسُه مع المقالة النقدية، والمقالة الاجتماعية وغيرهما.

واتضح ذلك في عدد كبير من الأحاديث، التي اتخذ عنوانًا عامًا لها هو «صلة الشعر بالحياة « تلك التي وصلتنا نصوصها الكاملة لستة عشر حديثًا، قدمها في إذاعة المملكة العربية السعودية، وجاءت مرتبطة بالشعر القديم والحديث، وعندما رحل كاتبنا عن الحياة كانت الأمة في حاجة إلى أمثاله؛ لإضاءة الطريق في الثقافة والمعرفة ؛ ليسير فيه الراغبون في التحول عن القديم بسلبياته، والانتقال إلى مبادئ الثورة ومتطلباتها في التغيير بسائر نواحي الحياة.

وكان حريصًا على الربط والتواصل بين الشعر والحياة، حتى وصل به إلى واقعنا المعاصر.

٢- « مع رجالات العرب» : -

لقد تعددت كتابات الغزالي ودراساته في الأدب والنقد عن بعض الأعلام مثل عميد الأدب العربي الدكتور « طه حسين»، والأديب والناقد والمفكر الكبير « عباس محمود العقاد «، وقرأ الكثير من دواوين جمهرة كبيرة من الشعراء مثل محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وغيرهم، وكتب عن الشاعر المغمور المتفلسف من مدينة الزقازيق «عبدالعزيز السعدني».

وقدم أحاديث أخرى عن مجموعة من الأدباء ببرنامج لإذاعة صوت العرب من القاهرة، والذي كان عنوانه « مع رجالات العرب»، ولم يقتصر هذا البرنامج على لقاء « محمد رضا الشبيبي « الشاعر والسياسي العراقي الكبير، وإنما اشتمل مجموعة من الأعلام، مثل: أحمد لطفي السيد، وعباس محمود العقاد، ورشيد عالي الكيلاني[1]، والأمير عبدالكريم الخطّابي[2]، والشاعر «عزيز أباظة»، والسيد

---

(١) ولد رشيد عالي الكيلاني في بغداد عام ١٨٩٢م، وهو زعيم ثورة اشتهرت باسمه في العراق، وتولى رئاسة الوزارة العراقية أربع مرات، وتوفي عام ١٩٦٥م، انظر الأعلام للزركلي ج٣، ص٢٣.

(٢) ثائر معروف من دولة المغرب.

« صائب سلام[1].

وحدد عددًا آخر من الأسماء المقترحة؛ لتسجيل حلقات مع أصحابها من خلال البرنامج المذكور « مع رجالات العرب»، ومنهم أحمد حسن الزيات « صاحب مجلة الرسالة «، وعبدالوهاب عزام « السفير المصري السابق بالسعودية...، وعبدالخالق حسونة « الأمين العام بجامعة الدول العربية»، ولكن يبدو أن الأجل لم يسعفه، لإتمام هذه الحلقات الهادفة من خلال هذه الأسماء.

٣- الأعلام في منازلهم :

تحدث الغزالي في أوراقه الخاصة عن برنامج إذاعي له بعنوان «الأعلام في منازلهم»، وقد كان هذا البرنامج من بين مشروعاته الإذاعية، والتي نهض بها، أو التي قدَّم تصورًا عنها؛ لتكون ضمن الخطط المستقبلية للإذاعة.

ونؤكد أن معظم البرامج الإذاعية التي قام بإعدادها وتقديمها، كانت تُذَاع على العرَب من صوت العرب، إذ تجلى حماسه وإبداعه في برنامج «الأعلام في منازلهم»، والذي صار عنوانه فيما بعد « أدباؤنا في منازلهم»، إذ يبدو أن حديثه عن الأعلام كان موجهًا لهذه الكوكبة من الرجال المشهورين، ثم رأى أن يقتصر هذا البرنامج على الأدباء بخاصة، وكانت مدة إذاعته من خمس عشرة دقيقة إلى عشرين دقيقة، وكتب شارحًا فكرة هذا البرنامج فقال : « تدور حول القيام برحلة سياحية في منازل هؤلاء الأعلام، وسنحاول أن ننقل للمستمعين صورة نابضة بالحياة، والحركة، تتمثل فيها ألوان حياتهم الفنية المختلفة، وكيف يقضون يومهم بين القراءة والكتابة والتأليف ؟ وكيف استطاعوا أن يُنَمُّوا مواهَبَهم وملكاتِهم ؟ حتى أصبحوا في هذا المستوى الرفيع من النباهة والشهرة ؟

وسنتحدث معهم عن ماضيهم وآمالهم، وما الذي صادفهم في هذا الماضي؟ وما الذي تحقق من آمالهم ؟ وسيتحدثون عن الكتب، التي أثرت في حياتهم العلمية

---

(١) رئيس وزراء لبنان الأسبق.

والثقافية، وعن المدارس التي تكونت فيها شخصياتهم العلمية والأدبية، وعن مُثُلهم العليا في الحياة.

وسنوجه لكل منهم ما يلائمه من أسئلة تتصل اتصالًا وثيقًا بما يمارسه من شؤون الثقافة والأدب والعلم، وبهذا يمكن أن ننقل الجو الخاص الذي يعيش فيه هؤلاء الأعلام البارزون، إلى السادة المستمعين. وفي هذا إمتاع لنفوسهم، وصقل لأذواق الناشئين وعقولهم، كما أن فيه طرافة وتسرية مُحَببتَين إلى سائر الطبقات ؛ لأننا سنسأل كلّا منهم عن هواياته الخاصة، التي يزاولها أثناء فراغه، وعن عاداته التي تلازمه، حين يكتب أو يؤلف أو ينظم».

وقدم في مذكرة له عن هذا البرنامج بعض الأسماء الذين سيتم اللقاء معهم، واقتحام منازلهم، وتقديمهم للمستمعين، بصورة مغايرة للبرامج الإذاعية الأخرى، بما تحمل من مادة إذاعية مشوّقة، تلك المكونات الخاصة بهذا البرنامج كانت في غاية الإثارة من خلال صوت الغزالي، وأسلوبه، وحسن اختياره، مستثمرًا حضوره الفني والأدبي أمام ميكروفون الإذاعة.

وممن اختارهم لهذا البرنامج عباس محمود العقاد، وعزيز أباظة، وأحمد حسن الزيات، وغيرهم.

أ- في منزل العقاد :

كانت الحلقة الأولى من برنامج «الأعلام في منازلهم» عن الكاتب والشاعر والمفكر الكبير عباس محمود العقاد، وابتدأ صاحبنا جولته في منزل العقاد، والتجول بين غُرُفه المتعددة بكلمة عن أصدقاء صاحب المنزل من الكُتّاب والعلماء والأدباء.

ويبدو أن تحديد المنزل والشارع لم يكن من بين اهتمامات الغزالي، وأعرف أن منزل العقاد كان في شارع سليم الأول رقم ثلاثة عشر، في حي الزيتون بمصر الجديدة (مدينة القاهرة) أما اسم الشارع فيتضمن عبقًا تاريخيًا

يعتز به المصريون، ذلك أنه يحمل اسم الرجل الذي كان له من البطولة والشهامة ما كان[1].

وأما ثلاثة عشر فهو رقم يتشاءم منه بعض الناس، ولو أقام فيه غير العقاد لهرب منه، ولكنه لم يعبأ بهذه الخزعبلات، وأكد بذلك أن التشاؤم من رقم معين لا قيمة له، واستمر في بيته بالرقم المذكور، وفي الشارع المحدد طوال ما بقي له من حياة.

وقد ابتدأ الغزالي هذه الحلقة بوصف المنزل، ولم يتوقف الميكروفون خلال الجولة، وإنما حدد في المذكرة التي بين أيدينا كثيرًا من الأسئلة التي يتوجه بها إلى العقاد مثل: كيفية قضاء وقت القراءة والتأليف، وما أحبُّ الغُرُف إلى نفسه، وبيان الغرفة التي شَهِدَتْ مولدَ أحبِّ مؤلفاته، وبيان أجمل ذكرياته، وتحديد بعض الزوار الكبار، لهذا المنزل إلى آخر الأسئلة، التي يتوجه بها الغزالي والضيوف.

وبدأت الجولة الإذاعية في منزل العقاد بحجرة الاستقبال، التي عُقدت فيها الندوة المصغرة المشار إليها، لكن وصف الحجرة بكل محتوياتها، كان محل عناية من الغزالي، والأسطر التالية بعض ما تحدث به عن هذه الحجرة، حيث قال : « نحن الآن في حجرة الاستقبال. وهي ممتلئة بمقاعد كثيرة يحتلها رواد ندوة الأستاذ الكبير في صبيحة كل يوم جمعة.. وفي جانب منها دولاب للكتب يظهر أن الحجرات الأخرى ضاقت به، فاستقر مكان الضيوف، وفي جانب آخر تمثال نصفي صغير للأستاذ العقاد بجانبه جهاز راديو...

وفي جانب ثالث منضدة صغيرة ملاصقة للحائط، تقوم عليها مرآة طويلة، وعلى هذه المنضدة الصغيرة عدة كتب ورسائل، وبينها تمثال نصفي صغير الحجم للزعيم المصري سعد زغلول.. وفي وسط الحجرة منضدة عليها صحف ومجلات بعضها بالعربية، وبعضها بالإنجليزية، وعلى الجدران رفوفٌ وصور أخرى، الرفوف

---

(١) السلطان سليم الأول : من سلاطين تركيا العثمانيين، وقد ولد في عام ١٤٦٧م، وتوفي عام ١٥٢٠م، وتولى السلطنة في عام ١٥١٢، وفتح مصر وسوريا (١٥١٦- ١٥١٧م)، وجعل نفسه خليفة على المسلمين - انظر الموسوعة الثقافية بإشراف الدكتور / حسين سعيد، طبع دار الشعب بمصر، ص ٥٥٥.

تحمل تحفًا قليلة، هي نماذج لأوانٍ وتماثيلَ فرعونية، بعضها من الخزف وبعضها من البرنز.

أما الصور المعلقة فأكبرها مساحة صورة لأثر فرعوني، عبارة عن أعمدة سابحة في ماء[1]».

وقد كشفت هذه الأسطر عن مقدرة الغزالي في تصوير المكان تصويرًا إذاعيًا متميزًا، ويؤكد أنها موجهة إلى المستمعين جميعًا، قبل أن تكون نصًا أدبيًا وَصْفيًّا للقراءة، ثم ذكر بعد ذلك عددًا آخر من الأسئلة حول الصور والتماثيل الوصفية، وسر بقائه في هذا المنزل، رغم تصدع بعض جدرانه، وسر إطلاقه على حجرة الاستقبال اسم الحديقة، واتساع هذه الحجرة لاستقبال الكثير من الضيوف.

وَذَكَرَ في عُجَالة وصف حجرة المكتب، التي كتب فيها العقاد أروع مؤلفاته الشعرية والنثرية، والتي تزيد عن سبعين كتابًا في التاريخ والأدب والفلسفة، وربما شهدت مولد بعض دواوينه الشعرية التسعة، وتزدحم بدواليب الكتب من كل جانب من الصغير والكبير، وذكر أن دولابًا يحوى أكثر من مائة كتاب عن شكسبير، ولشكسبير، ومعها كتب الأدباء الإنجليز، وشعرائهم، مثل توماس هاردي، وكنيس، وكولردج، وشلي، وغيرهم، فضلًا عن الدواوين الأخرى، التي استطرد الغزالي في وصفها وبيانها.

ثم ذكر أن في الحجرة صورة فنية تمثل فتاةً حزينة، واقفةً على قبر، لكنه لم يبينْ دلالاتِ ذلكِ[2].

إن الحديث عن منزل العقاد من خلال هذا البرنامج حديث متعدد الجوانب والقضايا، كان يستحق من الغزالي أن يستكمل صياغته، ويعده بصورة تجعله صالحًا للقراءة والمعرفة، وليس قاصرًا على برنامج ينتهي بإذاعته والاستماع إليه.

إن العالمَ الرحبَ للعقاد بما يشمله من إبداع شعري ونثري، ودراسات في سائر

(١) من مذكرة جولة الميكرفون في منزل العقاد.
(٢) ذكر العقاد في كتابه « في بيتي » أن هذه الصورة لفتاة تبكي على قبر حبيبها.

المعارف الإنسانية تجعل حياته مجالاً رحبًا للحقائق والأخيلة، خاصة أنه عاش قدرًا كبيرًا من حياته مع نفسه، أو في مكتبه أو في مجلسه، فلا زوجة له تُسهم في ترتيب حياته، ولا أبناء يُشغلون وقته، وإن نهض عامر العقاد وهو ابن شقيق له بإحداث نوع من التواصل الإيجابي مع الحياة، من خلال شخصية عمه، التي تتسع أبعادها، وتتنوع معها مجالات تفترق عن سواها بما يصعب حصرها.

لقد أعدَّ الكثير من الأسئلة الخاصة بمنزل العقاد، وصالونه الأدبي الكبير، الذي كتب عنه الكثيرون، ومنهم الكاتب الكبير «أنيس منصور» حيث قدم للقراء كتابًا ضخمًا بعنوان «في صالون العقاد كانت لنا أيام»، وتنوعت الأسئلة عن منزل العقاد، وغرفه المتعددة، والذكريات التي عاشها هذا العملاق الكبير، والرواد العظام لمنزله بشارع سليم الأول، وانتقلت الجولة بعد نهاية الحديث من حجرة الاستقبال، وحجرة المكتب إلى حجرة المائدة بما فيها من أثاث، وكتب ودواليب وأسطوانات، في الغناء والموسيقي، كما وصف الغزالي حجرتي النوم وصفًا تفصيليًا دقيقًا للمستمعين.

وقد لوحظ أن المنزل يحتوى على كم هائل من الأثاث والحقائب والدواليب والصور والتحف والكتب واللوحات الفنية وغيرها.

ومن الواضح أن الغزالي قد أعد برنامجه الذي يبدو أنه كان متعدد الحلقات، وبين يديه كتاب العقاد « في بيتي « الذي رجع إليه، وأخذ منه بما يتناسب مع طبيعة البث الإذاعي، ففي الحديث عن حجرة النوم يقول موجهًا كلامه للعقاد في صورة سؤال ينتظر الإجابة: « قلتم في كتابكم «في بيتي» إنَّ حجرة النوم في بيت الرجل الأعزب، كحجرة الاستقبال وحجرة المائدة وحجرة المكتب، ليس عليها حجاب، فهل لا تزال حجرة نومكم ليس عليها حجاب»[1].

ولا توجد في الأوراق إجابة من العقاد عن هذا السؤال وغيره، مما طرحه الغزالي وسائر الرواد الحاضرين، وفي نهاية الحلقة أعد الغزالي ندوة عن العقاد

---

(١) من أوراق الغزالي، التي كتبها عن جولة الميكروفون في منزل العقاد، وهو بصدد وصفه لحجرة النوم.

وبيته، وإن لم تكن ندوة حقيقية بمفهومها المتعارف عليه بين الناس، ولكنها جاءت في صورة حديث، أو خطاب مرسل إلى الحاضرين في بيت العقاد أو المستمعين إليه في الإذاعة.

وفي خلال اللقاء الذي انعقد في نهاية جولة الميكروفون.. قدم الغزالي.. مجموعة من الأسئلة، التي أعدها ؛ لتكون بين يديه، وعلى لسان الضيف أثناء الحوار والنقاش، ومن بين هؤلاء: أعلام كبار مثل الأستاذ عبدالرحمن صدقي، والدكتور زكي نجيب محمود، والأديبة القاصة جاذبية صدقي.

وصَوَّرت أوراق الغزالي ما دار في بيت العقاد، عن اللقاء الذي تم في أعقاب جولة الميكروفون بمنزله، ومعظم النص جاء إلينا مكتوبًا بالآلة الكاتبة، وعلى لسان الغزالي، كما سوف يتضح ذلك فيما بعد، وكانت البداية مكتوبة بخط يده، والتي قال فيها : « أيها الإخوة في العروبة «، ثم أورد بداية الكلام التالي بصوت العقاد:

أيها الإخوة في العروبة

« قلت لك يا صاحبي: إنني أحب مدينة الشمس، لأنني أحب النور، أحبه صافيًا وأحبه مزيجًا. وأحبه مجتمعًا وأحبه موزعًا، وأحبه مخزونًا، كما يخزن في الجواهر. وأحبه مباحًا كما يُبَاح على الأزاهر، وأحبه في العيون. وأحبه من العيون. وأحبه إلى العيون :

ويوم سَكنتُ في هذا المكان، ونظرت من هذه النافذة، أعجبني أنني افتحها فلا أرى منها إلا النور... والفضاء.

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور.

وكيف يكون فضاء، ما يملأ العينين، ويملأ الروح، ويصل الأرض بالسماء؟[1]

أيها الإخوة : هذه إذن هي مصر الجديدة مدينة الشمس. أجمل ضواحي القاهرة، وهذه الكلمات لعملاق من عمالقة الفكر والثقافة... للعقاد. وهذا المكان

---

(١) كتاب « في بيتي» لعباس محمود العقاد، ص ٥، طبع دار المعارف أغسطس، ١٩٤٥م.

الذي نتحدثُ منه هو منزل العقاد.. نحن الآن في ملتقى الأنوار جميعًا. فوراء هذه الجدران التي نتحدث إليكم من داخلها. نور الشمس في مدينة الشمس الخالدة، وبينها ومن داخلها. نور القرائح. ونور الحكمة. ونور البيان :

نحن الآن مع راهب الفكر والقلم. الذي نقرأه كل حين في مؤلف جديد، ونسمعه كل آن في إذاعة جديدة. إنه صاحب أول مدرسة في الأدب والنقد. تَخرَّج فيها أدباء وشعراء في مصر، وغيرها من بلاد العروبة والإسلام. ملأوا بأدبهم وشعرهم الميادين.

نحن الآن مع المؤلف الكبير الذي أخرج للناس أكثر من سبعين كتابًا في الأدب والتراجم. والتاريخ. والنقد.. والفلسفة[1]...

ومع الشاعر الكبير الذي صاغ عواطفه وأحاسيسه، وصبَّ قَلْبَه وروحَه في تسعة دواوين من أعمقِ الشعر وأصدقه.

إنكم تعرفون العقاد المؤلف الكبير، والشاعر الكبير. والصحفي الكبير.. الذي لن يستطيع إنسان أن يحصر المقالات التي نَشَرَتْهَا له الصحف، أو المجلات.. حتى ولا العقاد نفسه، فيما يخيل إلي.

من أجل هذا أيها الإخوة : لن نتحدث إليكم عن أقداره الأدبية، أو العلمية المعروفة، ولكننا سنجول بكم في هذا البيت الذي كَتَبَ فيه خيرَ كُتبِه وأحبَّها إليه.. والذي يقول عنه « لقد صعدتُ سلالمه ثلاثًا ثلاثًا. ثم صعدتها اثنتين اثنتين. ثم أصعدها درجة درجة، على غير عجلة ولا اكتراث.

... وهذا المَسْكن قد نزلت به، والشعرات البيض يتوارَين في السواد، ومازلت أنزل به، والشعرات السُّود يتوارَيْنَ في البياض.

أيها الإخوة :

يختلف إلى بيت أستاذنا العقاد مريدوه وتلامذته وأصدقاؤه - كل يوم جمعة. وَكَمْ استقبلَ الأستاذُ العقاد. ويستقبلُ في هذا البيت.. قادةَ الفكر في مصر

---

(١) هذا الكلام مكرر من الغزالي.

والشرق، وأدباء من الغرب.. وأدباء من الشرق.. وفنانين من هنا.. وفنانين من هناك.

في حجرة الاستقبال هذه، جلس سعد زغلول. وجلس «إميل لودفج» الكاتب الألماني ذائع الصيت، وسائر أدباء الغرب، الذين زاروا مصر، وفي حجرة الاستقبال هذه يلتقي في صبيحة أيام الجمعة من كل أسبوع طوائف من أساتذة الجامعات المصرية، وأبنائهم؛ ليناقشوه في مسائل العلم والتاريخ، وقضايا الأدب والشعر[1].

أما فيما يتصل بالندوة الأسبوعية للعقاد، فلم يتوفر لنا منها شئ كافٍ؛ لتكون ضميمة للندوات التي سبق الحديث عنها، وإنما وردت أسماء بعض الأعلام الآخرين المشاركين في ندوة العقاد، نذكر منهم من مراكش (أستاذ جامعي)، ومن سورية (طالبة بكلية الآداب)، ومن السودان (طالبة بكلية دار العلوم) وبعض الأعلام من الأردن، وفلسطين، كما شارك المستشرق المجري عبدالكريم جرمانوس وغيره.

وأفاض الكاتب الكبير «أنيس منصور» في الشرح والتعليق على ندوات العقاد، التي كانت تعقد في بيته كل أسبوع، وذلك في كتابه « في صالون العقاد كانت لنا أيام».

ب- في منزل «عزيز أباظة» :

وفي زيارات أخرى لبرنامج «الأعلام في منازلهم « ، ومنهم الشاعر «عزيز أباظة»، حيث كتب الغزالي عددًا من الأسئلة، التي تَوَجَّهَ بها إلى هذا الشاعر الكبير، تتصل بمنزله وشعره وأطعمته، وأماكن قراءته وتأليفه، وسائر حياته بين جدران منزله، ونذكر هنا كلمة الغزالي في افتتاحية البرنامج الخاص بمنزل «عزيز أباظة» قال فيها: « نرجو أن يتفضل الشاعر الكبير فيصحبَ معنا الميكروفون في ساحة قصيرة بين الحجرات والشرفات، التي تختلفون إليها في منزلكم العامر بالآثار الخالدة

---

(١) وكانت تلك، هي آخر ما كتبه الغزالي في نهاية البرنامج، ثم انتقل بعدها إلى جولته في منزل العقاد، كما سبق القول.

من العلم، والفن، والأدب، كغرفة المكتبة وغرفة القراءة، والغرفةِ التي يطيب لكم أن تنظموا فيها مسرحياتكم الشعرية القيمة «[1].

ج- في منزل « أحمد حسن الزيات»:

وينتقل البرنامج في حلقة أخرى إلى منزل الأستاذ/ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة « حيث ذكر الغزالي في أوراق هذا البرنامج سبعة أسئلة بإيجاز كبير عما أعده عن منزل عزيز أباظة، فضلًا عن منزل عباس العقاد، واستهل صاحبنا أسئلة الزيات بالسؤال الأول الذي قال فيه: «هل نستطيع أن نعرف كيف يقضى أستاذنا الكبير يومه بين القراءة والكتابة في هذا المنزل الأنيق؟»[2].

ومن الواضح أن هذا البرنامج لم يقتصر على منازل هؤلاء الأعلام المذكورين، وإنما شمل الآخرين، الذين لم تتوفر لنا بيانات دقيقة عنهم، وإن كان ذلك لا ينقص من شخصية الغزالي فى هذا البرنامج؛ لأنه برنامج وصفي، وإعلامي، وليس برنامجًا مُعَّدًا عن قضايا وآراء، مستقلة بذاتها أو متواصلة مع غيرها.

٤- كيف أعددت نفسي ؟

لقد أعد الغزالي برنامجًا إذاعيًا مفيدًا بعنوان « كيف أعددت نفسي»؟[3]، ثم قدمه لإذاعة المملكة العربية السعودية بعنوان «الأعلام.. وكيف أعدوا أنفسهم ؟»، وفكرة البرنامج واحدة، وإن اختلف العنوان الثاني عن الأول -اختلافًا طفيفًا - ثم شرح أهداف هذا البرنامج فقال : « يستهدف هذا البرنامج تبصير الطلبة بالمثل العليا، والقدوات الطيبة عن طريق تَحَدُّث طائفة من الرجال النابهين إليهم، أولئك الذين طَبَّقَتْ شهرتهم الآفاق في مجالات التربية والتعليم، ومناحي الآداب والفنون والثقافات الرفيعة.

وفي حديث هؤلاء البارزين بأنفسهم إلى الطلبة توجيهٌ كريمٌ لهم، وتنمية

---

(١) من أوراق الغزالي الخاصة ببرنامج «الأعلام في منازلهم «، حلقة «عزيز أباظة».

(٢) من أوراق الغزالي الخاصة ببرنامج «الأعلام في منازلهم « حلقة « أحمد حسن الزيات».

(٣) والذي كان يقدم لمحطة الشرق الأدنى بالإذاعة العربية. حسب الأوراق التي بين أيدينا.

للقدرات العقلية والنفسية، المستكنة في شباب العلم المرجوِّ لمستقبل هذا الشرق العربي.

ولا نزاع من أن لكل طالب أملًا في مستقبله، وغايةً في غَدِهِ، فطالبٌ يتمنى أن يكون علمًا من أعلام التربية، وآخر يرجو أن يكون رجلًا من رجال القانون، وثالث يأمل في أن يصبح مهندسًا مرموق المكانة، أو عالمًا مشهورًا أو أديبًا ممتازًا.

هذه الآمال الوليدة التي تضطرب في نفوس طلاب العلم، والثقافة في أمس الحاجة إلى الإثارة والتوجيه عن طريق الاستماع إلى هؤلاء الأعلام.

ومن الممكن أن نقدم من هذه الشخصيات، ذائعة الصيت، في كل منحى من مناحي العلم والأدب والمعرفة شخصيتين كل شهر، لركن الطلبة، في حدود عشر دقائق لكل شخصية.

ومرفق بهذا بعض النماذج من هذا المقترح مع بعض الأشخاص اللامعين في المجالات العلمية والأدبية.

ثم حدد الغزالي طائفة كبيرة من السادة الأعلام، الذين يتيسر تقديمُهم في هذا البرنامج، ومنهم شيخ الأزهر، ومفتي الديار المصرية، وعباس العقاد، وعبدالعزيز السيد[١]، وكمال الدين حسين[٢].

وقد تجلى تقدير «الغزالي» لشيخ أدباء مصر والشرق، الأستاذ «عباس محمود العقاد»، فابتدأ البرنامج بكلمة قال فيها « أيها الطلبة – أيها الشادون في الأدب.. خذوا مَثَلَكُم الأعلى عن شيخ أدباء هذا الجيل، وإمام كُتَّابِهِ، وعميد النهضة الشعرية الحديثة، إنه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد..

وسيتفضل بالإجابة على هذه الأسئلة، التي سنتشرف بتوجيهها إليه، والتي يَهُمُّكم أن تسمعوا إليه، وهو يجيبكم عليها...

هل يأذن الأستاذ الكبير أن يُحدِّثَ أبناءه الطلبة، وتلاميذه في الأدب،

(١) مراقب عام التربية الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم آنذاك.
(٢) وزير التربية والتعليم آنذاك.

ورواد مناهله المتعددة في الأدب والشعر والتاريخ، وسائر فنون الأدب والكلام عن :

كيف استطاع أن يوزِّعَ قراءاته على الزمن منذ مطالع حياته الحافلة المديدة إن شاء الله، وهل يذكر أستاذنا الكبير المدارس التي تعلم فيها».

وأعد الغزالي ثمانية أسئلة ؛ لتقديمها للعقاد، حتى يجيب عليها، جاء السؤال الأول على النحو التالي : « إلى أيِ مرحلة من مراحل التعليم واصَلْتَ الدراسة؟».

وتنوعت الأسئلة بين العديد من الأمور، ومنها تفوّقُ العقاد في اللغة الإنجليزية، وذكرياته عن أيام الدراسة، وإعجابه بالإمام محمد عبده، وبأهم نصيحة يتقدم بها لأبنائه الطلاب.

والتقى من خلال هذا البرنامج بالأستاذ عبدالعزيز السيد «مراقب عام التربية الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم، وكانت هذه الحلقة مُعَدَّة إعدادًا جيدًا، إذ أنها لم تقتصر على توجيه الأسئلة ؛ وإنما ذُكرت الإجابة عليها بأسلوب أدبي تربوي هادف، وسوف يأتي في هذا الكتاب عدد آخر من المقالات الصحفية عن الثقافة والتربية، مما يؤصل لفكر تربوي متجدد يتمتع به الغزالي يحدّدهُ بِقَلَمِه، أو يذكره على ألسنة الآخرين، وقدم في حلقته مع الأستاذ عبدالعزيز السيد سؤالاً عن كيفية المذاكرة، وآخَرَ عن القراءات الحرة، والمطالعة للثقافة العامة، إلى جانب الدروس المقررة، ثم عرض في سؤال ثالث، عن مستوى الاستفادة من المدرسين والأساتذة.

وأثبت في المذكرة التي بين أيدينا ثلاثة أسئلة أخرى عن كيفية استقبال الامتحانات، وعن المبادئ التي ينبغي على الطلاب الأخذ بها، وعن مقدار القناعة بما وصل إليه في رحلته التعليمية.

وفي سؤال عن المبادئ التي أخذ بها ضيف البرنامج نفسه، وبيان الطريق الذي سار عليه، قال: «أخذت نفسي بالشدة، والتقشف، والنقد الشديد، والصدق في القول، والإيمان بالواجب، والتفاني فيه، والصراحة في إبداء الرأي، وعدم كتمان ما اعتقد، والجهر بما أرى، وعدم رهبة أي إنسان في الحق، والحرص على أصول

الدين، والعلاقات الإنسانية، وخدمة الصالح العام، وعدم التساهل مع المستهتر مهما كان، والضيق بالخروج على الواجب مهما كان الأمر، أو الشخص.. وتشجيع كل إنسان على أن يقف منى هذا الموقف، وأن يقول رأيه فيَّ ولو لم يتفق مع ما أريد، وأن أتيح الفرصة لكل من يعاونني أن يؤدي عمله بطريقته هو دون تحكم بغيض مني؛ حتى ينمو هو في حرية تامة، وتحت إشراف خفيف غير ملحوظ.

بهذه المبادئ أمكنني أن أصل إلى ما وَصَلْتُ إليه، وأنا واثق أن ذلك هو الطريق السوي». وفي حلقة من هذا البرنامج مع السيد/ كمال الدين حسين (وزير التربية والتعليم بالجمهورية المصرية)، قدم الغزالي ستة أسئلة تربوية؛ ليستمع الطلاب إلى إجابة وزيرهم عنها، وبعضها يتكرر ذكرُه مع كل ضيف، مثل كيفية استذكار الدروس، وقضاء أوقات الفراغ، والصداقة بين الطلاب، وإعداد النفس، حتى وصل إلى ما هو فيه، والضعف في اللغات جميعًا، وبخاصة اللغة العربية.

وقدم حلقة من خلال البرنامج مع الأستاذ علي أيوب (وكيل مجلس النواب) ووزير المعارف السابق، والمحامى المصري الشهير، وتتكرر معظم الأسئلة مع الضيوف، وإن بقيت لكل ضيفٍ مهما علا قدره - تجربته الذاتية في حقل التربية والتعليم.

وفي حلقة أخرى من هذا البرنامج من إذاعة المملكة العربية السعودية، والتي جاءت مع الدكتور محمد صلاح الدين (وزير الخارجية الأسبق في مصر) وهو علم من أعلام المحاماة والكتابة الوطنية، أعد الغزالي سبعة أسئلة ليجيب عليها إجابة مباشرة، موجهة إلى سائر الطلبة العرب.

٥- مراسلات إذاعية :

لقد كشفت أوراق الرسائل بين الغزالي وعبدالله بلخير مدير عام الإذاعة والصحافة والنشر بالمملكة العربية السعودية عن إذاعة أحاديث صلة الشعر بالحياة بالإذاعة السعودية، وأن الدفعة الأولى من الأحاديث المذاعة بلغت عشرة أحاديث، وأنه عند استكمال إذاعتها ستصل المكافأة المحددة لكل حلقة[1] وذلك حسب ما ورد

---

(١) بواقع خمسة جنيهات للحديث الواحد.

في خطابات مدير الإذاعة، المؤرخة في الحادي والعشرين من ذي القعدة ١٣٧٦هـ، وذكر أن الإذاعة قد أرجأت البرنامجين المقترحين، وهما الأعلام في منازلهم، وكيف أعددت نفسي.

وفي مراسلات بين الغزالي، ومدير صوت العرب في العاشر من يوليو ١٩٥٩م، أفادت بإذاعة حلقات من برنامج «ليالي العرب»[١].

وفي خطاب له تظلم فيه من الأجر المقرر لأناشيده، والتي أذيعت في برنامج « ليالي العرب» ؛ كما تظلم من الأجر المقرر، لأغنياته المقدمة في برنامج «مواكب النبوة»[٢].

وفي خطابه لمدير صوت العرب في ديسمبر ١٩٦١م (أي قبل وفاة الغزالي بما لا يزيد عن شهر) اشتكى من تأخر تلحين أغنية له، ومختارات بعنوان « هتاف الروح».

وتواصلت نشاطاته من خلال الإذاعات المختلفة بالداخل والخارج، ومن خلال أوراقه وخطاباته إلى الآخرين، والتي تُقَدّم صورة موجزة عن أفكاره ومشروعاته الإذاعية، إذ أنه في مجال الصحافة كان مواظبًا على الكتابة - دراسة ونقدًا لكثير - من الأعلام والقضايا، واتخذ من المجلات والصحف منبرًا لإبداعاته وكتاباته.

وبين أيدينا مذكرة موجهة لمدير إذاعة صوت العرب، يعرض فيها بعض الموضوعات ؛ لتكون برامج تمثيلية درامية، وقدم أمثلة لذلك.

وذكر في بداية هذه المذكرة ما يأتي : « يسعدني أن أضع تحت نظركم رءوس موضوعات، يمكن أن تصاغ مادتها في حلقات عديدة لبرنامج تمثيلي. في أداء عربي، ويقيني أنه سيكون عملًا إذاعيًا ناجحًا جدًا ؛ لأن هذه الموضوعات التي أتشرف بعرضها السريع فيما يلي تحمل في ثناياها عناصر نجاحها»[٣].

---

(١) التي سبق ذكرها بالجزء الأول.

(٢) خطاب الغزالي في السابع عشر من أكتوبر عام ١٩٦١م.

(٣) من رسالة الغزالي إلى مدير صوت العرب المؤرخة في الثامن من أكتوبر عام ١٩٥٧م، وممهورة بتوقيعه، إلى جانب اسمه، كعادته في أمثال هذه الرسائل.

وذكر من بين هذه الموضوعات «رحلة ابن بطوطة»، الذي قَصَدَ كثيرًا من البلدان، منذ أن خرج من طَنْجَة[1] بالمغرب في الثاني من رجب عام ٧٢٥هـ قاصدًا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول الكريم، حتى عاد لمدينة فاس بالمغرب الأقصى عام ٧٥٤هـ، وفي أثناء هذه السنوات التسع والعشرين زار ابن بطوطة كثيرًا من البلاد الإسلامية مثل مصر، الحجاز، الشام، العراق، اليمن، فارس، الهند، كما زار الصين والبلاد الواقعة حول البحر الأسود، وبحر قزوين، وقال الغزالي في هذه الرسالة الموجهة إلى إذاعة صوت العرب ما يأتي : « وإن في عرض هذه الرحلة في حلقات تستغرق كل حلقة خمس عشرة دقيقة، يقصها محمد بن بطوطة، ذلكم الشيخ الذي رفعته المقادير إلى مصاف الرواد الكبار، رَبْطًا للشعوب العربية بماضيها وتاريخها، وتذكيرًا لها بالصلة، التي تربط حاضرها بغابرها[2] وتوكيدًا للقومية العربية، والوحدة الإسلامية، التي كانت مستقرة في أعماق الشعور الإسلامي في ذلك الحين ؛ ذلك فوق ما في عَرْض هذا القَصَص الممتع من تسرية وتشويق رائع لنفوس المستمعين، إذ من الميسور إعداد كثير من هذه الحلقات غنائيًا».

كما اقترح برنامجًا آخر يكون عن العظماء، أو الأعلام أو الصفوة، ذاكرًا بعض الأمثلة مثل : بوذا، زرادشت، عبدالقادر الجزائري، غاندي، ابن سينا، ابنُ طُفيل صاحب رسالة حي بن يقظان، واقترح برنامجًا ثالثًا بعنوان الذخائر أو الخوالد، متخذًا من الذخائر العربية الخالدة أفكارًا لبرامج غنائية عن عدد من الكتب مثل الأغاني – العقد الفريد – رسالة الغفران – كتاب البخلاء للجاحظ – كليلة ودمنة.

واقترح برنامجًا رابعًا عن الشعراء الأمراء، أو الحاكمين، أو القواد، أو شعراء الأغاني والفكاهة، متخذًا من الشعراء العرب في سائر العصور الأدبية أمثلة لذلك.

وكان الغزالي قد توجه إلى الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقوري، عندما كان

---

(١) قال عنها ياقوت: «بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهي من البر الأعظم وبلاد البربر، وهي على ظهر جبل، وبينها وبين سبته مسيرة يوم واحد، معجم البلدان ج٤، ص٤٣.

(٢) بغابرها: بماضيها.

وزيرًا للأوقاف[1] برسالة مطولة، يشرح فيها بالتفصيل المشروع المُزْمَعُ إنشاؤه وهو «دار الإنتاج الإذاعي العربي»، قال في هذه الرسالة :

سيدي الوزير الجليل...

صحَّت عزيمة بعض كبار المشتغلين بشئون الأدب والعلم والثقافة على إنشاء دار تُسَمَّى «دار الإنتاج الإذاعي العربي» يستهدفون بها تزويد سائر محطات الإذاعات العربية في مختلف بلاد الشرق بالمواد الإذاعية، من أحاديث أدبية وعلمية ودينية وثقافية، وقراءات لمشاهير قراء كِتَابِ الله الكريم، ومحاضرات وندوات في شتى مناحي العلم الصحيح والمعرفة الحقة، والفن الرفيع... إلى غير ذلك من المواد الإذاعية التي تتطلبها حاجات المجتمعات العربية والشرقية، التي تتلمس الإنتاج الإذاعي المصري وَتَجْهَدُ في سبق الحصول عليه.

ولا نزاعَ يا سيدي الوزير في أن الحقل الإذاعي بمصر خِصْبٌ وحافل بأشهى ألوان الزاد الفكري والعلمي والفني، الذي تنتجه عقول ومواهب الصفوة من الأساتذة المصريين، في ميادين الأدب العالي، والعلم الصميم، والفنون الأصيلة.

ففي مصر الأدباء البارزون، وفيها العلماء المتعمقون، والفنانون النابهون، الذين تتجه إليهم دائمًا محطات الإذاعة في كل قطر عربي وشرقي، غير أن هذه المحطات لا تجد أمامها جهة تنسق صلتها بهؤلاء، وتسهِّلُ لها الحصول على إنتاجهم، مما حدا بنا إلى التفكير في إنشاء هذه الدار؛ لتكون بمثابة مصدر لإمداد كل بلد عربي بحاجته من الإنتاج الإذاعي المتعدد الألوان.

ومما يؤكد نجاح دار الإنتاج الإذاعي العربي - إن شاء الله - هذه اليقظة العربية الشاملة، التي انتفضت بها الأمة العربية أخيرًا، مما يحتم تدعيم الأواصر والوشائج بين البلاد العربية جَمْعَاء... وليس أجدر من محطات الإذاعة لملامستها لآذان الناس وقلوبهم من الاضطلاع بهذه المهمة العربية القومية.

---

(1) أثناء فترة قيامه بالعمل الوزاري بعد ثورة ١٩٥٢م، من السابع من سبتمبر ١٩٥٢ م إلى الحادي عشر من نوفمبر ١٩٥٩م.

ومما يبشر بالخير أيضًا في نجاح هذه الدار أن الجامعة العربية قد فكرت أخيرًا في أن تضع برامج إذاعية موحدة بين سائر البلاد العربية؛ لخلق وعي عربي قومي موحد.

وستستطيع هذه المؤسسة بفضل توجيهكم وإشرافكم أن تمكن لشخصية مصر وزعامتها في الوطن العربي بأسره، كما ستعمل جاهدة على مواجهة الإذاعات المسمومة، التي تبعثها الإذاعات الأجنبية، التي اتخذت من بعض البلاد العربية مواطنَ لمكاتبها وإدارتها، لتشحن أجواء هذه البلاد بمفترياتها وأباطيلها؛ التي تَسْتَعْدي بها بعض هذه البلاد ؛ على بعضها فتثير بها الفتن والقلاقل.

ولعلَّ السيد الوزير قد لَمَسَ أثناء زياراته العديدة لبعض الأقطار العربية حاجتها الملحة إلى تزويد إذاعتها بالآراء الموجهة الرفيعة، وستعمد المؤسسة إلى إنشاء وتنظيم وسائل التبادل الإذاعي بين هذه الأقطار العربية جمعاء، وهذه ناحية لا تسمح بها حاليًا أي محطة عربية ؛ لحرصها على أن تظل برامجها الخاصة لها وحدها، طِبْقًا للوائحها التي تسير عليها.

وإنه ليسعد القائمين بهذا المشروع أن يرفعوا فكرته إلى السيد الوزير الجليل.

فإذا حَظِيت الفكرة بحسن القبول، وهذا غاية ما نؤمِّلُ، فإنني رهن إشارتكم لعرض تفاصيل هذا المشروع، الذي ستخاطب به مصر عواطف المواطنين العرب والمستوطنين - إن شاء الله - كما ستغزو به السوق الأدبية والعلمية والفنية في مختلف الإذاعات العربية والشرقية، في ظل بطل مصر وقائد نهضتها الرئيس جمال عبدالناصر وإخوانه رجال الحكومة الأعلام.

هذا هو الموجز السريع لمهمة «دار الإنتاج الإذاعي العربي» من النواحي الأدبية والعلمية والفنية، وهناك مهمة أخرى ستنهض بها هذه الدار، وهي القيام بأعمال الدعاية والإعلان للشركات والبيوت المالية والتجارية على نطاق واسع ودراسات فنية متخصصة، مما سيعود على الدار بأرباح وفيرة مؤكدة.

وبين يديكم الكريمتين مذكرة مجملة، تنتظم الناحية المالية للمشروع، والتكاليف الابتدائية اللازمة.

كما أتشرف بأن أرفق بكتابي هذا بيانًا بأسماء الأساتذة الذين نرى مفاتحتهم؛ لتتألف منهم الهيئة الاستشارية للدار، وقد تم التفاهم مع بعضهم، وفي انتظار التفضل بالإشارة بما ترونه سيادتكم في هذا الصدد.

أرجو أن تتفضلوا بقبول وافر التحية والإكبار.[1]

كما توجه الغزالي برسالة إلى سمو الأمير عبدالله جابر الصباح[2] متحدثًا فيها عن الموضوع السابق ذكره، بخصوص إنشاء دار الإنتاج الإذاعي العربي، مؤكدًا الأهداف العظيمة لهذا المشروع وبآثاره السامية، حول تزويد سائر محطات الإذاعات العربية في مختلف بلاد الشرق بالمواد الإذاعية من أحاديث علمية وأدبية ودينية وثقافية، إلى غير ذلك من البرامج الغنائية والمسرحيات والتمثيليات، ومواد الترفيه والتسلية، مع حتمية التنسيق بين محطات الإذاعة في كل قطر عربي وشرقي، وذكر أمثلة للمحطات التي تم بدء التنسيق معها في بعض البلدان، وذكر منها المملكة الليبية المتحدة[3]، والهند وباكستان وأندونسيا والحجاز والقدس، وغيرها من تلك التي تذيع برامج عربية، وتوسع الغزالي في شرح أهداف هذه الدار، بمذكرة متعددة الصفحات بها بعض ما ذكره في رسالته السابقة إلى الشيخ أحمد حسن الباقوري.

كما تحدث عن الكثير من المشروعات الإذاعية، منها ما ذكره بخصوص إعداد مراسلة إذاعية للجمهورية العراقية، بحيث يكون مكانها المؤقت بمقر جمعية الشعراء بالقاهرة، كما سبق أن قدم مذكرة بهذا الصدد إلى إذاعة دمشق، ويكون الهدف الإذاعي لذلك هو التواصل بين الإذاعات العربية، وبعض دول الشرق، وموافاتها بشتى ألوان الإنتاج الإذاعي المصري، متخذًا من بعض البرامج أمثلة لذلك مثل

---

(١) تم تأسيس اتحاد للإذاعات العربية، وتولى إدارته لفترة طويلة الإعلامي الكبير الأستاذ أحمد فراج - رحمه الله.

(٢) من دولة الكويت.

(٣) هكذا كان اسمها قبل قيام ثورة الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩م بقيادة العقيد معمر القذافي.

برنامج « رجالات العرب»، والبرنامج الشعري الغنائي «ليالي العرب»[1]، ولذلك فهو يؤكد تصوره عن حتمية إنشاء المراسلة الإذاعية لجمهورية العراق؛ ليزداد التواصل والتنسيق بين الإذاعات العربية.

وقد وضح لنا أن الأفكار والمشروعات الخاصة بتطوير الأداء الإذاعي بمعرفة الغزالي كانت مبتكرة ورائدة، وتسايرُ منطق التطور، وفلسفة التجديد، وتلك سنة الحياة، ونؤكد أن هذه المشروعات والبرامج التي ذكرنا أمثلة لها، قد تحققت بالفعل في صور مختلفة ومتعددة، وإن كان هذا التطبيق قد جاء للأسف الشديد، بعد وفاته - رحمه الله -.

وهكذا اتضحت لنا النشاطات الإعلامية للغزالى من خلال البرامج الإذاعية المختلفة، في إذاعات مصر، وبعض البلدان العربية الأخرى، وقد توفي - رحمه الله - في بداية البث التليفزيوني؛ ولذا لم يتيسر له من الوقت ما يكفي لتقديم نشاطاته المتنوعة في التليفزيون المصري بخاصة.

أما نشاطاته في الصحف والمجلات فلا يعدلها شيء آخر من المنافذ الإعلامية، التي اعتمد عليها في نشر العديد من قصائده وأناشيده ومقالاته المتنوعة، والتي تضمها الأعمال الكاملة لأحمد عبدالمجيد الغزالي في الجزءين الأول والثاني.

---

(١) نشر في الجزء الأول من الأعمال الكاملة لأحمد عبدالمجيد الغزالي.

سادســـًا

فـــن المقـــال

* المقال عند الغزالي

أولًا : المقال الأدبي.

ثانيًا : المقال الاجتماعي.

ثالثًا : المقال السياسي.

المقال عند الغزالي

• **تعريف ونقد :**

ظهر فنُّ المقال في الأدب العربي الحديث بصورة تختلف كثيرًا عما كان عليه الحال في بداية القرن الهجري الثاني، إذ كان آنذاك قريبًا من أشكال أخرى، مثل الرسالة والخُطْبة والترجمة الذاتية، ثم تجلى الإبداع النثري مع الفن القصصي الذي قرأناه ابتداء في المقامات لبديع الزمان الهمذاني وغيرها. وجاء العصر الحديث فبدأتْ الأشكال الأدبية تستقل وتأخذ معيارًا محددًا، خاصة فيما يتصل بشكل المقال ومضمونه، حيث ارتبط ذلك بأمرين أولهما: التأثر والاحتذاء للمقال في الأدب الأوربي، إذ اكتمل الإطار العام له في شكله ومضمونه، مع التطور من مرحلة إلى أخرى وثانيهما: ظهور الصحافة وتطورها واتساعها في كل أشكال المقال، الذي كان صِنْوًا للخبر أو الحادثة، وتواصلت مسيرته إلى أن صار على الحالة التي هو عليها الآن.

وكانت القفزة التطورية واضحة مع بداية القرن العشرين، حيث ظهر عدد من الأدباء العظام، يمارسون الكتابة في سائر الفنون الأدبية، نذكر منهم بكل تقدير وإجلال عباس محمود العقاد، والدكتور طه حسين، والدكتور محمد حسين هيكل، ومصطفي صادق الرافعي، والدكتور زكي مبارك، والأستاذ أحمد أمين، والأستاذ أحمد حسن الزيات، والدكتور محمد مندور وغيرهم.

وفي وجود هذه الكوكبة من الأدباء والمفكرين، كان ظهور أحمد عبدالمجيد

الغزالي، الذي اتجه في آخر حياته إلى كتابة المقال الصحفي، حيثُ كان الاهتمام فيه موجهًا بصورة أساسية إلى الحياة، بكل ما فيها، ذلك أنه قد دخل ساحة الأدب من بوابة الشعر، فلما اقتحم الحياة، وأسهم بقلمه في إنارة الطريق للباحثين عن الحقيقة تحول بعد ثورة ١٩٥٢م إلى كتابة المقال الصحفي بخصائصه المتميزة من ناحية الشكل والمضمون، وبما يحمل هذا التوجه من إبداع وخصائص تشكيلية ثابتة، وتجلى ذلك بصورة ملفتة للنظر في آواخر الخمسينيات من القرن الماضي، وبخاصة في أعقاب إعلان الوحدة العربية بين مصر وسورية.

ولقد كانت عناية الغزالي بالثقافة والصحافة فوق كل اعتبار، ذلك أنه اقتحم مجالات الحياة بما فيها من إيجابيات وسلبيات، وكان المجال أمامه رحبًا فسيحًا، إذ صال وجال في العديد من القضايا، التي فرضت نفسها على المواطن المصري بأفراحه وأتراحه.

ولم يغب عن كافة الشرائح الاجتماعية سواء أكان ذلك من خلال تواجده في الريف، أم من خلال تجاوبه مع الثقافة والمتغيرات الاجتماعية في القاهرة، وبعض عواصم الأقاليم.

وعندما كنت أكتب هذه الكلمة، كان بين يديَّ أكثرُ من ثلاثين مقالة نُشر معظمها في جريدة المساء تحت عنوان «رأي»[1]، فضلًا عن بعض المقالات الأخرى، التي ظهرت مكتوبة على الآلة الكاتبة، أو بخط يده وتوقيعه -عليه رحمة الله.

ولم يكن توصيف هذه المقالات أمرًا سهلًا، إذ أنها تؤكد مدى العلاقة الحميمة التي تربط الأديب بالبيئة، من خلال قضاياها المتنوعة وهمومها المتعددة، فضلًا عن أنها قد كُتِبَتْ في نهاية التوهج الفكري للغزالى، بما يشمل مسيرته من نشاط إعلامي بارز في الصحافة والإذاعة، وربما صاغ الكثير منها في عام ١٩٦٠م عندما بدأ المرض يتسلل إلى جسمه، حتى فارق الحياة.

---

(١) نشرت المساء هذه السلسلة من المقالات، ابتداءً من يوم السادس عشر من أبريل ١٩٦٠م، وانتهاء بيوم السابع عشر من يونيو ١٩٦١م، وذلك في حدود ما وجدناه في أوراق الغزالي، حيث أسفر البحث عن ثلاثة وعشرين مقالًا، كل واحد منها ذو موضوع محدد، وبعنوان عام هو «رأي».

وتؤكد هذه المقالات أيضًا مدى تجاوبه مع المتغيرات السياسية والتطورات الاجتماعية، إذ بدأ حياته شاعرًا رومانسيا، يعشق الجمال، ويهفو إلى الطبيعة، ويعبر عن حبه وهُيامه، في أشعاره المتميزة وصياغاته الجميلة، حتى أدبه التمثيلي كان مرتهنًا في الكثير منه بتمجيد التاريخ، وهضم التراث، وإبراز الواقع في تمثيليات، استمع الناس لمعظمها من خلال الدراما الإذاعية. ونأتي لمقالاته التي نشرها تحت عنوانها العام «رأي» فنراها (في مجموعها) لوحات فنية صادقة في حب الوطن، وذلك بالنقد الهادف، للواقع الذي تجاوز الغزالي فيه حدود وطنه الصغير، مقتحمًا سائر مكونات وطنه الكبير.

ولا شك في أن مضمون المقال عنده كان متنوعًا ومتسعًا، وشاملًا لكل القضايا المتصلة بحياة الإنسان، تلك التي شُغل بها أكثر من غيرها، وهو اتجاه يأتي تعبيرًا عن تحوله إلى الواقعية إبداعًا ونقدًا.. ولذلك يصعب إخضاع مقالات (الرأي) إلى تصنيف جازم، ذلك أن الموضوعات كثيرة، والأفكار غزيرة، والصياغة ملائمة لصورة المقال، الذي يطابق مقتضى حال الصحيفة، أو المجلة التي يتم النشر فيها.

فالموضوعات متعددة، والشكل ثابت بخصائصه الأدبية، ولغته المتزنة، وتعبيراته الراقية، وإن كان الباعث عند الغزالي قد كشف الواقع، ونَقَدهُ، وعَرَضَ الحلول لتقويمه ومعالجته، وكان ذلك باعثه أو دافعَه للكتابة، قبل أن يكون همه متجهًا نحو تشويق القارئ، وإثارة انتباهه، وسبك أسلوبه بالصيغة الفنية الزاهية، التي تروق وتُعجب.

وتطالعنا فيما يأتي مجموعة من المقالات الأدبية، التي تُعلي من شأن الثقافة والمثقفين، وتُقوّى الرابطة بين الأدب والحياة، وهي مقالات مع توصيفها بهذه الصفة، لكنها لا تنفصل عن الواقع، وإنما تمخر في عُبابه، وتقتحم مخابئه وأغوارَه، وقد كَتب في هذا اللون عُمَداء الأدب العربي في العصر الحديث، الذين قرأ الغزالي لهم، واستفاد منهم، وتأثر بهم، خاصة المقالات النقدية والوصفية والثقافية.

وسوف يجد القارئ خمس مقالات متنوعة، اثنتين منها نُشرتا في مجلة الرسالة، وجاءتا تعبيرًا عن تلك المدة التي واكبت بدايات الغزالي؛ ولذا نرى أسلوبه فيهما رمزيًا فلسفيًا، بصياغة أدبية مغايرة لما جاء بعدهما.

ونأتي إلى مجموعة ثانية من المقالات، التي تعرض لقضايا المجتمع وعاداته وتقاليده، بما فيها من صحة وبطلان، فهو يذمُّ بعضَها وينفِرُ منها، ويوضح مساوئها، كما يمتدح بعضها ويُشيد بها، ويُحبب الناس فيها، وكان صورة معبرة عن المجتمع الريفي، الذي تربى على أرضه، وشاهد محاسنه وعيوبه، كما تجلى نقدُه للمجتمع في المدينة بما فيه من تجاوزات، يحذر منها، ويدعو لمقاومتها، وكانت المشكلات الاجتماعية متنوعة، خاصة في زمن التحول إلى مبادئ ثورة عام ١٩٥٢م.

ولقد تجلت عادات المجتمع وتقاليده في المدينة والقرية، أمام الغزالي فنهض بتسخير قلمه لنقد العادات السيئة والضارة، التي تشكل همًّا مؤرقًا للكيان الاجتماعي مع بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، مثل مشكلات الفقر والجهل والمرض، تلك التي كانت سمة عامة لمعظم أفراد المجتمع قبل هذه الثورة، ثم استُحدِثَتْ مشكلات جديدة مثل الإسكان والبطالة والأمية، والهجرة إلى الخارج، وغيرها، لكنه في سبيل ذلك، لم ينصرف قلمه عن مجموعة من المشكلات الاجتماعية الأخرى، التي عرض لها من خلال ما بين أيدينا من مقالات في هذا الجانب، الذي تميز فيه من ناحية الشكل والصياغة الأدبية، وذلك من خلال تسعة عشر مقالًا، نُشر معظمُهما في جريدة المساء، بتواريخ حددناها في بداية كل مقال، وقد لُوحظ في المقالات المنشورة أننا راعينا فيها الترتيب التاريخي للنشر، ثم يأتي التصنيف لوحدة الموضوع أو التقارب بين جزئياته، التي كُتِبَتْ كل واحدة منها في مقال خاص، تلك القضايا التي خضع الغزالي فيها إلى كل ما حرَّك مشاعره نحو الثوابت والتحولات في عادات المجتمع وتقاليده.

وسوف يجد القارئ في هذا اللون بعض المقالات التي تَعْرِضُ لهموم التربية والتعليم، من خلال مشكلات الطلاب في البيت والمدرسة والجامعة، وكذلك أهمية التخطيط الاجتماعي، وتطهير الريف من شعوذة الدجَّالين، ثم نهض الغزالي بالفصل بين العادات والعبادات، في مقالة بعنوان «بِدَعٌ يبرأ منها رمضان».

وعرض لموضوع قديم متجدد لازال الناس يئنون منه حتى الآن ؛ وهو أزمة المواصلات في القاهرة، محافظًا في هذه الكتابات على صياغته الأدبية المتميزة.

وَكَتَبَ سبع مقالات ذات طابع سياسي، كما ذكرنا سلفًا واللغة فيها واحدة، والمواصفات متقاربة، حيث كتب عن الرئيس جمال عبدالناصر، وعن قادة الشعوب، الذين يصنعون المستقبل، وعن الشعوب المؤمنة بقياداتها، وكتب عن القوى الروحية، وهي سلاح العرب في معاركهم، وعن الاشتراكية والديمقراطية.

وقد نُشرت المقالات الست الأولى في جريدة المساء، بينما، جاء المقال الأخير مخطوطًا بقلمه، وهو بعنوان : «الشعوب المؤمنة بقيادتها صاعدة دائمًا» وقد رجَّحنا أن يكون هذا المقال من بين كتابات الغزالي في شهور عمره الأخيرة لاعتبارات متعددة، ودلالات متنوعة.

أولًا : المقال الأدبي

(١) الصراصير(*)...!

قال لي صاحبي لِيَعْلَمَ ما بي..... ما لك كأن أمْرًا ذا بال استقل بك من دنيا الناس. قلت: صَدَقَت فراستُك يا صاحبي على نُدْرة ما تَصْدقُ؛ فقد انفرجت الهُوَّة بيني وبين دنيا الناس، وأصبحتُ مشغولًا بتوافهِ المخلوقات في دنيا الصراصير... وهذه الطائفة من هَوام الأرض هيئة ضئيلة الخطر؛ لأنها تألف بإملاء طبعها عليها، ودفع تكوينها لها، (الجدار) المتداعي من (بيتك) الذي يريد أن ينقض، وتريد أنت أن تقيمه، فلا تريد له هذه الصراصير بقاء أو سلامة، هي جادة في عبثها، وأنت جاد في حذرك منها، والهزيمة على البائس منكما....

ومن فلسفة الحياة أحيانًا، أن تقذف بالسوس في لفائف العود الباكر، فإما أن يتقصف أو يستطيل على الريح(١) !!

ومن فلسفتها كذلك أن تحترم عزمه الكاسر الضاري، وتشد وثاقه، وتطلق عليه (الفِيران) تلتطم بجبهته، وتتساقط حواليها، ولن تظفر بعد ذلك منه بغير تثاؤب طويل.

(*) نشر هذا المقال بمجلة الرسالة العدد (٦١٤) في التاسع من أبريل عام ١٩٤٥م، كما نشر بمجلة الثقافة، بالعدد (٣٣٠) في الرابع والعشرين من أبريل ١٩٤٥م، والمقال ذو هدف اجتماعي من خلال سَوْق هذه الرموز الفاسدة، التي تنخر في عظام المجتمع.

(١) يتجه ميل الغزالي في هذا المقال الأدبي إلى أسلوب الفلاسفة، ويظهر عليه غموض الهدف.

أعود بك يا صاحبي لقصة الصراصير... فهي في فلسفتها ليست بأقل شأن من فلسفة السوس مع العود الباكر، أو جماعة الفيران مع الضاري الكاسر، وما أخالك تستريح، للاسترسال في اكتناه أسرار هذا الفريق الآخر، من فلاسفة المجتمع.

أعود فأقول لك: إنك إن يئست من اتقاء شر هذه الحشرات، فأنت مقدّمٌ بذلك كافة جدران بيتك، هدية لفتكها وعملها الخبيث.

هي مُولَعَةٌ أن تأكل اللبنات الطيبة، فإن لم تجد جدارًا تَقْوَى عليه، انقلبت يعدو بعضها على بعض، فتتآكل وتَفْنى، والموقف منها ذو حيلتين: إما أن تقيم معها على الضيم الرخيص، وفي ذلك اعتراف بها، وتقويم لوجودها... ثم فيه أخيرًا تشجيع لها، لتمضي على سنتها، التي درجت عليها، من الاختلاف إلى كل جدار؛ تتكاثر في قاعدته، ثم تنسرب جماعتها في تجاليدها المظلمة، تِكدُّ وتجتهد، حتى يتطامن الجدار، ويصبح كله قاعدة.

فإذا البيت لا يصلح إلى هذه الصراصير.. وحيلتك الثانية معها أن تنزح وتتركها في الزوايا المظلمة؛ تعبث وتلهو، وتجنّبُ نفسَك بذلك فَضْلَ إحساسها بشعورك بها....

... فانتفض صاحبي قائلًا: أو تَرْضَى يا أخي أن تُهْزم وتنتصرَ الصراصير!

قلت: هي على كلتا الحالتين منتصرة، تعُوز رب البيت وسائل التطهير.

ثم أنسيت أنت قول الرجل العربي «خير لنا أن تغلبنا قُضاعة، من أن نغلب قُضاعة».... قال: وما قصة قُضاعة هذه؟

فقلت: هي قصة تلخّصُ فلسفة مجتمع مضى، كان صريحًا واضحًا.

تربى في كنف فلاسفة الرجال، ولم يتلق تعاليمه ونُظُمه الاجتماعية من فلاسفة الصراصير؛ تلك الطائفة الحائرة المحيرّة... فاطمأن صاحبي في جلسته، وأخذ

يَفْرُكُ جبهته بأنامله قائلًا: بدأت أفهم يا أخي فقلت: وأنا بدأت أفكر في ادخارك لحديث أخر يكون كله مفهومًا، أعرض لك فيه صورًا ناصعة، لطراز آخر من فلاسفة المجتمع الحديث[1].

(١) ويبدو أن الغزالي قد لجأ إلى الرمز في تصوير الصراصير، التي تنخر في عظام المجتمع ؛ بهدف السطوة عليه ؛ واغتيال إرادته.

(٢) ذوات الطنين(*)

وَخَلا الذبابُ بها فليسَ ببارحٍ　　غَرِدًا كفعل الشاربِ المترنمِ
هَزِجًا يحُكُّ ذراعَه بذراعِهِ　　قَدحَ المُكِبِّ على الزِّناد الأجْذَمِ

ولم أكد أنتهي من إنشاد صاحبي شعر العَبْسى(١)، حتى تقلص وانفرد، وقد ارتعشت شفتاه، وانفسحت بينهما مسافة مخيفة، انطلقت منها هذه الكلمات تتخلج ولا تتحرج: يا أخي، جنبني شرَّ شعرك هذا! فما عدت أؤمن بما للشعر من قيم وأقدار؛ قلت : أو يأمَنَ الشعر بمن لا يعرف أواصره وأنسابه؟

قال : أتريد أن تبرأ من هذا الشعر، وفيه جودة التصوير والصدق.. وصاحبي هذا نَسِيتُ أن أقدمه لقارئيه، حتى يطمئنوا إلى ما يجري على لسانه من حديث وجَدَلٍ... فهو قد انبعث إلى أوربا بضاعة مزجاة، ثم ردت بضاعتنا إلينا مهوَّشةً مضطربة ككل بضاعة وافدة من هناك، تنكر الفصحى وتتهمُ ثقافتها، وتعيش بمعزل عن كل ما يقرأ أو يكتب من الميمنة إلى الميسرة، والمعجب الطريف من أمره أن يده اليمنى معطلة، فهو مع شماله دائما، قارئًا وكاتبًا... فصاحبي رجل - أعْور العقل واليد - ورحم الله الرافعي.....

(*) نشر بمجلة الرسالة العدد (٦١٨) الصادر في السابع من مايو ١٩٤٥م.

(١) العبسي: هو الشاعر عنترة بن شداد، وهو من الشعراء المشهورين في العصر الجاهلي، والبيتان في ديوانه ص١٩٢، طبع الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠٠١م، والهزج : السريع الصوت، الأجذم: المقطوع اليد.

قلت له: لن أبرأ من هذا الشعر وإن كان للعبسي... فقد حدّثتكَ نفسُك، وهي زكية، لولا ما يكتنفها من « كثافتك».

حدثتك أنَّ جَوًّا خاصًا أعيش فيه يتنفس بهذا الشعر.... والزمن مهما تراخى، لابد واصل بوشائجَ وصلاتٍ، بين مظاهر الحياة ومفاتن المجتمع....

كان ثَمَّتَ للعبسي روضة وذُباب.... افتُتِنَ بهما، وافتَنَّ في تصويرهما... وقد احتفظ نَقَدَةُ الأدب ومؤرخوه بهذه الروعة الماثلة في هذين البيتين، وظلت تنحدر من قمة الزمن، حتى ترسبت في سفح هذا الجبل، نابضة بالصدق، مزدانةً بالتصوير...

روضة واحدة كان يغشاها العبسي غردة بذبابها، مخضلة بنداها. أما أنا وأنت يا صاحبي، فأينما اتجهنا، فرياض نواحة بذبابها «الأصيل» مخضوبة بلعابه السام... وذباب واحد كان يستهوي العبسي بنشيده الموقع المحبوب، في ضحوة الصبح وصفرة الأصيل....

وَتَسْمَعُ للذباب إذا تغنَّى كتغريد الحَمَامِ على الغصون[1]

ذباب يترشف ألحانه من كئوس الزهر البليلة المشرقة في مطالع الربيع، ومجالي الطبيعة، كما يتحدث أبو النجم عن روضته الأُنفُ التي تَعُلُّ ذبابها من أكاليل الزهر وريحانه.

أُنُفٌ ترى ذبابهَا تعلّلُه مِنْ زهَرْ الروض الذي يكللُهُ

أما أنا وأنت يا صاحبي، فقذى أعيننا مواكب الذباب الأصيل يستثيرنا بطنينه المُلِح الموصول في غَدْونا وَرَواحنا.... ذباب يصوغ أصواته من دم الأخلاق الهزيلة الضالة، ولا ينشط إلا في عتمة الليل، ومتاهات الظلام، حيث ترهف الآذان، وتنحط معاني الحيوان..

ولا تثقل عليك فلسفتي هذه يا صاحبي، فقد ذكر الجاحظ:

---

(١) البيت للمثقب العبدي شاعر جاهلى من شعراء البحرين.

«إن للذباب وَقْتًا يَهِيجُ فيه لأكل الناس وعضّهم وشرب دمائهم، وإنما يعرض هذا الذباب في البيوت عند قُرْبِ أيامها، فإن هلاكها يكون بعد ذلك وشيكًا[1].

قال صاحبي: بقي جانب غامض في موقفك من هذه المخلوقات المتواضعة الصغيرة، أرجو أن تجْلُوَه لي: لِمَ ترصد أجواء هذه الحشرات حادًا عليها أنفاسَها؟ أتنطوي عوالمُها على أسرار ومعجزات؟ قلت: ولست بمُمَحِّصٍ لك أسرارها، فهي وحدها بمزاجها، ودقة تكوينها سر هذه الأسرار، ثم في تأملها اعتراف بقدرة خالقها، ورياضة للنفوس الزارية بها، ولعل الجاحظ أيضًا يريحُك فيمنحُك ثقةً بها، تباعدُ بينها وبين احتقارك لها....

أوصيك أيها المستمع المُصِيخ، ألا تحقرَ شيئًا أبدًا لصِغَر جثته، وإياك أن تسيء الظن بشيء من الحيوان؛ لاضطراب الخلق ولتفاوت التركيب، ولأنه مشنوء في العين...

... ولعلك يا صاحبي تصدّقُ أن الذباب لم يكن في أيام العَبْسِي إلا ذباب الربيع الباكر البهيج، لا تكتحل العينُ به، إلا في موسم وميعاد.

أما في أيامك، فهو كل ما أتلقاه حيث أنت، عاكفًا بالليل، أو ساربًا بالنهار.

كان في الزمن الأول يقتات نوافحَ الزهر، حيث لا يضطرب المجتمع بغير نوازع الحب والكبرياء الدافعة إلى خوض المضاجع والدماء، أسمعت العبسي ينشد:

ولقدْ ذكرْتُكِ والرماحُ نواهلٌ ... منّي وبيضُ الهندِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فوددت تقبيلَ السيوفِ لأنّها ... لَمَعَتْ كبارق ثغْرِك المتبسم

هذا... كان مشغلة لفن الشعراء، في قمة الزمن الأول... كبرياء الحبَ الصحيح مجلبة لاشتباك الأسنة والسيوف، عمل النفوس في النفوس صفاء، ووفاء، ودماء.

أما في «مستنقع» زمنك الأخير يا صاحبي، فمشغلة الكاتبين لجاجة الذباب..

---

(١) الحيوان، الجزء الثالث ص٣١٦، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون.

كما سماها أستاذك الجاحظ، فقد أصابه منها شر متطاير وَثّاب، ستأتيك قصته في خاتمة الحديث.

استقرت لجاجة هذا الذباب الذي أصبحت تعرفه معي، على أوضاع توائم ودواعي الأيام، حيث يصطرع مجتمعُه بأعاصير التعاطف الرخيص، العاصف بالنفوس الذليلة، والضمائر العليلة، فأطعمه المجتمع شرائح الأعراض، فامتصها غَرِدًا كفعل الشارب المترنم، ثم نَفَثَها، طاقة ومجهودًا؛ فاستشرت الأدواء في الأصِحَّاء.... قتل وتجريح وإيذاء!!...

قال صاحبي: ألهذا آثرت العافية ونجوت؟ قلت: ولمساخر أخرى يحجزني عن التصريح بها أنك رجل وَقَذَكَ[1] الورع، وأسقمتك التقوى، وتلك التي لم تستطع أوربا أن تبترها منك!! وحسبك أن شيئًا وأشياء - تزيد على ما أصاب أستاذك الجاحظ - نالني من شر هذه المخلوقات، فألفيتني أعدو، وقد يئست، وقد سلبني «الذباب» راحة البال واطمئنان الخاطر من استنقاذهما منه، ضعف الطالب والمطلوب! وظلمت، انتهى الشوط.

أأجدُ يا صاحبي ظلاً وأمنا في هذا المكان؟ حيث لا للشرّ على الخير سلطان...

قال: قل لي ما كان من أمر الجاحظ حين خرج يريد دير الربيع، فتلقاه الأندلسي قائلًا: مالك يا أبا عثمان؟ هل قلت يا صاحبي: هذه قصة تطول... فأفرغ لي من شغل غدك، أكمل لك ما كان من شأن أبي عثمان...

قال: وحينذاك أفتيك عن مصيرك في هذا المكان[2].

---

(١) وقذك : ضربك أو قتلك.

(٢) وقد لعب الرمز والأسلوب الفلسفي في هذا المقال دورًا في غموض المعنى، الذي تتعدد اتجاهاته وأهدافه، وكان ذلك شأن الغزالي في المرحلة السنية من عمره، التي كُتب فيها هذا المقال.

(٣) من المسئول عن هذا الوباء الغنائي؟(*)

أصداء كريهة معربِّدة تدق على باب النافذة، وكل الأبواب، على الناس في إلحاح وإسفاف وعَنَت، أناء الليل وأطراف النهار، فهي لا تريد أن تريح ولا أن تستريح، تقتحم أذواق الناس، وتزحف على ضمائرهم، وتتسلل إلى وجداناتهم، عاصفة بكل القيم الروحية، ناسفة لكل الطاقات الزاخرة في صراخ الغريزة الضالة، وعواء الجنس الرخيص.

إن هذه الأغاني بمؤلفيها وملحنيها لا أتردد في أن أقرر: أنها تمثل مؤامرة عابثة بمقدسات هذا الشعب، وتربصًا جائرًا على مقدراته، وتحطيمًا لروح النضال السارية فيه، منذ فجر تاريخه العامر بالبطولات والأبطال.

إن لم يكن ذلك كذلك، فما هو السر العجيب في أننا لم نَكَدْ نصفِّي حسابنا بعد معركة بور سعيد، حتى تندفع موجة باردة نحو أشواق هذا الشعب، إلى الحرية، هابطة بكبرياء في خنوع واستخذاء وتخلع. فتتعالى الصيحات من هنا وهناك:

يـــامَّـــه الــقــمــرَ عَــلْــبَــابْ نـــادى وقـــال يـــا أحــبــابْ

يـــامَّـــه مَـــعَـــدّشِ كــســوف يــا امَّــه اعــمــلــي مــعــروف....إلــخ

ولا أريد أن أعرض نماذج أخرى، تكون قذى للعيون، فأنا أربا بهذه الصحيفة أن تكون سجلًا لهذا الانحلال، والانحدار المعيب.

(*) نشر هذا المقال بجريدة المساء "المصرية" في الثلاثين من أبريل عام ١٩٦٠م.

كيف لا تكون هذه الأغاني مؤامرة على الشعب وتربصًا به، ونحن نبني السَدّ في هذه الأيام، ونعيش في مد ثوري جارف، ونستشرف آفاقًا حرة كريمة، نتزود فيها من ماضينا العريق لحاضرنا الزاهر.

كيف لا تكون هذه المؤامرة وهذه الأغاني تَصُكُّ مسامِعَنَا ومسامِعَ شبابنا وأولادنا في الجيل، الذي نعده ونقيمه على دعائم راكزة في الأخلاق الرفيعَة والقيم الطيبة؛ حتى يكون جديرًا بالاضطلاع بأعباء المستقبل وتبعاته.

في هذه الأيام التي نبني فيها السَدَّ، وتزرع فيها الرجال، تتجاوب دورنا وشوارعنا وأنديتنا بهذا اللغو الفاضح.

الحِلْوُ لِيه تـألان أوي تـألان أوي
يـا سيدي رِقّ، يـا رُوحـي مِيـل يـا حبيبي مـا يصحَش كدهْ
مَخَلاص عِرِفنا إنك تقيل، ولحد إمتي التقل ده

ومعذرة القارئ فلستُ أعرفُ الطريقة التي تكتب بها أمثال هذه الكلمات في نظمهم، وقد أثبتُّها كما سمعتُها بالهمزة بدل القاف، على الطريقة الحضارية[1]!.

وحتى الشعراء – سامحهم الله – ارتكسوا في هذا الحمأ المسنون[2] فهذه الضجة المفتعلة، التي اصطنعها لفيف من كتَّابنا الشعراء، أو من شعرائنا الكتاب....

من أولئك الأصدقاء الذين تربطهم بشاعر، دقيق مطرب وعريق، صلات ووشائج حتَّمت عليهم أن يتبادلوا أغنية هابطة «مرتبكة» في صورها المهزوزة وأخيلتها المهوشة، هذا يعلق عليها في صحيفته، وذلك يتحدث عنها في الإذاعة، تمامًا كما تتبادل الكرة أرجل اللاعبين.

وإن أكثر أبيات هذه الأغنية ترديد على أغنية الناس، هي هذه الأبيات التي يعبر مفهومها ومضمونها عن ظمأ المراهقة وجوع المراهقين:

---

(١) سخرية من الغزالي.

(٢) ارتكسوا : انقلبوا، والحمأ المسنون: الطين الأسود المتغير المنتن.

حُـمِـل الـزهـورُ إلــى، كـيـف أردُه وصــبـــاي مــرســوم عـلــى شفتيه
مـا عـدت أذكـر والحـرائـقُ فـي دمي كـيـف الـتـجـأت أنــا إلــى زِنْـديـه
حـتـى فـسـاتـيـنـي الـتـي أهملتُها فَـرِحـت بـه، رقـصت عـلـى قدميه[1]

قليلًا من العِرَفان يا صاحب الأوزان، ويا رائد الألحان، إننا نبني السد ونعمل في جِد، صاعِدِينَ في طريق المجد... وقد عاد رئيسنا من الهند وباكستان وقال: لقد سمعت هناك أغاني وألحانًا عن السد... لا تقولوا لكل مقام مقال، فهذا صحيح، والصحيح من قبل ومن بعد أن العاطفة المشبوبة والخيال المحلق لهما آفاقهما، وليس مستحيلًا عليهما أن ينبثقا في معاني الحب والشوق والحنين، عن الروح المصرية العريقة التي تهز القلوب، وتهتف بالسحر والحرية والجمال.

ولقد كانت الأغنية التي تجأر برغبات الجسد، وتدغدغ نزوات الجنس من أنجح الرسائل في يد المستعمرين، للقضاء على روح المقاومة المستكنة في ضمير هذا الشعب، الذي يضرب بجذور حضارته العريقة في أعماق التاريخ.

فحيثما تسلل الإنجليز إلينا في أول عهدهم البغيض بنا، أدركوا بحواسهم المسمومة أن هذا الشعب مفطورٌ على تذوق الفن والتعامل معه، فشجعوا الأغاني المُسِفّة المبتذلة ؛ لينزلوا بالشعب إلى أحط المستويات، ليُهَوّنَ على نفسه وعلى أبنائه، وقد تحقق لهم كثير مما أرادوا. فالأغاني الرخيصة تهوي بالشعوب إلى مضاجعها، لتنام مخدورة، فاقدة الوعي والإرادة.

تذكروا أغنية: ارخ الستارة اللي في ريحنا.. وأمثالها.

تذكروا هذا الهوان والضياع اللذين كانا من معاول الهدم لكيان هذا الشعب الأصيل.. تذكروا عبداللطيف البنا ومنيرة المهدية، ثم تذكروا سنة ١٩١٩م وكيف اختفت هذه الأغنية الخليعة حينما انتفض الشعب انتفاضة المارد الجبار.

فتحرك سيد درويش؛ ليعبر عن روح الشعب وطموحه وأشواقه إلى الحرية

---

(١) تعد هذه الأغنية من القصائد الشعرية المتميزة فى التعبير عن لقاء الحبيب، وهو كما هو واضح مصاغة باللغة العربية الفصحى، ومحكومة بالأوزان العروضية.

والحياة. وكانت الأغنية تُغَنَّي في القاهرة، فتسمعها في اليوم التالي في سوهاج، ذلك لأنها تنبعث من ضمير الشعب الحي، ومن روحه الطموح.

لم تكن «العَشَرَةُ الطّيبة» تتحدث عن السياسة ولا عن الوطنية، إلا أن الناس كانوا يخرجون من المسرح، وهم في ثورة عارمة، يطوفون الشوارع ويهتفون للحرية وينادون بالجلاء.

وعندما انحسر المدُّ الثوري، واستطاع الإنجليز أن يشدوا وثاق هذا الشعب بقوة الإقطاع، واستبداد الجالس على العرش، عادت الأغنية سيرتها الأولي، ومات سيد درويش سنة ١٩٢٣، فماتت معه الأغنية التي هزت الملايين، ودفعت الجموع، وعبَّرت عن ثورة الشعب في صدق وأمانة.

إن على الأغنية أن تتجاوب مع أشرف العواطف، وأنبل المشاعر، وأكرم الأحاسيس، إننا نعيش في معركة القومية العربية لحظة لحظة وساعة ساعة، فلا تَرْجَعُوا بنا القَهْقَري، فالركب الصاعد سوف يَصُم[1] أذنيه عن النواح والتوجع ونداء الجسد، ولم تجدب الحياة بَعْدُ من الوجدان الرفيع والشعور العف، اللذين يجد فيهما الشاعر والملحن والمطرب جو الإبداع والإمتاع.

---

(١) يصم: يغلق.

تعقيب من الغزالي على المقال السابق

من المسئول عن هذا الوباء الغنائي؟

تحت هذا العنوان، وفي هذا المكان من عدد المساء الصادر في ١٩٦٠/٤/٣٠ كتبت مقالًا عن حُمَّى الغناء، وإسفاف المؤلفين، وقلت في مستهل هذا المقال ما نصه...» إن هذه الأغاني بمؤلفيها وملحنيها، تمثل مؤامرة عابثة بمقدسات هذا الشعب، وتربصًا خبيثًا بمقدراته، وتحطيمًا غاشمًا لروح النضال السارية فيه.

ثم اختتمت المقال بهذه العبارة «إن على الأغنية أن تتجاوب مع أشرف العواطف وأنبل المشاعر وأكرم الأحاسيس، إننا نعيش الآن في معركة القومية العربية لحظة لحظة وساعة ساعة، فلا تَرْجَعُوا بنا القهقري، فالركب الصاعد سوف يصم أذنيه عن النواح، والتوجع ونداء الجسد، ولم تجدب الحياة بعدُ من الوجدان الرفيع والشعور العفّ، اللذين يجد فيهما الشاعر والملحن والمطرب جو الإبداع والإمتاع.

هذا كان مطلع مقالي «وهذه كانت خاتمته» ولم أجد أنسب من عنوان هذا المقال القديم، عنوانًا لما أريد أن أقوله الآن في هذه السطور القلائل، التي تدور معانيها في الإطار الذي تحدده هذه البداية والنهاية سالفتا الذكر، وقد تغيرت – عبر هذه الفترة التي انَقَضَتْ منذ نشرت مقالي حتى هذه الأيام –أوضاع شتى لهذا المجتمع الاشتراكي الديمقراطي التعاوني(١)، الذي أخذ يتحرك في تطور وتوثب فوق طريقه الصاعد ؛ ليستكمل ملامحه الجديدة، التي تتسق مع مقوماته الجديدة، التي تشكل مجتمعًا حضاريًا ننشده.

---

(١) تأتي هذه الأوصاف للمجتمع، متواكبة مع مبادئ ثورة يولية ١٩٥٢م.

والعجيب في الأمر أن كل الجهود البناءة في مختلف الميادين عملية كانت أو علمية أو أدبية أو فنية، قد أسهمت وتسهم بنصيبها في النهوض ببناء هذا المجتمع إلى القمة المرموقة، التي أشار إليهما الرئيس جمال عبدالناصر، ماعدا طائفة من أهل الفن، وأعني بهم بعضًا من المؤلفين، والمطربين الذين يعيشون بمنأي عن هذا المجتمع، ولا يريدون أن يتأثروا بالحياة الجديدة التي نحياها وسط هذا المد الثوري، الذي فتح علينا آفاقًا جديدة تُطِلُّ بنا على آمالنا المرجوة، وأمانينا المنشودة، تلك التي انبثقت عنها ثورتنا الرشيدة، والتي صنعها ويصنعها قائد كفاحنا البطولي، ورمز نهضتنا الفتية الرئيس جمال عبدالناصر.

لم تشأ هذه الطائفة من أهل «الفن» أو لم تستطع أن تتجاوب مع المجتمع الجديد، الذي تسري في أوصاله روح جديدة، تنتفض عزة وكرامة، وتدُبُّ في مختلف مجالاته حياة، وتتوثب جادة فتية، وتضىء في أعمال ضميره شُعلٌ من العاطفة النظيفة والوجدان الرفيع.

إننا كما يقول الرئيس جمال عبدالناصر – نستهدف مجتمعًا تسوده الكرامة والكرامة عدل ومساواة وخُلُق – ولكي نصنع هذا المجتمع لابد أن نبنيه على دعائم قوية، من القيم الروحية والشيم العالية، والمقاصد البناءة الهادفة، ولن يكون هذا المجتمع كذلك، وصراخ الجنس يملأ مسامعه، وهواء الغرائز يأخذه من كل نواحيه، فمتى يخلص مؤلفو الأغنية من تلبية رغبات المطربين الجامحة، ويبعدون عن المعاني الرخيصة، التي لا تثير إلا أحط انفعالات الجسد. وأدنأ نزوات الجنس، ومتى يَفْهَمُ بعض مطربينا أن تملُّقَ الجماهير، سوف يقذف بهم وبفنهم – إن عاجلًا أو آجلًا – بعيدًا عن محيط الفن الخالد، والفنانين الخالدين.

وعلى هؤلاء وأولئك، إن أرادوا خيرًا لأنفسهم ولوطنهم أن يرتفعوا قليلًا في سلم الثقافة والوعي الفني، وألا يستطيعوا العيش فوق أرض الجمهور، ناهمين بما يحظون من مال وفير – وعيش رغيد – فرسالة الفن شىء غير هذا، وإن كانوا يزعمون أنهم فنانون موهوبون.

إنني لأذكر حديثًا قصيرًا، جرى بيني وبين الفنان الكبير، المرحوم زكريا أحمد، يوم

اجتمعنا بمبنى التلفزيون؛ لإعداد ندوة عن المرحوم العبقري الكبير بيرم التونسي، وكان بين الحاضرين الشاعر صالح جودت وزكريا، وكاتب هذه السطور قال زكريا أحمد ردًا على سؤال وجهتهُ إليه عن السبب في تدهور الأغنية، وإسفاف بعض ملحنينا ومطربينا، قال إنه سبب واحد. هو قلة الثقافة الفنية، عند هؤلاء المطربين والملحنين، وقلة أدب «المؤلفين... فهؤلاء وهؤلاء مبتورو الثقافة، ولا تُعَمّر قلوبَهم عاطفةٌ شريفة، أو إحساس نظيف، وهذا كلام صحيح[1]، والواقع أن العلة في هذا المصير السيئ الذي آلت إليه الأغنية تَكْمُنُ في ضآلة نصيب هؤلاء المؤلفين والملحنين أو المطربين من الثقافات والمواهب، وإلا فأي ثقافة أو فن في هذا الكلام الذي يندى له الجبين، حين تنطلق به حنجرة إحدى المطربات في تخلع وتميع وانحلال.

انــا دُنْــيــا مــفــتــوحــة الــبــاب يــامــا نــفــســي تُــدْخــلــهــا نُــوبــه

وتــغــنــيــلــك زنــوبــة

وهاهي المغنية التي تتلوي وتتأوه، حين تقول:

الــغـــاوي يــنَــقَّـــط بطــقــيــتــه تــســلــم لــــي عِــيــنُــه وعــفــيــتــه

مـــش حـــقـــدرْ اصـــبـــرْ مـــــش حـــقـــدر

حـــســـونـــهْ مَـــتـــحِـــنْ عـــلـــىَ أنـــا زيـــك غـــاويـــة يـــا حـــســـونـــه

هذا الوباء الغناء، من المسئول عن تفشيه، وتسلله إلى ضمير هذا الشعب وقضائه المُبْرَمَ على روح النضال المستكنة فيه؟ المسئول بداهة هي الإذاعة، فلو أنها صادرت هذا «المخدر» المدمر، الذي ينسف الطاقات البناءة، ويمتصُّ الحيوية الزاخرة في نفس هذا الشعب، المتعطشة إلى الحرية والخير والجمال، لو أنها لم تُفرج عن هذا الشر المستطير، لمات في مهده، وحاول بائعوه وشُرَّائِه أن يرتفعوا بإنتاجهم إلى مستوى أرفع وأكرم، وهل يتواضع المسئولون في الإذاعة فيجربوا إنشاء قسم لاستماع الأغاني أسوة بقسم الاستماع السياسي، وتكون مهمتهُ منعَ إذاعة الأغاني المبتذلة - وتوجيه المطربين والمطربات الوجهة السليمة، التي يفيد

(١) وهذا أيضًا كلام عنيف، لا يَمّحي من الذاكرة مئات الأغنيات، التي أشادت بالعزة والكرامة والوطنية، وبكفاح الشعب من أجل تحرير الإرادة وتصوير الطموح العربي والأجيال الصاعدة.

منها المجتمع، وهو يخطو أولى خطواته في طريقه الصاعد إلى حياة أفضل وعيش أسعد، ولن يصل إليهما المجتمع، إلا إذا كانت وسائله مشتقة من المثل العالية والاتجاهات الكريمة.

ثم أين لجنة النصوص في الإذاعة، إن من حقها أن تطالب بألا تُذاع أغنية إلا إذا أجازت نصها، وربما قال، وماذا تصنع لجنة النصوص في أغاني الحفلات الخارجية، إن من حقها أيضًا أن تطلبَ نصوص كل أغنية ستذاع في هذه الحفلة أو تلك، وتراجعها، ثم ترفض إذاعة أي نص ينحرف في معناه أو مبناه عن الأداء السوي.

(٤) لغتنا .... رمز قوميتنا العربية (*)

ظاهرتان تبعثان المرارة في نفس كل مواطن غيور، على عروبته وقوميته وكرامته، هاتان الظاهرتان تأخذان مجالهما في الإقليم الجنوبي من الجمهورية، وأقول... الإقليم الجنوبي.... ذلك؛ لأنني لم ألمح لهاتين الظاهرتين ظلًا في إقليمنا الشمالي[1]... لا في المدارس، ولا في الجامعة، ولا في دواوين الحكومة، ولا في دور السينما... ولا حتى في البيوت.

هاتان الظاهرتان اللتان مَكَّنَ لهما الإدعاء الفارغ، والتثبت بالمظهر المعيب... وقصور المدرسة والجامعة، عن النهوض بالرسالة الأولى المرجوة، من بين رسالات الرواد العاملين في ميادين التربية والتعليم... تلك التي تستهدف إعداد جيل صاعد، متوثب، حريص على إنماء رصيده من العِزّة القومية والإباء العربي، والكرامة الوطنية.

هاتان الظاهرتان... تتمثل أولاهما في ضعف مستويات أبنائنا الطلبة، في مادة اللغة العربية، ذلك الضعف الذي يَنْدَى له الجبين، وتذهب نفوسنا حسرات عليه.

إن على القائمين بتدريس مادة اللغة العربية، وآدابها، وتاريخها أن يضعوا في اعتبارهم الأول، وأن يجعلوا قصارى همهم أن يهيئوا ويفتحوا مغاليقها، لا ليروضوها

(*) نشر بجريدة المساء في الحادي والثلاثين من يوليو عام ١٩٦٠م.

(١) الإقليم الجنوبي هو مصر، والإقليم الشمالي هو سورية، زمن الوحدة بين الإقليمين، إذ كانا ينضويان تحت الوحدة، ويشكلان معًا الجمهورية العربية المتحدة.

على تفهم النصوص، واستيعاب القواعد، وشرح المفردات، والكشف عن أسرار الصور البيانية، وروعة الأساليب البارعة، والأخيلة الصافية، والتشبيهات الدقيقة.. إلخ.. ولكن ليلقنوهم.. أن المبادئ العليا، والمثل الخالدة في حياة العرب، لم تستمد أسباب حياتها إلا من لغتنا العربية، التي هي من أعرق اللغات، ومن أسبقها حياةً على هذا الكوكب الذي نعيش فيه، وإنها تلك اللغة التي تنزلت بها أشرف رسالة، نَفَحَتْ مادية الأرض بروحانية السماء، ولقد جمَّعت هذه المبادئ والمثل أسباب حياتها، وصاغت منها وجودنا المعنوي والروحي، عبر الأزمنة والعصور.

ثم إن هناك حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، تلك هي أن لغتنا العربية، كم واجهت بمشاعلها على الطريق، جحافل الظلم والظلام، في أحلك الليالي وأقساها، فصارعتها حتى قهرتها، وفرت أمامها هذه الجحافل دامية الجراح، مثقلة بأعباء الهزيمة، وسوء المنقلب.

ولقد كانت اللغة العربية طليعتنا، في زحوفنا الحاشدة المنتصرة، التي تهاوت أمامها عروش القياصرة والأكاسرة، وتصدعت أمامها قلاع الروم، واندحرت قوى اليهود، واستخذت نِيران الصليبيين.. هذه الانتصارات التي يحفل بها وبمثيلاتها سِجل لغتنا العربية، هي الذخائر التي ينبغي أن يفتح المدرسون والأساتذة عيون أبنائنا عليها؛ لتستقر في أخلادهم القيم العالية، والمثل الرفيعة، والمكاسب الضخمة، التي حققتها اللغة العربية لشعوبها...

وأساتذتنا إن فعلوا ذلك – وهم لا شك فاعلون – سيلمسون التجاوب السريع بين أبنائنا الطلبة، وبين لغتهم العربية، وتاريخها الزاخر بأعظم المواقف، وأخلد الأمجاد، وأساتذتُنا يعرفون هذا وأكثر منه حق المعرفة، كما أنهم عاصروا ويعاصرون مع أبنائهم، تلك المعارك التي التحمت فيها اللغة العربية، مع أشرس أعدائها ضراوة وقرصنة، واستبدادًا، فكتب الله لها الغلبة والنصر عليهم جميعًا، وما زالت تنتقل من نصر إلى نصر، ومن مجد إلى مجد، تحت راية رائد قوميتنا، وصانع تاريخها، وبطل معاركها المظفر رئيسنا جمال عبدالناصر، المتحصن بعزة قوميته وعروبته، والمتسلح بشرف مبادئه ومثله، والمؤمن بأن لغة الدستور الأول الذي كتب الله بها آياته البينات المنزلة بلسان عربي مبين.. هي الأمل العتيد في صيانة مكاسبنا القومية، وتراثنا الباقي على الأيام.

هي الطاقة التي لا تنفد حيويتها، والتي ستظل النبع الدافق، الذي يرتوي منه العرب، كلما حميت ميادين كفاحهم ونضالهم، وإصرارهم على أن يَحْيُوا حياة حرة كريمة، تليق بماضيهم العظيم، وتبني مستقبلهم المنشود.

... هذه لمحة سريعة تتوارى في بريقها أولى هاتين الظاهرتين. أما الظاهرة الثانية، فيتضح خَطُّها العريض، في منطق «الببغاوات» أولئك الذين «يَتقمَّمُون» طائفة من الألفاظ الأجنبية، ويحرصون على ترديدها؛ ليشيروا إلى أنفسهم في تخلع وتنطع، بأنهم يحيطون علمًا بلغة المستعمرين، فيشوهون بهذا القبح جمال لغتنا السمحة، وجلال قدرها الكبير.. وقد يكون هؤلاء المتشدقون بهذه الألفاظ، من لغة الاستعمار والمستعمرين، قليلي الحصيلة من هذه اللغات ومن آدابها، وليس وراءهم مِنْ دافعٍ إلى الغرور، وسوء الفهم لمعاني المدنية والحضارة، وأن المدنية الحقة والحضارةَ الصميمة للمواطن الصالح، الذي يستحق شرف المواطنة، لتألف من عناصر إحساسه بعزته القومية، وكرامته الوطنية، اللتين تنجلي ملامحها الأصيلة في الإطار الكريم من اللغة الوطنية. وأن مع قلة الوفاء للوطن، وجحود حقه المقدس على المواطنين عدم التعصب للغة الوطنية، التي تمثل الركن الركين، الذي يفزع إليه الوطن، حين يمتحن في حريته، وكرامته، واستقلاله.

.. ثم يا ترى أيوصف بغير الخيانة من يَمْتَهِنُ لغة بلاده، ويصبح مِعْولًا هدامًا، يضرب جدار هذا الركن، حتى يهتز أو ينقضّ!!

.. إنه ليبدو أننا ما زلنا نعاني أذى «بقية باقية» من أنصاف المثقفين والحَمْقَى المتحذلقين، الذين يعانون بدورهم أذى مركبِّ النقص، المستكن في عقولهم الفارغة، وأحلامهم الطائشة، في فرض ألفاظ كالصوت الناشز في الألحان الموسيقية لألفاظ لغتنا العربية، وَهْمًا منهم بأن ذلك يخرطهم في سلك المثقفين والملمّين بلغات الأمم الراقية.

وربما كنا نلتمس من هؤلاء بعض العُذْر، لو أن لغتنا فقيرة في ألفاظها، أو أساليبها، أو مشتقاتها.. لكنها لغة ثرية واسعة الثراء، غنية عريضة الجاه والغنى،

مرنة شديدة المرونة والطواعية، أسهمت بأوفى نصيب في تاريخ الحياة والإنسانية، ثُمَّ هي ذات تراث عامر بأخصب ألوان العلم والمعرفة...

وإننا لنأمل أن يتأسى إقليمنا الجنوبي الإقليم الشمالي في التمسك بلغتنا العربية، والتعصب لها؛ لنظل كرامًا على أنفسنا، وعلى وطننا العزيز.

(٥) المخطوط العربي.. نقطة بداية.. فى خطة التنمية الثقافية(*)

أذِنَ اللهُ بقيام ثورتنا الرشيدة، التي حركت الشعور القومي، وأيقظت الوجدان العربي من غفوتهما، فانطلقت القومية العربية عملاقًا قويًا، يدفع العرب بكلتا يديه، في سائر مجالات العلم والعمل والبِنَاء، وزَخَرَ مجالُ العلم والمعرفة بالنور المتدفق من منابع ذخائرنا العلمية والأدبية.

غير أن المخطوط العربي ما زال كَمًّا مهملًا، لم ينل من الرعاية الشاملة ما هو جدير به، من حيث كونه ثقافة، سبقت كثيرًا من الثقافات الرفيعة، التي علَّمت الإنسان كثيرًا مما لم يكن يعلم، وكانت المعِين الفياض، الذي أطفا ظمأ الأرواح والعقول، ثم علينا أن نُعْنَى بأمر هذه المخطوطات أيضًا، من حيث كونها أثرًا لعلمائنا الذاهبين، الذين كانوا أساتذة سبَّاقين في مضمار العلوم والمعارف.

والمخطوط العربي بهذه المثابة، ينبغي أن يكون نقطة بداية، في خُطَّةِ التنمية، الثقافية... فنحن أمة ذات أبعاد تاريخية عديدة، وأن تاريخنا ليحفل بأمجاد علمية ترتكز على ثقافة جذرية عميقة، تضرب في أخصب أرض، أنبتت العلم والعلماء، منذ أن عرفت الحياةُ القيمَ العلميةَ العريضةَ، والقدرات الذهنية المتفوقة...

وأن من قلة الوفاء لأنفسنا، ولجيلنا الذي نصنعُه على أعيننا... ثُمّ لهؤلاء الأعلام

(*) نشر بجريدة المساء في الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٠م.

السابقين، كابن سينا، وابن الهيثم، والفارابي، وابن طفيل، وابن رشد.. أقول من قلة الوفاء لهؤلاء ولغيرهم من صفوة الأدباء والشعراء والأئمة الثقات، أن نُغْفِل آثارهم الخطية، التي تحتفظ بها المكتبات ودور المخطوطات في سائر بلاد العالم.

.... ومن الغَيْرَةِ على تاريخنا العلمي الزاهر، أن نَجِدَّ في جمع هذا التراث المبعثر، في مختلف جهات الدنيا؛ لأنه رصيد ثقافي ضخم، ومن المؤسف أن يظل بعيدًا عنا، ونحن أولى به وأحق، ولا بد من المبادرة بالعمل على نشره، وصيانته والإفادة منه، فهو قاعدة علمية متينة، يجب أن نُرْسِي عليها جدار الصرح العلمي الذي نُشيّده.

وقد أتيح لي أن أطلع على نسخة من «الكتاب العربي المخطوط» الذي أصدرته جامعة الدول العربية، فكان أُولى ثمرات معهد المخطوطات الذي أنشأته الجامعة، لجمع التراث العربي من سائر مظانه، وتبويبه، والتعريف به، وتزويد العلماء والباحثين بما تشمل عليه صفحاته؛ للانتفاع به في تحقيقاتهم ودراساتهم.

وَحَسَنٌ جدًا أن تنشئ الجامعة هذا المعهد، وحسنٌ كذلك أن تخرج للناس هذا الكتاب الفاخر الأنيق، عارضة فيه تاريخ الكتاب العربي المخطوط، هذا حسن كله، لو أن الجامعة مكّنت المنشغلين بدراسة المخطوطات من اقتناء هذا الكتاب بالسعر الذي تقدره، والذي يجعله في استطاعة من يريدون الإفادة منه، ومن بين هؤلاء: الطالب، والموظف محدود الدخل، وغيرهما ممن يُعْنَوْنَ بهذه البحوث، ولا يُقبِلون على شراء كتب مرتفعة الأسعار.. لَمْ تصنع الجامعة شيئًا من هذا، فلا هي حددت للكتاب سعرًا، ولا هي أهدته لمن يطلبه، أو لعلها قدمته لمن لا يحتاجه، كأنه قطعة «موبيليا» دقيقة الصنع، أو كأنه لوحة زيتية تزدان بها جدران غرف الاستقبال، والكتاب فيه «شيء» من هذا فهو من القطع الكبير، فيه بريق ولمعان، وفيه صور ورسوم، تَسُرُّ الناظرين من غير العلماء والباحثين، هذا من حيث الشكل، أما الكتاب من حيث الموضوع، فهو ينتظم تاريخ المخطوط العربي.. حتى القرن العاشر الهجري، وقد اشتمل على النماذج المنتقاة من مختلف بلاد العالم، تلك التي جمعها، وعلق عليها الدكتور صلاح الدين المُنَجِّد، مدير المعهد... والرأي عندي في هذا الكتاب، كواحد من بين المشتغلين بهذا اللون من الدراسة، أن الجمع والتعليق «شيء» غير هذا الذي صنعه السيد مدير المعهد... وإلا فما معنى أن يكون كل تعليقه مثلًا على «اللوحة رقم ٣٤» من نماذج القرن

السادس.. سطرًا واحدًا.. نصه «خاتمة شرح كتاب أرسطوطاليس للفارابي المتوفي سنة ٣٩٩ هجرية - ٩٥٠م من نسخة كتبت سنة ٥٣٨هـ - ١١٤٣م. إسطنبول. أحمد الثالث ٣٤٣٩. معهد المخطوطات».. أو أن يعلق سيادته على ما اشتملت عليه الصفحة المقابلة «اللوح رقم ٣٥».. فيقول في سطر ونصف «عنوان الجزء الأول من كتاب الصلة لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨هـ[1] - ١١٨٢م من نسخة ٥٦٠ هـ. - ١١٦٥م بخط أندلسي بقلم أحمد بن على. وقد قُرئت على المؤلف. إسطنبول فيض الله ١٤٧. معهد المخطوطات»..

... هذه هي التعليقات التي تحتاج إلى تطبيقات.. لتوضحَها وتزيلَ اللَّبْس عنها، ولا تدع القارئ في تِيهٍ وحيرةٍ... كنت أفهم مثلًا أن يعيد الدكتور المُنَجِّد، نشر كل نص خطي مصور، بحروف مطبوعة في الصفحة المقابلة؛ ليضع أمام القارئ الفروق الخطية، بين أجزاء المخطوط التي حذفها، والتي استبقاها، وأن يزيد في التطبيق، بما يُعْطِي صورة كاملة، عن تاريخ أو حياة صاحب المخطوط. وأمر آخر أحب أن أشير إليه، قبل أن أختتم هذه الكلمة السريعة، وهو إذا كانت الجامعة قد استطاعت العثور على عشرين ألف مخطوط عربي نادر، فأين هي هذه المخطوطات؟.. أترى الجامعة أصبحت قريرةَ العين بعد أن جمعتها من مشارق الأرض ومغاربها، ثم رصتها في متحفها «الأثري» الذي تسميه «معهد المخطوطات».. نحن لا نريد أن نوقظ هذا التراث القديم من مضجعه، في دور الكتب والمخطوطات، ثم نحمله إلى مرقده الأخير عندنا.....

.... إن جيلنا الذي نرسل مبعوثه في هذه الأيام، إلى جامعات أوربا وأمريكا، والشعوب الشرقية الصديقة؛ ليتطلع إلى تراثنا العربي القديم، لينهلِ من ينابيعه الزاخرة الفياضة، ليصوغ من طاقاته العلمية - تليدها وطريفها -إطارَ خُطَّةٍ التنمية الثقافية الشاملة.

---

(١) ابن بشكوال : هو : خلف بن عبدالملك، صاحب كتاب (الصلة) في تاريخ رجال الأندلس، وله أكثر من خمسين كتابًا، الأعلام للزركلى ج٢ ص٣١١.

(٦) الوحدة... وأدبنا المعاصر![*]

قال رائد القومية العربية، وقائد كفاحها المقدس، الرئيس جمال عبدالناصر، في مستهل خطابه الذي ألقاه في حشود المواطنين الغفيرة، التي زَخَرت بها ساحة الجلاء بدمشق حين خَفَّت[1] لتحية البطل العظيم، الذي جاء ليشارك الإقليم الشمالي، أفراحه ومباهجه، في أعياد الوحدة... قال... هذه الوحدة أيها المواطنون، ليست إلا ثورة، وإننا نعيش في هذه الثورة الهادرة، القوية، في هذه الثورة السياسية، والاجتماعية، في هذه الثورة التي صممتم عليها، لتكون انعكاسًا لقلوبكم، ولإرادتكم ولأرواحكم...

وأنا أريد أن أتجه بهذا الاستهلال الرائع، إلى أدبنا المعاصر، شعره ونثره، وأصوغ منه سؤالًا، أهمِسُ به في آذان أدبائنا الأعلام، وشعرائنا النابهين، الذين يعاصرون هذه الوحدة، التي انبثقت عن ثورة عارمة، هَزَّت كياننا السياسي، الذي كان يترنح تحت أقدام الاستعمار والمستعمرين، وزلزلت بناءنا الاجتماعي، الذى كان يتهاوى تحت ضربات الإقطاع والإقطاعيين... ثم جاءت هذه الوحدة، امتدادا لهذه الثورة فكانت ثورة أخرى، ناضلت أعداءها في الداخل والخارج، نضالًا مريرًا، انتصرت فيه هذه الجمهورية انتصارات ساحقة في سائر الميادين،

.. أما ... السؤال... فهو.. هل هذه الوحدة الثائرة، انعكست بمذاهبها السياسية،

(*) كان هذا المقال ضمن أوراق الغزالي، المكتوبة بالآلة الكاتبة، بلا تاريخ محدد، لكتابته.

(١) خفت: أسرعت بالتحرك.

والاجتماعية، على قلوب أدبائنا وشعرائنا، وعلى أرواحهم، فانفعلوا بها، وتجاوبوا معها؟ أو بتعبير أدق وأوضح، هل تأثر أدبنا المعاصر بالوحدة، عبر هذه السنين الثلاث، أم انتفض انتفاضة العصفورَ بلَّلهُ القطر،[1] ثم أطلق الأدب جناحه، من شعر ونثر، وَسَبَح في أجوائه الحالمات، كما يُطْلِق العصفور جناحيه، ويحلق في آفاقه البعيدة..

والجواب الصحيح.. أن أدبنا المعاصر – إذا صَرَفْنَا النظر عما قيل في الوحدة من شعر ونثر، لشعراء صاعدين وأدباء سباقين...

الجواب الصحيح، أن هذا الأدب انفصل عن الوحدة، وانعزل عنها، بعد فترة قصيرة حياها خلالها، وكأنها مناسبة خاطفة، أو حادث عابر، وليست الوحدة كذلك، ولكنها تاريخ وافد على أطلال تاريخ انطوى، وشمس تشرق على ظلمات ليل هارب، وقد أذن الله لها أن تشرق ؛ ليصحو العالم العربي من رقدته، وليهب النيام من مخادعهم، ولتعودَ القومية العربية سيرتها الأولى – أيام الناصر صلاح الدين الأيوبي!!

ولعل أدباءنا الأعلام في الإقليمين، الذين ظلت أقلامهم بمنأى عن هذه الوحدة، فلم يسجل واحد منها أحداثها الكبار في كتاب، وكذلك ظَلَّ الشعراءُ الشيوخ العباقرة في أبراجهم العاجية، لم يصدر لواحد منهم ديوان، أو جزء من ديوان، تموج صفحاته بخواطرهم في الوحدة، أو تتغنى قيثاراتهم بأهدافها».

وهؤلاء الأدباء والشعراء المرموقون، يعرفون قبلَ غيرهِمْ، أن الأدب في مستواه، المتواضع أيام صلاح الدين، تأثر بالوحدة، وانفعل بها شعراء ذلك العصر، وكتب فيها الأدباء آثارَهم القيمة، على قدر طاقاتهم في الأسلوب، والأداء، وطرق التفكير، وكانوا حول مواكب صلاح الدين المنتصرة، يكتبون وينشدون وقد أسهبوا وأطالوا، في الكلام عن الوحدة، يوم التأم شمل العرب في عقيدة واحدة، وإيمان مشترك.

كان هناك العماد الأصبهاني، صاحب كتاب «البرق الشامي[2] الذي ضمنه

---

(١) القطر: المطر.

(٢) يجمع كتاب «البرق الشامي» بين الأدب والتاريخ، وهو في سبع مجلدات (يراجع كتاب الفتح القدسي) للعماد الأصبهاني ص٧، تحقيق/ محمد محمود صبيح – طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر.

قصائد الشعراء، في معارك الوحدة العربية العريقة، وكان هناك القاضي الفاضل، الذي كان يقول له صلاح الدين... «أنت كاتبي ووزيري»..

وكان هناك الشعراء الذين سجلوا انتصاراتِ هذا العصر أروعَ تسجيل وأبرعه، من أمثال ابن الساعاتي، صاحب القصائد الجياد، في معركة طبرية، وبيت المقدس، وأسامة بن منقذ، الذي أسهم بشعره وأدبه في تطوير الحركة الأدبية، أيام صلاح الدين، وهكذا كان الأدب - شعره ونثره، من أفتك أسلحة المعارك في ذلك العهد، كما كان السجل الحافل الحاشد بالكفاح والنضال في سبيل وحدة العرب، وانضوائهم تحت لواء العروبة الخفاق....

هذا ما كان من شأن الوحدة العربية في عهد صلاح الدين، مع الأدباء والشعراء، أما في هذه الأيام التي نعيشها... فلم تَثِرْ الوحدة مواهب شعرائنا الأعلام، أو عقول أدبائنا الفحول، اللهم إلا لمسات سريعة عاجلة لهؤلاء الصفوة، وخطرات من هنا وهناك للصف الثاني والثالث من أدبائنا وشعرائنا الطامحين المتوثبين.

لقد كان من شأن هذا الحادث الضخم، حادث الوحدة، أن يفجّرَ في قلوب وجوانح هؤلاء الشعراء والأدباء ينابيع العواطف القومية، والوجدانات الوطنية، والمشاعر الإنسانية؛ لتفيض بالخير والحق والنور، بين أيدي هؤلاء المكافحين، من أبناء هذه الجمهورية، الذين اندفعوا وراء خُطَى قائدهم الملهم، فوق طريق الحرية، والكرامة، والعزة.

كنا نتمنى على شعرائنا الكبار، وأدبائنا الأفذاذ، أن ينفرد ديوان بأشواق الوحدة، أو كتاب يرسمُ أهدافَها، إن شيئًا من هذا لم يحدث، وظل رواد الشعر وقادة الفكر بمعزل عن أحداث الوحدة الجسام، التي صارعناها، ومازلنا نصارعها، ولا بد أن يكون قُرّاء الشعر عندنا، تحضرُهم الآن أسماء شعرائنا الأعلام، الذين بَعُدت بهم مواهبهم، عن معارك الوحدة التي مزقت أوصال المستعمرين، وأرّقت جفونهم، وأقضَّتْ مضاجع العملاء والسماسرة، وإن أذاع بعضهم شعرًا أو أنشده مثلًا، فهو يجتر من قديمه العريق.

أذكر وأنا في دمشق أثناء انعقاد مؤتمر الشعر الأول أنني داعبت شاعرًا كبيرًا «جدًا».. من شعراء الإقليم الشمالي، بعد أن فرغ من إلقاء قصيدته الطويلة، وقلت له: إنني سعدت بهذه القصيدة مرتين أولاهما من عشر سنين حين نشرت في إحدى المجالات الأدبية بمصر، والمرة الثانية في هذه الليلة، فأدرك الشاعر العجوز ما أرمي إليه ونقلني بلباقة إلى موضوع آخر.

وهكذا ظَلَّتْ معاني الكفاح والتضحية التي جسدتها هذه المعارك التي خضناها ورَوَّينَا ثراها[1] بدم شهدائنا، وزرعناها بجماجم أحرارنا الأبطال «ظلت هذه المعاني وقصصُها بمنأى عن مواهب شعرائنا الكبار، والقادة من مفكرينا المشاهير. أتراهم سيظلون بعيدًا؟ أم سيسقوننا من هذا النبع الزاخر؟

وهذا هو أمل عامنا الرابع فيهم وفي وحدة جامعية رائعة إن شاء الله.

(١) ثراها: ترابها.

ثانيًا : المقال الاجتماعي:

(١) زَحْزِحُوا هذا الكابوس... الجاثم عن صدور الطلبة(*)

لا أدري، أشر أريد بهؤلاء الطلبة أم أراد بهم ربهم رشدًا، حين فُرِضَتْ عليهم أخيرًا هذه الأنظمة الحادة الجامدة للامتحانات، في سائر مراحل التعليم، ولست أزعم لنفسي خِبْرَةً، أو دراية أو إلمامًا واسعًا، بشؤون التربية والتعليم، وسأتناول هذا الموضوع من زاوية خاصة، سأتناوله بوصفي أبًا يعيش مع أولاده في تجربة قاسية موسمية، تأتي كل عام حين تُقْبِل الامتحانات، بمخاوفها وهواجسها، ونار صيفها الموقدة.

وأنّ الشر الوبيل الذي يُدَمِّرُ الاستعدادات الطيبة، وينسف الطاقات النامية ويحطم معنويات هذا النشء الموجود، لغدنا المأمول، لهو الخوف والرعب والفزع، تلك التي جَلَبَها سوءُ الامتحانات وفوضى أنظمتها، وليس معنى هذا أن المدرسة أو المدرس هما المسئولان وحدهما عن الحالة المؤسفة، التي انحدرت إليها مستويات الامتحانات، وإنما هما الجهتان اللتان تمثلان شتى المآخذ وأوجه النقص، تلك التي تنتهي بالطلبة إلى أبشع المهلكات، وأخطر العلل، إلى الخوف من شبح الامتحانات، والاستسلام لهذا الخوف، وسأعرض هذه المآخذ وأوجه النقص عَرْضًا سريعًا، سواء منها ما يتصل بمرحلة التعليم الأولى، أو بمراحله النهائية، وسنرى أنها تصب جميعها في نهر الخوف العميق، الذي تَطْوِي أمواجُه الرهيبة عقول أبنائنا الواهنة

(*) نشر بجريدة المساء في الحادي والعشرين من مايو عام ١٩٦٠م.

وأجسامهم المكدودة وأعصابهم المتوترة، وحينما نُوفَّق إلى إزاحة كابوس الامتحانات الجاثم على صدور الطلبة وننقذهم من براثن الخوف والقلق والسهر المضني، عندئذ سنُخْرِج للناس خير الأجيال صحة وعلمًا واستعدادًا.

وأريد قبل أن يتشعب بي الحديث أن أوجز للقارئ قصة مثيرة مؤلمة؛ ليعرف مدى فداحة الكارثة، التي تنجم أحيانًا بسبب الامتحانات، وجمود أساليبها و «فروسية» من بيدهم زمامها.

شهد هذه القصة ورأي بطلها وهو على خشبة المسرح وزير التربية والتعليم التنفيذي، السيد أحمد نجيب هاشم، وكان ذلك في مثل هذه الأيام من العام الدراسي الماضي، وبطل هذه القصة هو التلميذ المتفوق الموهوب – أحمد عبدالفتاح – يعرفه وزير التربية والتعليم منذ عام ويعرف قصته، وقد تألم من أجله ألمًا مُرًّا وأسف عليه أسفًا شديدًا، وأمر حين فاجأ المدرسة التي كان «أحمد» يُمْتَحن فيها بأن تُقَدَّم له كل المساعدات الممكنة، ولم تُجْدِ هذه المساعدات شيئًا، ولم تستطع الأقدار أن تنقذ «أحمد» من شراسة الامتحانات وبطشها، وذهب البطل ضحية، ورفضت القوانين الموضوعة أن تستثنى الموهبة الأصيلة التي تعثرت في طريق الامتحان، ولا يد لها في هذه العَثَرَات....

ولست أذكر على وجه التحديد، أي العلوم التي ارتجَّت لها أعصاب التلميذ هذه الرّجة العنيفة، التي ظل نَحْسُها يلازمه، حتى انتهى به إلى المصير[1] الذي أرجو أن يجتازه ويلتقي بتعليمه الجامعي إن شاء الله، ومنذ أن أصيب بهذه الهزة العصيبة، حتى آخر عامه الذي فُصل من بعده، وقعد في بيته وهو يظفر في أعمال السنة بأكبر الدرجات، وأحسن التقديرات، فتقديره ممتاز دائمًا، أما حين تقترب ساعات الامتحان الأولى فهو يقترب سريعًا من شاطئ نهر الخوف، حتى إذا وقف على الشاطئ وأُلقيت إليه ورقة الأسئلة، وضمته الغرفة الصامتة، وسُلطت عليه عين الرقيب اليقظة، انهارت قواه، وتحجرت يداه، وَعَجَزَتَا عن أن تقيم القلم على الورق، وذهب في غيبوبة عميقة الغور، بعيدة القرار.

(١) وهو الخروج من المدرسة والإقامة في البيت والاستعداد لدخولها الامتحان التوجيهي (بعد الثانوي) لذا تأخر فيه، بعد أن كان متقدمًا في المراحل السابقة، وذلك كما جاء في أصل المقال.

أيدري القارئ ما حقيقة السر الكريه المستكن وراء هذا البلاء العظيم؟.. السر أن هذا التلميذ النجيب، صادفه أول ما صادفه سؤال أو سؤالان في مادة اللغة العربية، في امتحان التوجيهي، عام ١٩٥٨م، وكانت طريقة صياغة السؤالين ملتوية غامضة لم يستطيع أن يفك طلاسمها، أو يفهم رموزها، فأُسقِط في يده، ودارت الدنيا من حوله؛ لأنه يعلم أن ليس هناك «ملحق»... هكذا يقضي نظام الامتحانات الجديد، أضف إلى ذلك هذه الغيوم الكئيبة التى تملأ آفاق نفسه وعاطفته، فهو لا ينتظر أملا في «ملحق»، ولا يطمح في استثناء.. وهذه محنة سُقْناها على سبيل المثال، ولا يفي الحصر والتعداد بإحصاء مثيلاتها وهي كثيرة ومتعددة.

انزعوا بذور الخوف والقلق التي تُلْقُونَها فوق صفحات هذه النفوس الخصبة، وهذه الضمائر الفتية، لأنها لا تُثْمِر إلا الضعف والجبن وانحلال العزائم.

وضعوا مكانها بذور الثقة والطمأنينة، فهي تثمر القوة والشجاعة، وشدة المراس... يفكر التلميذ ويطيل التفكير ماذا سيكون مصيره لو أن الحظ تخلى عنه، ولم يحصل على النسبة المقررة وهي ٤٠٪ من مجموع الدرجات في امتحان «الثانوية العامة» مثلًا، أو حصل على هذه النسبة، ورسب في أكثر من علمين، أو وقعت الواقعة وحدثت الطامة الكبرى، وتخلف في مادة اللغة العربية، وهو على حافة التعليم الجامعي، وتجمد مكانه؛ لأن رسوبه في «العربي» لا معقب عليه، لِمَ لا يعاد النظر في هؤلاء الذين يشاء لهم سوءُ الحظ أن يفشلوا في هذه المادة، فقد يكونون من المتفوقين في غير كلية الآداب مثلًا؟.

ثم لِمَ لا تكون المدرسة أكثر بِرًا ورعاية فتضيف نصف درجات أعمال السنة، التي يحصل عليها التلميذ إلى نتيجة اختبارات شهر مايو؟، وهي اختبارات هذه الامتحانات الدائرة في هذه الأيام، وبذلك تزيد المدرسة فرص النجاح أمام الطلبة، وهناك وسيلة أخرى من وسائل العلاج للارتفاع بنسبة النجاح في هذه المرحلة من التعليم، لا أريد أن أغفلَها، وهي ذات شأن وخَطَرٍ كبيرين.

لحساب مَنْ هذا العنت في طريقة أداء السؤال وصياغته، واختيار مادة الإجابة المترامية الأطراف، التي لا تشير إلا إلى المقدرة البليدة - إن صح هذا التعبير

– على قوة المحافظة، واستيعاب النصوص من غير فهم أو وعي أو حركة ذهنية متألقة، إننا لسنا في حاجة إلى أن نُحَوّلَ أبناءنا إلى إسطوانات، نعبئها بالكلام، أو نجعلَها أشرطة نُسَجِّلُ عليها المواد، أو أن نؤلف من مدارك هؤلاء الطلبة نُسَخًا من الكتب نَجْتَرُّ ما فيها، على أوراق الأجوبة في مواسم الامتحانات، ولن يقل نظام الامتحانات في التعليم الجامعي سوءًا عن هذا النظام الذي استفاض بنا الحديث عنه.

فنظام الامتحان على فترتين نظام ثَبُتَ فشلهُ، بما لا يقبل جدلًا أو نقاشًا، فالفترة الأولى يُمْتَحن فيها الطالب في الرُّبْع أو الثُّلثُ من مجموع المواد، فإذا كانت المواد تسعًا فنصيب الفترة الأولى ثلاث والثانية ست وهل ثمة ما يمنع من أن تتساوى الفترتان مناصفة، ليتمكن الطالب من استذكار دروسه وحذقها وإساغتها، ثم ما هذه الكثرة المرهقة في العلوم؟..

أليس يُدْهَش القارئ، إذا علم أن الفرقة النهائية في الحقوق بجامعة القاهرة يدرس طلبتُها خمسة كتب في علم واحد؟ وهو «القانون التجاري» وتصل صفحات بعض هذه الكتب الخمسة التي تتناول علمًا واحدًا، ألف صفحة، فإذا تَمَلْمَلَ الطلبةُ من كثرة هذه الكتب، أجاب الأستاذ «إنه يكفيني أن ينجح عشرون أو ثلاثون من مجموع عددكم» وهل يعرف القارئ نسبة هذا الاكتفاء المتواضع للأستاذ.. إلى مجموع الطلبة. إنهم ٩٥٠ «تسعمائة وخمسون طالبًا» وهذه الكتب في الفن الواحد تعادل ما يدرسه أمثالهم في جامعات أوروبا في جميع المواد من حيث الكمية.

فَرِفْقًا بالأبناء والآباء، أيها المربون الحكماء، وارحموا مَنْ في الأرض يَرْحَمْكم من في السماء.

(٢) نريد صحافة بنَّاءة لمجتمعنا الجديد(*)

... من أجل هذه الإدارة استجاب القائد للشعب، فمَكَّن له[1] صحافته ورَكَّز مِنْ حوله وسائل الإعلام والتوجيه والرأي، ونقل إليه ملكية هذه الوسائل، فخلصه من سيادة الفردية وضراوة أصحاب رءوس الأموال وتسلطهم البشع على مقدسات هذا الشعب ومقدراته، حتى لم يبقَ مما نسميه، حرية الصحافة إلا ألفاظٌ فارغة من مفاهيمها، وكلمات انحرفت عن مدلولاتها.

وطال شوق هذا الشعب إلى حريته السليبة، وحقوقه المهدرة في ميادين الرأي الحر، والتوجيه الراشد.. وكان الشعب يوشك أن يسأل على غير استحياء ما الرأي في هذا النفر القليل الذي أصْبحَ مسيطرًا في انحراف وكِبْر واستعلاء على أجهزة الصحافة ووسائل التوجيه، متربصًا بهذا الشعب ومريدًا لبنائه القائم فوق قاعدته الثورية أن ينقضّ حتى جاء حارسه العملاق، وأقام هذا البناء، وسلم الشعب زمام قياداته الفكرية، بعد أن استكملها، وجعلها ملكًا خالصًا له، يسير على نورها وهداها فهي مشاعل طريقه الصاعد إلى الحرية الأصلية والعزة الكاملة، والبعث الجديد..

وكان أمرًا طبيعًا بعد أن تحددت ملامح هذا المجتمع الديمقراطي الاشتراكي التعاوني أن تلعب الصحافةُ دورًا إيجابيًا فعالاً في تلبية حاجات المجتمع، وتَفَهُّم فلسفة ثورته ؛ لينطلق في طريقه الثوري، لا يلوي على شيء.

وقد رد قائد الثورة للصحافة اعتبارًا أي اعتبار، حين سلكها في خيط واحد مع مجلس الأمة أو الاتحاد القومي، وأنشأ من هذه السلطة الشعبية سياجًا منيعًا قويًا يحمي المجتمع من آفة الرأي المسموم، والتوجيه الزائغ، والإرشاد الضال، ومن أشد المعاول هدمًا وأفتكها تدميرًا لبناء المجتمع، أن يترك حبل جماعة ضئيلة على الغارب، تتخبط في تسيير دفة الأجهزة الخطيرة، من وسائل الإعلام والتثقيف البنَّاء... الريح مالت، مالت هي الأخرى، حيث تميل، وهنا يتمثل الشر المستطير، الذي يهز كيان

(*) نشر بجريدة المساء في الثامن والعشرين من مايو عام ١٩٦٠م.

(١) له : أي للشعب، لرجوع الضمير إلى أقرب مذكور.

المجتمع ويرج أركانه، ولا عاصم له من هذه الهزات إلا إذا مارس الشعب مسئولياته بنفسه، وكان من وسائله المعينة له على ممارسة هذه المسئوليات وتحملها، تنحية سلطان رأس المال على أجهزة الصحافة، تلك التي تعتبر أضخم وأعظم وسائل التوجيه، حين يُراد بناء مجتمع حضاري نظيف.

ولقد زحزح - كمال الدين حسين - القناع الزائف من فوق الوجوه، وأماط اللثام الصفيق عن هذه السوءات والانحرافات، التي كانت تهدد سلامة بناء هذا المجتمع، وربما كانت مهمة إرساء هذا لبناء على دعائم ثابتة، لا تضطرب من تحته، هي التي تراخت بهذه الخطوة الحماسية، حتى آنَ أوانُها وحلّ ميقاتُها وخيف على المجتمع من مهالك الانحرافات الفردية، التي خَشِي قائد الثورة أن تنفَجر تحت هذا البناء، فتطيحَ به، فلم يتوانَ في إضافة مكسب ضخم لسائر المكاسب، التي حققها لهذا الشعب، الذي قاد معاركه السياسية منتصرًا ومؤيدًا من الله، ومسلحًا بالإيمان والثقة والعزيمة والصبر.. وأصدر قراره الذي قضى بأن يمتلك الشعبُ ممثلًا في الاتحاد القومي وسائل النشر والتعبير، باعتبارها جانبًا من جوانب التنظيم الشعبي بواسطة توجيهية ومشاركة فعالة في إقامة صرح المجتمع شامخًا عزيزًا.

ثم أعلن - كمال الدين حسين - في المؤتمر الشعبي بالإسماعيلية أننا في كل يوم يمُرَّ بنا نخطو خطوة جديدة نحو مبادئنا، ونحارب أي انحراف في المجتمع، كما نحارب الاستغلال والانتهازية وخيانة الشعب، وأن أي مجموعة تنحرف سنقضي عليها في الحال، واشتراكيتنا مبنية على المحبة والتعاون، والإخاء والعدالة الاجتماعية، وعدم السيطرة، وليست مبنية على الحقد والضغينة والصراع والطبقات، ولا يمكن أن نقول إننا أحرار بينما يقدر لفئة أن تُبدي رأيها، وتستغل إمكانيات الرأي وحدها، لا يمكن أن تكون هذه حرية، إذا لم يبدِ المجتمع رأيه بصراحة، وكان لابد للشعب أن يمتلك وسائل التوجيه والثقافة والتعبير عن إرادته.

هذا كلام واضح لا لبس فيه ولا إبهام، ومنطوقه ومفهومه يشيران إلى حقائق ثابتة لا تتخلج على شك، و«كمال الدين حسين» كما أعرفه ثائرًا من ثوارنا الأحرار، صريح لا يعرف المواربة، مستقيم لا يعرف الانحراف، مؤمن بوطنه وبمجتمعه، يكره المؤتمرين عليه، أو الذين يريدون أن يتحيفوا حق الوطن والمجتمع، في سيادتهما

على الرأي الفردي والتوجيه الطائفي أن الرأي الذي ينبثق عن أصحاب المصالح الذاتية، لن يُعَبّرُ إلا عن حاجتهم، أما حاجات المجتمع وأما رغباته، وأما أهدافه في استعداده لخوض معركة البناء والقوة والكرامة، فلن يجد التعبير عنها إلا رأي الشعب، مجتمعًا بكل طوائفه وطبقاته.

ومن أجل هؤلاء الذين احتكروا أدوات الرأي والتوجيه والإرشاد، وخشية العبث بمصاير هذا الشعب ومخافة «المقامرة» بحصيلة الثورة التي أودعتها ضمير الشعب، وادخرتها لرفع مستواه، وتوفير أسباب الحياة الحرة الكريمة له، ثَمَّتَ ملكية الشعب لمنابر الرأي ومنارات الطريق ؛ حتى يستطيع أن يحامي عن مثله، ويصفي مشاكله، ويدافع عن قضاياه، وطالما نحن نحث الخُطَى لمعارك هذا الوطن في الداخل أو في الخارج، فلزامًا علينا أن نملأ أيدينا بكل الأسلحة التي تكفل النصر، الذي تعودناه من قائدنا.

ونحن الآن أيضًا ندق أبواب مجتمع جديد، ولا نريد لهذا المجتمع إلا أن يعيش في تجارب، من رأي يصنعه هو لنفسه، وتوجيه يصوغه بإرادته، وإلا أن يفتح بكلتا يديه النوافذ، التي ينطلق منها تيار الخير والبر والعيش الرغيد، ثم نحن الآن نعاني في المحيط الدولي مناورات الاستعمار والمستعمرين، ونواجه في المجال الداخلي دناءة الخيانة، وخسة الجواسيس، وعلى الصحافة وهي تخطو أولى خطواتها على أول الطريق الذي سَوَّاه حارس الطريق العملاق أن تكون عند حسن ظن الشعب بها، بعد أن أصبحت ميراثًا حلالًا مشروعًا، سينفق منه الشعب طوال العصور والأجيال القادمة، على صيانة قيمة المادة ووجوده المعنوي، وعلى كسب معاركه في السياسة والأخلاق والاجتماع.

(٣) من أجل مجتمع نظيف(*)

تحدث الرئيس جمال عبدالناصر في بداية اجتماعه بأعضاء مجالس إدارات المؤسسة الصحفية، ورؤساء تحرير الصحف والمجلات في الأسبوع الماضي، وأفاض سيادته في صراحة ودقة ووضوح عن رسالة الصحافة ودورها الإيجابي البناء، الذي ينبغي أن تنهضَ به في طَوْرِها المقبل من أجل مجتمع جديد ونظيف.

وقد آثر الرئيس أن يحدد الطريق، ويرسمَ المنهج، ويسردَ التفاصيل، من غير أن يفعل ما استمرأته بعض الأقلام، حين كان يركب أصحابها رؤوسهم، ويعكرون أنهر صحفهم بدنس الجنس، ورجس الغريزة، وإثارة الجسد، غير مشفقين على المجتمع، الذي يؤويهم ويعولهم، فيدمرون هم معنوياته، ويحطمون كيانه الروحي بهذا السم الزعاف، الذي تنفثه أفكارهم المسمومة، وتسيل به أقلامهم المضللة.

وقد قال الرئيس «أنا في ٢٣ يوليو وقفت السنة اللي فاتت، وقلت إن فيه مواضيع كذا وكذا، ويمكن الناس أخذتها على أساس أنها خطبة من الخطب اللي بتعدي، أو خطبة من الخطب اللي بتمر» لقد كنت أقصد ما قلت، كنت أقصد أننا إذا أردنا أن تكون عندنا فعلًا صحافة، يجب أن تكون في خدمة الناس في بلدنا، في خدمة مجتمعنا الأصيل الطبيعي، وأن من واجبكم إذا وجدتم أي وضع غير مستقيم أن تنتقدوه، ويجب أن يشعرَ الناس أن فيه نقدًا، وأن فيه عيونًا مفتوحة» وربما كان هذا الحديث الذي استغرق زمنا جاوز ساعتين ونصف ساعة، من وقت الرئيس، والذي أنفقه، في اجتماعه مع المسئولين عن الصحافة والمجلات، ربما كان هذا الحديث هو أخطر حديث من الجانب الخُلقُي في المجتمع، صدر عن الرئيس، لم يَدَعْ فيه صغيرة ولا كبيرة، إلا أحصاها عليهم، ووجههم إليها، في تساؤل جاد، عن حقيقة المجتمع الذي نريده، والذي يمثلنا ونمثله.

(*) نشر بجريدة المساء في الثاني من يونيو ١٩٦٠م، وهو مقال اجتماعي عن وباء «الزار» المنتشر في البيئة المصرية، ولا ندري الداعي لبدء المقال عن جمال عبدالناصر، وكأنه أقحم في بداية هذا المقال إقحامًا.

وقد لمس السيد الرئيس بحديثه في هذا المنحى الجرح الثائر الذي لا يريد أن يندمل في جسم هذا المجتمع، وإنما الأمم الأخلاق، كما يقول شوقي، وأنّ أقْوَى الدعائم وأشدَّها ؛ لإقامة صرح المجتمع وبقائه ثابتًا ومتينًا، لهي الأخلاق التي تقضي على الانحرافات الطائشة، والشطحات المريبة، التي تنهش أعراض هذا المجتمع، في جوع، وجشع واستهتار...

ومن أجل هذا، ومن أجل التعاون على خَلْقِ مجتمع نظيف، أصدر الرئيس قانون تنظيم الصحافة، وأردَفَهُ بشرح الأسباب الذي استواحها، حين عقد العزم على إصدار هذا القانون؛ ليلُمَّ هذا الشتات المبعثر من كيان هذا المجتمع، الذي أساءت فهمَه بعضُ الصحف، وأساءت تصويره بعضُ الأقلام.

والعَجَبُ العاجب أن في هذا الأسبوع بالذات، الذي انشغل الناس فيه بالقانون الجديد للصحافة، وبالحديث الصريح الواضح، الذي أدلى به السيد الرئيس، يقع حادثان مؤسفان في صميم محيط هذا المجتمع، والأمر الذي يثير الأسى والحسرة في هذا الصدد أن صحيفة صباحية نشرت نبأ هذين الحادثين، وقد تمكّنْتُ أنا بسبب هذا النشر أن أشْهَدَ عن كَثَبٍ تخطيطًا دقيقًا للحادث الأول، الذي يتلخص، في أنني لم أضيعْ دقيقة من وقتي بعد أن قرأت في هذه الصحيفة نبأ هذا الحادث، فاتصلت من فوري بصديق يملك عمارة شاهقة مترامية الأطراف في الزمالك، وقلت له هل أطمع في أن أقضي في شرفة من شرفات مسكنك الفخم الضخم ساعة أو بعض ساعة فقال لي صاحبي؛ ليعرف ما بي، أتحب أن تشاهد حفلة الزار في بيت المستشار، قلت... ومستشار!! قال... سابقًا!! فقلت أو.. لاحقًا! فلما رأني صاحبي، وقد أرتُجّ علىّ، وعَقَدَتْ المفاجأة لساني قال: هَوّنْ عليك، فسترى حقائق أغرب من الخيال، أتذكر للمرحوم مصطفى صادق الرافعي موضوعًا خلع عليه عنوانًا رائعًا خبيثًا؟ أتذكر هذا العنوان؟ قلت له، لعلك تقصد مقاله الذي عنوانه «استنوق الجمل» فقال ما أحوجَ موضوعَ الليلة، الذي ستمد عينيك إليه طوال الليل، إلى هذا العنوان، مع تعديل قليل في العنوان، وجملة بصيغة الجمع بدلا من صيغة المفرد، ليطابق الواقع، فسترى في حفلة الزار الليلة نياقًا كثيرة استنوقت جِمالُها..

وفي الساعة المحددة كنت أدق باب مسكن صاحبي، وكانت مواكب الليل قد بدأت

تزحف على «الزمالك».. وأذُن لي فدخلت، وقادني صاحبي إلى الشرفة المطلّة على المسكن الأنيق المواجِه لمسكنه، وأشار بيده إلى غرفة واسعة فسيحة، ستُفْتَح بعد ثوانٍ معدودات، ولم يَكَدْ يفرغ من كلامه، حتى فُتحت النوافذ العديدة في الغرفة، وانطلقت الشياطين المعريدة في أجساد هؤلاء النسوة اللائي يرتدين ما خلق الله، وما لم يخلق من أزياء متباينة، فهذه ترتدي زيًا عربيًا من سكان الصحاري، وتلك زي رجلٍ من السودان، وأخرى زي مواطن من تونس الخضراء، إلى آخر هذه الأزياء التي لا أعرف نساء يرتدينها. وسألت صاحبي عن السر في تباين هذه الأثواب، فقال إنها رغبات الجن المستكن في أجسام هؤلاء السيدات زوجات النابهين من رجالنا المثقفين، قلت له. كيف أصدق أن هؤلاء المشعوذات تضمهن بيوت أنصاف مثقفين؟ فقال: أنا لا أعرف شخصيات هؤلاء السيدات، غير أن سائق سيارتي، يعرف جميع سائقي هذه السيارات المحيطة بمنزلي. وبهذا المنزل، الذي ترى فيه هذا الزار، ثم أخذني من يدي، ونادى على السائق فحضر، فسأله لِمَنْ هذه السيارة؟ فأجاب أن سائقها فلان، وهي ملك فلان، «القاضي»، وظل صاحبي يسأله عن البقية، وهو يذكر اسم السائق، ويتبعه باسم صاحب السيارة، فهو مرة أستاذ «جامعي» ومرة «موظف كبير»، وأخرى عالم من علماء الاجتماع والأخلاق.

فالرشدَ الرشدَ أيها القوم، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، كيف تهدأ مضاجعكم من تحتكم، وسيداتكم بين «الكودية» و «وأبو الغار» حتى بعد منتصف الليل؟، أو كيف يطيب لكم السمر والسهر في الأندية أو الكازينوهات وزوجاتكم يرتمين ذات اليمين وذات الشمال، في حركات هستيرية مجنونة، وتخلعات ثائرة مقيتة؟، خَلّصوُا المجتمع يا خلاصة المجتمع ثقافة، وعلمًا، وفطنة من هذا البوار والدمار، إنَّ علينا أن نراقب هذه البيوت، التي تفرخ فيها جرائم خلقية. يندى لها الجبين.

هذا هو الحادث الأول... أما الحادث الثاني فهو موضوع، لي فيه، -رأي- سأعرضه على القارئ في الأسبوع القادم، وأحتكم فيه إلى ضميره الحيّ ووجدانه الشريف، وثقتي أنه سينصفني بحكمة من أجل مجتمع نظيف.

(٤) البيت... المدرسة.. الجامعة...(*)

هذه هي البيئات الثلاث التي يصدر عنها الخير والبر لهذا المجتمع، كما يصدر عنها الخطر والشر اللذان يتهددانه وينحرفان به، عن سواء السبيل، وطالمًا نراقب ضمائرنا، ونبتغي وجه الله والوطن، فننشئ أبناءنا في هذه المراحل الثلاث، تنشئةً ترتكز علي دعائم من التربية الخُلُقية السليمة، ومن القدوات الطيبة، والمُثُل الصالحة، فسوف نُخرج للحياة جيلًا قويًا لا ينحدر ولا يعبث، ولا يهون.

أما حين تغفوُ العيون الراصدة، وتستيقظ الغرائز النائمة، وتنطلق في مجالات هذه البيئات الثلاث آمنة مطمئنة لا تخشى رقيبًا، ولا تخاف رادعًا فهي مندفعة -لا محالة- بالمجتمع كالشلَّال تعمق من تحته الهوة السحيقة وتوسع من حوله الطريق المعّوج.. ثم تنتهي به إلى أسوأ مستوى، وأبشع مصير، والمجتمع الذي نحرص عليه، لأنه يمثلنا ونمثله هو المجتمع الجاد الصاعد، المتطلع إلى أكرم الغايات، وأشرف الوسائل، ومن أجل بناء هذا المجتمع وصياغته من غوائل الهزات والانحرافات، وخشية انفصام العلاقات الوثيقة، التي تشد جوانبه برباط من الخُلُق المتين، من أجل هذا المجتمع تكلم الرئيس جمال عبدالناصر في حديثه الجامع المانع عن الصحافة ورسالتها في مجتمعنا الديمقرطي الاشتراكي التعاوني، وقد عُنى الرئيس عناية فائقة بعرض الجانب الخلقي، وأفاض في هذه الناحية، وشدد النكير على هذه الأقلام التي تعيش على نهش الأعراض وجرجرة الناس إلى التفكير في أحط المستويات.. وقد كان على الصحافة أن تعالج هذا الجانب في نزاهة، وأمانة وعفة،.. وكان من مفاهيم التفاصيل التي وردت على لسان الرئيس، أن بعض الصحف دَرَجَتْ على الترويج لجرائم الخُلُق، وإثارة الجسد عندما استرسلت في نشر الرسوم والصور الكاريكاتورية، التي تبرز المُخْزيات التي تتألف منها المجتمعات الدخيلة علينا، والتي لا نرى فيها أية ملامحَ لوطننا العربي، من قُرْبٍ أو بُعْدٍ، ثم قال الرئيس: إن المجتمع الأصيل لهذا الوطن ليس هو مجتمع النوادي الصاخبة، أو سهرات الليل اللاهية.. ثم تساءل.. لحساب مَنْ تتسابق الصحف في هذا الميدان؟! إن هذه الصورة الزائفة التي تزورها المجلات

(*) نشر بجريدة المساء في الحادي عشر من يونيو ١٩٦٠م.

والصحف تسيء إلى كياننا الخُلُقي، وتدفع أصحاب النفوس المنحلة إلى الاستهانة بالقيم الكريمة بميراثنا العريض في مدخرات الخُلُق والخير، والفضيلة...

وكان على الصحافة أن تستجيب لهذا النداء المدوي، الذي أطلقه الرئيس في صراحة لم تعهدها الصحافة، ولم يتعودها الصحفيون...

ولقد عَرَضْتُ رأيًا لي في هذا الموضوع، وفي هذا المكان من هذه الصحيفة، قبيل عيد الأضحى، وقلت إنه على الرغم من خطورة حديث الرئيس للصحفيين. ومناشدته لهم، أن يُنْصِفوا هذا المجتمع من صحفهم وأقلامهم... فلا يكتبوا إلا لدعم وجودنا الاجتماعي، والوطني القومي، وخاصة ونحن نجتاز هذه الفترة الحاسمة من كفاحنا وتصميمنا ونضالنا من أجل الحرية والعزة والكرامة... قلت إنه على الرغم من حديث الرئيس الذي نفذ من غير شك إلى عقول الصحفيين، وتغلغل إلى أعماق نفوسهم، فقد نَشرت إحدى الصحف الصباحية - في الأسبوع الذي تحدث فيه الرئيس - نبأين لحادثين، من أنكد ما يتعرض له مجتمعنا من أحداث مدمرة: تأكل معنوياته، وتقضي على تراثه في الخلق والكرامة.

وقد كان أحد الحادِثَين موضوع مقالي الذي نُشر في هذا المكان قبيل عيد الأضحى، وَعَدْتُ بأنني سأعرض للحادث الثاني في المقال التالي.. وأحب أن أقدم بين يدي القارئ أننا لو نحسن سياستنا التي ننهجُها في تربية أبنائنا داخل البيوت، بين حجرات المدرسة، وقاعات المحاضرات في الجامعة، لو أننا نأخذ أنفسنا وأبناءنا بنظم مرسومة ومدروسة لحَفِظْنَاهم من الشرور الفتاكة، التي تحطّمُ مثلهم العليا، وتعطل طاقاتهم العامرة، وتنسف أمامهم الطريق المفروش بالأحلام، والأماني وآمال وطنهم وعروبتهم.

ما الذي ينتظره المجتمع من ابن أو بنت مازالا في مستهل الحلقة الثانية، تلك الفترة التي تتحرك فيها نوازع المراهقة وتتهيأ فيها بدوات الجنس، ويتربض فيها نداء الجسد، لينطلق وَيَغْوِي؟! ما الذي ينتظره المجتمع من ابن أو بنت، هذا شأنهما... وقد أجلسهمَا أبواهما إلى جوارهما. يشهدان حلبات الرقص، وقد التحمت الأجسام العارية، وطوقتها الأذرع المتشابكة، بين الهمسات والهمهمات على أبواب الآذان، وفوق

صفحات الخدود... كل ذلك والوالدان «الكريمان» يحتسيان الكئوس الملأى، أو يملان الكئوس الفارغة.

ثم ما الذي ينتظره المجتمع من تلاميذ يَصْحَبُهم مدرسون شبان في رحلات مدرسية ويَغْشُون بهم، أو ببعضهم أندية الليل في الصالات والمسارح.... وَمُحَالٌ أن تسلم مثل هذه السهرات من نزوات رواد هذه المراقص، وعشاق هذه الحانات... ما الذي ينتظره المجتمع من هذه البراعم الباكرة وهي تحبو فوق هذه الأرض الخبيثة؟!..

ثم ما الذي ينتظره المجتمع أخيرًا من طلبة الجامعات أو طالباتها، في أثناء العام الدراسي، تزدحم بالطلبة المشاة المتنزهات العامة، والحدائق المنثورة على ضفاف النيل، ثم الطرق ذات «الكرانيش» وذات المقاعد التي تنتهي عند حدود شبرا والمعادي، وحلوان والهرم، ذي الطريق المشهور المسحور، الذي طَبَّقَتْ شهرتُه الآفاق!..

تزدحم هذه الطرق بهؤلاء الطلبة عابري الحدائق والطرقات، والأمكنة المستورة، وهم يفرون من الناس، لأن أيديهم مشغولة بغير الكتب والمذكرات، أما الطلبة «الميسّرُون» الذين يركبون السيارات تلك التي تغنيهم عن التسكع بها في المنحنيات، أو الخوض بها في ظلام الليالي، فإما أن تظل هذه السيارات محملة بالزاد الحرام، حتى تستنفد أغراضهم!.. وأما أن تفرغ حمولتها في أوكار الرذيلة وعشش الخيانة والإسفاف.

أما ما ينتظره المجتمع من طالبات الجامعات فهذا هو الموضوع، الذي أثار هذا الحديث، والحديث ذو شجون. أسأل عن هؤلاء حفلاتِ الزار، وأصدقائهن من زميلاتهن الشُطَار.. وسَلِ البيوت التي يَعِشْنَ فيها وينزلن بها طوال العام الدراسي.. ثم هل تعرف السيارات ذات الزمارات التي تجيد بعض اللغات، التي لا يفهمها إلا الطالبات.. إن ما ينتظره المجتمع من أولئك الطالبات، هو هذا النبأ الذي وَعَدْتُ القراء به في هذا المقال، والذي نَشَرَتْهُ إحدى الصحف الصباحية في الأسبوع الذي ألقى فيه الرئيس دَرْسَه العميق الدقيق على الصحافة والصحفيين، وحَدَّد فيه معالم الطريق الذي ينبغي أن تسلكه الصحافة؛ لتسهم بفاعليتها البناءة، في خَلْق مجتمعٍ جديدٍ ونظيف.. أما النبأ فهذا نصه... إن الراقصة نجوى فؤاد قد بَدَأَتْ في تكوينٍ فرقة رقص استعراضي من طلبة الجامعة.

أين مديرو الجامعات، وعمداء كلياتها؟ هل لم يجئهم[1] حديثُ هذه الغاشية؟ هل يظلون سُكُوتًا ؛ حتى تفجعَهُمَ الصحف بصورة لرقصة بارعة من راقصة فاتنة من كلية الآداب، ورقصة باهرة من راقصة ساحرة من كلية الحقوق، إلى آخر هذه الرقصات والراقصات!..

ومرة أخرى نردد ما قاله الرئيس: إننا لن نبني مجتمعنا بمثل هذا العبث الفاضح، لأنه ليس مجتمعنا.. إن مجتمعنا الأصيل... هناك في كفر البطيخ.

(١) يجئهم: يأتي إليهم.

(٥) التعاون... حرية... وكرامة...(*)

التعاون حرية وكرامة

.. أما إنه حرية فلأنه يحرر الطبقات الكادحة، ذات الإيراد القليل من سطوة القوى الاقتصادية، ولأنه ينظم توزيع الدخل القومي، ويعمل على استثمار الإنتاج في تلبية حاجات الصالح العام.. ثم إنّ التعاون في أدق معانيه الجذرية الأصلية، تحقيق للأهداف الاقتصادية والاجتماعية، على هَدًى من الديمقراطية الصحيحة، وتوجيه من الاشتراكية العادلة؛ حتى يبرأ المجتمع التعاوني من الاستغلال الرخيص، واغتنام الفرص المريبة.

وأما أن التعاون كرامة، فلأنه يحمي الأفراد من جشع الرأسمالية، ويرتفع بقيمهم الذاتية، ويعمل على عدم تضخم الثروات في أيدي قلة من الناس لا يعنيهم أن يظمأ غيرهم أو يجوع، ثم هو يُحوّلُ الأفراد فيجعلهم أصحاب حقوق مشروعة في أن يعيشوا في مستوىً كريم يليق بآدميتهم، لا أن يعيشوا كالسلع التي تباع وتُشترى، يتقاذفهم السماسرة والوسطاء، والذين يعرفون حقائق الحياة في مجتمعاتنا الريفية يدركون هذا كل الإدراك.

ونحن إذا استطعنا أن ننشئ المجتمع التعاوني السليم، ونخلصه من الجشع والاستغلال والاحتكارية وأن ننمّي ثرواتنا القومية صاعدين في سبيل الصناعات الحديثة، والإنتاج الكبير غير تاركين للفقر والجهل والمرض مكانًا في هذا المجتمع المنشودِ.. إذا استطعنا هذا في المجال الداخلي، فلا جدال في أننا نحن الأمم الصغيرة سنستطيع أن نُمْلِي إرادتنا وشخصيتنا وتأثيرنا على المجال الخارجي من أجل خلق مجتمع دولي مستقر.

ولقد تكلم الرئيس البطل جمال عبدالناصر على إثر دعوته من بريوني جريًا على مأثور عادته، عقب كل زيارة يقوم بها في سبيل الخير العام والسلام العالمي...

(*) نشر بجريدة المساء في الثامن والعشرين من يونيو ١٩٦٠م.

تكلم فشرح للملايين كل الانطباعات التي تركتها في أعماق نفسه تلك المهمة الخطيرة بين ربوع اليونان ويوغوسلافيا، من أجل الخير والسلام والحرية لسائر دول العالم، الذي تريده أن تبعث به مصالح الدول الكبرى ولا نزاع في أن الدورَ الكبير الذي ينتظر العالم أن تضطلع به الأمم الصغيرة النامية في تجنيبه شر الحرب الرهيبة المدمرة، التي يدفعه إليها نزق الساسة الأقطاب، وحماقة قوادهم العسكريين، الذين تسكرهم رؤية الدم والجماجم والأشلاء والدموع.

لا نزاع في أن هذا الدورَ الكبير الذي استنهض به الأمم الصغيرة، سوف يخلق مجتمعًا دوليًا آمنًا من العثرات المهلكة، والمفاجآت الساحقة التي قد تحدث نتيجة طيش أو رعونة أو انفعال محموم.

ولقد أبرز الرئيس الغرض الذي تعمل له الدول الصغيرة بكل إمكانياتها في سبيل إنقاذ السلام واستقرار الطمأنينة بين مختلف أرجاء العالم، بقوله إن السلام هو «الجو» الوحيد الذي يصلح فيه تطور هذه الدول ونموها وإننا حين نتكلم عن هذه المشاكل العالمية لا ننسى أن السبيل الوحيد لتحقيق كل ما ننادي به هو البناء الداخلي، وأن علينا أن نعمل عملًا أكثر في المستقبل، فإن قوتنا في المجال العالمي تتوقف على قوتنا في الداخل ؛ لنستطيع أن نحقق لكل فرد من أبناء بلادنا الحياة الحرة الكريمة.

ومن هنا فنحن في أمسِّ الحاجة إلى إقامة صرح مجتمعنا التعاوني المرموق، فهو بمثابة القاعدة التي سينهض عليها بناء هذا الوطن من سائر نواحيه، ولن نخطئ أبدًا حين نقيس عظمة الأوطان وعلو مكانتها، بمقدار ما وصلت إليه مجتمعاتها من تحرر وتطور، ومساواة.

وإن المجتمع الذي يمثلنا ونمثله خير تمثيل لهو المجتمع الريفي الذي لا نجد فيه زيفًا ولا تزويرًا، ولقد عانى هذا المجتمع كثيرًا من غفلة المسئولين في عهودهم المولية، حتى تقطعت الأسباب بينه وبين كل محاولة للإصلاح والتعمير، أو مجرد التفكير في ضرورات الحياة اللازمة لهذا المجتمع، الذي قاسى أهله الأمرّين من

شظف العيش وخشونة الأيام ومعاشرة السوائم[1]، جنبًا إلى جنب بين الحظائر ومضاجع الأحياء.

وإن مما يُحْمد للمسئولين في هذه الأيام لهو هذا العمل الدائم المتصل لخير الفلاح، وتيسير أسباب الحياة الكريمة له ؛ حتى يواجه في قدرة واستطاعة وتفاؤل ظروفه الاجتماعية والاقتصادية واجدًا بين يديه كل العون الممكن من الجهات المسئولة، التي لا تفتأ آخذة بيده وعاملة على تمكينه من وسائل الإنتاج الحديثة، فهي تنفذ له المشروعات الاجتماعية، مستهدفة رفع مستواه وتطويره، إلى حياة أفضل وعيش أسعد... وذلك بتوفير أكبر قسط من الخدمات الزراعية التي يحتاجها، وتدبير مقومات زيادة الإنتاج المثمرة بغية مضاعفة الدخل القومي عن طريق النظم التعاونية، تلك التي تَبْنِي في يسر وسهولة ذلك المجتمع الاشتراكي الديمقراطي التعاوني.

---

(١) السوائم : الدواب.

(٦) إطار التخطيط...

يعرض صورة مجتمعنا الجديد(*)

بين أفراح الانتفاضة الكبرى ومباهج الصحوة الشاملة، وقف الرئيس مساء أمس أمام الشعب العربي، الذي تدفقت طوائفه وهيئاته، على القاهرة، ثم التقت جميعها في مؤتمره الكبير، الذي احتشد في قاعة الاحتفالات، وأخذ يسمع لرائد قوميته، وصانع تاريخه البطل الرئيس جمال عبدالناصر.. وهو يبصر أعلى سلطة في الجمهورية، بدورها القيادي، ومسئولياتها الجسام... تلك التي بدأت تخطو خطوة جديدة نحو انطلاقة جديدة فوق طريقنا الصاعد إلى القمة العالية والذروة الرفيعة في سبيل العدالة الاجتماعية، والعزة السياسية في ميدان السياسة الداخلية والخارجية، وقد وضع السيد الرئيس دستورًا دقيق الملامح، صريح الأهداف، بارز المعالم لإطار السياسة العامة، الذي سيجلو وجه وطننا الحر الكريم في عزة وهيبة، وكبرياء.

واليوم يستقبل المؤتمر الكبير، السيد عبداللطيف البغدادي نائب الرئيس ووزير التخطيط - وكتابه الضخم بيمينه - ذلك الكتاب القيم، الذي ضمت صفحاته الخطة الخمسية الشاملة، للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، التي سهر من أجلها، وعانى في سبيها جهاز التخطيط - الليالي والأيام الطوال- حتى أوفى على الغاية، وحقق الغرض الذي أنشئ من أجله، في أمانة وعزم وتصميم، ولقد أفادت كل الدول التي أخذت بأسباب التخطيط في تنظيم اقتصادياتها، وتطوير مجتمعاتها، أعظم الفوائد... ولقد استعرض السيد نائب الرئيس مختلف القطاعات، من إسكان وتصنيع وصحة وتعليم، وري وزراعة واقتصاد.. إلخ.

وتحدث سيادته عما كان من أمرها، وعما هو كائن، وعما سيكون، خلال سني الخطة الخمس القادمة.

(*) نُشر بجريدة المساء في العاشر من يوليو ١٩٦٠م.

والذي يعنينا في هذا المقام - والحديث عن التخطيط ذو شعب كثيرة -هو التخطيط الاجتماعي، الذي سوف يعكس الصورة الدقيقة العميقة، لمجتمعنا الاشتراكي الديمقراطي التعاوني، فهو الكفيل بخلق هذا المجتمع، وتوفير أسباب الرعاية والعدالة لكل فرد من أفراده، وتدبير حقوق هؤلاء الأفراد في أن يعيشوا عيشة رغدة، حرة عزيزة، وأن يعملوا على النهوض بنصيبيهم في المشاركة والتعاون على المشروعات، التي تؤتي أطيب الأكل، وأشهى الثمار.. حين يتساند القطاعان: الأهلي والحكومي في مضمار التعاون والعمل لخير المجموع.

وأن المقومات الأصلية في كيان هذا المجتمع كانت الشغل الشاغل لثورتنا، منذ أن انبلج صبحها الباكر في يومها الوضاح... ويوم أن دوت صيحة الرئيس، في سمع هذا الوطن هاتفه بضرورة الإسهام مع الحكومة في بناء هذا المجتمع الجديد، كانت هناك أهداف ومبادئ، لابد من السعي الحثيث إليها، حتى تتضح صورة المجتمع، وتتحدد ملامحه، فقامت أجهزة الدولة بالتعرف بأثر التعاون في بناء المجتمع، وشجعت عليه، وعملت على تنمية المؤسسات التعاونية وخلصتها من العبث والاستغلال، كما نظمت الاقتصاد القومي في حرص جَمّ على العدالة الاجتماعية، ورفع مستوى المعيشة إلى الحد اللائق لكرامة الإنسان، وقد كفل الدستور حق المواطن حين تتقدم به السن، ويصبح غير قادر على الكسب بسبب الشيخوخة أو المرض أو العجز عن العمل، وأخذت الدولة على نفسها تيسير العمل للمواطنين جميعًا، كما أقرت التضامن الاجتماعي، بوصفه الأساس الوحيد لمجتمعنا الذي نعيش فيه، ثم شرعت القوانين التي تنظم الصلات بين العمال وأصحاب العمل، وتصون الحرية والأمن والطمأنينة، وتتيح الفرص المتكافئة بين الجميع.

والتخطيط الاجتماعي، يعتمد أكثر ما يعتمد على أفراد المجتمع، ومدى إسهامهم بجهودهم في تطبيق أنظمته ونظرياته وإنجاحها، ذلك لأنه يقوم على حسن الفهم لأبرع النظريات الاجتماعية، وأعمق البحوث والدراسات التي تتناول مشاكل الحياة والأحياء، والتخطيط الاجتماعي من هذه الناحية يتعقب نمو المجتمعات وصعودها بالإنسانية في مجال التطور والحضارة والتقدم البشري.

وقد شرَعَ المخطط الاجتماعي من المبادئ والأسباب مما يجعل أجهزته تسير في طريقها المرسوم، بما يتسق مع تقاليدنا المرعية وعقائدنا المقدسة ونظمنا الموروثة من مجتمعنا العربي الصميم.

وستكشف السُّنون الخمس القادمة عن قيمة العهد والميثاق، اللذين تأكدت أواصرهما بين الشعب والحكومة ؛ لينشط كل قطاع في تأدية وظيفته والقيام بدوره، في بناء صرح مجتمعنا العربي الجديد، حتى يستطيع أن يساير نهضتنا الفتية النامية.. وليست الحكومة وحدها هي المسئولة عن وسائل التخطيط والتنفيذ، وإنما أصبح الشعب بسائر طبقاته - بعد أن تطهر من العاطلين بالوراثة أو كاد - وأخذ يمارس حقوقه ويستشرف آماله، أقول أصبح مسئولاً عن التخطيط والتنفيذ بغية الوصول إلى عيش أسعد ومجتمع أفضل، في ظل حياة ديمقراطية اشتراكية تعاونية.

(٧) أوقفوا الهجرة من الريف... ثم لا تهجروه!(*)

قال لي الشيخ عتريس، ونحن نتحدث معًا على شاطئ بحر مويس بالقرب من أرض قريتنا الطيبة غزالة: اسمع يا بني: كانت القرية في قديم الزمان من حيث التقاليد المرعية والروابط الموروثة، خيرًا من القرية في هذه الأيام... والمسئول عن عدم رعاية هذه التقاليد والروابط، أنتم أيها المثقفون الذين نسيتم، أو أنستكم وظائفكم ومدينتكم حق هذه القرى عليكم.. إنني أذكر جيدًا الحالة التي كان عليها أثرياء هذه القرية، وموظفوها الكبار والمثقفون من أبنائها، لقد رأيتهم بعيني رأسي يقضون شهر رمضان هنا بيننا، ويعتبرونه عيدًا من أعياد القرية، ويرون لزامًا عليهم أن يشتركوا معنا في صيامه وصلواته ولياليه... هكذا كان يا بني شأن هؤلاء معنا في عيد الفطر، وعيد الأضحى، ومولد الرسول وموسم الحج... إلى آخر أعيادنا الدينية، ولم تكن في أيامنا بالطبع أعياد قومية أو وطنية؛ لأننا كنا إذ ذاك نرسف في قيود الاستعمار والاستعباد والضيم.. وإن من الممكن أن تستغلوا أنتم معشر المثقفين، وسائل الإعلام والتوجيه والإرشاد التي زودتنا بها الثورة، فتؤاخوا بين أهل الريف قاطبة، وتتعرفوا عليهم وعلى حاجاتهم، التي يتطلبها مجتمعنا الريفي النامي، ففي القرية نادٍ رياضي، وفيه مختلف وسائل التسلية والترفيه... من راديو. ومكتبة «وساحة لممارسة سائر ألوان النشاط الرياضي، كان من الممكن أن تنظموا حفلات شهرية، مثلًا تحتفلون فيها أيضًا لتسامرونا وتحاضرونا، وتفسروا لنا ما صعب علينا فهمه، من أحداث العالم العربي خاصة، وأحداث العالم كله عامة... لكنكم انعزلتم، وعزلتم أنفسكم لا عن القرية فحسب، بل عن أهلكم وعشيرتكم... ثم سألني الشيخ عتريس متحديًا... هل أولادك مثلًا يعرفون أولاد أخيك، أو ابن عمك في هذه القرية... فأجبته الإجابة الصحيحة الصريحة، وهي أنهم لا يعرفونهم من غير شك... وقلت له إن الحق بجانبك يا شيخ عتريس، فاستطرد وقال... ومن هنا يا بني دفعتم أنتم من حيث لا تدرون كثيرين

(*) نشر بجريدة المساء في السابع من أغسطس ١٩٦٠م.

من أهل الريف للهجرة إليكم في المدينة حين هجرتموهم أنتم، وهجرتم معهم ذوي رحمكم وقرباكم، ولا تغضب حين أقول لكم بصراحة، إننا فقدنا الأمل في عودتكم إلى الريف، ولم يبقَ إلا أملنا في الحكومة، فإن عليها أن تحدد إقامتنا في الريف، وألا تسمح بالهجرة إلا لمريض خرج يسعى وراء شفائه، أو عامل استدعى، ليمارس عملًا يجيده.

وهذا الذي يقوله الشيخ عتريس، خير كله، فلم لا تقف الحكومة سدًا حاجزًا أمام سيل الريفيين المتدفقين على المدن، ثم لِمَ لا تفرض على المثقفين من أبناء القرية أن يخصصوا يومًا واحدًا من أيام عطلتهم الرسمية كل شهر، ليعاونوا منظمات الاتحاد القومي في أعمالهم الإصلاحية في القرى والعزب والكفور.

إن هناك من الموظفين من أبناء القرى أمثلة ممتازة في الخلق والثقافة والاستعداد الطيب ؛ للمشاركة في النهوض بأعباء التوجيه والإرشاد في قراهم التي بها مسقط رؤوسهم، وإنّ لهم في قراهم لتقديرًا خاصا، ومحبة خالصة ونفوسًا مهيأة دائمًا لاستقبالهم والعمل بمشورتهم... وربما كان في زيارة هذه الطائفة للقرية، الفينة إثر الفينة خير كله، وبِرٌّ كله، وكسب مؤكدًا للريف والريفيين.

وإن هناك ناحية سيكولوجية، تعمل عملها في هذا الشأن، فلطول ما أَلِفَ أبناء القرية وجوه إخواننا، الذين يشكلون هيئات الاتحاد القومي في الريف، ثم لإقامتهم الدائمة فيه، قَلَّ من أجل ذلك تأثير إرشادهم، وقلت تبعًا لذلك أهميتهم من النواحي الذاتية لدى أهل الريف... أما هؤلاء الإخوة من أبناء الريف الذين يطول غيابهم عن القرية بسبب أعمالهم ووظائفهم، أو لبعد أمكنة هذه الأعمال والوظائف عن قراهم، مما لا يمكنهم من تنظيم زيارات مستمرة لهم، فهم حين يزورون هذه القرى يكونون موضع الحفاوة والاهتمام والتكريم.

لقد شهدت بنفسي أمرًا واقعيًا أكد لي هذه المعاني جميعًا، وهو يتلخص في قصة دم أريق بين أسرتين، وبذلت الهيئة الحاكمة كل جهودها ومحاولاتها لتعقد الصلح بينهما، وتضع حدًا للتوتر الذي كان ينذر بأوخم العواقب، فلم تفلح، وحاول وعاظ الإقليم كما حاول النابهون من أصحاب الكلمة المسموعة في القرية، التي

كانت مسرحًا لحادث الدم المراق، فباءت كل هذه المحاولات بالفشل الذريع.. ثم هيأ الله لهذه القرية من أمرها رَشَدًا، حين فكر بعض أهلها في استدعاء شاب موظف من أهل القرية معروف بحسن السيرة، ومحبوب من أهل القرية، فحضر من مقر عمله، النائي، وقام بالسفارة المرجوة بين المتخاصمين، فما هي إلا عشية وضحاها، حتى خَمَدت الفتنة التي كانت يقظة، وبرئت النفوس التي كانت قلقة، وثابت العقول إلى الرشد والإيمان، وشد الله على يد هذا الموظف فَتَمَّ له ما أراد وحقن دماء كادت تسفك، وحفظ أرحامًا أوشكت أن تُمزق، وَجَمَع شمل القرية بأسرها كان سيصبح بددًا.

فعلى الحكومة ماثلة في منظمات الاتحاد القومي أن تمنع التسلل الزاحف من القرية إلى المدينة، وبالأخص تسلسل طائفة العمال الزراعيين فهم عَصَبُ القرية، وهم اليد العاملة فيها.

والثورة لم تألُ جهدًا في سبيل تيسير أسباب العيش في القرى والكفور فدعمت النواحي الصحية، وعملت على رعاية الصحة النفسية لسكان الريف... فأنابيب المياه الصالحة للشرب منتشرة هنا وهناك، والأندية الرياضية منبثة في كل قرية، ثم بنك القرية والوحدات المجمعة، وهيئات الاتحاد القومي ووسائل التسلية والتثقيف... كل هذه الوسائل البناءة للمجتمعات الحديثة التي فاجأت بها الثورة قرانًا، فطورتها على الطريق الصاعد، وسوف تصل بها إلى أهدافنا المنشودة، التي يرعاها رائد طريقنا الطويل وقائد كفاحنا المقدس وحارس مجتمعنا الديمقراطي الاشتراكي التعاوني الرئيس جمال عبدالناصر الذي آل على نفسه أمام الملايين المؤتمرة من رجال الاتحاد القومي في مؤتمره الأول الكبير، أن يبذل آخر قطرة من دمه في سبيل وطنه وعروبته.

(٨) التخطيط الاجتماعي وتحرير المواطنين من مشاكلهم(*)

سُئل نهرو... ألست سعيدًا وأنت ترى الآن شعب الهند العظيم يتمتع بحريته واستقلاله؟

فأجاب رئيس وزراء الهند، على سائله قائلًا: لقد كان استقلال الهند وحريته، إحدى المشاكل، التي أمكن حلها، غير أنه بقيت أمامي الآن ٢٨[1] مليون مشكلة، تقض مضجعي وتبلبل أفكاري، ولا يروعك هذا العدد الهائل فهو عدد مواطني الهنود، إن كل واحد منهم يمثل مشكلة قائمة بذاتها، ولابد أن أجد لكل مشكلة من هذه المشاكل حلًا... وعندئذ أستطيع أن أكون سعيدًا.

وهذا الذي يقرره نهرو صحيح من كل نواحيه، فهو يَصْدُق على كل الشعوب حديثة العهد بالاستقلال ؛ لأنها حين تتحرر مما كان مضروبًا عليها من الذل والعبودية والاستغلال، وتهم بأن تنطلق في طريقها الصاعد، لتبني مجتمعها الجديد، فإنه سرعان ما تثقل خطاها، وتخور قواها ؛ لفداحة ما تجر وراءها من ركائز المشاكل، التي تنطوي عليها التركة العريضة الكريهة، التي خلفها الاستعمار وعملاؤه، من صراع الطبقات وطغيان الإقطاع، واستبداد الحاكمين، وما ينجم عن ذلك بداهة من النتائج، التي تأخذ الشعب من أقطاره جميعًا، متمثلة في سيطرة الجهل على العقول والبصائر، وعدوان المرض على الأجساد والنفوس، واستبداد الفقر بالحياة والأحياء.

وقد يكون ما نعانيه في مجتمعنا من رواسب الاستعمار البغيض، له أشباه ونظائر، مما يعانيه شعب الهند الصديق من سموم الشعوذة، وفساد التقاليد،

(*) نشر بجريدة المساء في الخامس والعشرين من أغسطس ١٩٦٠م.

(١) يشير بذلك إلى عدد سكان الهند في عصره، أو أن العدد على غير حقيقته، أو يقصد شيئًا آخر.

وهمجية العادات، وتدهور القيم الروحية والمعنوية، وهذه جميعها كانت الوسائل للمستعمرين، بغية القضاء على مقاومة الشعوب، والوصول إلى امتصاص أرزاقها، وسلب خيراتها وإقامة مجد الاستعمار الزائف على أشلاء هذه الشعوب وجماجم أهلها، وهكذا عشنا نحن الهند نرزخ تحت نير مستعمر واحد، سامنا أخس الرق والهوان... وكما كانت للاستعمار البريطاني في الهند أقوال مأثورة مسعورة، كانت له في وطننا أعمال وحشية موتورة... كانوا يقولون عن الهند... ستقاتل إلى آخر عسكري هندي... وكانوا هنا في مصر يحرقون القرى، ويقيمون على أرضها المشانق، ويروون ترابها بدماء أبنائها الأبرياء الأحرار...

وحين كتب الله لنا الغلبة على أعدائنا، والنصر عليهم، تركوا من خلفهم مجتمعًا مخدورًا[1] متهالكًا، تسرى في تقاليده، أسباب الفناء، وتضطرب في جوانبه عناصر الموت، وقد نفخت الثورة من روحها في جسد هذا المجتمع الهامد، فانبعثت فيه الحياة، وتحركت فيه نوازعها، وهزته أشواقها، فاندفع يلُمُّ شتاته، ويجمع أوصاله، ويثبت ما انحل أو اختل، من مقوماته، ليبني صرحه السامق الشاهق، على قاعدة راسية نامية لمجتمع اشتراكي ديمقراطي تعاوني.

والحق أن الثورة لم تأل جهدًا، في دعم المجتمع الجديد، والتمكين له في أرض الوطن الحبيب، وقد أعلن السيد الرئيس عقائد هذا المجتمع في المؤتمر العام للاتحاد القومي، حين قال إننا دعاة عدالة اجتماعية، ومحبة وسلام.

وأن الشعوب لا تستطيع أن تبني حياتها تحت أقدام الدول الكبرى، كما أكد سيادته أنه لابد من التنمية الاقتصادية، ولابد من تخفيف حدة الفوارق بين الطبقات، ولا يمكن أن تَرِثَ قلة من الناس المال والقوة والحكم، ثم ترث الأغلبية منهم الفقر والجهل والمرض.

هذه هى معالم الخطة الشاملة في أوجز عبارة، وبقى أن ندرك أن هذه الخطة ينبثق عنها - لا محالة - تخطيط اجتماعي، ذو أهداف بعيدة، قادرة على سبر[2]

---

(١) مخدورًا: أي مخدَّرًا.

(٢) سبر أغوار النفوس: قياس هيئة وعمق الجرح لاختباره ومداواته، والمعنى النظري هو اختبار قدرات النفوس على التحمل والمقاومة.

أغوار النفوس وأعماق العقول، لتستل منها الخرافة، والوهم والقصور من فهم الحقائق.

ويقرر بعض أساتذة الاجتماع من المهتمين بدراسة شئون التخطيط ومسائله أن التخطيط ضرورة لازمة ؛ لخلق كيان اجتماعي متماسك، يستطيع فيه كل قادر أن يبذل أقصى جهده ؛ لإظهار القوى الكامنة فيه، لا فرق بين غني وفقير، وبين قوي وضعيف... وهو ينادي بأنه لابد من أن تتوافر للجميع الحرية، التي تمكنهم من الإدراك التام لقوى الإنسان، وتنمية قدراته، حتى يصل إلى أعلى درجات الفهم، والتخطيط عنده وسيلة لإدراك هذه الغاية.

ومن هنا نرى أنه يتحتم علينا أن ننسق خطة اجتماعية شاملة، يكون هدفها تخليص النفوس من الوهم الموروث.

والبدعة الدخيلة المقتحمة والضلالات البالية القديمة، التي تعاقبت عليها العصور والأيام... تريد مسحًا اجتماعيًا لما استقر في أخلاد العامية والريفيين البسطاء، في شتى القرى والعزب والكفور والمدن وضواحيها ؛ لأن هؤلاء هم الشعب، ولأن مجتمعهم هو المجتمع الجدير بالعناية والرعاية... وبذلك نَعُدُّ هذا الشعب إعدادًا صالحًا يحسن الاستجابة والفهم، ويسهم في بناء مجتمع ديمقراطي اشتراكي تعاوني، على أمتن قاعدة وأصلب أساس.

ولكي نصل إلى إطار تخطيط اجتماعي، منسق دقيق، ينهض بهذه المسئولية الخطيرة، مسئولية تخليص نفوس المواطنين مما يستبد بها من المرض، والوهم والانحراف عن جادة الطريق... لكي نصل إلى هذا فإنني أقترح على وزارة الشئون الاجتماعية والعمل، أن تضع خطة اجتماعية شاملة بالاشتراك مع وزارات الثقافة والإرشاد القومي، والأوقاف والتربية والتعليم والصحة، ومصلحة الاستعلامات... على أن يكون مسرحُ نشاطها بين القرى والعزب والكفور، وبعض المدن وضواحيها، فقد أصبح سكان هذه جميعًا، لقمةً سائغة، وصيدًا ثمينًا للمشعوذين والدجالين، وقاطعي الطريق على نهضتها الاجتماعية الزاحفة.

وسأتناول في بعض مقالات آتية دور كل وزارة من هذه الوزارات، ولماذا نحتاج

إلى جهدها ومعونتها، وما هي الحالة التي نقاسيها من جراء تخلفها عن العمل في هذا المضمار.

وسوف أنقل عن الواقع الذي عشته وأعيشه في ريفنا الطيب الوادع الذي زودته الثورة بمختلف الإمكانيات والأسباب، التي تضمن له الرغد، والرفاهية والحياة الكريمة، فقد دبرت الثورة لريفنا كلَّ الخدمات والوسائل التي من شأنها أن تخلق مجتمعًا ريفيًا حضاريًا صالحًا.

وكما طردنا الظلم عن الأرض، نريد أن نطرد الظلام عن النفوس، لنرى شعبًا مخططًا ومنفذًا عن عقيدة وإيمان، لا تشوبهما غمامة من وهم، أو هاجس من ضلالة، أو عربدة من خيال، نريد شعبًا يتلقى أمانة المستقبل، وهو على أوفى نصيب من الوعي المستنير، والعقول المدركة، والنفوس التي لا تعرف الضعف ولا الخوف ولا الشعوذة.

نريد أن نعمل في شتى المجالات والميادين البناءة، وأن نضيف إليها ميدانًا شاقًا مرهقًا صعبًا في مسالكه ودروبه... ميدان النفوس، وما تُخْفِي الصدور من تُرَّهات وأباطيل وعادات، وتقاليد منكرة احتلت من نفوس السذج والبسطاء مكان العقائد والمبادئ والمثل.

لا نريد مريضًا في مجتمعنا الجديد يحمل في إحدى يديه دواء الدكتور أنور المفتي[1]، وفي يده الأخرى «وصفة» كتبها له -أبو الغيط-[2] في ليلة من ليالي الزار.

---

(١) من كبار أطباء الباطنة المشهورين في مصر وكان من أطباء الرئيس جمال عبدالناصر.

(٢) اسم غير مرتبط بشخصية معينة، ولكن الغزالي قد هدف باختياره إلى الجهل والشعوذة وعدم الأخذ بأسباب العلم.

(٩) وزارات التخطيط، وتطهير الريف من شعوذة الدجالين(*)

نحن شعب ينقل أولى خطواته الصاعدة على أول الطريق الطويل... تنازعه أشواقه، ملحة لبناء مجتمع جديد، بعد أن أرهقته السنون العجاف، التي اكتوى فيها بالصراع الطبقي، والطغيان الإقطاعي والحكم الاستبدادي.

ولكن ينطلق هذا الشعب المتحرر من ظلم الأيام، لابد أن يتحرر كذلك من ظلام النفوس؛ ليعرف معالم الطريق، ويأمن عثراته... ومن أجل هذا فلزامًا علينا أن تنتظم الوزارات ذات الصلات الوثيقة بالخدمات الاجتماعية، إطار خطة دقيقة شاملة لإعداد نفوس المواطنين، فتزيح عنها كابوس الأوهام الموروثة، والبدع الدخيلة، والضلالات القديمة، التي غطاها تراب كثيف غشى على الأبصار والبصائر، وقد أهالته عليها الشعوذة والمشعوذون عبر الأجيال.

ومنذ أيام راجعت بيانات الوزارات، المعنية بشئون المجتمع عن سائر نواحيه التربوية والصحية والإرشادية والاجتماعية... إلخ. تلك البيانات التي ألقاها السادة الوزراء في المؤتمر العام للاتحاد القومي، فلم يصادفني إلا تبشير بعمل نبيل ستنهض به وزارة الثقافة والإرشاد القومي، خلال سني الخطة الخمسية الشاملة.

وحين صدر القرار الجمهوري في يونية سنة ١٩٥٨م رقم ٩٦٢ بتعديل تسمية وزارة الإرشاد القومي إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومي كانت مذكرة القرار الإيضاحية ترمي إلى تعميق آثار الوزارة، وبسط رسالتها في تشييد مجتمع واعٍ متطور، يقف على دعائم ثابتة من العقيدة الصحيحة والفكر المستنير؛ ليستطيع

(*) نشر بجريدة المساء في التاسع والعشرين من أغسطس ١٩٦٠م، ويركز هذا المقال على العادات الاجتماعية البالية، مثل حلقات الزار، والسحر، والشعوذة، وبعض السلوكيات المتوارثة في استقبال الليلة الكبيرة ليلة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم.

أن يصون تراثنا القومي، ويحقق مبادئنا البناءة ويصوب اتجاهاتنا الهادفة... ومن حق تراثنا الثقافي والحضاري، الذي عَرَفَهُ هذا الكوكب الذي نعيش فيه أول ما عرف من حق هذا التراث علينا أن يظل كريمًا على نفوسنا تستلهمه العزة والقوة والروحانية، ولهذا فلا مناصَ من أن نجنبه ما خالط النفوس من خرافة ووهم.

وإنني لألمس في الدكتور ثروت عكاشة غيرة وحرصًا شديدين على تحرير هذا المجتمع، من أذى التقاليد البشعة والعادات المنحرفة، وإن كانت هذه كلها ليست من صميم خطته المرسومة لتنمية المشروعات الثقافية والإرشاد القومي، وقد تضمن برنامج الوزير ضمن مشروعاته المعدة للتنفيذ في خطة التنمية الثقافية الخمسية ٦٠-٦٥ مشروع تكوين وحدات ثقافية متنقلة ؛ لنشر الثقافة والفنون بالريف، وتبلغ جملة استثمارها في السنوات الخمس ٧٥,٠٠٠ جنيه سيصرف منها على المشروع عام ٦٠-٦١م ٥٠٠٠ جنيه كما تضمن البرنامج شراء مهمات ومناظر للمسرح الإقليمي، ونماذج للمتاحف الريفية وتعزيز المكتبات الإقليمية، وأجهزة الرقابة، وتبلغ جملة استثمارها في السنوات الخمس ٢٤,٠٠٠ جنيه... وقد راعت الوزارة العدالة المطلقة في توزيع الخدمات الثقافية بين شتى مدن الإقليم الجنوبي، وقُرَاه، وجعلت من نصيب الريف والريفيين هذه الوحدات الثقافية المتنقلة، التي تتكون من مسرح، وسينما، ومكتبة للخدمات الثقافية.

هذه الوسائل والإمكانيات تستطيع بها الوزارة أن تؤدي أجَلَّ الخدمات فيما نحن بسبيله، من القيام بعملية مسح اجتماعي لهذا الإقليم من إقليمي الجمهورية، وبذلك يمكننا محاصرة الدجل والدجالين، وأعمالهم المنكرة، التي يقترفونها باسم الدين تارة، وباسم كرامة الأولياء تارة أخرى.

وإن وزارة الثقافة والإرشاد القومي لتحسن صنعًا، إن هي رسمت المناهج، وأعدت الخطط ؛ للقضاء على هذه الشعوذة، وإن الريف يمثل الأوكار التي يقطنها هؤلاء المتاجرون بأوهام الناس وهواجسهم وخطرات نفوسهم، التي أوهنوها، ومزقوا أوصالها بتعاويذهم، وما يأتونه من أعمال بهلوانية هي أشبه بحركات اللصوص.

وتتأكد النتائج الإيجابية لمحاربة هذه المظاهر المعيبة، التي تسيء إلى حياتنا،

ومجتمعنا وموروثاتنا من الحضارة والمدنية، التي تلقيناها عن تاريخنا الحافل المجيد، الذي صاغ حقائق الوجود، عزيزة كريمة، تلك الحقائق التي عاش في كنفها آباؤنا وأجدادنا الأولون، أقول تتأكد هذه النتائج الإيجابية لهذه الحرب الخاطفة، التي توشك أن تشنها وزارة الثقافة والإرشاد القومي، على البدع والخرافات، لو أن الوزارات المسئولة عن النواحي الاجتماعية وفي طليعتها مصلحة الاستعلامات، تعاونت كلها في هذا الغرض الشريف بأجهزتها الفنية والبشرية، حتى نصل إلى غايتنا.

إننا الآن على أبواب الاحتفال بمولد النبي الكريم، الذي انبعث ليخرج الناس من ظلمات الجهالة والجهل إلى نور اليقين والمعرفة، وليخلصهم من ضلالهم القديم، ويغمرهم بفيض من روحه وهدى من كتابه ؛ لينأوا عن همزات الشياطين ؛ وليقربوا من حقائق الوجود.

في هذا الاحتفال مثلًا تُرتكب في الريف بدع ومنكرات، تَدَعُ الإنسان في شك من إمكان صلاح هذا المجتمع، إن لم تتداركه عناية المسئولين، وعلى رأسهم وزارة الشئون الاجتماعية، والتربية والتعليم، والداخلية، والصحة، والأوقاف ورجال الاستعلامات والقائمون بأمر المجلس الأعلى لرعاية الشباب... أما وزارة الثقافة والإرشاد فقد قالت كلمتها ورصدت أموالها، وهي تستعد لحملات الغزو، التي ستسحق بها هذه الضلالات، التي رانت على النفوس والأعصاب، وسيشهد عام ٦٠-٦١ أولى تحركات هذه الحملة الغازية المنتصرة بفضل إصرار وزير الإرشاد والثقافة.

إنني أشهد في هذه الأيام التي أقضيها في الريف العجب العجاب في الاستعدادات القائمة، لاستقبال مولد الرسول الكريم، إن سيوفًا مغلولة تشحذ وأفاعِي سامة تهشم أسنانها تمهيدًا لخياطة فمها ليلة زفة المولد، وبيارق تُرَفع وتُجدد كسوتها، و«صاجات» نحاسية كتلك التي تحملها الراقصات الخليعات بدأ إعداد هذه الصاجات «ليهيج» بها - ماسك الطبقة في حلقات الذكر، التي تقام في ليالي المولد النبوي الشريف إلى آخر هذه المضحكات المبكيات، وإنني لأرجو أن يصدقني المسئولون أن كثيرًا من القرى والكفور إن لم يكن معظمها يعج بهذا العبث

العابث، ولقد رأيت بعيني منذ عام في الليلة الكبرى، التي احتفلت بها إحدى القرى المتاخمة لقريتي، رأيت حملة البيارق، وقد تلفعوا بالأفاعي، التي أخذت تلف حول أعناقهم، وتتساب على صدورهم حينًا ؛ وعلى ظهورهم حينًا... رأيتهم وهم يندفعون بأفاعيهم وبيارقهم، ويشقون صفوف النساء القرويات الحاشدة على جانبي الزفة الكبيرة وشيوخ القرية وشبابها من حول هذا الموكب الهازل، يحوقلون(١) ويكبِّرون ؛ لأن البيارق تدفعهم بقوة من الله فرحة مبتهجة مسرورة بالمناسبة العظيمة... ثم تتوقف الزفة عند كل ناحية من نواحي القرية، ويتزاحم الناس على رجل أشعث أغبر، استلقى على ظهره، ووضع سَيْفًا غير ذي شفرة على باطنه، فلست أظنه حادًا قاطعًا، ثم يكمل المنظر، فيقف رجلان أو ثلاثة فوق هذا السيف المسلول الراكز على بطن الرجل وقد علت الحوقلة والتكبير، وانطلقت الزغاريد ؛ لأن بركة المولد لم تجعل السيف يجز بطن الرجل، وأخيرًا يأتي دور الصاجات ذات الإيقاع بين الذاكرين قيامًا وقعودًا وَزَحْفًا على جنوبهم في طريق الزفة، وقد أطلقوا شعورهم الطويلة تكنس من تحتهم الأرض وهم يترنحون فوقها ذات اليمين وذات الشمال، وقد مدُّوا عيونهم إلى الريفيات هنا وهناك... إلى غير ذلك من المنكرات التي يأباها عهدنا الثوري، ويأنف منها ماضينا التليد وينكرها مستقبلنا المرجو الذي ننتظر أن يكون نصيبنا فيه مجتمعًا أفضل وحياة أكثر سعادة.

إن في الريف مشاكل من هذا الطراز لا تحصى ولا تُعَد، تتشكل منها أخبث الأمراض، التي تفتك بالنفوس والعقول، وتدمر روحانية هذا الشعب وتحصد مقدساته، فعلى الوزارات المسئولة عن تفشي هذه الأمراض أن تعد للأمر عدته، وأن تأخذ له أهبته ؛ لتشعلها ثورة عارمة على محطمي معنويات هذا الشعب وهادمي كيانه الروحي، لنحفظ بذلك ماضينا الحافل بتراثنا الإنساني الزاخر، ولنصون مستقبلنا المنشود الذي نتطلع إليه في لهفة، ونعمل من أجله في كفاح موصول، في ظل قيادة رشيدة مؤمنة بحقنا في حياة طيبة كريمة.

---

(١) أي يقولون : لا حول ولا قوة إلا بالله.

(١٠) كيف ننشر الوعي التخطيطي...؟(*)

من القضايا البديهية، التي لا يُخْتلف عليها، أن الشعوب كالأفراد، أو هي في حقيقتها مجاميع هؤلاء الأفراد، ولم يُخلق هؤلاء، كما لم تخلق هذه الشعوب، ومعها وسائل تطويرها وإنمائها، مركبة فيها، تشب معها، وتتدرج في مراحل أعمارها، وإنما على هذه الشعوب، أن تصنع بنفسها وسائل تنمية مجتمعاتها، والنهوض بها إلى المستويات الثقافية، والاقتصادية، والقومية الرفيعة المرموقة، التي يتطلع إليها كل مجتمع ناهض صاعد.

ولا جدال في أن هذه الشعوب السّباقة، في مضمار الرُّقِي، والحضارة، قد خَطَت أولى خطواتها على نفس الطريق، التي تنتهي عند الغاية المرجوة، التي تنشدها لمجتمعها، والتي تتسق مع أهدافها الاقتصادية، ومبادئها العقائدية، وقيمها الخلقية، التي تلون حياة هذه المجتمعات، وتصنع إطارها العام الذي يضم المستويات الفردية والجماعية على السواء.

وإذا كان أسلوب التخطيط طارئًا علينا، فليس هذا عن قصور أو تقصير، نابع من ذات هذا الشعب في جمهوريتنا الفتية، وإنما كان ذلك نتيجة حتمية لهذا الركام الهائل من الأزمنة والعصور، الذي ظل جاثمًا على صدورنا، فَعَقَدَ ألسنتنا، وقيد خطانا أجيالًا طويلة من الزمن، ذلك لأن الاستعمار وعملاءه في طول البلاد وعرضها قد أرادوا لنا أن نحيا هذه الحياة المتخلفة الجامدة، التي لا تسمح بالحركة أو التطور.

أما حين أتيح لنا أن نتنفس في حرية وانطلاق فقد أخذت كل قوانا تتجمع في ظل من المبادئ الاشتراكية التعاونية السليمة، التي زحف إليها الشعب بكل طاقاته، وإمكانياته في تساند، وتعاون، وتصميم، مندفعًا وراء قيادة رشيدة، تعمل لخيرنا ما وسعها العمل، وأمكنتها الوسيلة...

(*) لم نصل إلى بيان ما إذا كان هذا المقال قد نشر في جريدة المساء أو في غيرها أم لم ينشر أساسًا، إذ أننا قد وجدناه مكتوبًا بالآلة الكاتبة ضمن أوراق الغزالي، رحمه الله.

ولكي يكون كل فرد منا مخططًا في ميدانه، حتى يسيرَ الركبُ في حشوده الزاحفة العاملة، التي تشكلُ جميع أجهزة الدولة، ونجني ثمار هذه الوثيقة الكبرى في شتى جوانب مجتمعنا الاشتراكي، الديمقراطي، التعاوني، ليصبحَ مجتمعًا مثاليًا، ليس فيه مكان لضعيف، أو لمستعبد، وإنما يصبح وطن الأحرار الأقوياء.

إذن... ما هي الوسائل المَرِنَة لتنمية الوعي التخطيطي، ونشره بين سائر الطبقات، حتى يلم العامل، والموظف، والطالب، والفلاح، وكل فرد في مجاله بمعنى التخطيط، ومعنى الخطة، والأهداف التخطيطية، ومقدار ما يعود على الشعب جميعه، من أخذ نفسه بنظم التخطيط وأثره العميق في رفع مستويات الحياة، إلى قمة الحرية التي يستشعرها كل المواطنين على السواء، وإلى الكفاية الاقتصادية، التي يعمُّ رخاؤها مختلف الطوائف والطبقات، ثم إلى الانتعاش العام، الذي يغمر محيط المجتمع بأسره، وبذلك ينخرط المجتمع كله في تخطيط اشتراكي تعاوني ديمقراطي.

وقبل أن نرسم ملامح هذه الوسائل، التي نستطيع أن نخاطب بها مختلف الأفراد والجماعات؛ لنغرس في نفوسهم معاني التخطيط في أيسر مفاهيمها وأوضح دلالاتها نحب أن نشير إشارة عابرة، إلى الأثر البعيد، الذي تنفضه النوازع النفسية والاجتماعية، حول هذه الوسائل، فهو أثر ذو فعالية بالغة؛ لأنه يعمق الوعي النامي للتخطيط، ويجسّدُ الإحساس الذاتي بضرورته الملحة، في إرساء قواعد المجتمع، الذي ينعم في ظله الفرد والجماعة، في يسر ورفاهية ورخاء، فلزامًا علينا أن نسيطر على نوازع السلوك ودوافعه لنبلُغَ الهدف الذي نسعى إليه، ولابد من أن نُخلّص هذه الأهداف من كل الشوائب، التي تجعلها متنافرة أشبه ما تكون بالفرقة الموسيقية، التي تنشر ألحانها، فتعطي أصواتًا مبهمة مختلطة، كما أن عنصر الاطمئنان والتأكد من جدوى هذه الأهداف ينبغي أن يكون مستقرًا في أعماق النفوس، ومهيأً للمجال الوجداني، الذي يقود فيه هذا الإيمان الأفراد والجماعات، للعمل في حقل تخطيطي يانع الثمر والجَنَي..

إزاء هذه العوامل النفسية التي تتحكم في الأفراد والجماعات، حين يُراد رسم إطار جديد للخطة القومية، فلا مندوحة من أن نولي المجال النفسي للأفراد

والجماعات- اهتمامًا خاصًا، ذلك لكي نصل بتحديد السلوك الفردي والجماعي إلى المستوى التخطيطي المأمول، فننمي الوعي به، حتى يصير عقيدة يصدر عنه كل مواطن في عمله الذي يمارسه.

أما وسائلنا في نشر الوعي، وبثه في النفوس والمدارك، وضمائر الشعوب، فنحن أمام طائفتين، طائفة المثقفين، وطائفة غير المثقفين، وهم يكونون عادة أهل الريف من طبقة الفلاحين والمزارعين ولكل من الطائفتين وسائلها، فالمثقفون عندنا، هم أساتذة الجامعات، ومدرسو المعاهد، والطلبة والموظفون. والواقع الذي ينبغي أن نتصارح به، أن من بين المثقفين عندنا، من يجهلون معنى التخطيط، ولا يدركون كنهه، فواجبنا في هذا الصدد، لحداثة عهدنا بالتخطيط ودراساته، وتطبيق هذه الدراسة عمليًا، على مستويات المجتمع الذي نعمل من أجله، أن نقدم لهؤلاء الكتب العلمية الدقيقة، التي يضعها علماؤنا المختصون، أو نقدم كتبًا مترجمة، أو بلغاته الأصلية؛ ليعيشوا في أجواء علمية زاخرة يتزودون فيها بأطيب الأنسام في المعرفة التخطيطية، ومدى ما وصل إليه الوعي التخطيطي في البلاد الراقية المتحضرة، ويلي تلك المصادر المحاضرات الجامعية، أو المدرسية، أو إقامة الندوات، التي يعقدها الأساتذة الدارسون للمذاهب الاقتصادية والاجتماعية والتعاونية، التي تتسم بسمات التخطيط، وأفكار المخططين، ثم لماذا لا تكون مادة التخطيط ضمن برامج الكليات والمعاهد والمدارس التي تُخرّج المدرسين؟ وحين يتقرر ذلك، فسنضمن جيلًا ذا وعي كامل بوظيفة التخطيط في إرساء قواعد الحياة والمجتمع على أقوى الدعائم وأعلاها بناء.

ثم لماذا أيضًا لا نكثر من النشرات والمجلات التي تعالج موضوعات التخطيط، وندفع بها إلى أيدي الطلبة والمشتغلين بالتدريس، إما بالمجان أو بأثمان زهيدة...

وإنا لنرجو لمعهد التخطيط أن يحقق الغاية التي أنشئ من أجلها في تخريج أفواج من الموظفين الملمين بدراسة التخطيط وأثره البناء.

أما عن أهل الريف والعمال، فوسيلة نشر الوعي التخطيطي بينهم ميسورة ومستطاعة، فمن الممكن أن نقدم لهم القصص الشعبية والأغاني والأفلام

السينمائية، الهادفة إلى تعريفهم في ثنايا القصة واللحن والفيلم بقيمة التخطيط وأثره الفعال، من حيث لا يشعرون أن هذا التعريف مقصود قصدًا مباشرًا، ثم المدارس الريفية تستطيع أن تصنع كثيرًا في هذا المجال، إذا زُوّدت بوسائل الإعلام من مطبوعات، ونشرات، وندوات، وأفلام سينمائية وتمثيليات موجهة بالراديو والتلفزيون...

بهذا تسهل وسيلة نشر الوعي التخطيطي الاشتراكي التعاوني الذي ننشده ونسعى إليه.

(١١) التليفزيون... البرنامج العام... مع الشعب... صوت العرب(*)

كنت من المشفقين على مصير التصريح الذي أدلى به الدكتور عبدالقادر حاتم، منذ عام، أمام الجماهير الغفيرة الحاشدة في عيد الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٩م، حين خاطبهم قائلًا:

إنكم ستشاهدون احتفالات عيد الثورة في عامها القادم على شاشة التلفزيون...

ومن هنا كان إشفاقي، وكان تساؤلي... أعندنا من الإمكانيات والقدرات الفنية والبشرية، ما نستطيع أن نضمن به تحقيق هذا الحدث الكبير؟!

وأخيرًا وقعت المعجزة، وتم للذين - بذلوا الجهد والوقت والأعصاب- ما أرادوا... ودخل التليفزيون البيوت، وأمتعها بألوانه العديدة، من ترفيهية، وثقافية، واجتماعية...

ويحتل التليفزيون القمة بين وسائل التوجيه والإعلام والترفيه... وأن هذه البداية الموفقة التي استهل بها هذا الجهاز الخطير عمله الفني المثمر، لتدفعنا دفعًا إلى تلمس كل الأسباب التي تجعل منه أداة ذات فاعلية مرجوة، وأثر منشود، حين يسهم في بناء حياتنا الاجتماعية الجديدة، ويرسي قواعدها على أسس من الثقافة الرفيعة، وتأتي خطورة التلفزيون، من ناحية أنه يعتمد في تأثيره، على الصوت والمشاهدة معًا، فأثره ملامس ومخالط لنفوس المشاهدين وضمائرهم، ولا نحب لهذا الجهاز أن تدركه محنة «الفنية الإذاعية» فيصبح برنامجه نسخة معادة من برامج «البرنامج العام» وبرنامج «مع الشعب» وبرنامج «صوت العرب»... وحتى «البرنامج الثاني[1]».

(*) نشر بجريدة المساء في الثامن عشر من سبتمبر عام ١٩٦٠م.

(٢) البرنامج الثاني الذي يسمى الآن البرنامج الثقافي.

وفي رأيي أنه لكي يؤدي التليفزيون عمله... من واقع برامج منسقة ينفرد بها وحده بين هذه البرامج جميعها، فإنه ينبغي أن نحمي برنامجه من موجة الترفيه والتسلية الزاحفة عليه، والتي توشك أن تغمر أكثر من نصف مساحته اليومية، ولم تنجُ برامج التليفزيون، وهي تخطو خطواتها الأولى على أول الطريق.. مما كنا نربأ بها عن التورط فيه... لماذا مثلًا نسجل السهرات الخارجية من دور السينما، والمسارح، والصالات؟.

إننا نريد لهذا الحدث الفني الجديد أزياء جديدة، يتجلى فيها، ويتألق بين أوساط مجتمعنا الجديد... ومن هذا يتبين أن وحدة البرنامج اليومي في التليفزيون ثلاث ساعات ونصف الساعة، للأخبار فيها ٢٥ دقيقة، وللتسلية والترفيه ساعة كاملة وثلاثة أرباع الساعة، ولبرنامج الأطفال نصف الساعة، وليس للثقافة الخالصة في هذا البرنامج أكثر من خمس عشرة دقيقة طوال الأسبوع...

نتيجة غير مرضية بلا شك، فليس فيها ما يَرْوي ظمأ هذا الشعب للمعرفة والثقافة، اللتين ينتظرهما من هذا المنهل العذب، الذي يستطيع أن يمتع ويشبع الملايين من الجمهور، المتعطش لتنوير مداركه، وصقل أذواقه، وتعبئة طاقاته المادية والمعنوية، لخدمة قضايانا العربية، داخل بلادنا وخارجها مع خدمة مجتمعنا الجديد، بعرض مشاكله، ووسائل علاج هذه المشاكل بأبسط الأساليب، وأقدرها على الاحتفاظ بالمشاهدين، والسيطرة على حواسهم والاطمئنان على أنهم غير نادمين على الساعات، التي ينفقونها حول أجهزة التليفزيون...

إننا نريد أن نعرض عليهم صورًا من حياتنا الاجتماعية، التي يتمثل فيها مجتمعنا الجديد أدق تمثيل، كما نريد أن نعرض عليهم العادات والتقاليد، التي نريد أن ننأى بهذا المجتمع بعيدًا عنها.

ورجاؤنا من المشرفين على برنامج التليفزيون، و«البرنامج العام» وبرنامج «مع الشعب» وبرنامج «صوت العرب».. و «البرنامج الثاني».

أن تتألف منهم لجنة للتنسيق بين هذه البرامج جميعها، وأن ينضم إليهم ممثلون آخرون، من مختلف الوزارات والجهات، ذات الصلة الوثيقة بهذه الناحية، من الخدمات

الثقافية، والاجتماعية، والترفيهية؛ ليضعوا خطة تُجدد كل دورة إذاعية، وتمنع تداخل الموارد، وتكرارها بين هذه الأجهزة جميعًا، وأن تراعي هذه اللجنة مسألة التوزيع والتنويع، فتزيد في المواد الثقافية بالقدر المطلوب، وتختار مواد الترفيه والتسلية ذات المستويات اللائقة، التي تلائم كل برنامج من هذه البرامج...

إننا نريد أن ننهض بموادنا الإذاعية عامة، نهضة تساير ثقافتنا في حاضرنا، وأملنا في المستقبل، كما نريد أن نحسن استغلال هذا الجهاز الجديد، بما نُعُدُّ له من برامج جديدة، تُرضي الأذواق، وتصوغ العقول، وتبني مجتمعنا الجديد على قواعد راكزة من المعرفة والتثقيف والترفيه الوجداني السليم.. بذلك نخدم مجتمعنا النامي.

(١٢) واجب البيت... نحو المدرسة(*)

دق أبناؤنا الطلبة أبواب العام الدراسي الجديد، فانفتحت لبعضهم على مصاريعها، ومشوا خطوات قصارًا خلف هذه الأبواب، وقد انتظمت صفوفهم المدرجات وحجرات الدرس، وهناك طوابير غفيرة من الطلبة، ما زالت تدق هذه الأبواب، وتدورُ من حولها وتلفُّ، وهي موصدة في وجوههم، لا تسمع دقاتهم، ولا تأبه بها، وذلك لأنهم فرطوا في واجب الاستذكار والتحصيل طوال العام، وأفرطوا على آبائهم، ومدرسيهم، وأساتذتهم، كُلَّما كانوا يحاولون معهم أن يبصروهم بواجبهم نحو مدارسهم ومعاهدهم وكلياتهم، وذلك ليضمنوا لهم الحصول على المجموع المطلوب آخر العام.

مَنْ المسئول إذن عن هذا المصير المؤلم الذي انحدر إليه هؤلاء الأبناء؟ ممن لا يرعون حق هذا الوطن عليهم، ولا يقدرون مسئولية الغد المتطلع إليهم؛ لأنهم أحلامه المرتقبة، وآماله المرجوة، في هذا العصر الذي أصبح يضاعف رعايته وعنايته بالزراعة الرابحة، التي تنبت أعظم الثمرات حين نحسن القيام عليها، وهي زراعة الرجال.

لا جدال في أن المسئول الأول هو الطالب بذاته، فإن هو أخذ نفسه، في مستهل العام الدراسي بشيء يسير من حب النظام، وحسن توزيع الوقت، بين فترات الراحة والاستجمام، وبين فترات الاستذكار والتحصيل اليومي، بعد أن ينصرف من مدرسته، فينال قسطًا موفورًا من الرياضة والنزهة.

ثم يعودُ فيعكُفُ على كتبه ودروسه وواجباته اليومية ساعتين فقط... وكله ذهن ناشط، وهدوء شامل، وتجرد من كل شاغل إلا من كراساته، وكتبه، ومذكراته...

إن الطالب حين يأخذ نفسه بهذا النظام أخذًا شديدًا، ويراقب ضميره مراقبة دقيقة، منذ مطلع العام الدراسي، حتى نهايته، لا جدال في أنه واصل إلى ذروة غايته من التعليم، ومحقق غاية وطنه منه ؛ ليكون عدة ودرعًا لهذا الوطن، في مستقبله الزاهر الظافر بوسائل العلم والتعلم، فلن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

(*) نشر بجريدة المساء في الرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٦٠م.

ثم من المسئول عن هذا المسئول الأول؟ من المسئول عن توجيهه، هذه الوجهة، ودفعه في مسالك الطريق السوي، حتى يأخذ من يومه أمانًا لغده، فلا يتعثر ولا يقف، بل ينطلق في طريقه صعدًا لا يلوي على شيء.. إنه البيت..

وتكاد البيوت تفقد سيطرتها على الأبناء، لقد بدأ الابن الأكبر يزحف إلى مكان أبيه من الأسرة، فهو الآمر الناهي، والحاكم المطاع، باسم التطور التربوي إثر الترقي الحضاري، ولن نكره التطور أو الترقي في سلم المساواة، ولكن ليس هذا مجالاً لتطور، أو مكانًا لمساواة، إذا كان ذلك على حساب التعلم والتثقيف، والتربية.

إننا نريد أن نكون أقوياء بالعلم، لنشهره سلاحًا حادًا ماضيًا، في وجوه أعدائنا وأعداء حرياتنا، وقوميتنا وعروبتنا، ولن نكون أقوياء ونحن نحتفظ في بيوتنا، وفي منتدياتنا، ومقاهينا بهذا الركام الهائل من الشباب المعطل، الذي قصرت به قدراته من الانتظام في سلك الدراسة، بدلًا من الانتظام أمام أدوار السينما والملاهي، و ملاعب الكرة، غير مكترثين بتوجيه آبائهم أو بما يعانونه من أجلهم.

إننا نود أن نعود سيرتنا الأولى في وضع الحدود الفاصلة بين الجِد والعمل، وبين التسرية والتسلية، وقتل الوقت، ونؤكد ذلك بكل الوسائل في نفوس أبنائنا الطلبة، وننميه في مداركهم وعندئذ سوف نصل إلى ما نصبو إليه، من رفع مستويات التعليم للقمة التي نرنو إليها.

من أجل هذا لا بد أن يأخذ الأبناء بأسباب النظام، في حياتهم المنزلية، ليتمكنوا من القيام بواجباتهم على أكمل وجه.

إنني أعرف شابًا اجتاز مرحلة التعليم الثانوي، واتجه إلى كليات الجامعة، فرحبت به كلية الطب، والعلوم، وكليتان أخريان، لا أذكر اسميهما، فهو حاصل على رقم قياسي في مجموع درجاته، حطم به جميع أرقام المجموعات، التي تقدم بها زملاؤه إلى هذه الكليات، وبقي أن يعرف القراء أن هذا الطالب يقيم وحده، منذ أكثر من خمسة أعوام في قريته، أيام العطلات الدراسية، لأن والده في بعثة دراسية في أوروبا، ويعرف حق أبيه عليه من حفظ النصيحة، وفهمها، والسير على هديها في سلك التعليم والدراسة.. وكلما حصل أبوه على إجازة علمية امتدت أطماعه إلى إجازة أكبر منها،

ولم يتخلَ ابنه الموهوب في ترتيبه عن « الأولوية « طوال المدة التي قضاها في المدارس، حتى هذا العام، ومن يشابه أباه فما ظلم - كما يقولون - إنه عَمَل ناجح صالح، وما أقله في بيئاتنا التربوية في هذه الأيام، وما أحوجنا إلى أعمال ناجحة صالحة من هذا الطراز ؛ لنقيم عليها بناء مستقبلنا المأمول، عاليًا ومتينًا.

(١٣) جيلنا الصاعد... هو طريقنا إلى الحرية والحق(*)

كان أصحاب الرسالات والدعوات الإصلاحية، عبر الأجيال والعصور السحيقة، في الغالب شبابًا آمنوا بربهم، فزادهم إيمانًا وقوة، وظلت هذه الرسالات والدعوات تصطفي أولي الحزم والعزم والعقيدة، وهم في مطالع أعمارهم، ثم تنبثق نورًا يضئ أعماق نفوسهم، فيدفعهم دفعًا في طريق الخير والحق والرشاد، يتلمسون على هدى تلك الرسالات، معالم الطريق المستقيم ويبصرون ملامح الغد المنشود؛ ليحققوا المعجزات على أيديهم الفتية.

والذين يجيلون أبصارهم وبصائرهم في تواريخ الأمم كافة، يجدون القادة من الحكام وأصحاب الرأي وحاملي ألوية الجهاد، في سبيل نصرة الحق، وتثبيت راية الحرية، يجدونهم فتية في شرخ الشباب.

إن الفترة العربية، لَتضَع أمامنا النماذج الرفيعة، لفتيان العرب الميامين، الذين حطموا أغلال الرق والعبودية، وشادوا بناء الحق، العدالة الأخلاق.

وقد استلهم رئيسنا البطل، وقائد كفاحنا المقدس، أمجاد عروبتنا العريقة، وحقائق قوميتنا العربية الأصيلة... حين قال من فوق منبر هيئة الأمم المتحدة... «إن سياسة الجمهورية العربية المتحدة، تلخصها كلمة واحدة، هي كلمة (الحرية). كما أن دبلوماسية الجمهورية العربية المتحدة تلخصها كلمة واحدة، هي كلمة... (الحق)...

وإن الشعوب لَتتفاوت في حظها من التقدم، والحضارة، والمجد، بقدر نصيبها من الشباب المسلح بالعلم والعمل والأخلاق وإن لكل مرحلة من مراحل العمر وظيفة، لابد أن تؤدي ابتغاء وجه الله والوطن، وأولى هذه المراحل، هي تلك المرحلة التعليمية، التي تحدث عنها، رائد الشعب، وقائد شبابه المنتصر في غده القريب، في مهرجان الشباب، بالإقليم السوري، منذ أيام قلائل مضت، بمدينة دمشق..

(*) نشر بجريدة المساء في الثالث من نوفمبر عام ١٩٦٠م.

فقال.. «كنت طالبًا في المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية، وكنتم هنا في دمشق، تثورون ضد الاستعمار الفرنسي، ويوم ضُربت دمشق بالمدافع خرجنا جميعًا في الشوارع نتظاهر ونهتف من أجل دمشق، ومن أجل الوحدة العربية... ولم يكن هذا - أيها الإخوة - لِوحي أو بأمر دُفعنا إليه، ولكنه كان الشعور الذي ينبع من القلب، من قلب أطفال صغار، عَرفوا بغريزتهم، وعَرفوا بطبيعتهم أن القومية العربية إنما تجمع دمشق والقاهرة، كما تجمع كل البلاد العربية وكل العواصم العربية..

هذه العاطفة المبكرة، التي دَفعت جمع الطلبة؛ ليعبروا عما تختلج به جوانحهم من مشاعر عميقة تضرب بجذور بعيدة مديدة، في تاريخ بعيد مديد، هو تاريخ القومية العربية، والوحدة العربية الشاملة، التي توثقت أواصرها في حرية وعزة وكرامة.

تلك كانت وظيفة المرحلة الأولى من مراحل العمر، وتلي هذه المرحلة مراحل أخرى، لكل منها وظيفة هي بمثابة الأمانة التي تطوق أعناق شبابنا المأمول، وعليه أن يؤديها في مواقيتها المحددة، فبعد فترة التعليم الثانوي، تأتي فترة التعليم العالي، ولهذه الفترة مهام كثيرة، ينبغي أن يضطلع بها الشباب في القرية والمدينة، وليس هذا مجال تفصيلها أو الحديث عنها، وما أظن أن فردًا من شبيبة هذا الجيل، يجهلها أو لا يلم بها، ثم الوظيفة الكبرى التي تبدأ عند نهاية المراحل التعليمية، تلك التي يستقبل فيها الوطن عزيمة أبنائه المصممة، وجهد شبابه المتوثب، وإصراره على تطوير وطنه في شتى مجالات القوى والبناء.

وفي - رأيي - وكم يسعدني أن أتحول عن - هذا الرأي - حين تصبح أسبابُ التحول وجيهة وموضوعية أن كثيرين من شبابنا لا ينهضون بما تمليه عليهم قوميتهم، أو وطنيتهم أو غيرتهم على بلدهم؛ ليأخذوا بجد الحياة، وينصرفوا عن لهوها، فلِمَ لا يجند شبابنا كل طاقاته المعطلة، في سبيل تلبية حاجات مجتمعنا العربي، والاستجابة السريعة لقضايانا العربية الخطيرة.

إنني أقولها - في صراحة مرة - وأنا أصدر في هذا عن رأيي الخاص، أن أسماء لاعبي كرة القدم، وأبطال الأفلام السينمائية، وحلبات المصارعة والحديد،

يحفظها أبناؤنا الطلبة، وتدور على ألسنتهم، لمناسبة أو لغير مناسبة، بينما يجهلون أسماء وزرائنا في إقليمي الجمهورية.

إن على هذا الشباب حقوقًا مقدسة، واجبة الأداء لشعبنا العربي الكبير، ويوم أدائها آتٍ قريب، فلزامًا على الشباب أن يستعد لمواجهة هذا اليوم، مزودًا بكل إمكانياته، وقدراته؛ ليكون عند حسن الظن به دائمًا، فأنظار هذا الشعب العربي ترقبه عن كَثَب، فعليه أن يعد نفسه إعدادًا إيجابيًا صالحًا، حتى يستطيع أن يقيم - في الداخل - عدالة اجتماعية تكتسح رواسب الصراع الطبقي المرير، وأن يكون - في خارج حدود وطنه الكبير - العين الساهرة على صيانة مقدساتنا، التي تشكل كياننا المادي، ووجودنا المعنوي، وتتمثل في القومية العربية، والوحدة الشاملة، اللتين تنتظران من شباب العرب أن يكون حارسهما الذي لا ينام.

(١٤) الاصطياف... حق للجميع(*)

أخذ الناس يهرعون إلى مصايفهم في هذه الأيام هروبًا من نار الحر الموقدة..

وقد أحسنت بعض الهيئات والشركات صنعًا، حين استأجرت لموظفيها وعُمَّالِها في بعض المصايف «كباين» من البلدية؛ لتساعد الراغبين من موظفيها ليصطافوا هم وأسرهم بما لا يثقلهم ماليًا، ويضاعف أعباء الحياة الملقاة عليهم، وبذلك تحمي هذه الهيئات موظفيها من جشع التجار والمستغلين، الذين ينتظرون مواسم الصيف بفارغ الصبر ؛ ليفترسوا المصطافين، فيغرقوهم في الديون، أو يجعلوهم يبكرون بالعودة، قبل أن تستشعر أجسامهم بالراحة، أو تتنسم أعصابهم العافية...

وقد يكون من حق أي موظف أو عامل، في هيئة، أو شركة، أو مصلحة حكومية، أو مؤسسة عامة، أن يجدد طاقته أو قدراته أو نشاطه في هذه المواسم، وأن تَبْذُلَ له الجهة التي ينتمي إليها العون المادي، الذي يعينه على تحقيق هذه الرغبة، التي تجني هذه الجهة من ورائها ثمرة جهده المتصل ونشاطه الدائم، خلال شهور العمل والإنتاج...

والأمل معقود على السادة المحافظين، ممن تقع المصايف في محافظاتهم- ونحن في مستهل أيام الصيف - أن يمكنوا المواطنين جميعًا من التمتع بحق الاصطياف في غير «تعجيز» فيحددوا إيجار الغرف في «اللوكاندات» أو «الشقق» داخل المدينة، أو «الكباين» على الشواطئ بأسعار مستطاعة، لا ترهق المستأجر، ولا تحرم المالك من الكسب الحلال، أما ما يحتاجه المصيفون من خضر، ولحوم، وفواكه، فكثيرًا ما تصاب هذه الأشياء بارتفاع مفاجئ في أسعارها، لهذا ينبغي أن تنظم حملات مفاجئة لهذه المحال، التي تتجر[1] في هذه السلع، أو تُنشئ لذلك «جمعيات تعاونية صيفية» وبهذا يضيق الحصار على كل نهَّاز للفرص من المتاجرين في هذه الأسواق.

(*) نشر بجريدة المساء في السابع عشر من يونيو ١٩٦١م.

(٢) تتجر: أي تتاجر.

ولا تقل وسائل الترفيه والتسرية أهمية عن غيرها؛ لأنها هي «الحاجة الأصلية» التي من أجلها تتطلع النفوس في ظمأ إلى أمواج البحر، وأنسام الشاطئ، وأنفاس الأصائل والأسحار... وإذا استثنينا دور السينما فإن سائر أمكنة الملاهي والمسارح، والفرق المتنقلة تغالي في أسعارها، فإذا كان ثمن التذكرة في الدرجة «العادية» خمسة وثلاثين قرشًا، فقد استحال على أسرة متوسطة الحال أن تشهد مثل هذه المسارح...

ثُمّ تأتي المواصلات، وخذ مثلًا مدينة الإسكندرية، ولنفرض أن أسرة استأجرت مكانًا في «الأنفوشي» أو قريبًا من هذه الناحية – في داخل المدينة، أو في طريق إلى «البلاجات»... فلكي تنتقل أسرة مكونة من خمسة أو ستة أفراد بالأتوبيس، فإن ذلك يكلفها مبلغًا ليس بالقليل... وكثير من أمثال هذه الأسر يُقسّمون أيام الأسبوع فرارًا من تكاليف التنقلات فيجعلون للبحر أيامًا يخرجون إليه فيها، وأيامًا أخرى يقيمون فيها حيث هم، لا يغادرون منازل إقامتهم..

وحسنًا يفعل السادة المحافظون، لو أنهم حددوا لكل هذه أسعارًا معقولة ولتكن أسعارًا موسمية تسمى «أسعار المصيف» وبذلك يقدمون لمواطنيهم الصحة المجددة، والنشاط العائد؛ ليرجعوا إلى أعمالهم موفوري العافية، شديدي الرغبة في العمل والإنتاج.

كما أنهم بوضع الأسعار المحتملة لسائر الطوائف يُغْرون الناس بالاصطياف، وبذلك يحققون المتعة النفسية، والصحة الجسدية للمصطافين، من ناحية، والكسب المشروع والرواج الأكيد من ناحية أخرى، لمختلف أسواق المصيف...

ولقد كان المجلس الأعلى لرعاية الشباب في طليعة هذه الهيئات، التي أولت هذه المسألة بالغ اهتمامها، وكل عنايتها في المجال المرسوم للمجلس، وقد اعتمد مبلغ ١٣ ألف جنيه للنشاط الصيفي للطالبات والقائدات بمختلف المراحل التعليمية، وستحضر ٢٠٠٠ طالبة، ٦٠٠ قائدة، المعسكرات والمخيمات الشاطئية، التي ستقيمها إدارة رعاية الشباب، كما ستقيم الإدارة سبعة معسكرات للطالبات الممتازات، وقد خُصص لهذه المعسكرات مبلغ سبعة آلاف جنيه...

وسيبدأ المجلس الأعلى لرعاية الشباب موسمه الصيفي في أول شهر يوليو القادم، وينتهي في أوائل سبتمبر، وقد اختيرت أماكن المعسكرات بمدينتي الإسكندرية وبورسعيد، وقرر المجلس الاشتراك في هذه المعسكرات بالمجان، أما المخيمات الشاطئية فجعل لها اشتراكًا رمزيًا - جنيهًا واحدًا - نظير تمضية خمسة عشر يومًا في المصيف.

وكما يسرت إدارة رعاية الشباب هذه الناحية لهؤلاء الطالبات وغيرهن، من الطلبة، عملت هيئة المصانع الحربية على تمكين موظفيها من قضاء فترة ليست بالقصيرة في مصيف بورسعيد، واستأجرت من البلدية عددًا من «الفيلات» المعدة لهذا الغرض على الشاطئ الجميل... ويا حبذا لو صنعت مختلف الهيئات والمؤسسات الحكومية وغيرها ما صنع المجلس الأعلى لرعاية الشباب، والهيئة العامة للمصانع الحربية، إذن لوفرنا لمواطنينا صحة النفوس والأبدان، فيرتفع بناء الوطن قويًا ثابت الأركان.

(١٥) من كرامة الوطن... صقل أذواق الجماهير(*)

الذوق شيء ليس في الكتب، كلمات بسيطة، لكنها ذات دلالة عميقة.

والشعوب ذات الأصالة الإنسانية والتاريخ السمح، تستخرج من أعمالها الكنوز الجمالية، من نبل العاطفة، وأريحية الوجدان، وعظمة الخلق، وهذه الخصائص النفسية، والسمات الذاتية، تنبع من النفوس الخصبة، وتتدفق من المشاعر الطيبة، وحين تسري في ضمائر الشعوب، لا يدفعها إلا شعور متحرر منطلق، ليس في حاجة إلى توجيه فكري أو علمي، بقدر ما هي في حاجة ملحة إلى تحريك ودفع من عمل الوجدان الرفيع، والشعور الراقي، اللذين يستهدفان تبصير المجتمع الصاعد بالقيم الجمالية، والمزايا الإنسانية العالية، ومن هنا صحت العبارة القائلة... الذوق شيء ليس في الكتب...

ولا حرج في أن نتصارح، ونحن نخطو بمجتمعنا أولى الخطوات على أول الطريق، إننا نعاني تركة مثقلة من الرذائل، التي خلَّفها لنا زمن مضى وانقضى إلى غير رجعة.

وتبدو حاجتنا الماسة إلى صقل أذواق الجمهور، وتنقية ضمائر المواطنين، حين نَعْبُرُ شوارعها المزدحمة بالمارة، أو حينَ نَغْشى الحدائق والمتنزهات، في أيام العطلات، أو في الأعياد القومية، فالأوضاع المنحرفة التي يعمد إليها الشباب، ثم تلك العبارات النابية، التي تصك مسامع الناس الذين لا ذنب لهم فيها يسمعون، ثم هذه «الزفَّات» التي تتألف من الشباب المستخف بقيم الأخلاق والفضائل الإنسانية، لقد رأيت بعيني منظرًا عجيبًا يندى له الجبين، وأنا في طريقي إلى عمل رسمي في يوم شم النسيم، وكان ذلك أمام حديقة الأندلس، وعلى مرأى من تجمعات السائحين، يربو عددهم

(*) وجدنا أصل هذا المقال مكتوبًا بالآلة الكاتبة، ثم وجدنا صورة مصغرة منه مطبوعة بجريدة المساء بدون تاريخ محدد وهذا ما أثبتناه، ومن سياقه يتبين أنه مولود في المرحلة الزمنية، التي نشرت فيها بقية المقالات، تحت عنوان متكرر هو (رأي)، ويليه عنوان الموضوع كما هو واضح في سائر المقالات الشبيهة.

على أربعين سائحًا، كان منظرًا مؤسفًا أشد الأسف، شبان تتراوح أعمارهم حسب أحجامهم وأشكالهم -بين عشرين وثلاثين سنة، فرقة يحمل كل فرد منها «طبلة» وفرقة يستعمل كل واحد منها «زمارة»، والفرقة الثالثة كان أمرها أدهى وأَمَرَّ، فقد ركّب كل شاب فيها (صاجات) في أصابعه كتلك التي تستعملها الراقصات في الصالات، أو في ليالي الأفراح، وحول هذه الفرقة الأخيرة يدور الراقصون في حركات هستيرية وتخلُّع مقيت.

هذا مَثَلٌ واحد سيئ، على أمثلة كثيرة سيئة، تزخر بها مختلف أمكنة التسلية والترويح عن النفس، بل وتموج بها الشوارع والحارات والأزقة... وليس لهذه الآفات من تعليل إلا أننا نتجاهل رعاية أذواق الجماهير، وتعهدها بالصقل والتهذيب، حتى تستطيع هذه الأذواق أن تسيطر على الحواس، التي كُتب عليها أن تعيش في عصور الحضارة والمدنية، كما كان يعيش أسلافها في عصور البدائية والتخلف.

وإذا كان «الذوق ليس في الكتب» كما يقال، فإن علاجه أصبح في الكتب وغير الكتب، فعلى وسائل الإعلام والتوجيه تقع مسئوليات هذه الناحية التربوية للذوق العام، ولا مناص من أن نواجه عيوبنا مواجهة ذات فعالية، وأثر نفاذ، لكي تكون لهما نتائجهما في تقويم النفوس المعوجة، والضمائر الهامدة.

إن علينا أن نأخذ أفواه الطريق على هؤلاء الضالين، وذلك بإبراز الملصقات المخططة، أو المضيئة، والتي تشير برسومها إلى كيفية سير الإنسان مع من يرافقه على أفاريز الشوارع، أو في المنعطفات، كما علينا أن نزحم الحدائق والمتنزهات بأجهزة التليفزيون التي تعرض الصور الكريمة للأسر، وهي ترتاد هذه الأمكنة للتسرية عن النفس، والترويح عن الأعصاب المرهقة، أو للفرحة بمواسمنا وأعيادنا.

لقد أحسنت الإذاعة صنيعها، حين أنشأت برنامجًا موسيقيًا متعدد الألوان والمختارات الموسيقية، فليس كالموسيقى والألحان والأغاني العَفَّة، التي تنأى عن إثارة الجنس، وإيقاظ الغريزة، ليس كهذه الفنون من علاج لتنمية الوجدان النظيف، والشعور الخالص، والعاطفة الصحيحة...

إننا حين نعمل على تهذيب ضمائرنا وصقل أذواقنا، وسوف ننطلق على طريق الحرية والكرامة والإنسانية الصاعدة.

(١٦) أسبوع للنظافة.... في الريف(*)

نرجو للريف في ظل الحكم المحلي، أن يتمتع بالرعاية الشاملة، التي تَلَقّاها عواصم المحافظات ومدنها الكبيرة - من تطوير مستمر لمستويات النظافة والصحة، وأن الملايين التي تقطن القرى والكفور، لم تزل تعاني الكثير، من تفشي الأمراض والأوبئة المتوطنة، وتقاسي من الظلام الغامر الذي يلفها في كآبة، وضيق، وملل، منذ غروب الشمس، حتى يتسلل إليها ضوء الصباح الباكر، وعند بزوغ الفجر كل يوم، تدب الحركة في القرى والكفور ويَخف[1] أهل الريف إلى دواعي الحياة والعيش، ومجالات هذه الحركة، هي الحواري والأزقة، المكتظة بالرائحين والغادين، المتجهين بمواشيهم إلى الحقول، وفلاحة الأرض، أما المساحات الفسيحة «الجرون» التي تتوسط البيوت في القرى والكفور، فمشغولة بالتلال والأكوام المختلفة من حظائر المواشي والدواب، والتي تظل جاثمة في أمكنتها في شتى جوانب القرية، ووسطها، حتى يحين موعد الموسم الزراعي، الذي يحتاج إليها فيه ؛ لإعداد الأرض، وتجهيزها للخصب والنماء.

هذا الظلام الدامس الذي يغرق فيه الريف، طوال الليل، هو «الستائر» التي تتلفع بها الجريمة، ويتقمصها المجرمون، حين يدبون حوادث السرقة، والسطو، وقتل النفس التي حرَّم الله قتلها، ثم هذه التلال والأكوام المتراصة والمبعثرة في طول القرى وعرضها، ما هي إلا مراتع خصبة للذباب، والحشرات، ومستودع للجراثيم والقاذورات، التي تثقل روائحها الكريهة هذه الصدور الواهنة، وتشيع في أجسامها الهزيلة الانحلال، والتخاذل، والاستعداد للتجاوب السريع مع أخبث الأمراض، وأخطر العلل...

وهكذا لم تزل القاهرة والمدن الشهيرة في إقليمنا الجنوبي، تحظى بكل أسباب النظافة ووسائل الصحة البدنية، والنفسية، فالشوارع لامعة، وسيارات الرش والكنس،

(*) ترك الغزالي هذه المقالة مكتوبة بالآلة الكاتبة، وبلا تاريخ محدد، ولم نعرف إذا كانت قد نشرت في صحيفة أم لا.

(١) يخفّ: يتحرك.

تؤدي عملها بصفة مستمرة، وصناديق القمامة منبثة، في كل شارع وطريق الجزر الخضراء، والمساحات الشعبية والنافورات الجميلة، تجدها في أمكنة متعددة في القاهرة، كما تجدها في بعض المدن الأخرى من الإقليم الجنوبي...

أضف إلى ذلك كله وسائل نشر الثقافة، وتنمية المعرفة وصقل الأذواق من الإفادة المحققة، من أجهزة التليفزيون، التي تعمل بالحدائق، والساحات الفسيحة، في سائر أرجاء العاصمة، ثم المسارح ودور السينما، والندوات العلمية والأدبية والاجتماعية، التي تنظمها، وتدعو لها الهيئات الثقافية والدينية والأدبية المختلفة، مما يساعد على تنمية الوعي الثقافي، والاجتماعي بين الجماهير..

كل هذه المتع وهذا الترفيه، يُحْرَم منه الريف وأبناء الريف، وحتى يُؤتي الحُكْم المحلي ثماره المشتهاة، في هذا السبيل، وينعم أهل الريف بما ينعم به أهل المدن، نرى أن يبذل أبناء كل قرية وكفر، من الطلبة في شتى مراحل التعليم من وقتهم، وجهدهم، وتوجيههم لمواطنيهم في الريف، مما يحبب هؤلاء المواطنين في الأخذ بأسباب تنظيف قراهم، وتنسيقها، وتجميلها بما لا يكلفهم قليلًا أو كثيرًا، ونفوس هؤلاء المواطنين قد تجفل من النصيحة «الرسمية» والأوامر «الميري»، ولكنها قد تطمئن وتسكن لابن قريتها، فتتلقى نصحه وتوجيهه، في سماحة وترحيب، وأن هذه أمانة في أعناقهم، واجبة الأداء لمسقط رءوسهم، وعليهم أن يقيموا الندوات لرفع مستواهم النظافي والصحي، بمدارس القرية ومساجدها.

ولهؤلاء الطلبة من أبناء القرى والكفور فرصة مواتية في إجازة نصف السنة الدراسية المقبلة، فيستطيعون أن يخصصوا أسبوعًا للنظافة في قراهم، يبصّرون فيه أهل الريف بواجبهم، نحو صحة أجسامهم ونفوسهم، وعلى إخواننا الطلبة أن يبتغوا إلى تعريف أهلنا وعشيرتنا بهذا الواجب، بخير الوسائل وأنفذها إلى القلوب، فيعقدون حلقات للسمر البرىء، يتبادلون فيها الرأي الهادف ؛ للنهوض بالقرية إلى المستوى اللائق، كما أنه من الميسور أن ينشروا الوعي الصحي، عن طريق طلب بعض الأفلام، التي تعالج هذه الناحية، من مصادرها الحكومية وعرضها، وتقديم المسرحيات التي يعدونها هم، ويؤدونها بأنفسهم.

ولقد عُنى الاتحاد القومي بتزويد معظم القرى بالأندية الرياضية، ومن الممكن استغلال هذه الأندية - التي لابد أن يرعاها الحكم المحلي رعاية كاملة مرجوة - في إقامة الندوات الثقافية، والاجتماعية، التي تَعُود على القرية بالخير الأكيد، والنفع العام، وذلك بالعمل على توسيع المدارك وتنمية المعرفة بالثقافة الصحية خلال هذا الأسبوع، الذي سيقصره أبناؤنا الطلبة على خدمة أهل القرى والكفور.

كما يستطيعون بقروش معدودات يجمعونها من سائر أبناء القرية، أن ينيروا قراهم بالكهرباء، وقد نجحت هذه التجربة في بعض القرى بمحافظة الشرقية، وأصبحت تسبح طوال الليل في أضواء ساطعة، كم أن أبناءنا الطلبة يستطيعون بقروش معدودات أيضًا أن يشتروا جهازًا أو جهازين من التليفزيون ينقلونه في مختلف جوانب القرية، وعندما يتجمع نفر غفير من أبناء القرية عقب كل سهرة يقضونها في التمتع بمشاهدة التليفزيون، مثلًا يأخذ أبناؤنا الطلبة في التحدث إلى المجتمعين عن أثر النظافة في سلامة الأجسام وصحة العقول، ومدى الضرر الذي يحيق بهم وبأولادهم من جراء وجود هذه التلال والأكوام، التي تتخلف من روث الماشية وأتربة حظائر الحيوانات.

وليس كثيرًا هذا الأسبوع الذي يهبه الطلبة لأبناء قراهم في إسداء النصائح إليهم؛ ليأخذوا بأسباب النظافة في كل مسلك من مسالك القرية ومنعطفاتها.

إن أسبوع النظافة في الريف سوف يُؤتي أطيب الثمرات التي تجنيها القرية والقرويون، وإنا لهذا الصنيع لمنتظرون.

(١٧) الخدمات (البلدية) تضرب بجذورها المديدة في أعماق التاريخ(*)

وقف الخليفة الأموي، يعرض ببلدة الحِيرة، فانتفض رجل من أهل الحيرة واقفًا، وقال: أيَّدَ الله الخليفة... أتعيبُ بلدةً يُضْرب بها المثل في الجاهلية والإسلام...؟

وقال الخليفة – وبماذا تُمْدح الحِيرة.. قال بطيب هوائها، وصحة مائها، ونظافة سالكها ودروبها.. ثم بما نسقناه من تمهيد سُبُلها، ونزهة ظاهرها..

أيها السادة:

لقد سَبَقَتْ الأمة العربية في عصور حضارتنا المتعاقبة أممًا شتى في مجالات العمران، وميادين الصحة والنظافة، ومظاهر المجتمع المتطور الصاعد إلى أرفع المستويات وأكرمهما... رفاهية ورغدًا، ولما اتسعت الفتوح الإسلامية، ارتقى فن العمارة، وشيَّدَ مشاهيرُ العرب في مكة والمدينة العمائر الواسعة من الحجارة والرخام، ويقال إن الدار التي بناها عثمان بن عفان كانت غاية في العظمة والبهاء، ولما دخلت الشام وفارس في الحكم العربي، اتخذ العرب لأناسهم طرازًا للعمارة خاصًا، وقد فاق هذا الطراز الفن البيزنطي والفارسي من حيث الرقي وجمال التنسيق والإتقان، وقد اتبعوا في تخطيط المدن ما يناسب حالتهم وميولهم الاجتماعية، فقد كان بكل حيٍّ أو قسم، أبوابٌ منيعة تفصله عن الأقسام الأخرى، يقيم عليه الحراس في إضاءة كاملة، فقد يدركون بِفِطرِهم السليمة أن الإضاءة سبب قوى من أسباب الأمن والطمأنينة على صيانة الأموال والأنفس والثمرات.

كما كانوا يُعْنَوْن في تخطيط مدنهم بشق المجاري، ونظافة القنوات، التي يتدفق منها الماء الصالح للشرب.

(*) كان هذا المقال مكتوبًا بالآلة الكاتبة مع أمثاله من المقالات الأخرى، التي نُشر معظمها في جريدة المساء المصرية.

وكانت دمشق حاضرة الدولة الإسلامية، منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان، وَغَـدَتْ أكبر مدن الإسلام في ذلك العصر، وأفخمها في الأبهة والعمارة، وقد عُني أهلها إذ ذلك بتجميلها وتنسيقها، وتعبيد طرقها وساحاتها فأكثروا فيها من الأنهار والينابيع، وعُنوا بنظافتها وإضاءتها عناية فائقة، وكانوا يفرغون من كل تعمير أو تجميل أو إصلاح، في سرعة باهرة ومهارة بارعة... ومن ظريف ما يقال: إن دمشق سميت بهذا الاسم لأنهم «دمشقوا» في بنائها وتنسيقها... أي أسرعوا، كما قيل إنها المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ والتين هو الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون هو الجبل الذي عليه بيت المقدس، وطور سنين هو الشعب الحسن، وهذا البلد الأمين هو مكة...»

ودمشق على سبيل المثال كانت آية من آيات فن العمارة العربي، وقد ذكر ياقوت في معجمه[1] أن دمشق كان لها سبعة أبواب، وكانت أبراجها العالية... تهيج القلوب وتسر الناظرين، ولما تولى الوليد الخلافة، جمَّل دمشق وضواحيها بالمباني الفخمة... ومن آثار الأمويين الخالدة في دمشق مجاري الماء، وقد بلغ نظام القنوات، والأنهار أن صار لكل دار بدمشق نافورة خاصة، وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسة التي شقها الأمويون؛ لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة، والقناطر الكثيرة المقامة على الأعمدة، التي شيدوها؛ لتوصيل مياه الشرب إلى الدور والحدائق الغناء بأشجار الظليلة الوارقة، وإلى السِّكك والدروب، التي كانت تغمُرها الأضواء، وينشر فيها القائمون بأعمال النظافة والإشراف على فوانيس النور، المقامة على أفواه الطرق وأبواب المنازل.

وفي العصر العباسي نهض فن العمارة نهضة كبرى، ومن أهم مظاهر هذه النهضة مدينة بغداد وسامراء مثلًا ثم هذه القصور المتناثرة هنا وهناك في طريق مكة... ويقول الطبري: «أمر المهدي ببناء القصور في طريق مكة، وأوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية وأمر بالزيادة في قصور أبي

(١) معجم البلدان- ج٢، ص٤٦٣.

العباس.. ويضيف المسعودي[1] قصر محمد بن سليمان، وكان قد ولي البصرة في عهد المهدي.... فقال «لما بني محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار دخل عليه عبدالصمد بن شبيب بن شبة فقال له محمد... كيف ترى بنائي؟ قال بنيت أجل بناء بأطيب فناء، وأرق هواء على أحسن ماء...

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالعمارة اهتمامًا عظيمًا، فنسقوا الشوارع وأقاموا العمائر، وعملوا على إضاءتها ونظافتها ما وسعهم الجهد، وأمكنتهم طاقتهم، فكان الواقف مثلًا في نهاية أحد الشوارع يرى قصر الخليفة في بغداد، كما هو الحال فى حي السكاكيني في مدينة القاهرة، حيث نرى قصر السكاكيني ماثلًا أمام الأعين من كل الشوارع المتفرعة، وفي عهد بني بويه[2] بلغت العناية بالعمارة مبلغًا كبيرًا، فكان معز الدولة ولوعًا بها ولعًا شديدًا، فاستدعى البنائين المشهورين من الأهواز، والموصل وأصبهان، واقتفى أثر معز الدولة، عضد الدولة وهو الذي عمَّر مدينة بغداد، بعد أن دمرتها ثورة الجنود، وأمر أصحاب العمارات التي خربت بإعادتها إلى ما كانت عليه وتجميلها، ونسق الأحياء الواقعة، على ضفتي نهر دجلة، ونظَّفها، وأقام الميادين والمتنزهات، وجدد ما اندثر من الأنهار، وأعاد حفرها، وعين الحفظة، والحراس، وأصلح الطرق من العراق إلى مكة، ودبر الأطباء والموظفين، وحدد لكلٍ مهامه وأعماله، وكانت الخدمات التي تطلق عليها الآن اسم «الخدمات البلدية» موضع اهتمام العرب في سائر عصور تاريخهم وحَفَل عهد بني بويه وخلفائهم بالعمارة والإنشاء، فقد شيد عضد الدولة بمدينة فارس وخورستان وغيرهما من المدن كثيرًا من العمائر، ومهد الطرق، وجعلها بالإضاءة، وعين لها عمال النظافة كما عُني بشئون الصحة والطب، في عهد ابن طولون[3] كانت العمارة في مصر مضرب الأمثال، كما كانت في المغرب وبلاد الأندلس وقد أقام عبيدالله المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمغرب بمدينة القيروان التي أسسها عقبة بن نافع،

---

(١) صاحب كتاب مروج الذهب.

(٢) قبيلة ذات أصول فارسية، وتحكمت في مقاليد الخلافة العباسية في القرن الرابع الهجري إلى ما يقرب من منتصف القرن الخامس، حيث استلب منهم السلاجقة الأتراك هذا النفوذ.

(٣) وذلك في مصر إبان القرن الثالث الهجري (عصر الدولة الطولونية).

واتخذها حاضرة لدولته حتى سنة ٣٠٢هـ حيث وضع أساس مدينة جديدة أسماها «المهدية» حاضرة الفاطميين. إلى أن قَدِم الخليفة المعز بن منصور مصر فأصبحت مدينة القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية.

وهكذا يزخر تاريخ العرب منذ جاهليتهم وعبر عصورهم المتلاحقة بعد الإسلام بفن العمارة الأصيل، ومظاهره العديدة من حرص على النهوض بأعباء الخدمات العامة، من حيث رعاية الصحة والنظافة والإضاءة، وتمهيد الطرق، وتنسيق الحدائق، والمتنزهات، وتنقية المياه الصالحة للشرب وذلك حتى يتطور المجتمع العربي إلى أرفع المستويات صحيحًا سليمًا موفور الحظ من الرفاهية والسعادة ورغد العيش.

(١٨) بدع يبرأ منها رمضان! (*)

دار الفلك دورته، وجال الزمن جولته، تلك التي يعبرها بآلائه ونَعْمَائه، شهر الصيام، الذي يرتقبه المسلمون في أقطار العروبة والإسلام، كما يرتقب الظمآن جرعة من ماء، أو كما يشتهي الحران هدأة تحت وارف من ظل، هذا الشهر الذي تستشرف طلعته أرواح المسلمين وقلوبهم، عبر سنة كاملة، هذا الشهر لا يحسن استقباله طوائف عدة من معشر المسلمين، واليوم ولم يبقَ من هذا الشهر غير أيام معدودات، لنستطيع أن نذكر بما ارتكبه بعض الصائمين، أو غير الصائمين، من بدع باسم هذا الشهر، وهو منها براء... ولقد شَهِدتُ هذه البدع بعينَيّ رأسي،، ولمستها بكلتا يدي، وكثيرون يذكرونها، أو قد يكونون من مرتكبيها.

إن الانفعال بأفراح رمضان، غير التهريج من أجل رمضان، والتجمعات في المقاهي للتسلية وإزجاء الوقت، غير الاستخفاف بالقيم الروحية، والمثل العليا، في شرائع الدين، ومذاهب الأخلاق.

هل يصدق القارئ أن بيتًا سكانه مسلمون، ومعروف بأن من أصحابه من أخذوا من العلم والثقافة الإسلامية بنصيب ليس بالقليل، هذا المنزل يقوم صاحبه منذ أسبوعين بإرسال بطاقات لحفلة «زار ساهرة» ابتهاجًا بشهر رمضان، وكنت من المدعوين، ولما وصَلَتْ إليّ الدعوة حزنت، وذهبت نفسي حسرات، على عميد هذا البيت، الذي بادر بلقاء الله، وخَلَفَ من بعده خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات... وإلى القارئ بعض النماذج من قائمة هذا البدع:

هل من شعائر الصوم أن ينتشر الصائمون كقطع الليل المظلم زاحفين على أفاريز الشوارع في أصيل كل يوم ؛ «ليسلوا» صيامهم بإلقاء الألفاظ النابية والعبارات البذيئة في مسامع الغاديات والرائحات.؟

(*) وصل إلينا هذا الموضوع، ضمن مقالات الغزالي المكتوبة بالآلة الكاتبة، ولم نتأكد من نشره في جريدة المساء، أو في غيرها.

ولا يدفعهم الفضول والتسول للوقوف أمام «فترينات» عرض الأزياء والحاجيات، إلا إذا كان المكان حاشدًا بالسيدات والفتيات، ومن العجيب أنهم يقتحمون هذه الأمكنة التي يقف فيها الجنس الناعم ؛ لأن هذه «الفترينات» لا تعرض إلا كلّ ما يخص هذا الجنس، غير أن هؤلاء المتسكعين لا يطيب لهم أن يقفوا على الرغم - من هذا - أمام هذه الفترينات، ويطيلوا الوقوف....

هذا مَثل من الأمثلة الرديئة التي تُرتكب أطراف النهار، أما عن «مخازي» آناء الليل، فإلى القارئ على سبيل المثال أيضًا لا على سبيل الحصر، هذا المثل:

هناك في الحرم الحسيني، وجوار مشيخة الأزهر، تندس بين الأبنية المتداعية التي تريد أن تنقض، قهوة الفيشاوي، المباءة المزدحمة بكل ما خلق الله من سِحَن[1] متباينة، وأجناس مختلفة من بني الإنسان، ومن بين هؤلاء نلمح الوافدين والوافدات بعد منتصف الليل، من ذئاب البشر، وطرائد الليل، من بائعات الهوى، وخليعات المراقص، ممن حددن مواعيد اللقاء في سهرات رمضان بالفيشاوي، وبعد أن تأخذ كل منهن مكانها إلى جانب صاحبها، تبدأ كركرة «الشيشة» مع رشفات الشاي الأخضر، ويظل الحال على هذا المنوال، حتى مطلع الفجر، ثم يأخذ المجتمعون في الانصراف، وقد تأبَطّ كل منهم ذراع صاحبته، ويبدأ هناك في بيوت أخرى، يبدأ ليل آخر في مشرق الشمس.

وأخيرًا نرجو أن يكون رمضان في عامه القادم، أسعد بصائميه من شهر رمضان الحالي، إن شاء الله.

---

(١) السَّحْنة: لون البشرة (الهيئة).

(١٩) أزمة المواصلات في القاهرة(*)

كنت قد قرأت في بعض الصحف الصباحية، منذ أسابيع قلائل مضت، أن قرارًا وزاريًا قد صدر يستهدف حلًا سريعًا عاجلًا، لأزمة المواصلات، يقضي بإضافة ٢٠٠ أتوبيس جديد، إلى السيارات العاملة على مختلف خطوط مؤسسة النقل العام بمدينة القاهرة، وقد حدد القرار أول شهر نوفمبر الحالي موعدًا، لبداية تخفيف حدة هذه الأزمة - التي اشتدت أعراضها، واستفحل خطرها، في كل ميدان من ميادين المواصلات في القاهرة،

ومنذ أكثر من شهر، وموضوع مواصلات القاهرة، يلح على خاطري، إلحاحًا ثقيلًا، كلما تحتم عليَّ أن ألجأ إلى هذه المواصلات، لكنني حين قرأت نبأ انفراج هذه الأزمة عن طريق هذا القرار، الذي اتخذه وزير الشئون البلدية، في اجتماع عقده مع رجال الوزارة، وشهده مدير مؤسسة النقل العام للقاهرة، حملت نفسي على الانتظار واليوم، وقد انطوى من شهر نوفمبر نصفه تقريبًا، فإن الأزمة لم تزل بخير، والله في عون القاهرة، وجمهورها المظلوم مع مؤسسة النقل، التي كنا قد تنفَّسنا الصعداء، يوم آلت إليها أمور المواصلات في القاهرة، التي يربو عدد سكانها على ثلاثة ملايين، ولست أدري إن كانت هذه السيارات المائتان قد بدأت عملهما في شهر نوفمبر الحالي، أم لم تبدأ، لكن الذي لا شك فيه أننا معشر «المنتفعين» بهذه السيارات، ما زلنا نقاسي العذاب ألوانًا، من عدم القدرة على تفريج أزمة المواصلات بالسرعة التي تقتضيها مصلحة الجمهور، التي أهملت إهمالًا كان من شأنه أن هذه الوسيلة الخطيرة - في ميدان الخدمات العامة، أصبحت مثار متاعب لا حصر لها، ففضلًا عن أن بعض هذه السيارات المستعملة على الخطوط الزاخرة بالركاب من موظفين وتلاميذ وطلاب جامعيين يكاد يكون بعضها مستهلكًا، فإن الاشتراكات المجانية التي تبعثرها مؤسسة النقل، ذات اليمين وذات الشمال، تدعو إلى الأسف والتساؤل، فما حقيقة المسوغات التي حدت بالمؤسسة أن تمنح

(*) مقال مكتوب بالآلة الكاتبة للغزالي، وبلا تاريخ محدد لكتابته أو نشره.

«فرقًا» بأكملها من الطلبة تصريحات مجانية مما يحرك الألسنة بهذا التساؤل، أهي مصروفة لهم، أم لآبائهم؟ ولأي مبرر «ينحشر» جيش من السعاة، والخدم «الخصوصيين» في الدرجة الأولى، مما يُعِين «النشالين» على ممارسة أعمالهم في أمان واطمئنان، ثم لم تكن الدرجة الأولى، هي المكان المختار لأولئك الذين يجيبون الإجابة التقليدية المحفوظة «مصلحة» وذلك حين يُسألون عن تذاكر الركوب.

يضاف إلى ذلك هذه السجلات التي تدور بين المفتشين والمحصلين والسائقين – في الدرجة الأولى – من «نكت» بذيئة، وتعليقات يندى لها الجبين.

ثم هناك هذه التصرفات التي يعمد إليها سائقو هذه المركبات، ويضيع بسببها، على الجمهور مصالحه التي لا وزن لها عند هؤلاء، كأن يمرون على «المحطات» ويهدئون من السرعة، حتى لا يخيل للمنتظرين أنهم سيركبون، فإذا بالأتوبيس أو بالتروللي باس ينطلق في اندفاع مفاجئ مما يسبب الذعر والاضطراب، بين المنتظرين من الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال، الذين كثيرًا ما يفقدون أمتعتهم وحقائبهم، ويتعرضون للأخطار بسبب هذه «البهلوانات» السمجة، فمن بأيديهم قيادة هذه المركبات؟

وفي رأيي أن خدمات الجمهور لن تُؤَدَّى على وجهه المُرْضى، إذا كان الإشراف عليها يأتي من داخل الغرف و«البرفانات» التي يجلس خلفها هؤلاء السادة المسئولون عن مؤسسة النقل العام، مكتفين بالاطلاع على الملفات والأوراق.

وإنني أحب أن أضع لهؤلاء السادة قياسًا مع الفارق الهائل، ألا وهو أن يأخذوا مَثَلَهم الأعلى وقدوتهم الطيبة من رئيس البلاد، وزعيمها العظيم، الذي لا تغنيه سفارات بلاده، المنبثة في كل مكان، وسفراؤه المنتشرون في جميع بقاع العالم، من حضور المحافل الدولية، وزيارات عواصم البلاد الصديقة، فهو لا يكاد يعود من رحلة في شرق الدنيا أو غربها، إلا ليفكر في رحلة أخرى، فهو اليوم في القاهرة، وغدًا في دمشق، وأمس في الولايات المتحدة، أو في يوغسلافيا أو باكستان أو روسيا، وقد كان من الميسور على سيادته أن يلم بجميع ما يتصل بشئون بلاده عن طريق السفارات والسفراء، ثم عن طريق زيارات وزرائه لهذه البلاد القريبة

والبعيدة، لكنه حريص على أن يلتمس بنفسه وبشخصه كل العلاقات والأوامر التي تربط هذه الشعوب بشعب الجمهورية العربية المتحدة..، إذن لا أقل من أن ينزل مثلُ هؤلاء السادة الذين أُلقى إليهم أمر الأشراف على مثل هذه المؤسسات إلى الشوارع، ويتركوا غرفهم «المكيفة» ويركبوا مع الجمهور هذه المركبات ؛ ليروا بأعينهم، ويسمعوا بآذانهم هذه الفوضى «المنظمة» التي يعيش فيها هذا الجمهور المغلوب على أمره...

ثالثًا: المقال السياسي

(١) عودة البطل(*)

أريد أن أقدم بين يدي القارئ، ونحن في مستهل هذه الصلة الفكرية، التي سيكون نسيج خيوطها النامية، بيني وبينه من أضواء هذه النافذة، أريد أن أقدم له تعريفًا عابرًا سريعًا، لهذه الحياة التي تطل على شواطئها نافذتي هذه، التي سوف أقف وراءها، في الفينة إثر الفينة ؛ لأترجم عنها صورًا من الحياة وظلالها، ورسومها ونماذجها تلك التي تتحرك وتتواثب من حولي وأمامي، في أفراحها، وأشواقها وهواتفها.

إن الحياة كتاب ضخم مفتوح، صفحاته تلك الأيام والليالي، التي تطويها أو تطوينا، وسطوره هي هؤلاء الأحياء الذين يَغْدون ويروحون، أفواجًا كالأمواج، بعضها يحمل الزَبَدَ الذي يذهب جُفاء، وبعضها يحمل ما ينفع الناس فيمكث في الأرض... أما عناوين هذا الكتاب الضخم المفتوح فهي هذه الأحداث الكبيرة والصغيرة على السواء.

وسأقف بالقارئ خلف هذه النافذة قليلًا أو كثيرًا، مع الأيام حينًا، ومع الأحياء والأحداث حينًا آخر، وقد تطول بنا هذه الوقفة أو تقصر، على قدرة اليقظة النفسية، التي تدفع دفعًا للوقوف وراء هذه النافذة ؛ لنرفع الحُجُب عن العيون، وننفذ بالأفكار إلى حقائق الحياة، ثم نتعقب الأسباب في مظانها ونقتحم على

(*) نشر بجريدة المساء في السادس عشر من أبريل عام ١٩٦٠م.

التاريخ محاريبه المقدسة وأبراجه العاجية؛ لنجلو العِبرة، ونفلسف الأهداف، ونسير مع الركب الصاعد في الطريق البعيد.

خلال هذه الأيام التي نمر بها شَهِدت باكستان[1] أروع استقبال في تاريخها حينما هبط أرضها رائد القومية العربية وصانع تاريخها، البطل جمال عبدالناصر، ومن فلسفة هذه الاستقبالات الضخمة الفخمة، التي يلقاها رئيسنا البطل، إنها في حقيقتها من صنع القومية العربية فهي التي صنعت هذه الزيارة، ثم هي أيضًا التي أطلقت الحناجر بالهتاف، وحرَّكت الأيدي بالتصفيق وملأت هذه القلوب بالأشواق والأفراح برجل الشرق العملاق، وطليعته التي توجه كفاح الأمة العربية، ويشد نضالها، وينفخ في روحها، وتضع مشاعل التطور أمام الملايين.

وعبدالناصر حين يجتمع من حوله موكب القومية العربية في كل مكان، إنما يتيح لهذا الشعب العربي، أن يتزود من إيمان هذا البطل، وإصراره، وتصميمه على أن يظفر بحقوق الأمة العربية كاملة، غير منقوصة، وسط هذه الأعاصير والعواصف الخبيثة، التي تملأ آفاق الدول الاستعمارية وأعوان الصهاينة.

إن هذا الإيمان العميق برائد القومية العربية هو الذي يؤلف هذه الجموع، ويُشعل حماسها، ويؤجج جذوتها؛ لأنه ينبثق عن إيمان هذا البطل الذي يقتحم الأهوال والمخاطر في ثقة وعناد، يصعد هضبة التاريخ في قوة، وعزم ويقين، لقد استطاع عبد الناصر أن يدفع هذه الملايين في سائر أرجاء العالم العربي، في زحف مقدس رهيب، وأصبح الشعب العربي يؤمن من أعماقه بأن القوة التي ستخلقه خلقًا جديدًا، إنما تكمن في قوميته العربية، التي كانت حلمًا فأضحت حقيقة بارزة، وخيالًا فأصبحت واقعًا ملموسًا.

إن مفهوم القومية العربية عند الشعب العربي، مفهوم رسمه في وعيه، ارتباط هذا الشعب الوثيق بالقيم الإنسانية الرفيعة، وفهمه العميق لحقائق تاريخه وماضيه

---

(١) كانت باكستان والهند فيما مضى دولة واحدة ثم انقسمتا فصارت الهند دولة، وباكستان دولة، وهذه كانت مكونة من جزئين هما باكستان الغربية، وباكستان الشرقية ثم انفصلا عن بعضهما إلى دولتين هما باكستان وبنجلاديش.

العظيم، وإيمانه الكبير بأن يؤدي دوره في إسعاد البشرية جمعاء،... ويستقبل الشعب العربي غدًا بطله العائد من الهند وباكستان، بهذا المفهوم، وهو بهذا المفهوم الذي يستشف حُجُبَ الغيب، ويتعمق أمجاد التاريخ، يتحرك في عزيمة ماهرة، وإرادة غلابة، هزت أعداءه، ورسمت أحلامهم.

لقد مضى حِينٌ كان الدهرُ، يأخذ ألوانًا وأشكالًا من المعاني، يخادع بها المستعمر جماهير الشعوب، ويميت فيهم ضمائرهم، ويعزلهم عن أوطانهم وحقوقهم في الحياة والحرية، والكرامة... ثم أتاح الله للأمة العربية هذا البطل الذي تسلم لواءها ورفع رايتها، فانطلق مع إشراقة صبح يوم ٢٣ يوليو عملاقًا جبارًا يضرب الأرض بقدميه، فتميد تحت أقدام الاستعمار الواهنة، وقراصنته المتمثلين هنا وهناك.

والقومية العربية في هذا المد الثوري، المتجه بكل طاقته إلى الأهداف الكبرى تُفزع الاستعمار، وتقض مضاجع المستعمرين، ذلك لأنها سلاح طوَّح بهم، وأطفأ نارهم وفلّ حديدهم، وصَرَع أعوانهم وجَردهم أمام مواطنيهم، فبدوا على حقيقتهم في استخذاء وهزيمة وعار.

والمد الثوري لهذه القومية العربية، أصبح يهدر ويتدفق، كالشلال الجارف، يكسح كل من تسول له نفسه الوقوف أمام طوفانه الرهيب.

(٢) الرئيس البطل... يحيي اليوم أرض البطولات(*)

ذكريات النصر تعبئة لضمائر الشعوب الحية، وصهر لمعادنها الأصلية، وتجميع لطاقاتها الشتيتة، ثم هي عَرْضٌ مثير لقصص كفاحنا في ميادين الشرف والبطولة، والفداء.

وسيقف اليوم، الرئيس البطل - جمال عبدالناصر- بين أفراح «المنصورة».. بهذه الذكريات الخالدة ليحييّ أرض البطولات والأبطال تلك التي قهرت الغزاة، وصرعت الطغاة، وعفّرت جباههم الذليلة بترابها العزيز.

وإن المنصورة - وهي تزخر اليوم بمواكب السعادة والمجد، فتلتقى بذكرياتها الكريمة، وأمجاد بطولاتها الباقية عبر تاريخنا الماضي، لتشعر أعمق الشعور وأصدقه، بسعادة غامرة جارفة، وهي تستقبل بطل هذا الشعب العربي الأبي الذي يصنع تاريخنا الحديث.

وإن بطلنا العملاق حين يشارك هذا الشعب الباسل في هذه المدينة المكافحة، أفراحه ومباهجه، بإحياء ذكرى انتصاراته على الطغاة البغاة، ليعيد لهذا الشعب حقائق من تاريخه البطولي العريق، الذي يتمثل فيما صمم عليه، صلاح الدين، والملك الصالح أيوب، من استئصال شأفة[1] الصليبيين الغزاة.

وإن الشعوب المتحررة، حين تريد أن تضع المشاعل الهادية، فوق طريق بعثها وانطلاقها، لِتَقْبِسُ أضواء هذه المشاعل، من أضواء ذكريات انتصارها، وأعياد كفاحها، في سبيل حرية الوطن وصيانة ميراث حضارته ومقدساته، وقد انتصرت

(*) نشر بجريدة المساء في السابع من مايو عام ١٩٦٠م.

(١) الشأفة : القرحة في أسفل القدم، وقيل البغض، وفي المثل استأصل الله شأفته : أي أذهبه الله كما أذهب تلك القرحة بالكيّ.

المنصورة على الغادرين، أولئك الذين يمثلهم الأسير المهزوم لويس التاسع، وجنوده الأوشاب[1] من فرنسيين وإنجليز.

وإن في هذه الحفاوة البالغة بذكريات انتصارنا، لتبصيرًا لمواطنينا بحرب الحرية، والكرامة، والفداء، التي خاضها شعبنا العريق، صامدًا في وجه قوى البغي والعدوان، في بطولة وصلابة وإيمان، وفي إحياء ذكرى هذا الانتصار، تعريف لجيلنا في هذا العصر الذي نعيش فيه، بما كان يتمتع به شعبنا من طاقات هائلة في البذل والتضحية والإيثار.

وربما كان من حق هذا الجيل أن يتزود من روح النضال، التي كانت تعمر قلوب هذا الشعب في ماضيه البعيد والقريب، هذا الشعب الذي صنع أعرق حضارة عرفتها الإنسانية فوق هذه الأرض، خلال تاريخه الحافل بمواقف البطولة والأبطال، الذي سجل عظمة كفاح هذا الشعب، وروعة نضاله في سبيل الذود عن مقدسات الوطن ومقدراته.

ومن هنا استطاع هذا الشعب أن يصون، وأن يعمّق طريق التطور الصاعد، لهذه الإنسانية، وكان له في هذه المجالات مواقف مشهودة تنحني أمامها تواريخ الشعوب جمعاء.

فيوم أن زحف التتار من قلب آسيا بجيوشهم الجرارة المدمرة تأكل الأخضر واليابس، فتساقطت الدول صرعى تحت صواعق معاركهم، لم يكونوا يقدرون أن هناك قوة تجرؤ على منازلتهم، والالتحام معهم، حتى تصدى لهم شعبنا، فقضى عليهم وخلصنا منهم، وحمى الحضارة الإنسانية من أخطار التدمير والهلاك، فحفظ بذلك التراث الفكري للبشرية كلها، وأمِنَ العلماء والمفكرون، والفلاسفة الذين لم يجدوا ظلًا وارفًا كظله، ولا مقامًا كريمًا كمقامه، وكان لهم في شعبنا الأمن، والحرية، والرخاء.

وحين نَسِيتْ بعض الشعوب المستبدة، أو تناست حقيقة شعبنا العريق فاعتدوا

---

(١) الأوشاب : من البشر وهم الأوباش المتفرقون باضطراب.

عليه في القديم، واعتدوا عليه في الحديث، ذهبت هذه الشعوب الظالمة، وبقي شعبنا عزيزًا أبيًا، بفضل ما يملك من رصيد ضخم وثروة طائلة من قوة روحه في النضال، وعنف صراعه في الكفاح، وشدة صلابته في الحق.

لقد وقف أبناء هذا الشعب في الماضي والحاضر، كالبنيان المرصوص لم ينفذ من بينهم غازٍ معتدٍ، أو طاغية أثيم.. وقفوا - في معركة بورسعيد - شعبًا، وجيشًا، وقائدًا، وقد تهاوت من حولهم، قوى دول ثلاث باغية من بينها فرنسا الغادرة في كل عصر وزمان.

وحين استبسل القائد البطل، واستقتل في معركة القومية العربية ببورسعيد، استرجع قصة فرنسا المهزومة وملكها الأسير، الذي سحبه الشعب، كما تسحب السوائم، في السلاسل والقيود، وألقي به سجينا مَضِيمًا، في دار ابن لقمان، ثم خرج منها طريدًا مدحورًا، يجر وراءه الفشل، والخيبة، وسوء المصير.

لقد قاتل الشعب في معركة المنصورة حشود الزاحفين الطغاة، وكان مع الشعب جنوده وعساكره المدججون بالأسلحة وآلات القتال، كما اشترك النيل مع أبنائه في القتال بطوفانه الغاضب، وأمواجه الثائرات.

ويقول التاريخ: مِصْر هبةُ النيل، وقد حرص النيل على ألا تلمس هبتَه يدُ الآثمين المعتدين، فقد استغرق الصليبيون شهرًا كاملًا ليقطعوا خمسين ميلًا، كي يلتقوا بالبحر الصغير على مشارف المنصورة. حين قاومهم تيار النيل، وعاق تيار هذه الحملة الغاشمة، فتمكن المسلمون من إعداد نفوسهم، وإحكام مواقعهم، واطمئنانهم للفوز والانتصار، وتَمَّ لهم ما أرادوا وانتصروا حين صمم هذا الشعب على فداء وطنه، بكل نفس ونفيس، فقدم في سبيل ذلك التضحية، والإيثار، والدم، وكما اشترك النيل الكبير في كفاح هذه الحملة، اشتركت روافده كذلك، فقد ابتلعت مياه البحر الصغير الجسر، الذي أنشأه لويس بعرض البحر الصغير ؛ ليستطيع عبوره، فلم يتمكن الصليبيون أمام اكتساح المياه لهذا الجسر من عبور البحر، واغتنم المسلمون الفرصة فشنوا هجومًا مدمرًا رهيبًا على مراكز الصليبيين الدفاعية، ومثَّلوُا بأعدائهم شر تمثيل، وإزاء استبسال الشعب والحكومة في معركة

المنصورة، كان كل هم لويس التاسع أن يأخذ موقف الدفاع في هذه المعركة، التي قَضَت على هذه الحملة، وعلى الصليبيين القضاء الأخير.

وإذا كان صحيحًا ما يقال.. من أن التاريخ يعيد نفسه، فإن هذه العبارة لم تصح يومًا ما، في أي تاريخ لآية أمة من الأمم، كما صحَّت فيْ معركتي المنصورة وبورسعيد، فهذا الموقف الخالد، الذي وقفته المنصورة في معركتها المنتصرة، هو الموقف بعينه الذي وقفته بورسعيد في معركتها الظافرة، حين وقفت الحكومة والجيش والشعب والقائد، وقفة رجل واحد.

وستحقق القيادة الرشيدة الماثلة، في البطل الملهم - جمال عبدالناصر- أكرم الغايات، وأشرف المكاسب، فهو يجمع قوى العرب، ويوحد الصف، ويصعد بالقومية العربية، في طريقها الطويل ؛ ليندفع ركبها الزاحف فوق أشلاء الصهيونية الدخيلة ؛ لتخلص هذه المنطقة العربية لأبنائها العرب من المحيط إلى الخليج.

(٣) القوى الروحية سلاح العرب في معاركهم(*)

احتفى جمال عبدالناصر، في هذا الأسبوع بالتاريخ، واحتفى به التاريخ.

كان التاريخ السالف للقومية العربية نبعه السلسال الذي ارتوى منه وأروى، وكان هو النهر العذب، الذي فاض على تاريخ القومية العربية المعاصر رِيًا، وخصبًا وازدهارًا...

كان التاريخ مادة خُطَبِه، فأصبح هو مادة للتاريخ.. ذلك التاريخ الذي يمليه جمال عبدالناصر في هذه الأيام دروسًا قاسية موجعة، على أمم من أشد الشعوب بأسًا وقوة، وأكثرهم عدة وعددًا !! لقد شَدَّ الله على قلبه، وقذف الرعب في قلوبهم، والله أشد بأسًا وأشد تنكيلًا.

وقد أراد الله للعرب أن يعودوا سيرتهم الأولى في هذه الفترة الدقيقة التي يجتازونها، بين نيران الأقوياء المحمومة، التي يوشك أن يندلع لهيبها المسعور، وتنطلق صواعقها المجنونة، فتنسف معالم المدنية النامية، وتهوي بمستويات الحضارة العتيدة، وتدع العالم قاعًا صفصفًا إلا من أسراب الطيور الضالة التي تلتقي على الجماجم والأشلاء.

أراد الله للعرب في هذه الفترة العصيبة، أن يرتفعوا بأبصارهم وبصائرهم إلى القمم العالية في تاريخ العروبة والإسلام؛ ليعرفوا كيف كان وجودهم المعنوي، وكيانهم الروحي، بناء شامخًا راسخًا، استخذت أمامه عروش القياصرة والملوك، وعنت له وجوه الطغاة والمستبدين.

ومن يُمْنِ الطالع لشعبنا العربي، أن تجيء يقظة هذه المنطقة، في هذه الأيام التي نعيشها، وكأنها تحية لنداء رائد مصلح، من أولئك الرواد، الذين ينفع الله بهم شعوبهم، حين يستبد بهم الظلم، ويحيق بهم شعوبهم، حين يستبد بهم الظلم، ويحيق بهم الطغيان، فاصطفى الله لهذه المنطقة ابنًا من أكرم أبنائها على نفسه

(*) نشر بجريدة المساء في الرابع عشر في مايو عام ١٩٦٠م.

وعليها، فهو يؤدي دوره القيادي مستشرفًا آفاق عروبته الراكزة على دعائم الحق والعدل، والإيمان؛ ليستلهمها الشجاعة في الرأي، والفناء في المبدأ والروحانية في الحياة.

وقد استقرت فوق هذه القمم العالية من تاريخ الدعوة الإسلامية، أول كلمة عامرة بعظمة الروح في النضال، لأول عظيم في الإنسانية هَدَتْ خُطَاه، ضلال هذه الأرض، وقهرت معنوياته المؤمنة، مادية الحياة الملحدة...

قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فانخلعت لها قلوب كالحجارة، أو أشد قسوة، وكان أصحابها يملكون الجاه والبأس، وسطوة الأقوياء، وكان محمد لا يملك إلا قوة الإيمان، وإباء الروح، وإصرار العزيمة... قال:

"والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهْلَكَ دونه".

ولم يعرف التاريخ في جاهليته، أو حضارته، كلمة أروع من هذه الكلمة، في مفهومها المعنوي الحاد، أو دلالتها الروحية العميقة.

وحين أراد الله لهذا الشرق أن يهيئ له من أمره رشدًا، وأن يعيده إلى مصادر قوته الأولى، قوة الروح العارمة والمعنوية المناضلة، ساق له رائدًا مُلْهَمًا مؤيدًا بروح من عنده، يستقل الجهد، والسهر والإيثار في سبيل استرداد هذا الشرق لشخصيته المعنوية ووجوده الروحي، في مدارج تاريخ عروبته، ومجده يوم فتحت قوةُ الروح أمامَ العرب الأبوابَ الموصدة، فاندفع منها تيار الحق، والخير والقيادة الراشدة، تلك التي وجهت العالم حينًا طويلًا من الدهر، إلى أكرم وجهة، وأنبل غاية، وأهدى سبيل، وتحدَّرت إليه هذه القيم المعنوية، والطاقات الروحية، خلال العصور، حتى رَسَتْ مواكبُ ذكرياتها على شاطئ هذه الحياة، التي نحياها الآن، فَخَفَّ ذلك الرائد إلى لقائها وحيّاها، وزوَّدَ بها شعبَه ومواطنيه، يتدارسها معهم، عظة، وعبرة، ومثلًا.

ويشاء الله أن يستقبل جمال عبدالناصر مواكب هذه الذكريات الخالدة الوافدة عليه من سبعة قرون، لمجد عربي عريض سجلته القومية العربية في انتصارها على قراصنة أوروبا بقيادة الملك الأسير لويس التاسع.

وقد اتصل الانتصار العربي القديم، بالانتصار العربي القائم، في فرحة واحدة، ومهرجان واحد وأسبوع واحد كذلك، حين انهزم المتآمرون، وانفضح أمرهم، وتفرقت كلمتهم، ومزَّقَتْ وحدة العرب من الخليج إلى المحيط، حصارَهم، الذي ضربوه حول الباخرة «كليوباترة» التي انطلقت عزيزة كريمة بعد أن أذلت عملاء الصهيونية، وَلَوَتْ أعناقهم، ومدت إلى شحنتها أيديهم المغلولة، لتفرغها صاغرة مهينة، أمام عزةِ العرب وإجماعهم وتجمعهم.

وهذا الانتصار الذي هزَّ العالم كله هزًّا عنيفًا، في معركة فُرضت علينا فرضًا، لم يكن وليد الصواريخ العربية ولا عابرات القارات، التي نصنعها، وإنما كان وليد هذه الروح المناضلة، التي عبَّأها الإيمان، وصاغها الحق، وعمَّقها كفاحها الطويل الشاق.

قهر العرب المتواضعون بقدرتهم الروحية المستبسلة، الجبابرة والعتاة، صناع القنابل، ومسخري الذرة، وأعداءَ الشعوب المتطلعة إلى حرياتها، وكرامتها، واستقلالها، في سلام لا استسلام.

لقد قدَّر هؤلاء فأساءوا التقدير، ظنوا أنهم سيُرْهِبون هذا الشعب العربي في هذه الجمهورية الفتية، وإنهم سينفردون به وحده، خارج الصف العربي، وسيوسعون الهوة بينه وبين أشقائه شعوب هذه المنطقة.

فإذا الشلال العربي يكتسح هذه القواقع، ويدمر هذه الفقاعات، التي أُلْقِيت في مجراه، فجرفها الطوفان الصاخب الثائر بين الموانئ العربية من المحيط إلى الخليج... غضبت تونس، وانتفضت عُمان، وثارت بغداد، والتقى الأحرار من رجال البحر، وعمال الموانئ العربية واجتمعت كلمتهم، ووقف الصف العربي على الشواطئ ليواجه العاصفة الخائنة، ويصد التيار الخبيث، ويحفظ على العرب كرامتهم، ووحدتهم واستمساكهم بحقوقهم المشروعة في الحياة الحرة الكريمة الأبية.

وكان للعرب ما أرادوا، وَبَاءَ المعتدونَ بالفشل والهزيمة، وسوء المنقلب، وكانت نكبة إسرائيل ساحقه صاعقة، لقد حطم عمال العرب ما شاده خيال مريض يترنح في جمجمة المتسول مكانًا، المتجول (ابن جوريون) رأس الأسطورة الهزيلة، التي لا

يعرف لها التاريخ مكانًا بين صفحاته، ومتى كان للشريدة الطريدة إسرائيل مكان بين الأمم التي يحترمها التاريخ؟!.

وليس انهيار القيم الخلقية في نفوس المجرمين. وتجردهم من خصائص الإنسانية وسماتها، وانحدارهم في مهاوي الضَّعة[1] والهوان. تجعلنا نستخف بتلصصهم الدنيء، وتآمرهم المفضوح، بل لعل حماقتهم فيما يقترفونه من غدر وخيانة، وإسفاف تدفعنا إلى اليقظة والحذر، والمراقبة.

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نصرع القوى الضخمة، التي تحرس إسرائيل، وتشد أزرها وتثير كوامن الحقد والكراهية والشر فيها، وتدفعها للتحرش بالعرب وهي الدخيلة عليهم، نحن وإن كنا بقوانا المادية لا نشغل بال هذه الأمم الكبيرة القوية الظالمة، فإننا بقوانا الروحية، ورصيدنا المعنوي سنرد الباغي، ونواجه الغاشم، ونصبر على صراع العدو.

إن المتسلح بقوى الروح، المنتصر دائمًا، فهي قوى لا تُطْغِي صاحبها، ولا تعميه ولا تلقي به إلى التهلكة، وإنما تقف به دون حقه، لا يهتز ولا يميل.

إنها قوة تحب الحياة، وتصون الأحياء وتأنف من رؤية الثكالى والأيتام وتكره أن ترى هذا المجتمع الإنساني الكبير، صريعًا في ميادين المجزرة البشرية الرهيبة، التي ضاقت أرضها بوفود البراكين، وغامت سماؤها بقاذفات الصواعق. وملأت بحارَها السابحات بالجحيم، ولن يخلّصَ هذا المجتمع، مما يزحف عليه من غوائل الشر، والخوف، والظلام، إلا قبسٌ من نور هذا الشرق، الذي يحاربونه، ويأبَون عليه الحياة، ولسوف ينساب هذا النور مرة ثانية فوق هذه الأرض ؛ ليغسلها من الأحقاد، والشرور والمهالك ؛ لأنه فيض من روح الله، وطاقة من نوره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

(١) الضعة: الذل.

(٤) الاشتراكية... عدل... ومساواة...(*)

منذ أقدم العصور، والمجتمعات الصاعدة – في مختلف الأمم والشعوب- تعاني الهول والفزع، من الصراع الطبقي المرير، والتناحر المدمر الرهيب، في سبيل الإثراء الفردي على حساب الجماعات، والتسلط على الحقوق المشروعة في توزيع الملكية، وتقريب المسافات بين الطبقات!!

وحينما اجتاحت المجتمعات هذه الموجات الغامرة من استبداد القلة المستغلة بالكثرة الفقيرة، من طوائف الشعب العاملة المكافحة... تطلعت هذه المجتمعات إلى الاشتراكية كوسيلة فعالة للقضاء على التفاوت البشع، بين الملكيات الضخمة، التي تستقل بها طبقة محدودة مسعورة، احتكرت الثروة، واحترفت الإقطاع.

... عرف الإغريق هذه النظم الاشتراكية، وقدروا خطورة فاعليتها، وشدة تأثيرها في تخليص المجتمع من براثن أصحاب الشوكة، والصولة، وأهل الحسب والنسب، وكان المجتمع عندهم طبقات ثلاثًا، الأثرياء الجشعين، والفقراء الجائعين... ثم الجنود من حماة الدولة وفرسانها.

وقد استهدف أفلاطون حين نادى بالقضاء على الملكيات الضخمة، أن يظل بناء الدولة متماسكًا قويًا، لا ينهار بيد حفنة ضئيلة من الأغنياء، على رأس ملايين عديدة من الفقراء...

ثم جاء الرومان، وكان أمرهم مع اليونان، ما تزخر به كتب التاريخ القديم، أما الدين المسيحي فقد كان يؤلف نُظُمًا اشتراكية اضطلعت بدورها الإنساني الخالد، وانتصرت انتصارًا ساحقًا، وفازت فوزًا مبينًا، وكان ذلك أول انتصار تحققه الاشتراكية، في تاريخها البعيد، وقد استمرت تنتقل بالمجتمعات على طرق مستقيمة وصلبة حينًا، وملتوية ورخوة، حينًا آخر... وظل الحال كذلك حتى زحفت مواكب العلم، وازدحمت الحياة بنظم جديدة للمجتمع، وأوضاع مختلفة،

(*) نشر بجريدة المساء في التاسع عشر من يونيو عام ١٩٦٠م.

تحوطها رغبات الناس وحاجاتهم، وتتطلع إليها آمالهم وأمانيهم، فلما أحسوا بأنهم جميعًا لا يملكون المال طالبوا به جميعًا، وشجَّعهم على ذلك ما رأوْه من انحراف مجتمعاتهم، وانحدار القيم الخلقية فيها، وإيقاظ الضغائن والأحقاد بين أبناء المجتمع الواحد...

ومنذ أعلن كارل ماركس عام ١٨٤٨م رأيه في الاشتراكية هو وصديقه فردريك انجلز، وكان من أهم الحقائق التي عرض لها ماركس، هو أن الاشتراكية عمل ثوري أولًا، وعليه أن يقضي على الدولة الرأسمالية... منذ أعلن ماركس هذا الرأي، والمفكرون على خلاف كبير في إدراك مفهومات الاشتراكية، وقدراتها على صقل معادن الشعوب، وسبقها في إعداد ميدان التشريعات الصناعية، واستقرار النظم الاقتصادية في مختلف مجالات المجتمع، وإن أمثل النظم الاشتراكية وأجداها نفعًا، هي تلك التي تجعل من وسائلها الإدراك، والتدرج في معالجة مشكلات المجتمع، وتحرره من السيطرة، والنفوذ، والانفرادية، ثم في إقامة صرح المجتمع على دعائم من الاشتراكية البناءة، الصاعدة المتطلعة إلى إسعاد الفرد، والمجموع، في عدالة مطلقة، ومساواة جماعية....

والأمر الذي لم يختلف عليه الرأي عَبْرَ هذه الأجيال السحيقة، حتى هذا العصر الذي نعيش فيه، إن العدالة بين المواطنين، وإعطاء كل ذي حق حقه، الذي لا إسراف فيه ولا تقتير، وأن المساواة بين سائر أبناء المجتمع الواحد في الحقوق والوجبات والقضاء على هذا التفاوت الشاسع بين الثروات، -كل هذا كان وما يزال من أهداف ثورات المجتمع العارمة، التي تضيق بالظلم، وتمتحن بالظالمين، وتتسلح بالاشتراكية ؛ لتخوض بها معركة الحق، والعدل، والمساواة...

من أجل هذه الأهداف، التي تعمل لها الاشتراكية؛ ليقوم بين الناس مجتمع ديمقراطي، اشتراكي، تعاوني، شبَّت الثورات في الماضي البعيد والقريب، وفي الحاضر الماثل أمام أعيننا...

وعندما اندلعت ثورتنا الرشيدة، بأيدي فتية آمنوا بربهم، وبوطنهم، وبحق مجتمعهم في حياة حرة كريمة.. كان شغلهم الشاغل هو ذلك المصير الذي آل إليه هذا المجتمع، وتردى فيه بفعل ظلم الحاكم المستبد، وطغيان الإقطاع الجائر

واستعباد الأُجراء الضعاف، وإشباع البطون التي لا تمتلئ، والنفوس التي لا تقنع، والأيدي التي تستمرئ النهب، والسلب، وأكل حقوق الناس بالباطل وأخيرًا أصبح الأُجَراء مُلاكًا، وامتلأت البطون الخاوية، وتخففت البطون المتخمة، ونظفت الأيدي التي كانت ملوثة لما حيل بينها وبين المال الحرام، وأخذ كل مواطن نصيبه من خير هذا الوطن ونعمائه، ونشط الكادح في حقله الذي يملكه بعد أن كان مملوكًا هو والحقل، وأوشك «المتعطلون بالوراثة» أن يتحركوا ويعملوا، بعد أن تغيرت الأرض غير الأرض، وبعد أن أصبحت الملاعق الذهب التي ولدوا وهي محشورة في أفواههم، نسيًا منسيًا...

إن الثروات ليست وقفًا على طائفة بالذات، ولابد أن يشعر الجميع بأنهم يعيشون في ظل هذا المجتمع، سواسية كأسنان المشط، يتمتعون ويتمتع معهم سائر أبناء الوطن، بالعدالة الشاملة، والمساواة الصحيحة، وهذه هي مهمة الزعيم الناهض بالدور القيادي لهذا المجتمع، الذي يعمل ويجهد ويكد من أجل إسعاده، ورفاهيته أثناء الليل وأطراف النهار، إنها مهمة قائده الملهم، الذي سيظل ينفح أبناءه كل يوم بجديد، يطمئنهم على مستقبلهم، مستقبل أولادهم، بعد أن كان يعبث بهم، ويتصرف فيهم حاكم طاغٍ، وإقطاعٍ مستبد في عهد الظلم والظلام.

لقد انطوى ليل هذه العهود، وأشرق صبح الحق، والعدل، والمساواة لينير الطريق بين يدي مجتمعنا الديمقراطي الاشتراكي التعاوني.

(٥) الديمقراطية... شعبية ورخاء(*)

كان المجتمع الجديد الذي نريده، وأسسه الأصيلة، موضوع مقالاتي الثلاث الأخيرة، فقد تناولت بإيجاز حقائق هذا المجتمع، الذي يجب أن نعيش فيه، وأن نعمل من أجله، بما لا يعزلنا عن الحياة الكريمة، التي تتسق مع مقدساتنا، وموروثاتنا، من القيم الأخلاقية، والمبادئ الإنسانية الرفيعة..

وقد استعرضت أساسين من أسس هذا المجتمع الاشتراكي، الديمقراطي، التعاوني، فتكلمت عن الاشتراكية... ثم عن التعاون، وبقيت الديمقراطية، وقد قصدت أن أرجئ دورها في الكلام ؛ ليأتي في الأسبوع الذي تطبق فيه هذه الديمقراطية، التي نستهدفها في تشييد صرح هذا المجتمع، أو أن يأتي الكلام عنها فور هذا التطبيق «العملي» الدقيق، الذي يمثل أصدق تمثيل وأعمقه، حين زحف الشعب أفواجًا في الأسبوع الماضي، ليتجمع في صعيد واحد، هو صعيد الاتحاد القومي، وذلك ليمارس حقوقه المشروعة، من أجل تطوره، وصعوده، ونموه في كل مجال من مجالات الحياة الديمقراطية السليمة، التي طالما نازعه شوقه إليها في ماضيه الذليل الغارب.

والديمقراطية التي تساير ظروف المجتمع العربي النامي، هي تلك التي تتضح ملامحها وقسماتها، في وجه هذا العملاق الذي انطلق ليرتاد كل السبل، ويعبدها[1] ويهيئها لتسلكها مواكب هذا المجتمع الزاحف، المتطلع إلى المساواة، والعدالة، وخير المجموع، في ظلٍ وارفٍ من الاطمئنان إلى التوزيع المنصف، والفرص المتكافئة، بين أفراد هذا الشعب العملاق المنطلق، الماثل في الاتحاد القومي، الذي سوف يسحق بقوة وعزم تلك الفوارق الواسعة، وهذا التفاوت الشاسع بين الثروات والدخول، وذلك لتتحقق ديمقراطية المال، والملكية الفردية، ولتذهب سيطرتهما البغيضة، وجشعهما المقيت إلى غير رجعة، فينعم هذا الشعب برغد العيش، واستقرار الحياة، بعد أن طوى هذه السنين العجاف البائدة، في صراع طبقي مرير، كان

(*) نشر بجريدة المساء في الثالث من يوليه عام ١٩٦٠م.

(١) يعبدها : يمهدها.

سواده الأعظم، أولئك المعذبون في أرضه، وكانت قلته القليلة أولئك السادة من الإقطاعيين، والانتهازيين، ومصاصي الأرزاق، وعرق الجباه.

وطالما أن الديمقراطية في أيسر وأنصع مفهومها، هي حكم الشعب للشعب من أجل الشعب، لذلك كان لزامًا أن يكون الإطار للصورة الكاملة للديمقراطية السياسية، التي ستنبثق عنها لا محالة، الديمقراطية الاجتماعية، هو الاتحاد القومي، الذي سيصدر عنه كل تنظيم يقف سدًا منيعًا في وجه الأرستقراطية المقنعة، والرأسمالية المتداعية، التي تريد أن تستأثر لنفسها بكل إنتاج واستثمار، ولا تريد لسواها غير الفقر والجوع.

ومن هنا عمل الرئيس على بناء مجتمع جديد، يرتكز على دعائم من الاشتراكية التعاونية ؛ ليرتفع البناء، بأيدٍ مجتمعه، وقلوب متآخية، يدفعها التعاطف والحب والإيثار، لتوفير الخير، والبر، والرفاهية للجميع، وفي هذا تثبيت للديمقراطية، وتمكين لها، من أداء وظيفتها، في إتاحة المكاسب لكل عامل، ومكافح بالقدر الذي بذله، والجهد الذي اضطلع به، والنصيب الذي قدمه، في خدمة الصالح العام، ليتحرر الشعب من أغلال السيطرة، ويفلت من براثن الاستعباد، تلك التي قضت عليها ثورتنا الراشدة البيضاء، وما تزال تطارد فلولها الهاربة، التي تخادع المجتمع وهو خادعها، وسوف يقلم أظفار هؤلاء، ويستأصل شأفتهم، ويخلص المجتمع من شرورهم ومساوئهم، وحين يملأ النور آفاق هذا المجتمع الجديد، وهو يتدفق في طريقه إليها، سوف يبرأ المجتمع من هذه السيئات، التي تمشي على الأرض.

إن ثورتنا حين صممت على إنشاء مجتمع اشتراكي تعاوني، كان هذا التصميم وليد إحساسها العميق بما عاناه هذا الشعب من الظلم، والكراهية والإذلال، على أيدي حفنة من الأدعياء الدخلاء، الذين حكموه أجيالًا طويلة غاشمة، لم يكن يعرف فيها عدالة اجتماعية، ولا عيشًا يليق بإنسانيته، ولا حرية تشعره بآدميته، بل كان يعيش على فتات موائد هؤلاء السادة، عيش العبيد الأرقّاء، لهذا حسمت الثورة موقفها من أعداء الشعب وظالميه، وسفاحيه ففكت القيود، وحطمت الأسوار، وأطلقت الحريات السجينة، لتعمل في طريق التعمير، والإصلاح والبناء، وعرفت الديمقراطية حقيقة مضمونها الصحيح وألقت بأزِمَّة القيادة، بين يدي الشعب المتضامن، المتساند،

كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا، في سبيل نشر العدالة الاجتماعية، والمساواة الاقتصادية بين سائر طبقاته وأفراده، في محبة، وحرية، وكرامة..

إن هذه الديمقراطية العربية التي تنسجم أثوابها على كيان المجتمع العربي الذي نعيش فيه، هي الديمقراطية التي ننادي بها، ليرتدي أثوابَها الفضفاضةَ المجتمعُ العالمي الكبير، فنحن نكافح في مجالنا الداخلي، لتؤتي العدالة الاجتماعية ثمارها، بين طبقات الشعب في «جو» من الحب والتآخي، والمشاركة الوجدانية، ونكافح أيضًا، في المجال الخارجي ما استطعنا إلى هذا الكفاح سبيلًا ؛ لكي تُحْتَرم حقوق الإنسان، وتعم المساواةِ مختلف الأجناس، وتستشعر الأمم جميعًا قيمة الالتزامات الدولية، وتسود العدالة المجتمعات العالمية، صغيرها وكبيرها على السواء، فلا يبغي قوي على ضعيف، ولا تجور أمة على أخرى، فتمتلئ القلوب حبًا، بعد أن امتلأت بغضًا، وتشرق النفوس بالأمل، بعد أن أظلمت باليأس، وينتظر الناس الخير، بعد أن أصبحوا قاب قوسين، أو أدنى من الشر.

وإن أصدق دليل على شدة حرصنا، وعملنا الدائب من أجل الخير والسلام، وتجنيب العالم شر الحرب، والتوتر وسوء المصير، هذه الزيارات ذات الأثر الكبير في هذا الصدد، التي يقوم بها، رائد القومية العربية، وبطل الحياد الإيجابي، والتعايش السلمي، الرئيس جمال عبدالناصر، الذي يكرس حياته وجهوده في خدمة الوطن العربي، ومشاكله، وقضاياه، ثم في النهوض بالدور الخطير، الذي ينتظره العالم منه، ومن أصدقائه أبطال الحياد، أمثال نهرو وتيتو.. فرئيسنا وصاحباه، قد أخذوا أنفسهم على أن يعملوا من أجل، شعوب العالم بأسره؛ ليظفر مواطنوهم بالعيش الرغيد، والمساواة الشاملة وليظفر أيضًا كل المواطنين في كل بقاع العالم بالأمن، والاستقرار، والحياة الوادعة، وقد اكتنفت الجميع عدالة اجتماعية، وإخاء عميم، وتراحم موصول.

(٦) قادة الشعوب يصنعون المستقبل(*)

تجتاز الشعوب المندفعة في سبيل التطور، أو المتخاذلة المغلوبة على أمرها فترة دقيقة، غاية الدقة، خطيرة بالغة الخطورة في هذه الأيام، ولسنا نغالي حين نقرر أن هذه الفترة، إنما هي من صنع قادة هؤلاء الشعوب، ومن عمل أيديهم، فهم أحد فريقين لا ثالث لهما، فالقيادة في مختلف الشعوب إما أن تكون قيادة رشيدة، تستلهم الوطنية الصادقة، حين تستهدف حقوق هذه الشعوب وإما أن تكون قيادة منحرفة فهي لا تعمل إلا على إذلال شعوبها، وإحكام الأغلال التي تُقَيّد خُطاها، حتى لا تتطور أو تنمو وبذلك تأمن جانبها، وتظل جاثمة على صدورها، متحكمة فيها، باطشة بها، ولن تستطيع هذه القيادة مع شعوبها صبرًا، فسرعان ما تشهد مصرعها، حين لا تجد هذه الشعوب متنفسًا لها، أو حين لا تلمح على الأفق بارقة من أمل في أن يلهم الله قادتها الرشاد والسداد، أو يهئ لها من أمرها رشدًا..

وكما رأينا هؤلاء، رأينا بعيدًا عنهم قيادات جادة عاملة، لا تهدأ ولا تلين في سبيل حقوق وطنها عليها، وهي تمارسها في كل الحالات العالمية، من منظمات أو هيئات أو مؤتمرات.

إن هذه القيادات تصل ليلَها بنهارِها فهي موصولةُ الأعمال دائمة الأسفار من بلاد شقيقة إلى أخرى صديقة، إلى ثالثة بين.. بين، وبذلك صَنَع هؤلاء القادة في العالم دويًا باسم شعوبهم واسمهم، وكسبوا السمعة الطيبة والتعريف الصحيح بحقيقة شعوبهم وأصالتها وعراقة حضارتها، التي كانت من أولى الحضارات، التي دَبَّتْ فوق أرض هذا الكوكب الذي يعيش فيه... وقد حكى لي صديق قادم من أوربا، قال إنني كما تعلم مولع بالأسفار زرت أوروبا قبل الثورة، وزرتها بعد الثورة، وكم كنت أواجه من أوساط المثقفين بمعلومات عن الشرق العربي والشرقيين، وعن مصر والمصريين، كانت تحزنني وتحز في نفسي.

(*) نشر بجريدة المساء في الثالث من ديسمبر ١٩٦٠م.

أما بعد الثورة فقد تغيَّرت نظرة هؤلاء إلينا، تغييرًا هائلًا ورائعًا، وليست الأوساط المثقفة وحدها هي التي غيرت من نظرتها إلينا، بل إن جميع الأوساط والمجالات، أصبحت تُكِنُّ لنا التقدير والإعجاب، ثم يستطرد صديقنا فيقول إن اسم «ناصر» تسمعه الآن على كل لسان، في السويد، والنرويج وهولندا، ألمانيا، النمسا، المجر، إيطاليا.

هذا بلا نزاع نتيجة من نتائج عمل القيادات الواعية الرشيدة، التي تصل ليلها بنهارها، لرفعة شأن شعوبها واستقلالها، وقد يرهق الشعوب ويبدد قواها، أن تصاب بحكام أذناب، يبيعون أوطانهم في سبيل بقائهم على كراسي الحكم، وإن كانوا على ثقة من أنهم سوف لا يعمرون طويلًا.

أما هؤلاء القادة الذين يدفعون شعوبهم في طريق التحرر والانطلاق، ولا يدخرون وسعًا في هذا السبيل سواء في داخل بلادهم أو خارجها فهؤلاء القادة هم ذخيرة شعوبهم، يفتدونهم بأرواحهم ونفوسهم ؛ لأنهم قادة كفاحهم وأبطال نضالهم، وطلائع زحفهم المقدس، إنهم كذلك عند شعوبهم وعند الأشقاء، الذين تربطهم بهم صلات الدم والدين والقومية.

ولقد كانت المظاهرات الحماسية التي تجاوزت كل حد في الحفاوة والترحيب، والتي تمثل فيها الشعب السوداني بكل طوائفه، وطبقاته من شماله إلى جنوبه، أبلغ دليل عما تضمره الشعوب نحو القواد الأحرار والزعماء المكافحين، وإن هذه الزيارات التي يتبادلها الرئيس البطل، مع رؤساء البلاد وشعوبها، لا يقف أثرها العميق عند توثيق الأواصر، بيننا وبين هذه الشعوب الشقيقة فحسب، ولكن هذا الأثر ينتقل إلى مختلف شعوب العالم، التي تتطلع بعين الحذر والتربص إلى قضايا الأمم العربية والأفريقية.

ولقد فشلت كل المحاولات التي نشطت للحيلولة دون اتهام هذه الزيارة التي قام بها الرئيس للسودان الشقيق، وعرف العالم أجمع أن السودان ككل قطر عربي متجاوب مع الكيان العربي، تجاوبًا عميقًا صادقًا تجلت مظاهره في هذه الحشود الزاخرة والكتل البشرية المتراصة، التي هرعت وراء جمال عبدالناصر تستقبله في

كل مكان، يتجه إليه في السودان الشقيق، والكلام عن التفاعل والتساند العربي بين الجمهورية العربية ورئيسها رائد القومية العربية وبين الشعوب العربية قاطبة لا يحتاج إلى تصريح أو تدليل.

وإن ما تقدم في ثنايا هذا المقال، من كلام الصديق العائد من زيارته لبلاد أوروبا، وهذا الأثر الباقي، الذي لم تزل أصداؤه تملأ أسماعنا بعد زيارة الرئيس للسودان العزيز إن هذا الكلام له بقية، فقد صدر في الأيام الأخيرة كتاب في بريطانيا، نشرت أنباءه الصحف، ورئيسنا العملاق هو موضوع هذا الكتاب ومؤلفه صحفي ألماني المولد، أمريكي الجنسية، وقد وردت في بعض صفحات الكتاب هذه العبارة، إن المشكلة الحقيقية في شخصية جمال عبدالناصر هي أنه رجل ليس له نقائص، وأنه ليس من الممكن شراؤه أو استمالته، واختتم المؤلف كتابه بقوله، إنه بفضل خُلُق عبدالناصر القويم، وقوة شخصيته أثبت أنه رجل صعب المراس لا يمكن أن يُكسر.

حقاً إن الأعمال الضخمة لصانع تاريخنا المعاصر حققت لبلاده أحسن السمعة، في سائر أرجاء العالم، ومن هنا كان رائد القومية العربية ماثلاً في كل مكان.

(٧) الشعوب المؤمنة بقيادتها.... صاعدة دائمًا(*)

إن شعبنا بحكم إمكانياته المادية والمعنوية شاء له القدر أن يكون طليعة النضال العربي وقاعدته... والطليعة ليست زعامة وتقدمًا، وإنما دور الطليعة ارتياد المجهول، ومواجهة الخطر.. ولقد منحتني أمتي من مشاعرها ما لم يخطر على خيالي في أي وقت من الأوقات...

بهذه الكلمات الحاسمة المضيئة حدد الرئيس جمال عبدالناصر موقف أمته منه، وموقفه وموقف أمته من شقيقاتها العربيات...

وإن من يستعرض المناهج والوسائل التي تلتزمها بعض الشقيقات سواء في الشمال الأفريقي العربي أو في بعض المناطق العربية الأخرى، ثم يتعمق أساليب سياستها وساستها، التي تفتتُ - عن قصد أو غير قصد - إمكانيات النضال العربي، وتُقيِّد خطاه في أغلال وقيود ثقيلة.. أقول: إن مَنْ يستعرض هذه السياسات ليخشى الغد المجهول على أمتنا العربية، وعلى واقعها المعاصر؛

ولا جدال في أن هناك من أعداء هذه الأمة - في داخلها أو في خارجها- من يتربصون بها الدوائر، وهم من أجْل هذا يواصلون مؤامراتهم في بث أسباب الفرقة والخلاف بين رؤساء، هذه الدول العربية وملوكها ؛ وليس في مقدور هؤلاء الأعداء أن ينالوا من وجودنا العربي، بما يثيرونه من فتن هدامة ؛ وبما يمزقون من صلات الدم، وروابط العقيدة ؛ طالما تعتصم هذه الأمة بحبل الله جميعًا ؛ ولم تتفرق..

وإن من يستعيد في خاطره ماضي اجتماع شمل العرب، وقوة تضامنهم في مواجهة ما كان يحدق بهم من أخطار وكوارث، واقتحامهم المعارك صَفًّا واحدًا وراية واحدة؛ ليعجب أشد العجب، كيف يفوت على قادة هذه الأمة في هذه الأيام هذا الخداع

(*) وجدنا هذا المقال (الرأي) مكتوبًا بخط الغزالي وتوقيعه، وبلا تاريخ محدد لكتابته، ويتضح من أسلوبه، وطريقة عرضه أنه أعد ليكون ضميمة إلى الآراء الأخرى المنشورة في جريدة المساء حوالي عام ١٩٦٠م، بل ربما يكون من كتابات الغزالي في أيامه الأخيرة.

المسموم، الذي يستهدف عرقلة خطى الانطلاق العربي الزاحف على أول الطريق :

ومن البدائة التي تستغني عن التأييد والتدليل، أن التضامن العربي هو الدفعة الأولى، لتتحرك قافلة القومية العربية، في كل ميدان من ميادين الإصلاح والبناء، والكسب المحقق، ثم هو النار التي تشتعل بها أعماق النفوس، فتُقْدِم على البذل؛ والإيثار، والتضحية، ثم هو أيضًا النور الذي يفرش الطريق بين أيدي الطلائع العربية، المصممة على العمل الصاعد المتطور، الذي لا يعرف عقبة أو مستحيلًا...

لقد استقبلت القاهرة أحمد توري، وأحمد سوكارنو، واحتفل شعب الجمهورية العربية ورئيسها وحكومتها بالبطلين المناضلين، وتدارس الأقطاب الثلاثة كل ما يوثق العلاقات ذات الفاعلية في تجمع الشعوب المؤمنة بقادتها تلك التي وضعت زمامها بين أيديهم ؛ لأنها أيدٍ نظيفة قوية جريئة، لم تتعود إلا أن تمتد، لتهدي المنحرفين سواء السبيل، أو أن تصفع الغادرين من قراصنة الشعوب.

ولن يستقر التضامن العربي الاستقرار الكفيل بأداء دوره الخطير تحت راية القومية العربية إلا إذا تخلصت النفوس من سخائمها، وتطهرت من هواجسها، وأوهامها الغائمة.

لقد صرح رئيس الجمهورية في كل مناسبة، بأنه لا يعمل لمجد شخصي؛ لأن الأشخاص زائلون، وإنما هو مشغول بشعبه في وطنه؛ وبشعب الأمة العربية بأسرها في وطنها الكبير، ولقد باع نفسه، وصحته، وراحته، واشترى الله، والوطن، وأمته التي منحته من مشاعرها ما لم يخطر على خياله في أي وقت من الأوقات.

لا مجال إذن لهذه الأوهام الشاطحة، التي تسرح في رءوس أصحابها وحدهم، فرئيس الجمهورية العربية، لأمر يعرفه الله، نيطت به آمال عريضة في الحاضر الذي نعيشه، وفي المستقبل الذي نرجوه زاهرًا وزاخرًا بكل كرامة وعزة واستقلال لوطننا العربي الكبير...

والرئيس بهذه المثابة لم يزد عن أن استجاب لنداء انبثق من ضميره، وهُتاف انبعث من وجدانه، ثم نظر من حوله فاطمأن لإمكانيات شعبه وقدراته، وحدَّد ببصره وبصيرته نقطة التحرك الأولى لطلائع نضالنا العربي، فوق قاعدته الصلبة، الشامخة،

فمدّ يده إلى إخوانه جميعًا في مختلف بقاع العالم العربي راجيًا لمَّ الشَّعْث[1]، وتجميع القوى، وتوحيد الصف، وأعلنها صريحة مدوية: « نحن نؤمن بالقومية العربية تيارًا حقيقيًا وأصيلًا يتجه إلى وحدة عربية شاملة، لا تعنينا أشكالها الدستورية، بقدر ما تعنينا فيها إرادة الشعوب العربية.

واللحظة التي ننتظرها، وينتظرها كل عربي، هي بكل صراحة، تلك اللحظة التي تتجرد فيها النفوس الكبيرة من شوائبَ تعكر الصفو، وتحبط القلوب، وتمزّق روابط الأخوة والمحبة ؛ لتقف الأمة العربية صخرة شماء تتحطم على جوانبها سهام طائشة غادية، ما أسعدها لحظة حين تقف توازي النفوس وتدرك في عمق ووعي وإحاطة أن الشعوب لن تؤمن بقيادتها إلا إذا آمنت هذه القيادات بأنفسها أولًا، ومن أكرم مظاهر هذا الإيمان، هو التعاون الذي تتعافى أسبابه وتتآخى أواصره فوق الصعيد الوحيد، وهذا التعاون هو الوسيلة المثلى، والسلاح البتار ؛ لأنه يعمل في ميدانين خطرين، أحدهما تطهير الوطن من دنس الأعداء، وتآمر الخونة، وثانيهما تأمين الوطن في جبهته الداخلية البناءة، وحينئذ يركض الانطلاق العربي فوق الطريقتين في الخارج والداخل، مندفعًا لا يلوي على شيء، ومكتسحًا كل ما يلقى أمامه من حواجز وسدود.

هذه خواطري صريحة ظلت تزحم على جو عملي ووقت راحتي، وكانت تُلح إلحاحًا موصولًا، لترى طريقها إلى عين القارئ، وقد أثَارَتْ هذه الخواطر من مكان في نفسي، ما قدمت في ثنايًا هذه الكلمة، من أعياد استقبلتْها القاهرة أخيرًا، وهي أعياد التقت فيها معاني الإيثار والبذل والتضحية، والتعاطف الصحيح.

إن المكان الذي يجمع عبدالناصر بأخوته في الجهاد والنضال من أمثال نهرو، وتيتو، وسوكارنو، وتورى، به كراسي تنتظر أصحابَها من قادة الكفاح وأبطال الشعوب في كل قطر عربي، فمتى نفتح أعيننا عليها، وقد ازدانت بالجالسين الكبار المرجوين للآمال الكبار.

---

(١) الشعث: ما تفرق من الأمور.

وأخيرًا فقد كان المقال بألوانه المذكورة آخر أثر للغزالى من آثاره النثرية التى تعرّف عليهاالقارئ بعد أن عرضنا لها فى أمانة وصدق وتدقيق.

وهذا آخر جُهْدنا فإن كنّا قد أصبنا الهدف ووصلنا إلي الشاطئ فالحمد لله رب العالمين، وإن يكن الأمر غير ذلك فإننا نعتذر للقراء جميعًا، ويكفينا أننا بذلنا من الجهد ما يشفعُ لنا، ذلك أن الكمال لله وحده، وهو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

دكتور/ السيد محمد أحمد الديب

الثلاثاء الثالث عشر من شوال ١٤٣٤هـ

الموافق للعشرين من أغسطس ٢٠١٣هـ

- أهم المصادر والمراجع -

أولًا : الكتب والدواوين الشعرية:

١- الأدب وفنونه، تأليف الدكتور/ عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م.

٢- أدباء في صور صحفية، تأليف/ محمد نصر، طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، يناير ١٩٦٥م.

٣ - ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، تأليف/ محمد عبدالمنعم خفاجي، طبع ونشر مكتبة الحسين التجارية، عام ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م.

٤- أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير، طبع دار الشعب، ١٩٧٠م.

٥- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ج٦، ص١٩٧، طبع دار الغد العربي بالقاهرة.

٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.

٧- الأعمال الكاملة، محمود غنيم، المجلد الأول، دار الغد العربي، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٨- الأغاني، لأبي فرج الأصبهاني، مصوَّر عن طبعة دار الكتب المصرية.

٩- أغاني الحياة (ديوان شعر)، أبو القاسم الشابي، طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، ٢٠٠٢م.

١٠- الأمالي، لأبي علي القالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

١١- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق وشرح/ عبدالسلام محمد هارون، نشر مكتبة الخانجي بمصر.

١٢- بيرم التونسي، والحياة السياسية في مصر، الجزء السادس من الأعمال الكاملة، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

١٣- تاريخ الأدب العربي، تأليف الدكتور/ عمر فروخ، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.

١٤- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، لأبي زيد القرشي، تحقيق/ علي محمد البجاوي، طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر.

١٥- جمهرة أنساب العرب لابن حزم، طبع دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، عام ١٩٨٢م.

١٦- جواهر الأدب، السيد أحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت.

١٧- حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، دكتور/ محمد رجب النجار، عالم المعرفة بالكويت العدد (٤٥) ١٩٨١م.

١٨- دراسات في الأدب الحديث، تأليف الدكتور/ السيد محمد الديب، طبع مركز آيات بالزقازيق ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٩- دراسات في الشعر العربي المعاصر، دكتور/ شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٧٤م.

٢٠- دريد بن الصِّمة، حياته وشعره، مناحي ضاوي القثامي، منشورات نادي الطائف الأدبي.

٢١- ديوان أبي تمام، تحقيق الدكتور/ شاهين عطية، طبعة بيروت، ١٩٦٨م.

٢٢- ديوان أبي تمام، شرح التبريزي، تحقيق/ محمد عبده عزام، طبع دار المعارف بمصر، ١٩٨٧م.

٢٣- ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، طبع دار صادر، بيروت.

٢٤- ديوان أبي نواس، تحقيق/ أحمد عبدالمجيد الغزالي، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٨٢م.

٢٥- ديوان أحمد رامي، طبع دار العودة بيروت.

٢٦- ديوان الأعشى الكبير، (ميمون بن قيس)، شرح وتعليق دكتور/ محمد محمد حسين، طبع مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٢٧- ديوان امرئ القيس، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨م.

٢٨- ديوان امرئ القيس، شرح/ جماعة من الأدباء، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٣م.

٢٩- ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، طبع دار المعارف مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م.

٣٠- ديوان البارودي، تحقيق وشرح/ على الجارم، محمد شفيق معروف، طبع دار المعارف بمصر، ١٣١٩ هـ،١٩٧١م.

٣١- ديوان بشار بن بُرد، تحقيق وشرح/ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٦م.

٣٢- ديوان حافظ إبراهيم، شرح/ أحمد أمين، وآخرين، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

٣٣- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق الدكتور/ وليد عرفات، دار صادر بيروت.

٣٤- ديوان الرصافي، طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م.

٣٥- ديوان السري الرفاء، شرح كرم البستاني، طبع دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م.

٣٦- ديوان السيد الحِميَري، تحقيق/ شاكر هادي شكر، طبع دار مكتبة الحياة بيروت.

٣٧- ديوان شوقي، شرح/ أحمد محمد الحوفي، طبع دار نهضة مصر ١٩٨٠م.

٣٨- ديوان صلاح عبدالصبور، دار العودة بيروت، ١٩٧٢م.

٣٩- ديوان عبدالله بن رواحة، تحقيق الدكتور/ حسن محمد باجودة، دار التراث بالقاهرة، ١٩٧٢م.

٤٠- ديوان العقاد، منشورات المكتبة المصرية، بيروت.

٤١- ديوان عمر بن أبي ربيعة، الهيئة المصرية العامة، للكتاب ١٩٧٨م.

٤٢- ديوان عنترة بن شداد، تحرير الدكتور/ محمد عناني، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، ٢٠٠١م.

٤٣- ديوان كُثيّر عزة، شرح/ عدنان زكي، دار صادر بيروت، ١٩٩٤م.

٤٤- ديوان كشاجم، محمود بن الحسين، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، تحقيق الدكتور/ النبوي عبدالواحد شعلان، طبع عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٥- ديوان مجنون ليلى، شرح/ عدنان زكي، طبع دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٤٦- ذكرى دسوقي أباظة، جمع ونشر/ أحمد عبدالمجيد الغزالي، ١٩٥٤م.

٤٧- زهر الآداب، لأبي إسحاق القيرواني، طبع دار إحياء الكتب العربية، (عيسى الحلبي) ١٩٦٩م.

٤٨- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق دكتور/ أحمد حجازي السقا، طبع دار التراث العربي ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٤٩- شرح ديوان امرئ القيس، تحقيق/ حسن السندوبي، المكتبة الثقافية ببيروت، ١٩٨٢م.

٥٠- شرح ديوان جرير، شرح/ إيليا الحاوي، طبع دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م.

٥١- شرح ديوان جميل بثينة، شرح مهدي محمد ناصر الدين، طبع دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٥٢- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، نشر وتحقيق/ أحمد أمين وعبدالسلام هارون، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٧.

٥٣- شرح ديوان عنترة، المكتبة العلمية ببيروت ١٩٨٥م.

٥٤- شرح ديوان المتنبي، شرح/ عبدالرحمن البرقوقي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٥٥- شرح القصائد العشر، للتبريزي، تحقيق/ عبدالسلام الحوفي، طبع دار الكتب العلمية، ببيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٥٦- شرح المعلقات السبع، للزوزني، طبع دار مكتبة المعارف بيروت، ١٩٨٠م.

٥٧- شعر الأحوص الأنصاري، تحقيق/ عادل سليمان، طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

٥٨- شعر محمود غنيم، الأعمال الكاملة، ج١، نشر دار الغد، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٥٩- الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق وشرح/ أحمد محمد شاكر، طبع دار التراث العربي للطباعة، ١٩٧٧م.

٦٠- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، دكتور/ شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٧٩م.

٦١- شعراء النصرانية في الجاهلية، للأب/ لويس شيخو، طبع ونشر مكتبة الآداب بالقاهرة، ١٩٨٢م.

٦٢- شروح سقط الزند، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق مجموعة من الأساتذة أولهم مصطفي السقا بإشراف د. طه حسين، ١٩٨٧م.

٦٣- صور من البطولات الإسلامية، تأليف الدكتور/ محمد رجب البيومي، هدية مجلة الأزهر، (رمضان ١٤٢٩هـ).

٦٤- الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق حمزة النشرني وآخرين.

٦٥- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق/ محمد سعيد العريان، دار الفكر.

٦٦- العمدة لابن رشيق القيروان، تحقيق/محمد محي الدين عبدالحميد، طبع درا الجيل بيروت ١٩٧٢م.

٦٧- الفتح القدسي، العماد الأصبهاني، تحقيق محمد محمود صبيح، طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر.

٦٨- فن المقال في الأدب العربي المعاصر، للدكتور/ إبراهيم عوضين، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٦٩- في بيتي، للعقاد، طبع دار المعارف بمصر ١٩٤٥م.

٧٠- في صالون العقاد كانت لنا أيام، تأليف/ أنيس منصور، طبع دار الشروق، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٧١- القاموس المحيط للفيروزابادي، مطبعة مصطفي الحلبي، ١٣١٧هـ، ١٩٥٢م.

٧٢- الكامل للمبرد، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، ١٩٨١م.

٧٣- كتاب الاختيارين للأخفش الصغير، تحقيق الدكتور/ فخر الدين قباوة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

٧٤- كعب بن مالك الأنصاري (حياته وشعره)، دكتور/ عبدالمنعم أحمد يونس، مطبعة الأمانة، ١٩٨٦م.

٧٥- لزوميات جديدة، شعر/ عبدالعزيز السعدني، مطبعة قاصد خير، ١٩٧٨م.

٧٦- اللزوميات لأبي العلاء المعري، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٢٤م.

٧٧- لسان العرب لابن منظور، طبع دار المعارف بمصر.

٧٨ - مجموعة إعلام الشعر، تأليف/ عباس محمود العقاد، طبع دار الكتاب العربي ببيروت، ١٩٧٠م.

٧٩- مجنون ليلى، أحمد شوقي، شركة فن الطباعة بالقاهرة، بدون تاريخ.

٨٠- المختار من شعر محمود سامي البارودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ١٩٨٨م.

٨١- مروج الذهب ومعادن الجوهر - لأبي حسن على المسعودى - شرح / مفيد قميحة - دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨٢- المسرح النثري، د. محمد مندور، طبع دار نهضة مصر.

٨٣- معجم الأدباء لياقوت - طبع دار إحياء التراث العربي ببيروت.

٨٤- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

٨٥- معجم الشعراء للمرزباني، طبع دار الكتب العلمية ببيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٨٦ - المعجم الوسيط، إخراج د. إبراهيم أنيس وآخرين، طبع مجمع اللغة العربية.

٨٧- الموسوعة الثقافية، إشراف الدكتور/ حسين سعيد، طبع دار الشعب بمصر ١٩٧٢م.

٨٨- نار وأصفاد، د/ محمود حسن إسماعيل، طبع الأنجلو المصرية، عام ١٩٥٩م.

ثانيا : الدوريات:

١- أخبار الكُتَّاب، إصدار/ اتحاد الكتاب المصريين، عدد (١١٤) فبراير ٢٠٠٨م.

٢- آخر ساعة (مجلة أسبوعية)، في ١٩٥٧/١٢/١٨م.

٣- الأهرام (جريدة) في ١٩٥٩/٢/٢٩م - ١٩٥٩/٨/١م - ١٩٦٠/١٢/٣٠م.

٤- بنت الشرق (مجلة)، عدد يناير، فبراير ١٩٦١م.

٥- الرسالة (مجلة)، أصدرها، أحمد حسن الزيات، العدد (٦١٤) في ١٩٤٥/٤/٩م - العدد (٦١٨) في ١٩٤٥/٥/٧م.

٦- الشئون الاجتماعية (مجلة) - العدد (١١) في نوفمبر ١٩٤١م - العدد (١٢) في نوفمبر ١٩٤١م.

٧- المساء (جريدة يومية) في:

١٩٦٠/٤/١٦م	١٩٦٠/٤/٣٠م.	١٩٦٠/٥/٧م	١٩٦٠/٥/١٢م	١٩٦٠/٥/١٤م
١٩٦٠/٥/٢١م	١٩٦٠/٥/٢٨م	١٩٦٠/٦/٢م	١٩٦٠/٦/١١م	١٩٦٠/٦/١٧
١٩٦٠/٦/١٩م	١٩٦٠/٦/٢٨م	١٩٦٠/٧/٢م	١٩٦٠/٧/٣م	١٩٦٠/٧/١٠م
١٩٦٠/٧/٣١م	١٩٦٠/٨/٧م	١٩٦٠/٨/٢١م	١٩٦٠/٨/٢٩م	١٩٦٠/٩/٢٤م
١٩٦٠/٩/٢٨م.	١٩٦٠/١٠/٢٤م	١٩٦٠/١١/٣م		
١٩٦١/٦/١٧م				

تفويض

نقر نحن ورثة المرحوم بإذن الله تعالي – أحمد عبد المجيد الغزالي – المتوفى في ١٩٦٢/١/١٩م بأننا قد فوضنا وعهدنا إلي الأستاذ الدكتور / السيد محمد أحمد الديب وكيل كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالزقازيق في جمع تراث الأستاذ / أحمد عبد المجيد الغزالي من الشعر والنثر وتحقيقه ودراسته.

ونقر بان هذا العمل سيكون خاصا بالدكتور / السيد محمد أحمد الديب، فقد عكف علي ذلك أكثر من ثلاثين عاما ، وأنفق – مشكورا – جهدا ومالا في إتمام هذا العمل الذي سيطبع – إن شاء الله تعالي – باسم المرحوم الغزالي في جزءين ، وعلية فان الدكتور / السيد محمد أحمد الديب هو الوحيد المسئول عن إتمام هذا الطبع ، وله وعلية كافة الحقوق والواجبات المترتبة علي نشر هذا الإبداع.

والله خير الشاهدين

تحريرا في ٢٠١٢/٥/١٢م

ورثة المرحوم / أحمد عبد المجيد الغزالي

الاسم عنهم يسري أحمد عبد المجيد الغزالي التوقيع

محمد السيد رضوان محمد رضوان

Paul Kunitzsch
Berlin-Spandau
Konkordiastr. 21 a
ألمانيا

برلين في ٢٤/٤/٥٥

الاستاذ عبد المجيد الغزالى ، مخرج ديوان ابى نواس
على عنوان مطبعة مصر ش . م . م .
٤٠ شارع نوبار باشا القاهرة

حضرة العلامة الاستاذ الغزالى المحترم

سلاما واحتراما

وبعد فقد اشتريت منذ ايام ديوان ابى نواس الذى تكلفتم فى اخراجه الخ .. فوجدته احسن الكتب العربية الحديثة التى رأيتها . فيسهل قراءة شعر هذا الشاعر الفريد الشهير تسهيلا جيدا لنا العجم الأجنبيين بوضع الحركات وشرح الكلمات . الا انى وجدت فيه نقصا صغيرا فهو حذف بعض الابيات " التى " يجوز ان يخدش " فيها كما ذكرتم فى مقدمتكم . وانى احسب ان الحق هو ان تقال الحقيقة تاما فلم تكن تلك الابيات المحذوفة اقبح من ان نظمها ابونواس وسمعها سامعوها ونقلها ناقلوها ، واظن ان العلم والاستشراق هما فى درجة من الفهم والوقار لا يسمح لهما بحذف اى كلمة أصلية تاريخية . ولكن اعرف انكم حضرتم هذا الديوان للقراء العرب العام واردتم حفظهم وقلوبهم من القبح . ولكن عندى يقين انه عندكم فى اوراقكم توجد تلك الابيات المحذوفة . وحركنى هذا الظن الى الاتصال بكم راجيا انكم تعطوا لى فى رسالة نص تلك الابيات كى اكمل بها الديوان ولا يبقى فيها " بياض " . واريد ان املك على نسخة مكملة اذ انى سمعت ان بعض المستشرقين الغربيين يحضر اصدارا علميا غربيا لشعر ابى نواس واريد ان اقابل حذف الكتابين لانى ما يكون من كمال شعر ابى نواس وخلقه الخ ..

ووجدت الاماكن التالية التى حذفتم فيها بيتا واحدا او اكثر :

صفحة ٣٠٣ ، عنوان قبلة / نافذة التمدح
٣٥٢ ، طبى سانح / يتبع
٣٥٦ ، قبطى / انزبيط
٣٧٠ ، احمد الكاتب / ذاقمة
٣٧١ ، لا تعجلا بعذلى / صلى
٣٧٣ ، خديجة / الياسمين (حذف صدر بيت ٦)
٣٧٤ ، متاع / مستهام
٣٧٦ ، ظبى الديوان / البتام
٥١٦ ، فسل رزين / تمرخ

خطاب من مستشرق فى برلين للغزالى

(٢)

٥٣١ ، القميص / وقيضا

٥٣٩ ، جبل المقت / يتزح

٥٥٣ ، حديث في الطريقة / أكثرا

٥٥٤ ، سعيد بن وهب / قيلي

٥٦٣ ، اسمي / بلعاية

٥٦٧ ، ام الفتى / لميعادها

٥٦٩ ، ماذا دهاك / اعتراكا

٦٠٣ ، هكذا انت / بالياس

٧١٢ ، مستعجل / الأول (حذفت الكلمة الاخيرة في البيت الرابع)

٧١٨ ، ماء الحسن / ورحبا

وارجوكم نقل الابيات المحذوفة هذه ، بكا والافادة بما حذفتم بحانبه من الاشعار ؟

واخيرا اريد ان اذكر لكم ملاحظة بخصوص "زاويس" في صفحة ٤٧٦ ، "الوقاب" . شرحتم ان "زاويس" والحوت هما نجمان . واحسب انه احق ما قال سليمان البستاني في "كتاب الياذة هوميروس" ص ٢٠٥ ، فانه يكتب "زاويش" فهو التعريب من اليوناني Zεύς , Zeus يعني Iupiter ، وهو يعني بالتنجيم سيارة المشترى.

فاحسب تفسير البستاني في ذلك سالماً ذكياً . وكان احق ان تكتبوا في الشرح : "زاويش يعني المشترى ، والحوت برج من البروج الاثني عشر" .

واعتذر اليكم من اضطرابكم بهذه الاسئلة والملاحظات وادوم متوقعا لجوابكم الكريم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

Paul Nwyia [signature]



كارت من إبراهيم دسوقى أباظة للغزالى

مفاجأة أدبية فى شعر "أبو نواس"!

الشاعر احمد عبد المجيد الغزالى وقعت فى يده ذخيرة ادبية كان يمكن ان لا يقدر لها الظهور على طول الزمن .. حدث هذا اثناء وجوده فى مدينة « فاس » بشمال افريقيا حين شاهد احد المخطوطات النادرة فى الادب العربى ، واذهله انها اشعار لم تنتشر من قبل للشاعر العربى اللاذع ابو نواس .. وقد تمكن الاستاذ الغزالى بعد جهاد كبير من الحصول على هذا المخطوط النادر والعودة به الى الاقليم المصرى وتقديمه فورا للمطبعة .. وحتى الان فالمقدمة حائرة بين الدكتور طه حسين والاستاذ العقاد والاستاذ كامل الشناوى .. وبهذا المخطوط يكمل الاستاذ الغزالى طبع شعر ابى نواس كله نقلا عن المخطوطات العربية النادرة التى استطاع ان يحصل عليها عن طريق التبادل الثقافى بين دار الكتب فى لندن ولاهاى وتركيا وذلك عن طريق الامانة العامة للجامعة العربية .. هذا ، وقد اتجه التحقيق فى شعر ابى نواس الذى كان قد منع طبعه وتداوله بين الناس الى تغير فى رسوم الكلمات واشكالها تلك الكلمات التى تعطى الصور التى تتناول معانى الغزل المكشوف ومجالس المغنيات عند هارون الرشيدى ..

تحد .. فى الجغرافيا والتاريخ

خطاب طريف تلقاه هذا الباب من طالبين بالاعدادية ، يعلنان فى كلماته انهما يتحديان الراغب من زملائهما فى التفوق عليهما فى المواد الاجتماعية .. وقد [illegible] باسمهما .. ماجد ابو طالب وعادل عثمان بمدرسة المنيرة الاعدادية

فهل هناك من يقبل التحدى



صورة للغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية مصر

من الرئيس جمال عبد الناصر

إلى السيد أحمد عبد المجيد الغزولي بمكتب السيد وزير الشئون

البلدية والقروية

تقديراً لحميد صفاتكم، وجليل خدماتكم للبلاد، قد منحناكم

وسام الاستحقاق من الطبقة الخامسة

وأمرنا بإصدار هذه البراءة إيذاناً بذلك.

تحريراً بقصر الجمهورية بالقاهرة في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة
لسنة ألف وثلاثمائة وأربع وسبعين من هجرة خاتم المرسلين.

وزير الدولة لشؤون رياسة الجمهورية

وسام الاستحقاق من الطبقة الخامسة



صورة للغزالى فى شبابه المبكر



فى جولة سياحية



مع ابراهيم دسوقي أباظة وآخر



صورة للغزالى وبجواره الأديب ثروت أباظة يحمل
ماهر الآبن الأول للغزالى



صورة للغزالى مع إبراهيم دسوقى أباظة وآخرين



صورة للغزالى مع إبراهيم دسوقى أباظة وآخرين



صورة للغزالى فى حديث مع عباس محمد العقاد

فى حضور بعض المثقفين الكبار



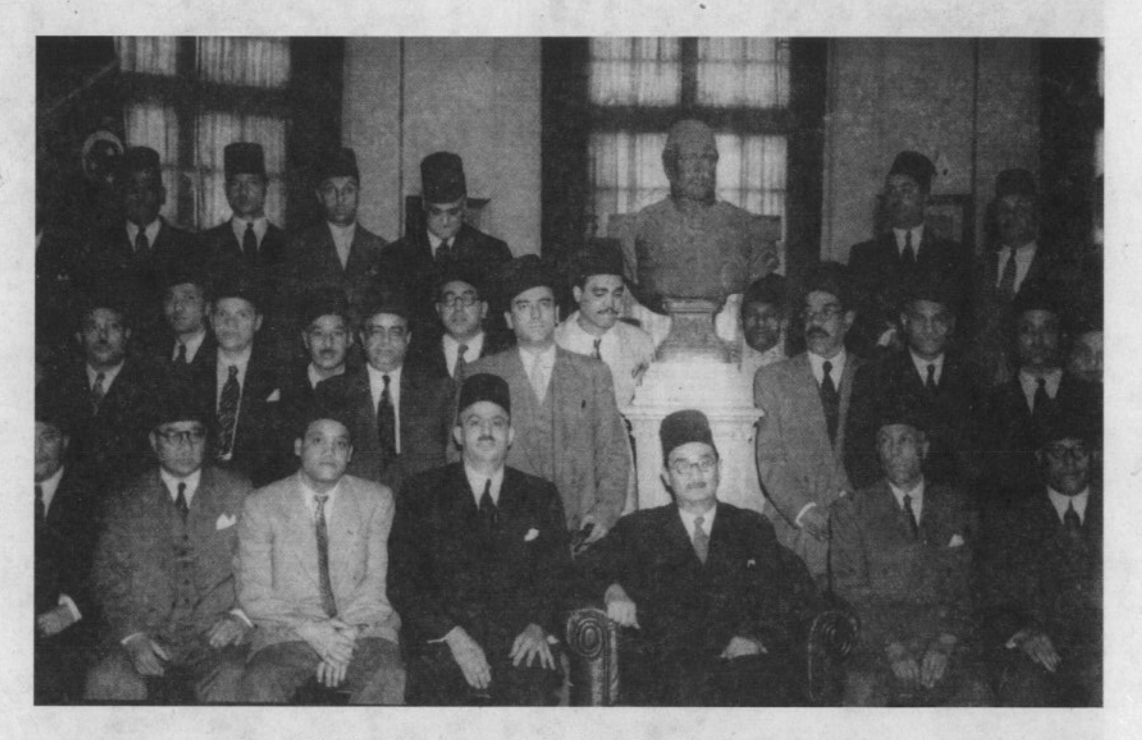
صورة للغزالى أثناء تسجيل بعض البرامج الإذاعية ويظهر أحمد لطفى السيد



صورة مع الشاعر عزيز أباظة



صورة يتحدث فيها الغزالى وبجواره الشاعر عزيز أباظة



صورة جماعية ويظهر فيها الغزالى مع إبراهيم دسوقى أباظة وآخرين



صورة مع عزيز أباظة وأخرين



مع الشيخ أحمد حسن الباقورى فى برنامج إذاعى



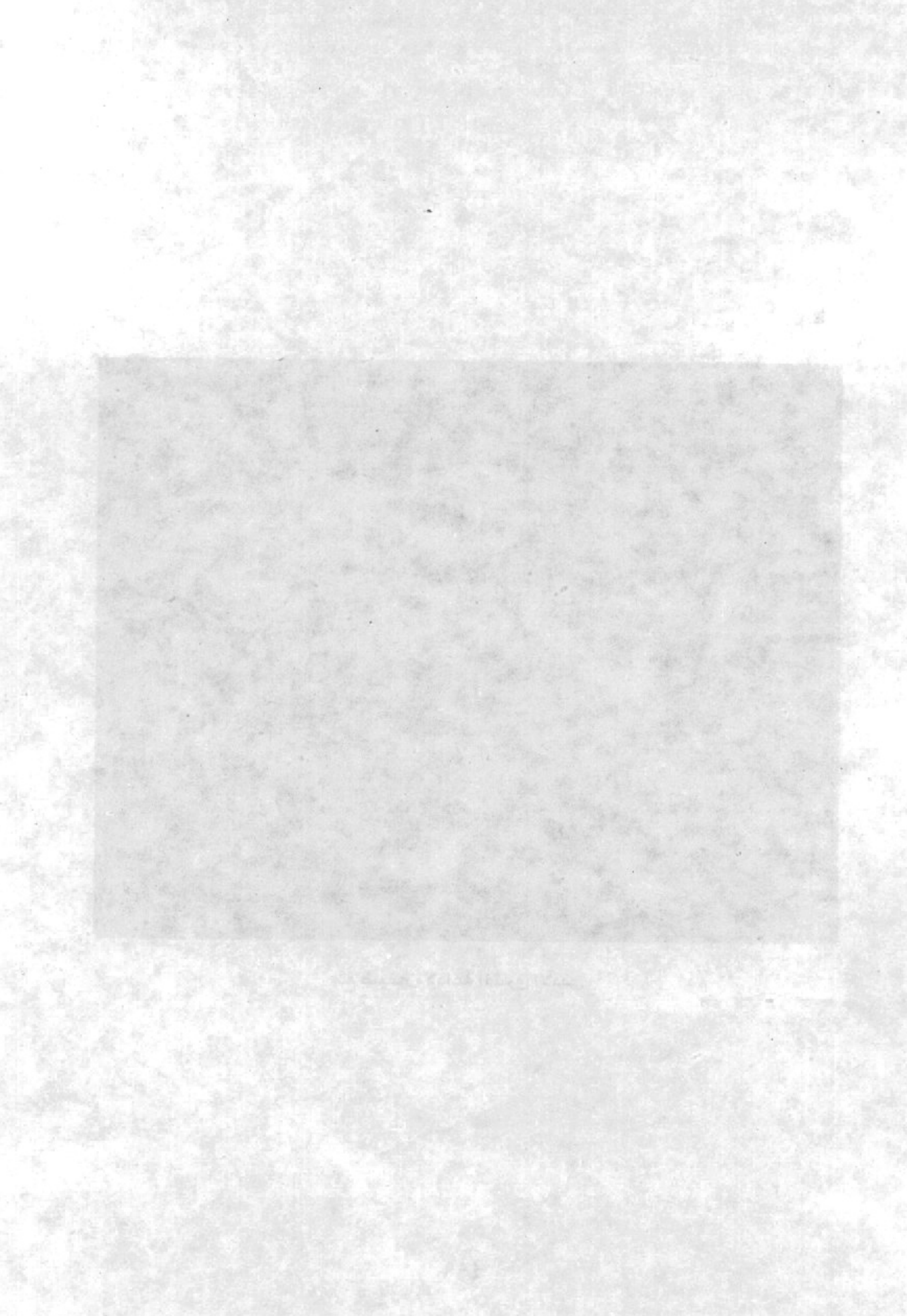
مع مدير الإذاعة أثناء دخول الأستديو لإذاعة بعض المحاضرات



جولة سياحية



مع ضيفين لإذاعة الشرق الأدنى



فهرس الموضوعات

م	الموضــــوع	الصفحة

م	الموضـــوع	الصفحة
	خامسًا: النشاط الإعلامي:	٣٢٩
	١- مقدمة:	٣٣١
	٢- مع رجالات العرب.	٣٣٢
	٣- الأعلام في منازلهم..	٣٣٣
	أ- في منزل العقاد.	٣٣٤
	ب- في منزل عزيز أباظة.	٣٤٠
	ج- في منزل أحمد حسن الزيات.	٣٤١
	٤- كيف أعددت نفسي؟	٣٤١
	٥- مراسلات إذاعية.	٣٣٤
	سادسًا: فن المقال:	٣٥١
	المقال عند الغزالي. (تعريف ونقد)	٣٥٣
	أولًا : المقال الأدبي (خمس مقالات).	٣٥٨
	ثانيًا : المقال الاجتماعي (تسع عشرة مقالة).	٣٨٤
	ثالثًا : المقال السياسي (سبع مقالات).	٤٤٥
	أهم المصادر والمراجع.	٤٦٩